كتاب الشفا
بتعريف حقوق

[illegible] الشيخ الامام [illegible]

[illegible]

الحمد لله [illegible] أبو جعفر أحمد بن [illegible]
ابن محمد الانصاري [illegible] رحمه الله [illegible] الشيخ [illegible] وانا اسمع اصل
سماعي منه [illegible] وهو يعارض [illegible] لقصد [illegible] وحسن [illegible]
به عن والدي بسماعنا عليه لجميعه [illegible] عن الشيخ
الفقيه المشاور [illegible] ابي عبد الله [illegible] سماعا لبعضه عليه
ومناولة لجميعه عن القاضي ابي عمرو [illegible] عن مؤلفه القاضي
ابي الفضل قراءة منه عليه [illegible] القاضي ابي عبد الله [illegible]
[illegible] عن المؤلف [illegible] مؤلفه وقرأت جميعه
على [illegible] ابو جعفر [illegible]
[illegible]
[illegible]
اربعة وثلاثين وستمائة [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

٧٤٨

الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى المختص بالملك الأعز الأحمى الذي ليس دونه
منتهى ولا وراءه مرمى الظاهر لا تخيلا ووهما الباطن تقدسا لا عدما وسع كل شيء
رحمة وعلما وأسبغ على أوليائه نعما عما وبعث فيهم رسولا من أنفسهم أنفسهم عربا
وعجما وأزكاهم محتدا ومنمى وأرجحهم عقلا وحلما وأوفرهم علما وفهما
وأقواهم يقينا وعزما وأشدهم بهم رأفة ورحمى وزكاه روحا وجسما وحاشاه
عيبا ووصما وآتاه حكمة وحكما وفتح به أعينا عميا وقلوبا غلفا وآذانا صما
فآمن به وعزره ونصره من جعل الله له في مغنم السعادة قسما وكذب به وصدف عن
آياته من كتب الله عليه الشقاء حتما ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى
صلى الله عليه وسلم صلاة تنمو وتنمى وعلى آله وسلم تسليما **أما بعد**
أشرق الله قلبي وقلبك بأنوار اليقين ولطف لي ولك بما لطف لأوليائه المتقين الذين
شرفهم الله بنزل قدسه وأوحشهم من الخليقة بأنسه وخصهم من معرفته ومشاهدة
عجائب ملكوته وآثار قدرته بما ملأ قلوبهم حبرة ووله عقولهم في عظمته حيرة
فجعلوا همهم به واحدا ولم يروا في الدارين غيره مشاهدا فهم بمشاهدة جماله وجلاله يتنعمون
وبين آثار قدرته وعجائب عظمته يترددون وبالانقطاع إليه والتوكل عليه
يتعززون لهجين بصادق قوله قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون فإنك كررت
علي السؤال في مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى عليه السلام وما يجب له من
توقير وإكرام وما حكم من لم يوف واجب عظيم ذلك القدر أو قصر في حق
منصبه الجليل قلامة ظفر وأن أجمع لك ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من مقال وأبينه
بتنزيل صور وأمثال **فاعلم** أكرمك الله أنك حملتني من ذلك أمرا إمرا
وأرهقتني فيما ندبتني إليه عسرا وأرقيتني بما كلفتني مرتقى صعبا ملأ قلبي
رعبا فإن الكلام في ذلك يستدعي تقرير أصول وتحرير فصول والكشف عن

غوامض ودقائق من علم الحقائق مما يجب للنبي صلى الله عليه وسلم ويضاف إليه أو يمتنع
أو يجوز عليه ومعرفة النبي والرسول والرسالة والنبوة والمحبة والخلة وخصائص
هذه الدرجة العلية وها هنا مهامه فيح تحار فيها القطا وتقصر بها الخطا ومجاهل
تضل فيها الأحلام إن لم تهتد بعلم علم ونظر سديد ومداحض تزل بها الأقدام
إن لم تعتمد على توفيق من الله وتأييد لكني لما رجوته لي ولك في هذا السؤال
والجواب من نوال وثواب بتعريف قدره الجسيم وخلقه العظيم وبيان خصائصه
التي لم تجتمع قبل في مخلوق وما يدان الله تعالى به من حقه الذي هو أرفع الحقوق
ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولما أخذ الله على الذين أوتوا
الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه **ولما** حدثنا به أبو الوليد هشام بن أحمد الفقيه
رحمه الله بقراءتي عليه قال حدثنا الحسين بن محمد حدثنا أبو عمر النمري حدثنا أبو
محمد بن عبد المؤمن حدثنا أبو بكر محمد بن بكر حدثنا سليمان بن الأشعث حدثنا موسى
ابن إسماعيل حدثنا حماد أخبرنا علي بن الحكم عن عطاء عن أبي هريرة قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة
فبادرت إلى نكت مسفرة عن وجه الغرض مؤدية من ذلك الحق
المفترض اختلستها على استعجال لما المرء بصدده من شغل البدن والبال بما طوقه
من مقاليد المحنة التي ابتلي بها فكادت تشغل عن كل فرض ونفل وترد بعد
حسن التقويم إلى أسفل سفل ولو أراد الله بالإنسان خيرا لجعل شغله وهمه كله
فيما يحمد غدا ويذم محله فليس ثم سوى نضرة النعيم أو عذاب الجحيم ولكان
عليه بخويصته واستنقاذ مهجته وعمل صالح يستزيده وعلم نافع يفيده
أو يستفيده جبر الله صدع قلوبنا وغفر عظيم ذنوبنا وجعل جميع استعدادنا
لمعادنا وتوفر دواعينا فيما ينجينا ويقربنا إليه زلفى ويحظينا بمنه ورحمته
ولما نويت تقريبه ودرجت تبويبه ومهدت تأصيله وخلصت تفصيله
وانتحيت حصره وتحصيله ترجمته بالشفا بتعريف حقوق المصطفى وحصرت

الكلام فيه في أقسام أربعة **القسم الأول** في تعظيم العلي
الأعلى لقدر هذا النبي المصطفى قولا وفعلا وتوجه الكلام فيه في أربعة أبواب
الباب الأول في ثنائه تعالى عليه وإظهاره عظيم قدره لديه
وفيه عشرة فصول **الباب الثاني** في تكميله تعالى له المحاسن
خلقا وخلقا وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقا وفيه سبعة
وعشرون فصلا **الباب الثالث** فيما ورد من صحيح الأخبار
ومشهورها بتعظيم قدره عند ربه ومنزلته وما خصه به في الدارين من كرامته وفيه
اثنا عشر فصلا **الباب الرابع** فيما أظهره الله تعالى على
يديه من الآيات والمعجزات وشرفه به من الخصائص والكرامات وفيه ثلاثون فصلا
القسم الثاني فيما يجب على الأنام من حقوقه عليه السلام ويترتب
القول فيه في أربعة أبواب **الباب الأول** في فرض الإيمان به ووجوب
طاعته واتباع سنته وفيه خمسة فصول **الباب الثاني** في
لزوم محبته ومناصحته وفيه ستة فصول **الباب الثالث** في
تعظيم أمره ولزوم توقيره وبره وفيه سبعة فصول **الباب الرابع** في حكم
الصلاة عليه والتسليم وفرض ذلك وفضيلته وفيه عشرة فصول
القسم الثالث فيما يستحيل في حقه وما يجوز عليه وما
يمتنع ويصح من الأمور البشرية أن تضاف إليه وهذا القسم أكرمك الله هو
سر الكتاب ولباب ثمرة هذه الأبواب وما قبله له كالقواعد والتمهيدات والدلائل
على ما نورده فيه من النكت البينات وهو الحاكم على ما بعده والمنجز من غرض
هذا التأليف وعده وعند التقصي لموعده والتفصي عن عهدته يشرق
صدر العدو اللعين ويشرق قلب المؤمن باليقين وتملأ أنواره جوانح صدره
ويقدر العاقل النبي حق قدره ويتحرر الكلام فيه في بابين
الباب الأول فيما يختص بالأمور الدينية ويتشبث به

القول في العصمة وفيه ستة عشر فصلا **الباب الثالث**
في أحواله الدنيوية وما يجوز طروؤه عليه من الأعراض البشرية وفيه تسعة فصول
القسم الرابع في تصرف وجوه الأحكام على من تنقصه
أو سبه عليه السلام وينقسم الكلام فيه في بابين **الباب الأول** في بيان
ما هو في حقه سب ونقص من تعريض أو نص وفيه عشرة فصول
الباب الثاني في حكم شانئه ومؤذيه ومتنقصه وعقو[بته]
وذكر استتابته والصلاة عليه ووراثته وفيه عشرة فصول وختمناه بباب
ثالث جعلناه تكملة لهذه المسألة ووصلة للبابين اللذين قبله في حكم من سب
الله تعالى ورسله وملائكته وكتبه وآل النبي وصحبه واختصرت الكلام فيه
في خمسة فصول وبتمامها ينتجز الكتاب وتتم الأقسام والأبواب وتلوح في
غرة الإيمان لمعة منيرة وفي تاج التراجم درة خطيرة تزيح كل لبس وتوضح
كل تخمين وحدس وتشفي صدور قوم مؤمنين وتصدع بالحق وتعرض عن الجاهلين
وبالله تعالى لا إله سواه أستعين

القسم الأول في تعظيم العلي الأعلى لقدر المصطفى
قولا وفعلا **قال الفقيه** القاضي أبو الفضل رضي الله عنه لا خفاء على من مارس
شيئا من العلم أو خص بأدنى لمحة من الفهم بتعظيم الله تعالى قدر نبينا عليه السلام
وخصوصه إياه بفضائل ومحاسن ومناقب لا تنضبط لزمام وتنويهه من عظيم
قدره بما تكل عنه الألسنة والأقلام فمنها ما صرح به تعالى في كتابه ونبه به على
جليل نصابه وأثنى به عليه من أخلاقه وآدابه وحض العباد على التزامه وتقلد
إيجابه فكان جل جلاله هو الذي تفضل وأولى ثم طهر وزكى ثم مدح بذلك
وأثنى ثم أثاب عليه الجزاء الأوفى فله الفضل بدءا وعودا والحمد أولى وأخرى
ومنها ما أبرزه للعيان من خلقه على أتم وجوه الكمال والجلال وتخصيصه بالمحاسن
الجميلة والأخلاق الحميدة والمذاهب الكريمة والفضائل العديدة وتأييده بالمعجزات

الباهرة، والبراهين الواضحة، والكرامات البينة التي شاهدها من عاصره، ورآها من أدركه، وعلمها علم يقين من جاء بعده، حتى انتهى علم حقيقة ذلك إلينا، وفاضت أنواره علينا، صلى الله عليه وسلم كثيرا. **حدثنا القاضي** الشهيد أبو علي الحسين بن محمد الحافظ قراءة مني عليه، قال: حدثنا أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار وأبو الفضل أحمد بن خيرون، قالا: حدثنا أبو يعلى البغدادي، قال: حدثنا أبو علي السنجي، قال: حدثنا محمد بن أحمد بن محبوب، حدثنا أبو عيسى بن سورة الحافظ، قال: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس، أن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بالبراق ليلة أسري به ملجما مسرجا، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: أبمحمد تفعل هذا؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه، قال: فارفض عرقا.

الباب الأول في ثناء الله تعالى عليه وإظهاره عظيم قدره لديه

اعلم أن في كتاب الله العزيز آيات كثيرة مفصحة بجميل ذكر المصطفى، وعد محاسنه، وتعظيم أمره، وتنويه قدره، اعتمدنا منها على ما ظهر معناه، وبان فحواه، وجمعنا ذلك في عشرة فصول.

الفصل الأول فيما جاء من ذلك مجيء المدح والثناء وتعداد المحاسن، كقوله تعالى: لقد جاءكم رسول من أنفسكم الآية. قال السمرقندي: وقرأ بعضهم من أنفَسكم بفتح الفاء، وقراءة الجمهور بالضم.

قال الفقيه القاضي وفقه الله: أعلم الله تعالى المؤمنين، أو العرب، أو أهل مكة، أو جميع الناس، على اختلاف المفسرين من المواجه بهذا الخطاب، أنه بعث فيهم رسولا من أنفسهم يعرفونه، ويتحققون مكانه، ويعلمون صدقه وأمانته، فلا يتهمونه بالكذب وترك النصيحة لهم لكونه منهم، وأنه لم تكن في العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولادة أو قرابة، وهو عند ابن عباس وغيره معنى قوله تعالى: إلا المودة في القربى، وكونه من أشرفهم وأرفعهم وأفضلهم على قراءة الفتح، وهذه نهاية المدح، ثم وصفه بعد بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة، من حرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم، وشدة ما يعنتهم ويضر بهم في دنياهم

تأخر إيمانهم وعزته عليه ورأفته ورحمته بمؤمنيهم قال بعضهم أعطاه اسمين من أسمائه
رؤوف رحيم. ومثله في الآية الأخرى قوله تعالى لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم
رسولا من أنفسهم الآية. وفي الآية الأخرى قوله هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم
الآية. وقوله كما أرسلنا فيكم رسولا منكم. وروي عن علي بن أبي طالب عنه عليه
السلام في قوله من أنفسكم قال نسبا وصهرا وحسبا ليس في آبائي من لدن آدم
سفاح كلنا نكاح. قال ابن الكلبي كتبت للنبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة
أمّ فما وجدت فيهن سفاحا ولا شيئا مما كانت عليه الجاهلية. وعن ابن عباس في
قوله وتقلبك في الساجدين قال من نبي إلى نبي حتى أخرجتك نبيا. وقال جعفر بن
محمد علم الله عجز خلقه عن طاعته فعرفهم ذلك لكي يعلموا أنهم لا ينالون الصفو
من خدمته فأقام بينه وبينهم مخلوقا من جنسهم في الصورة ألبسه من
نعته الرأفة والرحمة وأخرجه إلى الخلق سفيرا صادقا وجعل طاعته طاعته وموافقته
موافقته فقال من يطع الرسول فقد أطاع الله. وقال الله تعالى وما أرسلناك إلا
رحمة للعالمين. قال أبو بكر بن طاهر زين الله محمدا بزينة الرحمة فكان كونه رحمة
وجميع صفاته وشمائله رحمة على الخلق فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين
من كل مكروه والواصل فيهما إلى كل محبوب. ألا ترى أن الله تعالى يقول وما أرسلناك
إلا رحمة للعالمين فكانت حياته رحمة ومماته رحمة كما قال عليه السلام حياتي خير
لكم ومماتي خير لكم وكما قال إذا أراد الله رحمة بأمة قبض نبيها قبلها فجعله
لها فرطا وسلفا. وقال السمرقندي رحمة للعالمين يعني للجن والإنس وقيل
لجميع الخلق للمؤمن رحمة بالهداية ورحمة للمنافق بالأمان من القتل ورحمة للكافر
بتأخير العذاب. قال ابن عباس هو رحمة للمؤمنين والكافرين إذ عوفوا
مما أصاب غيرهم من الأمم المكذبة. وحكي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال
لجبريل هل أصابك من هذه الرحمة شيء قال نعم كنت أخشى العاقبة فأمنت لثناء
الله علي بقوله ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين. وروي عن جعفر بن

محمد الصادق. وفي قوله تعالى فسلام لك من أصحاب اليمين أي بدأنا بعث سلامتهم من أجلك
كرامة لمحمد صلى الله عليه وسلم. وقال تعالى الله نور السموات والأرض الآية قال كعب وابن
جبير المراد بالنور الثاني هاهنا محمد عليه السلام وقوله مثل نوره أي نور محمد وقال
سهل بن عبد الله: المعنى الله هادي أهل السموات والأرض ثم قال مثل نور محمد إذ كان
مستودعا في الأصلاب كمشكاة صفتها كذا وأراد بالمصباح قلبه والزجاجة
صدره أي كأنه كوكب دري لما فيه من الإيمان والحكمة يوقد من شجرة مباركة أي
من نور إبراهيم وضرب المثل بالشجرة المباركة. وقوله يكاد زيتها يضيء أي تكاد
نبوة محمد تبين للناس قبل كلامه كهذا الزيت. وقد قيل في هذه الآية غير هذا والله
أعلم وقد سماه الله تعالى في القرآن في غير هذا الموضع نورا وسراجا منيرا فقال قد
جاءكم من الله نور وكتاب مبين وقال إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا
إلى الله بإذنه وسراجا منيرا. ومن هذا قوله ألم نشرح لك صدرك إلى آخر السورة
شرح وسع. والمراد بالصدر هاهنا القلب قال ابن عباس شرحه بالإسلام وقال
سهل بنور الرسالة. وقال الحسن ملأه حكما وعلما وقيل معناه ألم نطهر قلبك حتى
لا يؤذيك الوسواس ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك قيل ما سلف من ذنبك
يعني قبل النبوة. وقيل أراد ثقل أيام الجاهلية. وقيل أراد ما أثقل ظهرك من الرسالة
حتى بلغتها حكاه الماوردي والسلمي. وقيل عصمناك ولولا ذلك لأثقلت الذنوب
ظهرك حكاه السمرقندي. ورفعنا لك ذكرك قال يحيى بن آدم بالنبوة. وقيل
إذا ذكرت ذكرت معي في قول لا إله إلا الله محمد رسول الله وقيل في الأذان

قال القاضي وفقه الله هذا تقرير من الله جل اسمه لنبيه عليه السلام
على عظيم نعمه لديه وشريف منزلته عنده وكرامته عليه بأن شرح قلبه للإيمان
والهداية ووسعه لوعي العلم وحمل الحكمة ورفع عنه ثقل أمور الجاهلية عليه
وبغضه لسيرها وما كانت عليه بظهور دينه على الدين كله وحط عنه عهدة
أعباء الرسالة والنبوة بتبليغه للناس ما نزل إليهم وتنويهه بعظيم مكانه

وجليل رتبته ورفعة ذكره وقرانه مع اسمه اسمه قال قتادة رفع الله ذكره في الدنيا
والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا
رسول الله. روى أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أتاني جبريل فقال إن
ربي وربك يقول تدري كيف رفعت ذكرك قلت الله ورسوله أعلم قال إذا ذكرت
ذكرت معي قال ابن عطاء جعلت تمام الإيمان بذكرك معي. وقال أيضا جعلتك ذكرا
من ذكري فمن ذكرك ذكرني قال جعفر بن محمد الصادق لا يذكرك أحد بالرسالة
إلا ذكرني بالربوبية وأشار بعضهم في ذلك إلى الشفاعة ومن ذكره معه تعالى أن
قرن طاعته بطاعته واسمه باسمه فقال وأطيعوا الله والرسول آمنوا بالله ورسوله
فجمع بينهما بواو العطف المشركة ولا يجوز جمع هذا الكلام في غيره عليه السلام
حدثنا الشيخ الإمام أبو علي الحسين بن محمد الجياني الحافظ فيما أجازنيه وقرأته
على الثقة عنه قال حدثنا أبو عمر النمري قال حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن حدثنا
أبو بكر بن داسة حدثنا أبو داود السجستاني حدثنا أبو الوليد الطيالسي حدثنا شعبة
عن منصور عن عبد الله بن يسار عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يقولن
أحدكم ما شاء الله وشاء فلان ولكن ما شاء الله ثم شاء فلان. قال الخطابي أرشدهم
صلى الله عليه وسلم إلى الأدب في تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه واختارها
بثم التي هي للنسق والتراخي بخلاف الواو التي هي للاشتراك ومثله الحديث الآخر
أن خطيبا خطب عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد
ومن يعصهما فقال له النبي صلى الله عليه وسلم بئس خطيب القوم أنت قم أو قال اذهب
قال أبو سليمان كره منه الجمع بين الاسمين بحرف الكناية لما فيه من التسوية
وذهب غيره إلى أنه إنما كره له الوقوف على يعصهما. وقول أبي سليمان أصح لما روي
في الحديث الصحيح أنه قال ومن يعصهما فقد غوى ولم يذكر الوقوف على يعصهما
وقد اختلف المفسرون وأصحاب المعاني في قوله إن الله وملائكته يصلون على النبي
هل يصلون راجعة على الله والملائكة أم لا فأجازه بعضهم ومنعه آخرون لعلة التشريك

وخصوا الضمير بالملايكة وقدروا الاية ان الله يصلي وملايكته يصلون . وقد روي عن
عمر رضي الله عنه أنه قال من فضيلتك عند الله أن جعل طاعتك طاعته فقال من يطع
الرسول فقد أطاع الله وقد قال تعلى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله
الايتين روي انه لما نزلت هذه الاية قالوا ان محمدا يريد أن نتخذه حنانا كما اتخذت
النصرى عيسى فأنزل الله قل اطيعوا الله والرسول فقرن طاعته بطاعته رغما
لهم . وقد اختلف المفسرون في معنى قوله في أم الكتاب اهدنا الصراط المستقيم
صراط الذين أنعمت عليهم فقال أبو العالية والحسن البصري الصراط المستقيم هو
رسول الله وخيار أهل بيته واصحابه حكاه عنهما أبو الحسن الماوردي . وحكى مكي
عنهما نحوه وقال رسول الله وصاحباه أبو بكر وعمر . وحكى أبو الليث السمرقندي
مثله عن أبي العالية في قوله صراط الذين انعمت عليهم قال فبلغ ذلك الحسن فقال
صدق والله ونصح . وحكى الماوردي ذلك في تفسير صراط الذين انعمت عليهم
عن عبد الرحمن بن زيد . وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن بعضهم في تفسير
قوله فقد استمسك بالعروة الوثقى انه محمد عليه السلام وقيل الاسلام وقيل
شهادة التوحيد . وقال سهل في قوله وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها قال نعمته
محمد عليه السلام . وقال تعلى والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون
الايتين أكثر المفسرين على أن الذي جاء بالصدق هو محمد قال بعضهم وهو الذي
صدق به وقرئ وصدق بالتخفيف . وقال غيرهم الذي صدق به المومنون وقيل
أبو بكر وقيل علي وقيل غير هذا من الاقوال . وعن مجاهد في قوله تعلى الا بذكر
الله تطمئن القلوب قال بمحمد صلى الله عليه وسلم واصحابه

الفصل الثاني

في وصفه له تعلى بالشهادة وما يتعلق بها من
الثناء والكرامة **قال** الله تعلى يا ايها النبيء انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا
الاية جمع الله تعلى في هذه الاية ضروبا من رتب الاثرة وجملة أوصاف من المدحة
فجعله شاهدا على أمته لنفسه بإبلاغهم الرسالة وهي من خصايصه عليه السلام

والملايكة

صلى الله عليه وسلم

صلى الله عليه وسلم

تعلى

صلى الله عليه وسلم

قال

الجاحدون

وبشيرا لأهل طاعته ونذيرا لأهل معصيته وداعيا إلى توحيده وعبادته وسراجا
منيرا يهتدى به للخير. حدثنا الشيخ أبو محمد بن عتاب رحمه الله قال حدثنا أبو القاسم
حاتم بن محمد حدثنا أبو الحسن القابسي حدثنا أبو زيد المروزي حدثنا أبو عبد الله محمد
ابن يوسف حدثنا البخاري حدثنا محمد بن سنان حدثنا فليح حدثنا هلال عن عطاء
ابن يسار لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت أخبرني عن صفة رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها
النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين أنت عبدي ورسولي
سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة
ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا
الله ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا. وذكر مثله عن عبد الله بن
سلام وكعب الأحبار. وفي بعض طرقه عن ابن إسحاق ولا صخب في الأسواق ولا متزين
بالفحش ولا قوال للخنا أسدده لكل جميل وأهب له كل خلق كريم ثم أجعل السكينة
لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوفاء طبيعته
والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته والحق شريعته والهدى إمامه والإسلام
ملته وأحمد اسمه أهدي به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأرفع به بعد الخمالة
وأسمي به بعد النكرة وأكثر به بعد القلة وأغني به بعد العيلة وأجمع به بعد
الفرقة وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتتة وأمم متفرقة وأجعل أمته
خير أمة أخرجت للناس. وفي حديث آخر أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن صفته في التوراة عبدي أحمد المختار مولده بمكة ومهاجره بالمدينة أو قال
طيبة أمته الحامدون لله على كل حال. وقال تعالى الذين يتبعون الرسول النبي الأمي
الآيتين. وقد قال تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم الآية قال السمرقندي ذكر الله تعالى
منته أنه جعل رسوله رحيما بالمؤمنين رؤوفا لين الجانب ولو كان فظا خشنا في القول
لتفرقوا من حوله لكن جعله سمحا سهلا طلقا برا لطيفا هكذا قاله الضحاك. وقال

الحامدون

تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم
شهيدا. قال أبو الحسن القابسي أبان الله تعالى فضل نبينا وفضل أمته بهذه الآية وفي
قوله في الآية الأخرى وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على
الناس وكذلك قوله فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد الآية وقوله وسطا أي عدولا
خيارا ومعنى هذه الآية وكما هديناكم كذلك خصصناكم وفضلناكم بأن جعلناكم
أمة خيارا عدولا لتشهدوا للأنبياء على أممهم ويشهد لكم الرسول بالصدق قيل
إن الله جل جلاله إذا سأل الأنبياء هل بلغتم فيقولون نعم فتقول أممهم ما جاءنا من
بشير ولا نذير فتشهد أمة محمد للأنبياء ويزكيهم النبي صلى الله عليه وسلم وقيل معنى
الآية إنكم حجة على كل من خالفكم والرسول حجة عليكم حكاه السمرقندي
وقال تعالى وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم. قال قتادة والحسن وزيد
ابن أسلم قدم صدق هو محمد عليه السلام يشفع لهم. وعن الحسن أيضا هي مصيبتهم
بنبيهم. وعن أبي سعيد الخدري هي شفاعة نبيهم محمد عليه السلام هو شفيع صدق
عند ربهم وقال سهل التستري هي سابقة رحمة أودعها في محمد عليه السلام ه
وقال محمد بن علي الترمذي هو إمام الصادقين والصديقين الشفيع المطاع والسائل
المجاب محمد عليه السلام حكاه عنه السلمي

الفصل الثالث

فيما ورد من خطابه إياه مورد الملاطفة والمبرة فمن ذلك **قوله** تعالى عفا الله عنك
لم أذنت لهم قال أبو محمد مكي قيل هذا افتتاح كلام بمنزلة أصلحك الله وأعزك الله
وقال عون بن عبد الله أخبره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب ه حكى السمرقندي عن
بعضهم أن معناه عافاك الله يا سليم القلب لم أذنت لهم قال ولو بدأ النبي بقوله لم
أذنت لهم لخيف عليه أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام لكن الله تعالى برحمته أخبره
بالعفو حتى سكن قلبه ثم قال له لم أذنت لهم بالتخلف حتى يتبين لك الصادق في
عذره من الكاذب. وفي هذا من عظيم منزلته عند الله تعالى ما لا يخفى على ذي لب ومن إكرامه
إياه وبره به ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب قال نفطويه ذهب ناس

إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم معاتب بهذه الآية وحاشاه من ذلك بل كان مخيرا فلما
أذن لهم أعلمه الله أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم وأنه لا حرج عليه في الإذن لهم
قال الفقيه القاضي رحمه الله يجب على المسلم المجاهد نفسه الرائض بزمام
الشريعة خلقه أن يتأدب بآداب القرآن في قوله وفعله ومعاطاته ومحاوراته فهو
عنصر المعارف الحقيقية وروضة الآداب الدينية والدنيوية وليتأمل هذه الملاطفة
العجيبة في السؤال من رب الأرباب المنعم على الكل المستغني عن الجميع ويستثير
ما فيها من الفوائد وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب وآنس بالعفو قبل ذكر الذنب
إن كان ثم ذنب وقال تعالى ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا قال
بعض المتكلمين عاتب الله الأنبياء بعد الزلات وفي التي لا تنعقد الشهادات ولا ترتب
المروات في قبول ما يقع منهم من الهفوات وعاتب نبينا قبل وقوعه ليكون بذلك أشد
انتهاء ومحافظة لشرائط المحبة وهذه غاية العناية ثم انظر كيف بدأ بثباته وسلامته
قبل ذكر ما عتبه عليه وخيف أن يركن إليه ففي أثناء عتبه براءته وفي طي تخويفه
تأمينه وكرامته ومثله قوله تعالى قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك الآية
قال علي رضي الله عنه قال أبو جهل للنبي عليه السلام إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما
جئت به فأنزل الله فإنهم لا يكذبونك الآية وروي أن النبي لما كذبه قومه حزن فجاءه　　صلى الله عليه وسلم
جبريل فقال ما يحزنك قال كذبني قومي فقال إنهم يعلمون أنك صادق فأنزل الله
الآية ففي هذه الآية منزع لطيف المأخذ من تسليته تعالى له عليه السلام وإلطافه في
القول بأن قرر عنده أنه صادق عندهم وأنهم غير مكذبين له معترفون بصدقه قولا
واعتقادا وقد كانوا يسمونه قبل النبوة الأمين فدفع بهذا التقرير ارتماض نفسه
بسمة الكذب ثم جعل الذم لهم بتسميتهم جاحدين ظالمين فقال تعالى ولكن الظالمين
بآيات الله يجحدون فحاشاه من الوصم وطوقهم بالمعاندة بتكذيب الآيات حقيقة
الظلم إذ الجحد إنما يكون ممن علم الشيء ثم أنكره كقوله وجحدوا بها واستيقنتها
أنفسهم ظلما وعلوا ثم عزاه وآنسه بما ذكره عمن قبله ووعده النصر بقوله

ولقد كذبت رسل من قبلك الآية. من قرأ يكذبونك بالتخفيف فمعناه لا يجدونك كاذباً
وقال الفراء والكسائي لا يقولون إنك كاذب وقيل لا يحتجون على كذبك ولا يثبتونه
ومن قرأ بالتشديد فمعناه لا ينسبونك إلى الكذب وقيل لا يعتقدون كذبك. ومما ذكر من
خصائصه وبر الله تعالى به أن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم فقال يا آدم يا نوح
يا إبراهيم يا داود يا عيسى يا زكرياء يا يحيى ولم يخاطبه هو إلا يا أيها الرسول
يا أيها النبي يا أيها المزمل يا أيها المدثر.

الفصل الرابع

في قسمه تعالى بعظيم قدره. قال تعالى لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون. اتفق أهل التفسير
في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد عليه السلام وأصله ضم العين من
العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال ومعناه وبقائك يا محمد وقيل وعيشك وقيل
وحياتك وهذه نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف. قال ابن عباس ما خلق الله
وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غير محمد
صلى الله عليه وسلم. قال أبو الجوزاء ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم
لأنه أكرم البرية عنده. وقال تعالى يس والقرآن الحكيم الآيات. اختلف المفسرون
في معنى يس على أقوال فحكى أبو محمد مكي أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
لي عند ربي عشرة أسماء ذكر أن منها طه ويس اسمان له. وحكى أبو عبد الرحمن
السلمي عن جعفر الصادق أنه أراد يا سيد مخاطبة لنبيه صلى الله عليه وسلم. وعن
ابن عباس يس يا إنسان أراد محمداً وقال هو قسم وهو من أسماء الله. وقال الزجاج
قيل معناه يا محمد وقيل يا رجل وقيل يا إنسان. وعن ابن الحنفية يس يا محمد. وعن
كعب يس قسم أقسم الله به قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام يا محمد إنك لمن
المرسلين ثم قال والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين فإن قدر أنه من أسمائه صلى الله عليه
وسلم وصح فيه أنه قسم كان فيه من التعظيم ما تقدم ويؤكد فيه القسم عطف القسم
الآخر عليه وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قسم آخر بعده لتحقيق رسالته والشهادة
بهدايته أقسم تعالى باسمه وكتابه أنه من المرسلين بوحيه إلى عباده وعلى صراط

صلى الله عليه وسلم

مستقيم من إيمانه أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق. قال النقاش لم يقسم الله
تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له وفيه من تعظيمه وتمجيده على
تأويل من قال إنه يا سيد ما فيه. وقد قال عليه السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر. وقال تعالى
لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد قيل لا أقسم به إذا لم تكن فيه بعد خروجك
منه حكاه مكي وقيل لا زائدة أي أقسم به وأنت به يا محمد حلال أو حل لك ما
فعلت فيه على التفسيرين والمراد بالبلد عند هؤلاء مكة. وقال الواسطي أي نحلف لك
بهذا البلد الذي شرفته بمكانك فيه حياً وببركتك ميتاً يعني المدينة والأول أصح لأن
السورة مكية وما بعده يصححه قوله وأنت حل بهذا البلد ونحوه قول ابن عطاء في تفسير
قوله تعالى وهذا البلد الأمين قال أمنها الله بمقامه فيها وكونه بها فإن كونه أماناً حيث
كان ثم قال ووالد وما ولد إن شاء الله إشارة إلى محمد عليه السلام فتتضمن السورة القسم
به في موضعين. وقال تعالى الم ذلك الكتاب قال ابن عباس هذه الحروف أقسام أقسم
الله بها وعنه وعن غيره فيها غير ذلك. وقال سهل بن عبد الله التستري الألف هو الله
تعالى واللام جبريل والميم محمد عليهما السلام وحكى هذا القول السمرقندي ولم ينسبه
إلى سهل وجعل معناه الله أنزل جبريل على محمد بهذا القرآن لا ريب فيه وعلى الوجه الأول
يحتمل القسم أن هذا الكتاب حق لا ريب فيه ثم فيه من فضيلة قران اسمه
باسمه نحو ما تقدم. وقال ابن عطاء في قوله ق والقرآن المجيد أقسم بقوة قلب حبيبه
محمد صلى الله عليه وسلم حيث حمل الخطاب والمشاهدة ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله.
وقيل هو اسم للقرآن وقيل اسم لله وقيل جبل محيط بالأرض وقيل غير هذا. وقال
جعفر بن محمد في تفسير والنجم إذا هوى إنه محمد عليه السلام وقال النجم قلب محمد هوى
انشرح من الأنوار وقال انقطع عن غير الله. وقال ابن عطاء في قوله والفجر وليال
عشر الفجر محمد لأن منه تفجر الإيمان.

الفصل الخامس

في قسمه تعالى جده له ليحقق مكانته عنده. قال جل اسمه والضحى والليل إذا
سجى السورة. اختلف في سبب نزول هذه السورة فقيل كان ترك النبي صلى الله عليه وسلم

فيل إنه الغزو نزل به بتكلمت امرأة ... وقيل بل تكلم به المشركون عند
بترة الوحي ومنزلته السورة **قال الفقيه القاضي** وفقه الله تضمنت معنى
السورة من كرامة الله له وتنويهه به ... ستة وجوه : الأول القسم له
عما أخبر به من حاله بقوله والضحى والليل إذا سجى أي ورب الضحى وهذا من أعظم
درجات المبرة : الثاني بيان مكانته عنده وحظوته لديه بقوله ما ودعك ربك
وما قلى أي ما تركك وما أبغضك : وقيل ما أهملك بعد أن اصطفاك الثالث قوله
وللآخرة خير لك من الأولى قال ابن إسحاق أي مالك في مرجعك عند الله أعظم مما
أعطاك من كرامة الدنيا : وقال سهل أي ما ذخرت لك من الشفاعة والمقام المحمود
خير لك مما أعطيتك في الدنيا : الرابع قوله ولسوف يعطيك ربك فترضى وهذه
آية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام في الدارين والزيادة
قال ابن إسحاق يرضيه بالفلج في الدنيا والثواب في الآخرة وقيل يعطيه الحوض والشفاعة
وروي عن بعض آل النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس آية في القرآن أرجى منها ولا
يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل أحد من أمته النار : الخامس ما عدده تعالى
عليه من نعمه وقرره من آلائه قبله في بقية السورة من هدايته إلى ما هداه له أو هداية
الناس به على اختلاف التفاسير ولا مال له فأغناه بما آتاه أو بما جعله في قلبه من القناعة
والغنى ويتيما فحدب عليه عمه وآواه إليه وقيل آواه إلى الله وقيل يتيما لا مثال لك
فآواك إليه وقيل المعنى ألم يجدك فهدى بك ضالا وأغنى بك عائلا وآوى بك يتيما ذكره
بهذه المنن وأنه على المعلوم من التفسير لم يهمله في حال صغره وعيلته ويتمه وقبل
معرفته به ولا ودعه ولا قلاه فكيف بعد اختصاصه واصطفائه : السادس أمره بإظهار
نعمته عليه وشكر ما شرفه به بنشره وإشادة ذكره بقوله وأما بنعمة ربك فحدث
فإن من شكر النعمة الحديث بها وهذا خاص له عام لأمته وقال تعالى والنجم إذا هوى
إلى قوله لقد رأى من آيات ربه الكبرى : اختلف المفسرون في قوله والنجم إذا هوى
إلى قوله لقد رأى من آيات ربه الكبرى بأقاويل معروفة منها النجم على ظاهره ومنها

القرآن وعن جعفر بن محمد أنه محمد ... وقال هو قلب محمد وقد قيل في قوله والسماء
والطارق وما أدراك ما الطارق النجم ... النجم هنا أيضا محمد حكاه السلمي
تضمنت هذه الآيات من فضله وشرفه ... ما يقف دونه العد وأقسم جل اسمه
على هداية المصطفى وتنزيهه عن الهوى وصدقه فيما تلا وأنه وحي يوحى
أوصله إليه عن الله جبريل وهو الشديد القوى ثم أخبر تعالى عن فضيلته بقصة
الإسراء وانتهائه إلى سدرة المنتهى وتصديق بصره فيما رأى وأنه رأى من آيات
ربه الكبرى وقد نبه تعالى على مثل هذا في أول سورة الإسراء ولما كان ما كاشفه
عليه السلام من ذلك الجبروت وشاهده من عجائب الملكوت لا تحيط به العبارات
ولا تستقل بحمل سماع أدناه العقول رمز عنه تعالى بالإيماء والكناية الدالة على
التعظيم فقال فأوحى إلى عبده ما أوحى وهذا النوع من الكلام يسميه أهل النقد
والبلاغة بالوحي والإشارة وهو عندهم أبلغ أبواب الإيجاز وقال لقد رأى من آيات ربه
الكبرى انحسرت الأفهام عن تفصيل ما أوحى وتاهت الأحلام في تعيين تلك
الآيات الكبرى **قال الفقيه القاضي** وفقه الله اشتملت هذه الآية
على إعلام الله تعالى بتزكية جملته عليه السلام وعصمتها من الآفات في هذا المسرى
فزكى فؤاده ولسانه وجوارحه فزكى قلبه بقوله ما كذب الفؤاد ما رأى ولسانه
بقوله وما ينطق عن الهوى وبصره بقوله ما زاغ البصر وما طغى وقال تعالى فلا
أقسم بالخنس الجوار الكنس إلى قوله وما هو بقول شيطان رجيم لا أقسم أي أقسم
إنه لقول رسول كريم أي كريم عند مرسله ذي قوة على تبليغ ما حمله من الوحي مكين
أي متمكن المنزلة من ربه رفيع المحل عنده مطاع ثم أي في السماء أمين على الوحي
قال علي بن عيسى وغيره الرسول الكريم هنا محمد فجميع الأوصاف بعد على هذا له
وقال غيره هو جبريل فترجع الأوصاف إليه ولقد رآه يعني محمدا قيل رأى ربه وقيل
رأى جبريل في صورته وما هو على الغيب بظنين أي بمتهم ومن قرأ بالضاد فمعناه ما
هو ببخيل بالدعاء به والتذكير بحكمه وبعلمه وهذه لمحمد باتفاق وقال تعالى ن والقلم

لآيات أنعم تعالى بما أنسم به من عظيم [illegible] تنزيه المصطفى مما غمصته الكفرة
به وتكذيبهم له وآنسه وبسط أمله بقوله محسنا خطابه ما أنت بنعمة ربك بمجنون
وهذه نهاية المبرة في المخاطبة وأعلى درجات الآداب في المحاورة ثم أعلمه بما له عنده
من نعيم دائم وثواب غير منقطع لا يأخذه عد ولا يمتن به عليه فقال وإن لك لأجرا
غير ممنون ثم أثنى عليه بما منحه من هباته وهداه إليه وأكد ذلك تتميما للتمجيد
بحرفي التأكيد فقال وإنك لعلى خلق عظيم قيل القرآن وقيل الإسلام وقيل
الطبع الكريم وقيل ليس لك همة إلا الله . قال الواسطي أثنى عليه بحسن
قبوله لما أسداه إليه من نعمه وفضله بذلك على غيره لأنه جبله على ذلك الخلق
فسبحان اللطيف الكريم المحسن الجواد الحميد الذي يسر للخير وهدى إليه ثم أثنى
على فاعله وجازاه عليه سبحانه ما أغمر نواله وأوسع إفضاله ثم سلاه عن قولهم
بعد هذا بما وعده به من عقابهم وتوعدهم بقوله فستبصر ويبصرون الثلاث
آيات ثم عطف بعد مدحه على ذم عدوه وذكر سوء خلقه وعد معايبه متوليا
ذلك بفضله ومنتصرا لنبيه فذكر بضع عشرة خصلة من خصال الذم فيه بقوله
فلا تطع المكذبين إلى قوله أساطير الأولين ثم ختم ذلك بالوعيد الصادق بتمام
شقائه وخاتمة بواره بقوله سنسمه على الخرطوم فكانت نصرة الله له أتم من نصرته
لنفسه ورده تعالى على عدوه أبلغ من رده وأثبت في ديوان مجده

الفصل السادس

فيما ورد من قوله تعالى في جهته عليه
السلام مورد الشفقة والإكرام **قال** تعالى طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى
قيل طه اسم من أسمائه عليه السلام وقيل هو اسم لله وقيل معناه يا رجل وقيل يا إنسان
وقيل هي حروف مقطعة لمعان . قال الواسطي أراد يا طاهر يا هادي وقيل هو أمر
من الوطء والهاء كناية عن الأرض أي اعتمد على الأرض بقدميك ولا تتعب نفسك
بالاعتماد على قدم واحدة وهو قوله ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ونزلت الآية
فيما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتكلفه من السهر والتعب وقيام الليل **حدثنا**

القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن [illegible] واحد عن القاضي أبي الوليد الباجي إجازة
ومن أصله نقلت قال حدثنا أبو ذر الحافظ [illegible] أبو محمد الحموي حدثنا إبراهيم
ابن خزيم الشاشي قال حدثنا عبد بن حميد [illegible] هاشم بن القاسم عن أبي جعفر عن الربيع
ابن أنس قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى فأنزل
الله تعالى طه يعني طأ الأرض يا محمد ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ولا خفاء بما في
هذا كله من الإكرام وحسن المعاملة وإن جعلنا طه من أسمائه عليه السلام كما قيل
أو جعلت قسما لحق الفضل بما قبله . ومثل هذا من نمط الشفقة والمبرة قوله فلعلك
باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا أي قاتل نفسك لذلك
غضبا أو غيظا أو جزعا . ومثله قوله أيضا لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين
ثم قال إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ومن هذا الباب
قوله تعالى فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إلى قوله ولقد نعلم أنك يضيق
صدرك بما يقولون إلى آخر السورة . وقوله ولقد استهزئ برسل من قبلك الآية
قال مكي سلاه الله تعالى بما ذكر وهون عليه ما يلقى من المشركين وأعلمه أن من
تمادى على ذلك يحل به ما حل بمن قبله . ومن هذه التسلية قوله وإن يكذبوك فقد
كذبت رسل من قبلك ومن هذا قوله تعالى كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا
قالوا ساحر أو مجنون عزاه الله بما أخبر به عن الأمم السالفة ومقالها لأنبيائها قبله
ومحنتهم بهم وسلاه بذلك عن محنته بمثله من كفار مكة وأنه ليس أول من لقي ذلك
ثم طيب نفسه وأبان عذره بقوله فتول عنهم أي أعرض عنهم فما أنت بملوم أي في
أداء ما بلغت وإبلاغ ما حملت ومثله قوله تعالى واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا أي
اصبر على أذاهم فإنك بحيث نراك ونحفظك سلاه الله بهذا في آي كثيرة من هذا
المعنى

الفصل السابع

فيما أخبر الله به في كتابه العزيز
من عظيم قدره وشريف منزلته على الأنبياء وحظوة رتبته **قوله** تعالى وإذ أخذ
الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة إلى قوله من الشاهدين . قال أبو الحسن

صلى الله عليه وسلم

القابسي استخص الله محمدًا [...] أبانه به وهو ما ذكره في هذه الآية

قال المفسرون أخذ الله الميثـ[اق] [...] نبيًا إلا ذكر له محمدًا ونعته وأخذ

عليه ميثاقه إن أدركه ليؤ[منن به] [...] بيّنه لقومه ويأخذ ميثاقهم أن يبينوه

لمن بعدهم. وقوله ثم جاءكم الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد عليه السلام. قال

علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يبعث الله نبيًا من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد

في محمد لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذ العهد بذلك على قومه. ونحوه

عن السدي وقتادة في آي تضمنت فضله من غير وجه واحد. قال الله تعالى وإذ

أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح الآية. وقال إنا أوحينا إليك كما أوحينا

إلى نوح إلى قوله وكيلا. روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في كلام بكى

به النبي صلى الله عليه وسلم فقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند

الله أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم فقال وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم

ومنك ومن نوح الآية. بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل

النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون يا ليتنا أطعنا

الله وأطعنا الرسولا. قال قتادة إن النبي صلى الله عليه وسلم قال كنت أول الأنبياء

في الخلق وآخرهم في البعث فلذلك وقع ذكره مقدمًا هنا قبل نوح وغيره. قال

السمرقندي في هذا تفضيل نبينا عليه السلام لتخصيصه بالذكر قبلهم وهو آخرهم

المعنى أخذ الله عليهم الميثاق إذ أخرجهم من ظهر آدم كالذر. وقال تعالى تلك الرسل

فضلنا بعضهم على بعض الآية. قال أهل التفسير أراد بقوله ورفع بعضهم درجات

محمدًا عليه السلام لأنه بعث إلى الأحمر والأسود وأحلت له الغنائم وظهرت على

يديه المعجزات وليس أحد من الأنبياء أعطي فضيلة أو كرامة إلا وقد أعطي محمد

مثلها. قال بعضهم ومن فضله أن الله خاطب الأنبياء بأسمائهم وخاطبه بالنبوة

والرسالة في كتابه فقال يا أيها النبي يا أيها الرسول. وحكى السمرقندي عن الكلبي

في قوله تعالى وإن من شيعته لإبراهيم أن الهاء عائدة على محمد عليه السلام أي من

صلى الله عليه وسلم

صلى الله عليه وسلم

شيعة محمد لإبراهيم أي على دينه ومنهاجه. وأجازه الفراء، وحكاه عنه مكي. وقيل

المراد نوح

الفصل الثامن في إعلام الله تعالى خلقه بصلاته

عليه وولايته له ودفعه العذاب بسببه. قال الله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم

أي ما كنت بمكة. فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة وبقي فيها من بقي من المؤمنين

نزل وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون. وهذا مثل قوله لو تزيلوا الآية. وقوله ولولا

رجال مؤمنون الآية. فلما هاجر المؤمنون نزلت وما لهم ألا يعذبهم الله. وهذا من أبين

ما يظهر مكانته صلى الله عليه وسلم ودرأه العذاب عن أهل مكة بسبب كونه ثم كون

أصحابه بعده بين أظهرهم. فلما خلت مكة منهم عذبهم بتسليط المؤمنين عليهم

وغلبتهم إياهم وحكم فيهم سيوفهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم. وفي

الآية أيضًا تأويل آخر. حدثنا القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله بقراءتي عليه

حدثنا أبو الفضل بن خيرون وأبو الحسين الصيرفي. حدثنا أبو يعلى بن زوج

الحرة حدثنا أبو علي السنجي حدثنا محمد بن محبوب المروزي حدثنا أبو عيسى الحافظ

حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا ابن نمير عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن عباد

ابن يوسف عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

أنزل الله علي أمانين لأمتي وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم

وهم يستغفرون فإذا مضيت تركت فيكم الاستغفار. ونحو منه قوله تعالى وما أرسلناك

إلا رحمة للعالمين. قال عليه السلام أنا أمان لأصحابي. قيل من البدع وقيل من الاختلاف

والفتن. قال بعضهم الرسول صلى الله عليه وسلم هو الأمان الأعظم ما عاش وما دامت

سنته باقية فهو باق فإذا أميتت سنته فانتظر البلاء والفتن. وقال تعالى إن الله

وملائكته يصلون على النبي الآية. أبان الله تعالى فضل نبيه بصلاته عليه ثم بصلاة

ملائكته وأمر عباده بالصلاة والتسليم عليه. وقد حكى أبو بكر بن فورك أن بعض العلماء

تأول قوله عليه السلام وجعلت قرة عيني في الصلاة على هذا، أي في صلاة الله

علي وملائكته وأمره الأمة بذلك إلى يوم القيامة. والصلاة من الملائكة ومنا له

دعاء ومن الله رحمة. وقيل يصلون يباركون وقد جمع للنبي صلى الله عليه وسلم حيث
علم الصلاة عليه بين لفظ الصلاة والبركة. وسنذكر حكم الصلاة عليه. وذكر بعض المتكلمين
في تفسير حروف كهيعص أن الكاف من كاف أي كفاية الله لنبيه قال أليس الله
بكاف عبده، والهاء هدايته له قال ويهديك صراطا مستقيما والياء تأييده له قال
وأيدك بنصره، والعين عصمته له قال والله يعصمك من الناس والصاد صلاته عليه
قال إن الله وملائكته يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم وقال تعالى وإن تظاهرا
عليه فإن الله هو مولاه، أي متولاه، أي وليه وصالح المؤمنين قيل الأنبياء وقيل
الملائكة وقيل أبو بكر وعمر وقيل علي وقيل المؤمنون على ظاهره.

الفصل التاسع

فيما تضمنته سورة الفتح من كراماته

قال تعالى إنا فتحنا لك فتحا مبينا إلى قوله يد الله فوق أيديهم تضمنت هذه الآيات من
فضله والثناء عليه وكريم منزلته عند الله تعالى ونعمته لديه ما يقصر الوصف عن
الانتهاء إليه فابتدأ جل جلاله بإعلامه بما قضاه له من القضاء المبين بظهوره وغلبته
على عدوه، وعلو كلمته وشريعته وأنه مغفور له غير مؤاخذ بما كان وما يكون قال
بعضهم أراد غفران ما وقع وما لم يقع أي إنك مغفور لك. وقال مكي جعل المنة
سببا للمغفرة، وكل من عنده لا إله غيره منة بعد منة وفضلا بعد فضل ثم قال ويتم
نعمته عليك قيل بخضوع من تكبر عليك. وقيل بفتح مكة والطائف وقيل يرفع ذكرك
في الدنيا وينصرك ويغفر لك فأعلمه بتمام نعمته عليه بخضوع متكبري عدوه
له وفتح أهم البلاد عليه وأحبها له ورفع ذكره وهدايته الصراط المستقيم المبلغ
الجنة والسعادة ونصره النصر العزيز ومنته على أمته المؤمنين بالسكينة والطمأنينة
التي جعلها في قلوبهم وبشارتهم بما لهم بعد وفوزهم العظيم والعفو عنهم والستر
لذنوبهم وهلاك عدوه في الدنيا والآخرة ولعنهم وبعدهم من رحمته وسوء منقلبهم
ثم قال إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا الآية فعدد محاسنه وخصائصه من
شهادته على أمته لنفسه بتبليغه الرسالة لهم وقيل شاهدا لهم بالتوحيد ومبشرا

لأمته بالثواب، وقيل بالمغفرة ومنذرا عدوه بالعذاب وقيل محذرا من الضلالات
ليؤمن بالله ثم به من سبقت له من الله الحسنى وتعزروه أي تجلوه وقيل تنصروه
وقيل تبالغوا في تعظيمه وتوقروه أي تعظموه وقرأه بعضهم تعززوه بزايين
من العز والأكثر والأظهر أن هذا في حق محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال وتسبحوه
فهذا راجع إلى الله تعالى قال ابن عطاء جمع للنبي في هذه السورة نعم مختلفة من الفتح
المبين وهو من أعلام الإجابة والمغفرة وهي من أعلام المحبة وتمام النعمة وهي من
أعلام الاختصاص والهداية وهي من أعلام الولاية فالمغفرة تبرئة من العيوب
وتمام النعمة إبلاغ الدرجة الكاملة والهداية وهي الدعوة إلى المشاهدة وقال جعفر
ابن محمد من تمام نعمته عليه أن جعله حبيبه وأقسم بحياته ونسخ به شرائع غيره
وعرج به إلى المحل الأعلى وحفظه في المعراج حتى ما زاغ البصر وما طغى وبعثه
إلى الأحمر والأسود وأحل له ولأمته الغنائم وجعله شفيعا مشفعا وسيد ولد آدم
وقرن ذكره بذكره ورضاه برضاه وجعله أحد ركني التوحيد. ثم قال إن الذين
يبايعونك إنما يبايعون الله يعني بيعة الرضوان أي إنما يبايعون الله ببيعتهم
إياك يد الله فوق أيديهم يريد عند البيعة قيل قوة الله وقيل ثوابه وقيل منته وقيل
عقده وهذه استعارة وتجنيس في الكلام وتأكيد لعقد بيعتهم إياه وعظم شأن
المبايع صلى الله عليه وسلم وقد يكون من هذا قوله تعالى فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم
وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وإن كان الأول في باب المجاز وهذا في باب الحقيقة
لأن القاتل والرامي بالحقيقة هو الله وهو خالق فعله ورميه وقدرته عليه ومسببه
ولأنه ليس في قدرة البشر توصيل تلك الرمية حيث وصلت حتى لم يبق منهم من لم
تملأ عينيه وكذلك قتل الملائكة لهم حقيقة. وقد قيل في هذه الآية الأخرى إنها على
المجاز العربي ومقابلة اللفظ ومناسبته أي ما قتلتموهم وما رميتهم أنت إذ رميت
وجوههم بالحصباء والتراب ولكن الله رمى قلوبهم بالجزع أي إن منفعة الرمي كانت
من فعل الله فهو القاتل والرامي بالمعنى وأنت بالاسم.

الفصل العاشر

فيما أخبر به في كتابه العزيز من كرامته عليه ومكانته عنده وما خصه به من ذلك سوى ما انتظم فيما ذكرناه قبل من ذلك ما نصه تعالى في قصة الإسراء في سورة سبحان والنجم وما انطوت عليه القصة من عظيم منزلته وقربه ومشاهدته ما شاهد من العجائب. ومن ذلك عصمته من الناس بقوله والله يعصمك من الناس وقوله وإذ يمكر بك الذين كفروا الآية. وقوله إلا تنصروه فقد نصره الله وما دفع الله به عنه في هذه القصة من أذاهم بعد تحزبهم لهلكه وخلوصهم نجيا في أمره والأخذ على أبصارهم عند خروجه عليهم وذهولهم عن طلبه في الغار وما ظهر في ذلك من الآيات ونزول السكينة عليه وقصة سراقة بن مالك حسبما ذكره أهل الحديث والسير في قصة الغار وحديث الهجرة. ومنه قوله إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر أعلمه الله بما أعطاه والكوثر حوضه وقيل نهر في الجنة وقيل الخير الكثير وقيل الشفاعة وقيل المعجزات الكثيرة وقيل النبوة وقيل المعرفة ثم أجاب عنه عدوه ورد عليه قوله فقال إن شانئك هو الأبتر أي عدوك ومبغضك والأبتر الحقير الذليل أو المفرد الوحيد أو الذي لا خير فيه. وقال ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم قيل السبع المثاني السور الطوال الأول والقرآن العظيم أم القرآن وقيل السبع المثاني أم القرآن والقرآن العظيم سائره وقيل السبع المثاني ما في القرآن من أمر ونهي وبشرى وإنذار وضرب مثل وإعداد نعم وآتيناك نبأ القرآن العظيم وقيل سميت أم القرآن مثاني لأنها تثنى في كل ركعة وقيل بل الله استثناها لمحمد وادخرها له دون الأنبياء وسمى القرآن مثاني لأن القصص تثنى فيه وقيل السبع المثاني أكرمناك بسبع كرامات الهدى والنبوة والرحمة والشفاعة والولاية والتعظيم والسكينة وقال وأنزلنا إليك الذكر الآية. وقال وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا وقال قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الآية قال فهذه من خصائصه. وقال تعالى وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فخصهم بقومهم وبعث محمدا إلى الخلق كافة كما قال عليه السلام بعثت إلى الأحمر والأسود. وقال تعالى النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم. قال أهل التفسير أولى بالمؤمنين من أنفسهم أي ما أنفذه فيهم من أمر فهو ماض عليهم كما يمضي حكم السيد على عبده. وقيل اتباع أمره أولى من اتباع رأي النفس وأزواجه أمهاتهم أي هن في الحرمة كالأمهات حرم نكاحهن عليهم بعده تكرمة له وخصوصية ولأنهن له أزواج في الآخرة وقد قرئ وهو أب لهم ولا يقرأ به الآن لمخالفته المصحف. وقال الله تعالى وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة الآية قيل فضله العظيم بالنبوة وقيل بما سبق له في الأزل. وأشار الواسطي إلى أنها إشارة إلى احتمال الرؤية التي لم يحتملها موسى صلى الله عليهما.

الباب الثاني

في تكميل الله تعالى له المحاسن خلقا وخلقا وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقا

اعلم أيها المحب لهذا النبي الكريم الباحث عن تفاصيل جمل قدره العظيم أن خصال الجلال والكمال في البشر نوعان ضروري دنيوي اقتضته الجبلة وضرورة الحياة الدنيا ومكتسب ديني وهو ما يحمد فاعله ويقرب إلى الله تعالى زلفى ثم هي على فنين أيضا منهما ما يتخلص لأحد الوصفين ومنهما ما يتمازج ويتداخل. فأما الضروري المحض فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب مثل ما كان في جبلته من كمال خلقته وجمال صورته وقوة عقله وصحة فهمه وفصاحة لسانه وقوة حواسه وأعضائه واعتدال حركاته وشرف نسبه وعزة قومه وكرم أرضه ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه من غذائه ونومه وملبسه ومسكنه ومنكحه وماله وجاهه وقد تلحق هذه الخصال الآخرة بالأخروية إذا قصد بها التقوى ومعونة البدن على سلوك طريقها وكانت على حدود الضرورة وقوانين الشريعة. وأما المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العلية والآداب الشرعية من الدين والعلم والحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع والعفو والعفة والجود والشجاعة والحياء والمروءة والصمت والتؤدة والوقار والرحمة وحسن الأدب والمعاشرة وأخواتها وهي التي جماعها حسن الخلق وقد يكون من هذه الأخلاق ما هو في

تعالى

تعالى

وبشرى

وإعداد

صلى الله عليه وسلم

القاضي رضي الله عنه

صلى الله عليه وسلم

بعده

أو الناس

صلى الله عليه وسلم

العزيز، وأصل الجبلة لبعض الناس وبعضهم لا تكون فيه فيكتسبها ولكنه لا بد أن تكون
فيه من أصولها في أصل الجبلة شعبة كما سنبينه إن شاء الله. وتكون هذه الأخلاق دنيوية
إذا لم يرد بها وجه الله والدار الآخرة ولكنها كلها محاسن وفضائل باتفاق أصحاب
العقول السليمة وإن اختلفوا في موجب حسنها وتفضيلها.

فصل إذا كانت
خصال الكمال والجمال ما ذكرناه، ووجدنا الواحد منا يتشرف بواحدة منها أو اثنتين إن اتفقت
له في كل عصر إما من نسب أو جمال أو قوة أو علم أو حلم أو شجاعة أو سماحة حتى
يعظم قدره وتضرب باسمه الأمثال ويتقرر له بالوصف بذلك في القلوب أثرة وعظمة
وهو منذ عصور رمم بوال، فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال إلى ما لا
يأخذه عد ولا يعبر عنه مقال ولا ينال بكسب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال من
فضيلة النبوة والرسالة والخلة والمحبة والاصطفاء والإسراء والرؤية والقرب
والدنو والوحي والشفاعة والوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود
والبراق والمعراج والبعث إلى الأحمر والأسود والصلاة بالأنبياء والشهادة بين الأنبياء
والأمم وسيادة ولد آدم ولواء الحمد والبشارة والنذارة والمكانة عند ذي العرش
والطاعة ثم والأمانة والهداية ورحمة للعالمين وإعطاء الرضى والسؤل والكوثر
وسماع القول وإتمام النعمة والعفو عما تقدم وتأخر وشرح الصدر ووضع الوزر
ورفع الذكر وعزة النصر ونزول السكينة والتأييد بالملائكة وإيتاء الكتاب والحكمة
والسبع المثاني والقرآن العظيم وتزكية الأمة والدعاء إلى الله وصلاة الله والملائكة
والحكم بين الناس بما أراه الله ووضع الإصر والأغلال عنهم والقسم باسمه وإجابة
دعوته وتكليم الجمادات والعجم وإحياء الموتى وإسماع الصم ونبع الماء من بين
أصابعه وتكثير القليل وانشقاق القمر ورد الشمس وقلب الأعيان والنصر بالرعب
والاطلاع على الغيب وظل الغمام وتسبيح الحصا وإبراء الآلام والعصمة من الناس
إلى ما لا يحويه محتفل ولا يحيط بعلمه إلا مانحه ذلك ومفضله به لا إله غيره، إلى ما
أعد له في الدار الآخرة من منازل الكرامة ودرجات القدس ومراتب السعادة والحسنى

موجب

وتقرر

والزيادة التي تقف دونها العقول ويحار دون أداها الوهم **فصل** إن قلت
أكرمك الله لا خفاء على القطع بالجملة أنه صلى الله عليه وسلم أعلى الناس قدرا وأعظمهم
محلا وأكملهم محاسن وفضلا وقد ذهبت في تفاصيل خصال الكمال مذهبا جميلا شوقني
إلى أن أقف عليها من أوصافه صلى الله عليه وسلم تفصيلا فاعلم نور الله قلبي وقلبك
وضاعف في هذا النبي حبي وحبك أنك إذا نظرت إلى خصال الكمال التي هي غير مكتسبة
وفي جبلة الخلقة وجدته حائزا لجميعها محيطا بشتات محاسنها دون خلاف بين
نقلة الأخبار لذلك بل قد بلغ بعضها مبلغ القطع أما الصورة وجمالها وتناسب
أعضائه في حسنها فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك من حديث
علي وأنس بن مالك وأبي هريرة والبراء بن عازب وعائشة أم المؤمنين وابن أبي هالة
وأبي جحيفة وجابر بن سمرة وأم معبد وابن عباس ومعرض بن معيقيب وأبي الطفيل
والعداء بن خالد وخريم بن فاتك وحكيم بن حزام وغيرهم من أنه صلى الله عليه وسلم كان
أزهر اللون أدعج أنجل أشكل أهدب الأشفار أبلج أزج أقنى أفلج مدور الوجه واسع
الجبين كث اللحية تملأ صدره سواء البطن والصدر واسع الصدر عظيم المنكبين
ضخم العظام عبل العضدين والذراعين والأسافل رحب الكفين والقدمين سائل الأطراف
أنور المتجرد دقيق المسربة ربعة القد ليس بالطويل البائن ولا القصير المتردد
ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله صلى الله عليه وسلم رجل الشعر
إذا افتر ضاحكا افتر عن مثل سنا البرق وعن مثل حب الغمام إذا تكلم رئي كالنور
يخرج من ثناياه أحسن الناس عنقا ليس بمطهم ولا مكلثم متماسك البدن ضرب
اللحم قال البراء ما رأيت من ذي لمة في حلة حمراء أحسن من رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقال أبو هريرة ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس
تجري في وجهه وإذا ضحك يتلألأ في الجدر وقال جابر بن سمرة وقال له رجل كان
وجهه صلى الله عليه وسلم مثل السيف فقال لا بل مثل الشمس والقمر وكان مستديرا وقالت
أم معبد في بعض ما وصفته به أجمل الناس من بعيد وأحلاه وأحسنه من قريب وفي

حديث ابن أبي هالة يتلالا وجهه تلالا القمر ليلة البدر. وقال علي في آخر وصفه له من
رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله والأحاديث
في بسط صفته مشهورة كثيرة فلا نطول بسردها وقد اختصرنا في وصفه نكت ما
جاء فيها وجملة كافية في القصد إلى المطلوب إن شاء الله وقد ختمنا هذه
الفصول بحديث جامع لذلك تقف عليه هنا إن شاء الله **فصل** وأما نظافة
جسمه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد فكان قد خصه الله
في ذلك بخصائص لم توجد في غيره ثم تممها بنظافة الشرع وخصال الفطرة
العشر وقال بني الدين على النظافة حدثنا أبو محمد سفيان بن العاصي وغير
واحد قالوا حدثنا أحمد بن عمر حدثنا أبو العباس الرازي حدثنا أبو أحمد الجلودي
حدثنا ابن سفيان حدثنا مسلم حدثنا قتيبة حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن
أنس قال ما شممت عنبرا قط ولا مسكا ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه
وسلم. وعن جابر بن سمرة أنه صلى الله عليه وسلم مسح خده قال فوجدت ليده بردا وريحا
كأنما أخرجها من جؤنة عطار قال غيره مسها بطيب أو لم يمسها يصافح المصافح
فيظل يومه يجد ريحها ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها
ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار أنس فعرق فجاءت أمه بقارورة تجمع فيها عرقه
فسألها عن ذلك رسول الله فقالت نجعله في طيبنا وهو من أطيب الطيب. وذكر
البخاري في تاريخه الكبير عن جابر لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يمر في طريق
فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه قال إسحق بن راهويه كانت تلك رائحته بلا طيب
وروى المزني عن جابر أردفني النبي صلى الله عليه وسلم فالتقمت خاتم النبوة بفمي فكان
ينم علي مسكا. وقد حكى بعض المعتنين بأخباره وشمائله صلى الله عليه وسلم أنه
كان إذا أراد أن يتغوط انشقت له الأرض فابتلعت غائطه وبوله وفاحت لذلك
رائحة طيبة صلى الله عليه وسلم وأسند محمد بن سعد كاتب الواقدي في هذا خبرا عن
عائشة أنها قالت للنبي عليه السلام إنك تأتي الخلاء فلا نرى منك شيئا فقال يا عائشة

الجسد وإن لم
عليه وسلم ومثو
قد حكى العراقي
الكية ويخرج
تكن منه صلى
صلى الله عليه
قال وسمعت
الله عليه وسلم
تشرب فيه صلى
الزبير حجامته
وقد روي نحو من
ثم واحدا منهم
من الدار فهي
تشبها وقيل متى
الله عليه وسلم
يتغوط ولم يبن
لم ير قط حدثنا
ر عمن تطوع
ايشة قالت ما
صلى الله عليه وسلم
عكرمة عن
ولم يتوضأ
نور عقله وذكائه

أوما علمت أن الأرض تبتلع ما يخرج من الأنبياء فلا يرى منه شيء. وهذا الخبر وإن لم
يكن مشهورا فقد قال قوم من أهل العلم بطهارة هذين الحدثين منه صلى الله عليه وسلم وهو
قول بعض أصحاب الشافعي حكاه الإمام أبو نصر بن الصباغ في شامله وقد حكى القولين
عن العلماء في ذلك أبو بكر بن سابق المالكي في كتابه البديع في فروع المالكية وتخريج
ما لم يقع لهم منها على مذهبهم من تفاريع الشافعية وشاهد هذا أنه لم يكن منه صلى
الله عليه وسلم شيء يكره ولا غير طيب ومنه حديث علي غسلت النبي صلى الله عليه
وسلم فذهبت أنظر ما يكون من الميت فلم أجد شيئا فقلت طبت حيا وميتا قال وسطعت
منه ريح طيبة لم نجد مثلها قط. ومثله قال أبو بكر حين قبل النبي صلى الله عليه وسلم
بعد موته. ومثله شرب مالك بن سنان دمه يوم أحد ومصه إياه وتسويغه صلى
الله عليه وسلم ذلك له وقوله لن تصيبه النار. ومثله شرب عبد الله بن الزبير حجامته
فقال له عليه السلام ويل لك من الناس وويل لهم منك ولم ينكر عليه. وقد روي نحو
من هذا عنه في امرأة شربت بوله فقال لها لن تشتكي وجع بطنك أبدا ولم يأمر واحدا منهم
بغسل فم ولا نهاه عن عوده. وحديث هذه المرأة التي شربت بوله صحيح ألزم الدارقطني
مسلما والبخاري إخراجه في الصحيح. واسم هذه المرأة بركة واختلف في نسبها وقيل هي
أم أيمن وكانت تخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم
قدح من عيدان يوضع تحت سريره يبول فيه من الليل فبال فيه ليلة ثم افتقده فلم يجد
فيه شيئا فسأل بركة عنه فقالت قمت وأنا عطشانة فشربته وأنا لا أعلم. روى حديثها
ابن جريج وغيره وكان صلى الله عليه وسلم في بعض الروايات قد ولد مختونا مقطوع
السرة. وروي عن أمه آمنة أنها قالت ولدته نظيفا ما به قذر. وعن عائشة قالت ما
رأيت فرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قط. وعن علي أوصاني النبي صلى الله عليه وسلم
لا يغسلني غيرك فإنه لا يرى أحد عورتي إلا طمست عيناه. وفي حديث عكرمة عن
ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم نام حتى سمع له غطيط فقام فصلى ولم يتوضأ
قال عكرمة لأنه كان صلى الله عليه وسلم محفوظا. **فصل** وأما وفور عقله وذكائه

دم

صلى الله عليه وسلم

لبه وقوة حواسه وفصاحة لسانه واعتدال حركاته وحسن شمائله فلا مرية أنه كان
أعقل الناس وأذكاهم ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسة
العامة والخاصة مع عجيب شمائله وبديع سيره فضلا عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع
دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب منه لم يمتر في رجحان عقله
وثقوب فهمه لأول بديهة وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره لتحققه وقد قال وهب بن منبه قرأت
في أحد وسبعين كتابا فوجدت في جميعها أن النبي صلى الله عليه وسلم أرجح الناس
عقلا وأفضلهم رأيا . وفي رواية أخرى فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط
جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله صلى الله عليه وسلم
إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا . وقال مجاهد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام
في الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه وبه فسر قوله تعالى وتقلبك في
الساجدين . وفي الموطأ عنه عليه السلام إني لأراكم من وراء ظهري . ونحوه
عن أنس في الصحيحين . وعن عائشة مثله قالت زيادة زاده الله إياها في حجته وفي
بعض الروايات إني لأنظر من ورائي كما أنظر إلى ما بين يدي . وفي أخرى إني لأبصر
من قفاي كما أبصر من بين يدي . وحكى بقي بن مخلد عن عائشة كان النبي صلى
الله عليه وسلم يرى في الظلمة كما يرى في الضوء . والأخبار كثيرة صحيحة في رؤيته
صلى الله عليه وسلم للملائكة والشياطين ورفع النجاشي له حتى صلى عليه . وبيت المقدس
حين وصفه لقريش والكعبة حين بنى مسجده . وقد حكي عنه أنه كان يرى في الثريا
أحد عشر نجما . وهذه كلها محمولة على رؤية العين وهو قول أحمد بن حنبل وغيره وذهب
بعضهم إلى ردها إلى العلم والظواهر تخالفه ولا إحالة في ذلك وهي من خواص الأنبياء
وخصالهم كما أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد العدل من كتابه حدثنا أبو الحسن
المقرئ الفرغاني حدثتنا أم القاسم بنت أبي بكر عن أبيها حدثنا الشريف أبو الحسن
علي بن محمد الحسني حدثنا محمد بن محمد بن سعيد حدثنا محمد بن أحمد بن سليمان حدثنا
محمد بن محمد بن مرزوق حدثنا همام حدثنا الحسن عن قتادة عن يحيى بن وثاب عن أبي

مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما تجلى الله لموسى عليه السلام كان يبصر النملة على
الصفا في الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه
من هذا الباب بعد الاسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى وقد جاءت الأخبار
بأنه صرع ركانة أشد أهل وقته وكان دعاه إلى الاسلام وصارع أبا ركانة في
الجاهلية وكان شديدا وعاوده ثلاث مرات كل ذلك يصرعه رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقال أبو هريرة ما رأيت أحدا أسرع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيه
كأنما الأرض تطوى له إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث وفي صفته أن ضحكه كان
تبسما إذا التفت التفت معا وإذا مشى مشى تقلعا كأنما ينحط من صبب

فصل

وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل
والموضع الذي لا يجهل سلاسة طبع وبراعة منزع وإيجاز مقطع ونصاعة لفظ
وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف أوتي جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم
ألسنة العرب فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها في منزع
بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير ما موطن عن شرح كلامه وتفسير
قوله من تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل
الحجاز ونجد ككلامه مع ذي المشعار الهمداني وطهفة النهدي وقطن بن حارثة العليمي
والأشعث بن قيس ووائل بن حجر الكندي وغيرهم من أقيال حضرموت وملوك اليمن
وانظر كتابه إلى همدان إن لكم فراعها ووهاطها وعزازها تأكلون علافها وترعون
عفاءها لنا من دفئهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة ولهم من الصدقة الثلب
والناب والفصيل والفارض الداجن والكبش الحوري وعليهم فيها الصالغ والقارح وقوله
لنهد اللهم بارك لهم في محضها ومخضها ومذقها وابعث راعيها في الدثر وافجر له
الثمد وبارك له في المال والولد من أقام الصلاة كان مسلما ومن آتى الزكاة كان محسنا
ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا لكم يا بني نهد ودائع الشرك ووضائع الملك
لا تلطط في الزكاة ولا تلحد في الحياة ولا تثاقل عن الصلوات وكتب لهم في الوظيفة

تثاقل

الفريضة ولكم الفارض والفريش وذو العنان الركوب والفلو الضبيس لا يمنع سرحكم
ولا يعضد طلحكم ولا يحبس دركم ما لم تضمروا الرماق وتأكلوا الرباق من أقر فله
الوفاء بالعهد والذمة ومن أبى فعليه الربوة وفي كتابه لوائل بن حجر إلى الأقيال العباهلة
والأرواع المشابيب وفيه في التيعة شاة لا مقورة الألياط ولا ضناك وأنطوا الثبجة
وفي السيوب الخمس ومن زنى مم بكر فاصقعوه مائة واستوفضوه عاما ومن زنى
مم ثيب فضرجوه بالأضاميم ولا توصيم في الدين ولا غمة في فرائض الله وكل مسكر
حرام ووائل بن حجر يترفل على الأقيال أين هذا من كتابه لأنس في الصدقة المشهور
لما كان كلام هؤلاء على هذا الحد وبلاغتهم على هذا النمط وأكثر استعمالهم هذه الألفاظ
استعملها معهم ليبين للناس ما نزل إليهم وليحدث الناس بما يعلمون وكقوله في
حديث عطية السعدي فإن اليد العليا هي المنطية واليد السفلى هي المنطاة قال فكلمنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغتنا وقوله في حديث العامري حين سأله فقال له النبي
صلى الله عليه وسلم سل عنك أي سل عما شئت وهي لغة بني عامر وأما كلامه المعتاد
وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه وحكمه المأثورة فقد ألف الناس فيها الدواوين
وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب ومنها ما لا يوازى فصاحة ولا يبارى بلاغة
كقوله المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم
وقوله الناس كأسنان المشط والمرء مع من أحب ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى
له والناس معادن وما هلك امرؤ عرف قدره والمستشار مؤتمن وهو بالخيار ما لم
يتكلم ورحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم وقوله أسلم تسلم وأسلم يؤتك
الله أجرك مرتين وإن أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا
الموطؤون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وقوله لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما
لا يغنيه وقوله ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها ونهيه عن قيل وقال وكثرة السؤال
وإضاعة المال ومنع وهات وعقوق الأمهات ووأد البنات وقوله اتق الله حيث كنت
وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن وخير الأمور أوساطها وقوله

أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وقوله الظلم ظلمات يوم القيامة
وقوله في بعض دعائه مما رواه ابن عباس عنه عليه السلام اللهم إني أسألك رحمة
تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري وتلم بها شعثي وتصلح بها غائبي وترفع بها شاهدي
وتزكي بها عملي وتلهمني بها رشدي وترد بها ألفتي وتعصمني بها من كل سوء اللهم
إني أسألك الفوز في القضاء ونزل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء إلى ما
روته الكافة عن الكافة من مقاماته ومحاضراته وخطبه وأدعيته ومخاطباته
وعهوده مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره وحاز فيها سبقا لا
يقدر قدره وقد جمعت من كلماته التي لم يسبق إليها ولا قدر أحد أن يفرغ في
قالبه عليها كقوله حمي الوطيس ومات حتف أنفه ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين
والسعيد من وعظ بغيره في أخواتها مما يدرك الناظر العجب في مضمنها ويذهب به
الفكر في أداني حكمها وقد قال له أصحابه ما رأينا الذي هو أفصح منك فقال وما يمنعني
وإنما أنزل القرآن بلساني لسان عربي مبين وقال مرة أخرى بيد أني من قريش
ونشأت في بني سعد فجمع له بذلك صلى الله عليه وسلم قوة عارضة البادية وجزالتها
ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها إلى التأييد الإلهي الذي لا يحيط بعلمه بشري
وقالت أم معبد في وصفها له حلو المنطق فصل لا نزر ولا هذر كأن منطقه خرزات
نظمن وكان جهير الصوت حسن النغمة صلى الله عليه وسلم **فصل** وأما شرف نسبه
وكرم بلده ومنشئه فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه ولا بيان مشكل ولا خفي منه
فإنه نخبة بني هاشم وسلالة قريش وصميمها وأشرف العرب وأعزهم نفرا من قبل
أبيه وأمه ومن أهل مكة أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده حدثنا قاضي القضاة
حسين بن محمد الصدفي رحمه الله حدثنا القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف حدثنا
أبو ذر عبد بن أحمد حدثنا أبو محمد السرخسي وأبو إسحاق وأبو الهيثم حدثنا محمد بن
يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن
عن عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعثت من خير

نورون بني آدم قرنا بقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت منه. وعن العباس قال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم من خير قرنهم ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا. وعن واثلة بن الاسقع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم قال الترمذي وهذا حديث صحيح. وفي حديث عن ابن عمر رواه الطبري أنه صلى الله عليه وسلم قال إن الله اختار خلقه فاختار منهم بني آدم ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب ثم اختار العرب فاختار منهم قريشا ثم اختار قريشا فاختار منهم بني هاشم ثم اختار بني هاشم فاختارني فلم أزل خيارا من خيار ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم. وعن ابن عباس أن قريشا كانت نورا بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عام يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة بتسبيحه فلما خلق الله آدم ألقى ذلك النور في صلبه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم وجعلني في صلب نوح وقذف بي في صلب إبراهيم ثم لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة حتى أخرجني من بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط. ويشهد بصحة هذا الخبر شعر العباس في مدح النبي صلى الله عليه وسلم المشهور.

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة وفواضل

فصل وأما ما تدعو ضرورة الحياة إليه مما فصلناه فعلى ثلاثة ضروب: ضرب الفضل في قلته وضرب الفضل في كثرته. وضرب تختلف الأحوال فيه. فأما ما التمدح والكمال بقلته اتفاقا وعلى كل حال عادة وشريعة كالغذاء والنوم ولم تزل العرب والحكماء تتمادح بقلتهما وتذم بكثرتهما لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النهم والحرص والشره وغلبة الشهوة مسبب لمضار الدنيا والآخرة جالب لأدواء الجسد وخثارة النفس

وامتلاء الدماغ. وقلته دليل على القناعة وملك النفس وقمع الشهوة مسبب للصحة وصفاء الخاطر وحدة الذهن كما أن كثرة النوم دليل على الفسولة والضعف وعدم الذكاء والفطنة مسبب للكسل وعادة العجز وتضييع العمر في غير نفع وقساوة القلب وغفلته وموته. والشاهد على هذا ما يعلم ضرورة ويوجد مشاهدة وينقل متواترا من كلام الأمم المتقدمين والحكماء السالفين وأشعار العرب وأخبارها وصحيح الحديث وآثار من سلف وخلف مما لا يحتاج إلى الاستشهاد عليه اختصارا واقتصارا على اشتهار العلم به. وكان النبي صلى الله عليه وسلم من أقل الناس منها لا يرتفع من يسيره ويحض على ذلك ويحث عليه لا سيما بارتباط أحدهما بالآخر. حدثنا أبو علي الصدفي الحافظ بقراءتي عليه حدثنا أبو الفضل الأصبهاني حدثنا أبو نعيم الحافظ حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا بكر بن سهل حدثنا عبد الله بن صالح حدثني معاوية بن صالح أن يحيى بن جابر حدثه عن المقدام بن معدي كرب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه ولأن كثرة النوم من كثرة الشرب والأكل قال سفيان الثوري بقلة الطعام يملك سهر الليل وقال بعض السلف لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتخسروا كثيرا. وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف أي كثرة الأيدي. وعن عائشة لم يمتلئ جوف النبي صلى الله عليه وسلم شبعا قط وأنه كان في أهله لا يسألهم طعاما ولا يتشهاه. إن أطعموه أكل وما أطعموه قبل وما سقوه شرب ولا يعترض على هذا بحديث بريرة وقوله ألم أر البرمة فيها لحم إذ لعل سبب سؤاله ظنه صلى الله عليه وسلم اعتقادهم أنه لا يحل له فأراد بيان سنته إذ رآهم لم يقدموه إليه مع علمه أنهم لا يستأثرون عليه به فصدق عليهم ظنه وبين لهم ما جهلوه من أمره بقوله هو لها صدقة ولنا هدية. وفي حكمة لقمان يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. وقال سحنون لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع. وفي صحيح الحديث قوله صلى الله عليه وسلم

رضي الله عنها

أما أنا فلا آكل متكئا والاتكاء هو التمكن للأكل والتقعدد في الجلوس له كالمتربع
وشبهه من تمكن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته والجالس على هذه الهيئة
يستدعي الأكل ويستكثر منه والنبي عليه السلام إنما كان جلوسه للأكل جلوس
المستوفز مقعيا ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد
وليس معنى الحديث في الاتكاء الميل على شق عند المحققين وكذلك نومه صلى الله عليه وسلم
كان قليلا شهدت بذلك الآثار الصحيحة ومع ذلك فقد قال إن عيني تنامان ولا ينام
قلبي وكان نومه صلى الله عليه وسلم على جانبه الأيمن استظهارا على قلة النوم لأنه على الجانب
الأيسر أهنأ لهدو القلب وما يتعلق به من الأعضاء الباطنة حينئذ لميلها إلى الجانب
الأيسر فيستدعي ذلك الاستثقال فيه والطول وإذا نام النائم على الأيمن تعلق
القلب وقلق فأسرع الإفاقة ولم يغمره الاستغراق **فصل** والضرب الثاني مما
يتفق التمدح بكثرته والفخر بوفوره كالنكاح والجاه أما النكاح فمتفق فيه شرعا
وعادة فإنه دليل الكمال وصحة الذكورية ولم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة والتمادح
به سيرة ماضية وأما في الشرع فسنة مأثورة وقد قال ابن عباس أفضل هذه الأمة
أكثرها نساء يشير إليه صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام تناكحوا تناسلوا فإني مباه
بكم الأمم ونهى عن التبتل مع ما فيه من قمع الشهوة وغض البصر اللذين نبه عليهما
صلى الله عليه وسلم بقوله من كان ذا طول فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج
حتى لم يره العلماء مما يقدح في الزهد قال سهل بن عبد الله قد حببن إلى سيد المرسلين
فكيف يزهد فيهن ونحوه لابن عيينة وقد كان زهاد الصحابة كثيري الزوجات
والسراري كثيري النكاح وحكي في ذلك عن علي والحسين وابن عمر وغيرهم غير
شيء وقد كره غير واحد أن يلقى الله عزبا **فإن قلت** كيف يكون النكاح
وكثرته من الفضائل وهذا يحيى بن زكرياء قد أثنى الله عليه أنه كان حصورا فكيف
يثني الله عليه بالعجز عما يعد فضيلة وهذا عيسى تبتل من النساء ولو كان كما قررته
لنكح **فاعلم** أن ثناء الله على يحيى بأنه حصور ليس كما قال بعضهم أنه كان هيوبا

أو لا ذكر له بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ونقاد العلماء وقالوا هذه نقيصة وعيب ولا
تليق بالأنبياء وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب أي لا يأتيها كأنه حصر عنها وقيل
مانعا نفسه من الشهوات وقيل ليست له شهوة في النساء فقد بان لك من هذا أن عدم
القدرة على النكاح نقص وإنما الفضل في كونها موجودة ثم قمعها إما بمجاهدة كعيسى
أو بكفاية من الله كيحيى فضيلة زائدة لكونها مشغلة في كثير من الأوقات حاطة إلى
الدنيا ثم هي في حق من أقدر عليها وملكها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه
درجة عليا وهي درجة نبينا عليه السلام الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه
بل زاده ذلك عبادة لتحصينهن وقيامه بحقوقهن واكتسابه لهن وهدايته إياهن
بل صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو وإن كانت من حظوظ دنيا غيره فقال حبب
إلي من دنياكم فدل أن حبه لما ذكر من النساء والطيب اللذين هما من أمور دنيا غيره واستعماله
لذلك ليس لدنياه بل لآخرته للفوائد التي ذكرناها في التزويج وللقاء الملائكة في
الطيب ولأنه أيضا مما يحض على الجماع ويعين عليه ويحرك أسبابه وكان حبه لهاتين
الخصلتين لأجل غيره وقمع شهوته وكان حبه الحقيقي المختص بذاته في مشاهدة
جبروت مولاه ومناجاته ولذلك ميز بين الحبين وفصل بين الحالين فقال وجعلت
قرة عيني في الصلاة فقد ساوى يحيى وعيسى في كفاية فتنتهن وزاد فضيلة
في القيام بهن وكان صلى الله عليه وسلم ممن أقدر على القوة في هذا وأعطي الكثير
منه ولهذا أبيح له من عدد الحرائر ما لم يبح لغيره وقد روينا عن أنس أنه صلى الله عليه
وسلم كان يدور على نسائه في الساعة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة قال أنس
وكنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين خرجه النسائي وروي نحوه عن أبي رافع وعن
طاوس أعطي عليه السلام قوة أربعين رجلا في الجماع ومثله عن صفوان بن سليم
وقالت سلمى مولاته طاف النبي صلى الله عليه وسلم على نسائه التسع وتطهر من كل واحدة
قبل أن يأتي الأخرى وقال هذا أطهر وأطيب وقد قال سليمان عليه السلام لأطوفن
الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين وأنه فعل ذلك قال ابن عباس كان في

كسليمان بن داود كانت له قوة مائة رجل وكانت له ثلاث مائة امرأة وثلاث مائة سرية، وحكى
النقاش تسع مائة امرأة وثلاث مائة سرية، وقد كان لداود على زهده وأكله من عمل
يده تسع وتسعون امرأة وتمت بزوج أوريا مائة، وقد نبه على ذلك في الكتاب
العزيز بقوله إن هذا أخي الآية، وفي حديث أنس عنه عليه السلام فضلت على الناس
بأربع بالسخاء والشجاعة وكثرة الجماع وقوة البطش، وأما الجاه فمحمود عند العقلاء
عادة وبقدر جاهه عظمه في القلوب، وقد قال تعالى في صفة عيسى وجيها في الدنيا
والآخرة لكن آفاته كثيرة فهو مضر لبعض الناس لعقبى الآخرة بل الأولى فمن ثم ذمه
من ذمه ومدح ضده، وورد في الشرع مدح الخمول وذم العلو في الأرض، وكان صلى الله عليه
وسلم قد رزق من الحشمة والمكانة في القلوب والعظمة قبل النبوة عند الجاهلية
وبعدها وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه ويقصدون أذاه في نفسه خفية حتى إذا
واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته وأخباره في ذلك معروفة سيأتي بعضها
وقد كان يبهت ويفرق لرؤيته من لم يره كما روي عن قيلة أنها لما رأته أرعدت
من الفرق فقال يا مسكينة عليك السكينة، وفي حديث أبي مسعود أن رجلا قام بين
يديه فأرعد فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هون عليك فإني لست بملك، الحديث
فأما عظيم قدره بالنبوة وشريف منزلته بالرسالة وإنافة رتبته بالاصطفاء والكرامة
في الدنيا فأمر هو مبلغ النهاية ثم هو في الآخرة سيد ولد آدم ولا فخر، وعلى معنى هذا
الفصل نظمنا هذا القسم بأسره.

فصل

وأما الضرب الثالث فهو ما تختلف
الحالات في التمدح به والتفاخر بسببه والتفضيل لأجله ككثرة المال فصاحبه على
الجملة معظم عند العامة لاعتقادها توصله به إلى حاجاته وتمكن أغراضه بسببه وإلا
فليس فضيلة في نفسه فمتى كان المال بهذه الصورة وصاحبه منفقا له في مهماته ومهمات
من اعتراه وأمله وتصريفه في مواضعه مشتريا به المعالي والثناء الحسن والمنزلة
من القلوب كان فضيلة في صاحبه عند أهل الدنيا وإذا صرفه في وجوه البر وأنفقه
في سبيل الخير وقصد بذلك الله والدار الآخرة كان فضيلة عند الكل بكل حال ومتى

كان صاحبه ممسكا له غير موجهه وجوهه حريصا على جمعه عاد كثره كالعدم وكان
منقصة في صاحبه ولم يقف به على جدد السلامة بل أوقعه في هوة رذيلة البخل ومذمة
النذالة فإذا التمدح بالمال وفضيلته عند مفضله ليست لنفسه وإنما هي للتوصل به
إلى غيره وتصريفه في متصرفاته فجامعه إذا لم يضعه مواضعه ولا وجهه وجوهه
غير مليء بالحقيقة ولا غني بالمعنى ولا ممتدح عند أحد من العقلاء بل هو فقير أبدا غير واصل
إلى غرض من أغراضه إذ ما بيده من المال الموصل لها لم يسلط عليه فأشبه خازن مال
غيره ولا مال له فكأنه ليس في يده منه شيء، والمنفق مليء غني بتحصيله فوائد المال
وإن لم يبق في يده من المال شيء. فانظر سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلقه
في المال تجده قد أوتي خزائن الأرض ومفاتيح البلاد وأحلت له الغنائم ولم تحل لنبي
قبله وفتح عليه في حياته صلى الله عليه وسلم بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب
وما دانى ذلك من الشام والعراق وجلبت إليه من أخماسها وجزيتها وصدقاتها ما لا
يجبى للملوك إلا بعضه وهادته جماعة من ملوك الأقاليم فما استأثر بشيء منه ولا أمسك
منه درهما بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره وقوى به المسلمين وقال ما يسرني أن لي
أحدا ذهبا يبيت عندي منه دينار إلا دينارا أرصده لديني، وأتته دنانير مرة فقسمها
وبقيت منها ستة فدفعها لبعض نسائه فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها وقال الآن استرحت
ومات ودرعه مرهونة في نفقة عياله واقتصر من نفقته وملبسه ومسكنه على ما
تدعوه ضرورته إليه وزهد فيما سواه فكان يلبس ما وجده فيلبس في الغالب الشملة
والكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخوصة بالذهب
ويرفع لمن لم يحضر إذ المباهاة في الملابس والتزين بها ليست من خصال الشرف والجلالة
وهي من سمات النساء والمحمود منها نقاوة الثوب والتوسط في جنسه وكونه لبس
مثله غير مسقط لمروءة جنسه مما لا يؤدي إلى الشهرة في الطرفين وقد ذم الشرع
ذلك وغاية الفخر فيه في العادة عند الناس إنما تعود إلى الفخر بكثرة الموجود ووفور الحال
وكذلك التباهي بجودة المسكن وسعة المنزل وتكثير آلاته وخدمه ومركوباته ومن ملك

الارض وجبي اليه ما فيها فتركه الدنيا زهدا وتنزها فهو حائز لفضيلة المالية ومثاب للفخر
بهذه الخصلة ان كانت فضيلة زائدا عليها في الفخر ومعرقا في المدح باضرابه عنها
وزهده في فانيها وبذلها في مظانها

فصل واما الخصال المكتسبة من الاخلاق
الحميدة والاداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها وتعظيم المتصف
بالخلق الواحد منها فضلا عما فوقه واثنى الشرع على جميعها وامر بها ووعد السعادة
الدائمة للمتخلق بها ووصف بعضها بانه من اجزاء النبوة وهي المسماة بحسن الخلق
وهو الاعتدال في قوى النفس واوصافها والتوسط فيها دون الميل الى منحرف اطرافها
فجميعها قد كانت خلق نبينا عليه السلام على الانتهاء في كمالها والاعتدال الى غايتها حتى
اثنى الله تعالى عليه بذلك فقال وانك لعلى خلق عظيم قالت عائشة كان خلقه القرآن
يرضى برضاه ويسخط بسخطه وقال عليه السلام بعثت لاتمم مكارم الاخلاق قال
انس كان النبي صلى الله عليه وسلم احسن الناس خلقا وعن علي بن ابي طالب مثله
وكان فيما ذكره المحققون مجبولا عليها في اصل خلقته واول فطرته لم تحصل له باكتساب
ولا رياضة الا بجود الاهي وخصوصية ربانية وهكذا لسائر الانبياء ومن طالع سيرهم
منذ صباهم الى مبعثهم حقق ذلك كما عرف من حال عيسى وموسى ويحيى وسليمان وغيرهم
بل غرزت فيهم هذه الاخلاق في الجبلة واودعوا العلم والحكمة في الفطرة قال الله تعالى
وآتيناه الحكم صبيا قال المفسرون اعطي يحيى العلم بكتاب الله في حال صباه وقال
معمر كان ابن سنتين او ثلاث فقال له الصبيان لم لا تلعب فقال اللعب خلقت وقيل في
قوله مصدقا بكلمة من الله صدق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين فشهد له انه كلمة
الله وروحه وقيل صدقه وهو في بطن امه فكانت ام يحيى تقول لمريم اني اجد ما في
بطني يسجد لما في بطنك تحية له وقد نص الله على كلام عيسى لامه عند ولادتها
اياه بقوله لها لا تحزني على قراءة من قرا من تحتها وعلى قول من قال ان المنادي عيسى ونص
على كلامه في مهده فقال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وقال ففهمناها
سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وقد ذكر من حكم سليمان وهو صبي يلعب في قصة

المرجومة وفي قصة الصبي ما اقتدى به داود ابوه وحكى الطبري ان عمره كان حين
اوتي الملك اثنا عشر عاما وكذلك قصة موسى مع فرعون واخذه بلحيته وهو طفل
وقال المفسرون في قوله ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل اي هديناه صغيرا قاله مجاهد
وغيره وقال ابن عطاء اصطفاه قبل ابداء خلقه وقال بعضهم لما ولد ابراهيم بعث
الله اليه ملكا يامره عن الله ان يعرفه بقلبه ويذكره بلسانه فقال قد فعلت ولم يقل افعل
فذلك رشده وقيل ان القاء ابراهيم في النار ومحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة
وان ابتلاء اسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين وان استدلال ابراهيم بالكوكب والقمر
والشمس كان وهو ابن خمسة عشر شهرا وقيل اوحي الى يوسف وهو صبي عندما
هم اخوته بالقائه في الجب يقول تعالى واوحينا اليه لتنبئنهم بامرهم هذا الاية الى غير
ذلك مما ذكر من اخبارهم وقد حكى اهل السير ان آمنة بنت وهب اخبرت ان نبينا
محمدا صلى الله عليه وسلم ولد حين ولد باسطا يديه الى الارض رافعا راسه الى السماء وقال
في حديثه لما نشات بغضت الي الاوثان وبغض الي الشعر ولم اهم بشيء مما كانت
الجاهلية تفعله الا مرتين فعصمني الله منهما ثم لم اعد ثم يتمكن الامر لهم وتترادف
نفحات الله عليهم وتشرق انوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء
الله تعالى لهم بالنبوة في تحصيل هذه الخصال الشريفة النهاية دون ممارسة ولا رياضة
قال الله تعالى ولما بلغ اشده واستوى آتيناه حكما وعلما وقد نجد غيرهم يطبع على بعض
هذه الاخلاق دون جميعها ويولد عليها فيسهل عليه اكتساب تمامها عناية من الله تعالى
كما نشاهد من خلقة بعض الصبيان على حسن السمت او الشهامة او صدق اللسان او
السماحة وكما نجد بعضهم على ضدها فبالاكتساب يكمل ناقصها وبالرياضة والمجاهدة
يستجلب معدومها ويعتدل منحرفها وباختلاف هذين في الخلق يتفاوت الناس فيها وكل
ميسر لما خلق له ولهذا ما قد اختلف السلف فيها هل هذا الخلق جبلة او مكتسبة فحكى
الطبري عن بعض السلف ان الخلق الحسن جبلة وغريزة في العبد وحكاه عن عبد الله بن
مسعود والحسن وبه قال هو والصواب ما اصلناه وقد روى سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم

فإن كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب. وقال عمر بن الخطاب في حديثه
والجرأة والجبن غرائز يضعها الله حيث يشاء. وهذه الأخلاق المحمودة والخصال
الجميلة كثيرة ولكنا نذكر أصولها ونشير إلى جميعها ونحقق وصفه صلى الله عليه وسلم
بها إن شاء الله. **فصل** أما أصل فروعها وعنصر ينابيعها ونقطة دائرتها
فالعقل الذي منه ينبعث العلم والمعرفة ويتفرع عن هذا ثقوب الرأي وجودة الفطنة
والإصابة وصدق الظن والنظر للعواقب ومصالح النفس ومجاهدة الشهوة وحسن
السياسة والتدبير واقتناء الفضائل وتجنب الرذائل وقد أشرنا إلى مكانه منه عليه
السلام وبلوغه منه ومن العلم الغاية التي لم يبلغها بشر سواه وإذ جلالة محله من ذلك
ومما تفرع منه متحقق عند من تتبع مجاري أحواله واطراد سيره وطالع جوامع كلامه
وحسن شمائله وبدائع سيره وحكم حديثه وعلمه بما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة
وحكم الحكماء وسير الأمم الخالية وأيامها وضرب الأمثال وسياسات الأنام وتقرير
الشرائع وتأصيل الآداب النفيسة والشيم الحميدة إلى فنون العلوم التي اتخذ أهلها كلامه
عليه السلام فيها قدوة وإشاراته حجة كالعبارة والطب والحساب والفرائض والنسب
وغير ذلك مما سنبينه في معجزاته دون تعليم ولا مدارسة ولا مطالعة كتب من تقدم ولا
الجلوس إلى علمائهم بل نبي أمي لم يعرف بشيء من ذلك حتى شرح الله صدره وأبان أمره
وعلمه وأقرأه يعلم ذلك بالمطالعة والبحث عن حاله ضرورة وبالبرهان القاطع على
نبوته نظرا فلا نطول بسرد الأقاصيص وآحاد القضايا إذ مجموعها ما لا يأخذه حصر
ولا يحيط به حفظ جامع وبحسب عقله كانت معارفه صلى الله عليه وسلم إلى سائر ما
علمه الله وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان وعجائب قدرته وعظيم ملكوته قال تعالى
وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما حارت العقول في تقدير فضله
عليه وخرست الألسن دون وصف يحيط بذلك أو ينتهي إليه. **فصل** وأما الحلم
والاحتمال والعفو والقدرة والصبر على ما يكره وبين هذه الألقاب فرق فإن الحلم حالة
توقر وثبات عند الأسباب المحركات والاحتمال حبس النفس عند الآلام والمؤذيات

ومثلها الصبر ومعانيها متقاربة وأما العفو فهو ترك المؤاخذة وهذا كله مما أدب الله به
نبيه صلى الله عليه وسلم فقال خذ العفو وأمر بالعرف الآية. روي أن النبي صلى الله عليه وسلم
لما نزلت عليه هذه الآية سأل جبريل عن تأويلها فقال له حتى أسأل العالم ثم ذهب ثم أتاه
فقال يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك
وقال له واصبر على ما أصابك الآية وقال فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل وقال وليعفوا
وليصفحوا الآية وقال ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ولا خفاء بما يؤثر من حلمه
واحتماله وأن كل حليم قد عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة وهو صلى الله عليه وسلم
لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبرا وعلى إسراف الجاهل إلا حلما. حدثنا القاضي أبو عبد الله
محمد بن علي التغلبي وغيره قالوا حدثنا محمد بن عتاب حدثنا أبو بكر بن واقد القاضي وغيره
حدثنا أبو عيسى حدثنا عبيد الله حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا مالك عن ابن شهاب عن عروة
عن عائشة قالت ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرين إلا اختار أيسرهما
ما لم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم
لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما كسرت
رباعيته وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه شديدا وقالوا لو دعوت عليهم فقال
إني لم أبعث لعانا ولكني بعثت داعيا ورحمة اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون. وروي
عن عمر رضي الله عنه أنه قال في بعض كلامه بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد دعا نوح
على قومه فقال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا
من عند آخرنا فلقد وطئ ظهرك وأدمي وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول
إلا خيرا فقلت اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. **قال الفقيه القاضي**
رضي الله عنه انظر ما في هذا القول من جماع الفضائل ودرجات الإحسان وحسن
الخلق وكرم النفس وغاية الصبر والحلم إذ لم يقتصر صلى الله عليه وسلم على السكوت
عنهم حتى عفا ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم فقال اللهم اغفر أو اهد
ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله لقومي ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال فإنهم لا يعلمون

ولما قال له الرجل اعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله لم يزده في جوابه أن بين له
ما جهله ووعظ نفسه وذكرها بما قال له فقال ويحك فمن يعدل إن لم أعدل خبت وخسرت
إن لم أعدل ونهى من أراد من أصحابه قتله. ولما تصدى له غورث بن الحارث ليفتك به ورسول
الله صلى الله عليه وسلم منتبذ تحت شجرة وحده قائلا والناس قائلون في غزاة فلم ينتبه
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو قائم والسيف صلتا في يده فقال من يمنعك مني
فقال الله فسقط السيف من يده فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم وقال من يمنعك مني
قال كن خير آخذ فتركه وعفا عنه فجاء إلى قومه فقال جئتكم من عند خير الناس.
ومن عظيم خبره في العفو عفوه عن اليهودية التي سمته في الشاة بعد اعترافها على
الصحيح من الرواية. وأنه لم يؤاخذ لبيد بن الأعصم إذ سحره وقد أعلم به وأوحي إليه
بشرح أمره ولا عتب عليه فضلا عن معاقبته. وكذلك لم يؤاخذ عبد الله بن أبي وأشباهه
من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم في جهته قولا وفعلا بل قال لمن أشار بقتل بعضهم
لا يتحدث أن محمدا يقتل أصحابه. وعن أنس كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه برد
غليظ الحاشية فجبذه أعرابي بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة
عاتقه ثم قال يا محمد احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك فإنك لا تحمل لي من مالك
ولا مال أبيك فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال المال مال الله وأنا عبده ثم قال ويقاد
منك يا أعرابي ما فعلت بي قال لا قال لم قال لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة فضحك صلى
الله عليه وسلم ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر. قالت عائشة ما
رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حرمة من
محارم الله وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله وما ضرب خادما ولا امرأة
وجيء إليه برجل فقيل هذا أراد أن يقتلك فقال له صلى الله عليه وسلم لن تراع لن تراع
ولو أردت ذلك لم تسلط علي. وجاءه زيد بن سعنة قبل إسلامه يتقاضاه دينا
عليه فجبذ ثوبه عن منكبه وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ له ثم قال إنكم يا بني عبد
المطلب مطل فانتهره عمر وشدد له في القول والنبي عليه السلام يتبسم فقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر تأمرني بحسن القضاء
وتأمره بحسن التقاضي ثم قال لقد بقي من أجله ثلاث وأمر عمر يقضيه ماله ويزيده
عشرين صاعا لما روعه فكان سبب إسلامه وذلك أنه كان يقول ما بقي من علامات
النبوة شيء إلا وقد عرفتها في محمد إلا اثنتين لم أخبرهما يسبق حلمه جهله ولا
يزيده شدة الجهل إلا حلما فاختبره بهذا فوجده كما وصف. والحديث عن حلمه عليه
السلام وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن نأتي عليه وحسبك ما ذكرناه مما في
الصحيح والمصنفات الثابتة إلى ما بلغ متواترا مبلغ اليقين من صبره على مقاساة قريش
وأذى الجاهلية ومصابرة الشدائد الصعبة معهم إلى أن أظفره الله عليهم وحكمه
فيهم وهم لا يشكون في استئصال شأفتهم وإبادة خضرائهم فما زاد على أن عفا وصفح وقال
ما تقولون أني فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم فقال أقول كما قال أخي
يوسف لا تثريب عليكم الآية اذهبوا فأنتم الطلقاء. وقال أنس هبط ثمانون رجلا
من التنعيم صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا فأعتقهم صلى
الله عليه وسلم فأنزل الله وهو الذي كف أيديهم عنكم الآية. وقال لأبي سفيان وقد سيق
إليه بعد أن جلب إليه الأحزاب وقتل عمه وأصحابه ومثل بهم فعفا عنه ولاطفه في
القول ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله فقال بأبي أنت وأمي ما
أحلمك وأوصلك وأكرمك. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبعد الناس غضبا
وأسرعهم رضى صلى الله عليه وسلم. **فصل** وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة
فمعانيها متقاربة وقد فرق بعضهم بينها بفروق فجعلوا الكرم الإنفاق بطيب
النفس فيما يعظم خطره ونفعه وسموه أيضا جرأة وهو ضد النذالة. والسماحة
التجافي عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس وهو ضد الشكاسة. والسخاء سهولة
الإنفاق وتجنب اكتساب ما لا يحمد وهو الجود وهو ضد التقتير. وكان صلى الله عليه وسلم
لا يوازى في هذه الأخلاق الكريمة ولا يبارى بهذا وصفه كل من عرفه. حدثنا القاضي
الشهيد أبو علي الصدفي رحمه الله حدثنا القاضي أبو الوليد الباجي حدثنا أبو ذر الهروي

حدثنا أبو الهيثم الكشميهني وأبو محمد السرخسي وأبو إسحاق البلخي حدثنا أبو عبد
الله الفربري حدثنا البخاري حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان عن ابن المنكدر سمعت
جابر بن عبد الله يقول ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فقال لا. وعن أنس وسهل
ابن سعد مثله. وقال ابن عباس كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير وأجود
ما كان في شهر رمضان وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة. وعن
أنس أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى بلده وقال أسلموا فإن محمدا
يعطي عطاء من لا يخشى فاقة. وأعطى غير واحد مائة من الإبل وأعطى صفوان مائة ثم
مائة ثم مائة وهذه كانت خلقه صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وقد قال له ورقة إنك
تحمل الكل وتكسب المعدوم. ورد على هوازن سباياها وكانوا ستة آلاف وأعطى
العباس من الذهب ما لم يطق حمله وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير
ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منه. وجاءه رجل فسأله فقال ما عندي شيء
ولكن ابتع علي فإذا جاءنا شيء قضيناه فقال له عمر ما كلفك الله ما لا تقدر عليه
فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي
العرش إقلالا فتبسم صلى الله عليه وسلم وعرف البشر في وجهه وقال بهذا أمرت. ذكره
الترمذي. وذكر عن معوذ بن عفراء أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بقناع من رطب يريد
طبقا وأجر زغب يريد قثاء فأعطاني ملء كفه حليا وذهبا. قال أنس كان النبي
صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئا لغد. والخبر بجوده وكرمه صلى الله عليه وسلم كثير. وعن أبي
هريرة أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم يسأله فاستسلف له رسول الله صلى الله عليه وسلم
نصف وسق فجاء الرجل يتقاضاه فأعطاه وسقا وقال نصفه قضاء ونصفه نائل.

فصل وأما الشجاعة والنجدة فالشجاعة فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل والنجدة
ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث يحمد فعلها دون خوف وكان صلى الله عليه وسلم
منهما بالمكان الذي لا يجهل قد حضر المواقف الصعبة وفر الكماة والأبطال عنه غير
مرة وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح. وما شجاع إلا وقد أحصيت

له فرة وحفظت عنه جولة سواه. حدثنا أبو علي فيما كتب لي قال حدثنا القاضي سراج
حدثنا أبو محمد الأصيلي حدثنا أبو زيد الفقيه حدثنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل
حدثنا ابن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبي إسحاق سمع البراء وسأله رجل
أفررتم يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم
لم يفر ثم قال لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان آخذ بلجامها والنبي صلى الله عليه
وسلم يقول أنا النبي لا كذب. وزاد غيره أنا ابن عبد المطلب قيل فما رئي يومئذ أحد كان
أشد منه. وقال غيره نزل النبي صلى الله عليه وسلم عن بغلته. وذكر مسلم عن العباس قال
فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق النبي صلى الله عليه وسلم يركض
بغلته نحو الكفار وأنا آخذ بلجامها أكفها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان آخذ بركابه
ثم نادى يا للمسلمين الحديث. وقيل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضب ولا يغضب
إلا لله لم يقم لغضبه شيء. وقال ابن عمر ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من
رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال علي إنا كنا إذا حمي البأس ويروى اشتد البأس
واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ولقد
رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس
يومئذ بأسا. وقيل كان الشجاع هو الذي يقرب منه صلى الله عليه وسلم إذا دنا العدو لقربه
منه. وعن أنس كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس لقد
فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
راجعا قد سبقهم إلى الصوت وقد استبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري والسيف في عنقه
وهو يقول لن تراعوا. وقال عمران بن حصين ما لقي صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول
من يضرب. ولما رآه أبي بن خلف يوم أحد وهو يقول أين محمد لا نجوت إن نجا وقد كان يقول
للنبي صلى الله عليه وسلم حين افتدى يوم بدر عندي فرس أعلفها كل يوم فرقا من ذرة أقتلك
عليها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أنا أقتلك إن شاء الله فلما رآه يوم أحد شد أبي
على فرسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترضه رجال من المسلمين فقال النبي عليه

الغلام سكرا أن خلوا طريقه وتناول الجربة من الحرث بن الصمة فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض ثم استقبله النبي صلى الله عليه وسلم بطعنة في عنقه تدأدأ منها عن فرسه مرارا وقيل بل كسر ضلعا من أضلاعه فرجع إلى قريش يقول قتلني محمد وهم يقولون لا بأس بك فقال لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم أليس قد قال أنا أقتلك والله لو بصق علي لقتلني فمات بسرف في قفولهم إلى مكة.

فصل

وأما الحياء والإغضاء فالحياء رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهته أو ما يكون تركه خيرا من فعله والإغضاء التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته وكان النبي صلى الله عليه وسلم أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء قال الله سبحانه إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم الآية. وحدثنا أبو محمد بن عتاب بقراءتي عليه حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد حدثنا أبو الحسن القابسي حدثنا أبو زيد المروزي حدثنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا عبدان أخبرنا عبد الله أخبرنا شعبة عن قتادة سمعت عبد الله مولى أنس عن أبي سعيد الخدري كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه. وكان صلى الله عليه وسلم لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشافه أحدا بما يكرهه حياء وكرم نفس. وعن عائشة كان صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا ولكن يقول ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهى عنه ولا يسمي فاعله. وروى أنس أنه دخل عليه رجل به أثر صفرة فلم يقل له شيئا وكان لا يواجه أحدا بما يكره فلما خرج قال لو قلتم له يغسل هذا ويروى ينزعها. قالت عائشة في الصحيح لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا بالأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح. وقد حكي مثل هذا الكلام عن التوراة من رواية ابن سلام وعبد الله بن عمرو بن العاص. وروي عنه أنه كان من حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد وأنه كان يكني عما اضطره الكلام إليه مما يكره. وعن عائشة ما رأيت فرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قط.

فصل

وأما حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه صلى الله عليه وسلم مع أصناف الخلق فبحيث

انتشرت به الأخبار الصحيحة. قال علي رضي الله عنه في وصفه عليه السلام كان أجود الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة. حدثنا أبو الحسين علي بن مشرف الأنماطي فيما أجاز فيه وخطه لي قال حدثنا أبو إسحاق الحبال حدثنا أبو محمد بن النحاس حدثنا ابن الأعرابي حدثنا أبو داود حدثنا هشام أبو مروان ومحمد بن المثنى حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعي سمعت يحيى بن أبي كثير يقول حدثني محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة عن قيس بن سعد قال زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر قصة في آخرها فلما أراد الانصراف قرب له سعد حمارا وطأ عليه بقطيفة فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال سعد يا قيس اصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قيس فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم اركب وفي رواية أخرى اركب أمامي فصاحب الدابة أولى بمقدمها فأبيت فقال إما أن تركب وإما أن تنصرف فانصرفت. وكان صلى الله عليه وسلم يؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه ويتفقد أصحابه ويعطي كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء. بهذا وصفه ابن أبي هالة قال وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه. وقال الله تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك. وقال ادفع بالتي هي أحسن السيئة الآية. وكان يجيب من دعاه ويقبل الهدية ولو كانت كراعا ويكافئ عليها. قال أنس خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط وما قال لشيء صنعته لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته. وعن عائشة رضي الله عنها ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال لبيك. وقال جرير بن عبد الله ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت

ولا تأتيه إلا تبسم، وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم
في حجره، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة
ويقبل عذر المعتذر. وقال أنس: ما التقم أحد أذن النبي صلى الله عليه وسلم فينحي رأسه حتى
يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخذ، ولم ير
مقدما ركبتيه بين يدي جليس له. وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة
لم ير قط مادا رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد، يكرم من يدخل عليه وربما بسط
له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى، ويكني
أصحابه، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه
بنهي أو قيام. ويروى: بانتهاء أو قيام. وروي أنه كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا
خفف صلاته، وسأله عن حاجته فإذا فرغ عاد إلى صلاته. وكان أكثر الناس تبسما
وأطيبهم نفسا ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب. قال عبد الله بن الحارث: ما رأيت أحدا
أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعن أنس: كان خدم المدينة يأتون النبي
صلى الله عليه وسلم إذا صلى الغداة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بآنية إلا غمس يده فيها، وربما
كان ذلك في الغداة الباردة يريدون به التبرك. **فصل** وأما الشفقة والرأفة والرحمة
لجميع الخلق فقد قال تعالى فيه: عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم. وقال
وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين. قال بعضهم: من فضله عليه السلام أن الله أعطاه اسمين
من أسمائه فقال: بالمؤمنين رءوف رحيم. وحكى نحوه الإمام أبو بكر بن فورك. حدثنا القاضي
الشهيد حدثنا الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد الخشني بقراءتي عليه حدثنا إمام الحرمين
أبو علي الطبري حدثنا عبد الغافر الفارسي حدثنا أبو أحمد الجلودي حدثنا إبراهيم بن
سفيان حدثنا مسلم بن الحجاج حدثنا أبو الطاهر أخبرنا ابن وهب أخبرني يونس عن ابن
شهاب قال غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة وذكر حنينا قال فأعطى رسول الله
صلى الله عليه وسلم صفوان بن أمية مائة من النعم ثم مائة ثم مائة. قال ابن شهاب حدثني
سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله لقد أعطاني ما أعطاني وإنه لأبغض الخلق إلي فما زال

يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إلي. وروي أن أعرابيا جاءه يطلب منه شيئا فأعطاه ثم
قال: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا ولا أجملت. فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم
أن كفوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئا ثم قال: أحسنت إليك؟ قال: نعم فجزاك
الله من أهل وعشيرة خيرا. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي
من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك.
قال: نعم. فلما كان الغد أو العشي جاء فقال صلى الله عليه وسلم: إن هذا الأعرابي قال ما قال
فزدناه فزعم أنه رضي، أكذلك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا. فقال صلى
الله عليه وسلم: مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها
إلا نفورا، فناداهم صاحبها: خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم. فتوجه
لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها
واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار. وروي
عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا فإني أحب
أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر. ومن شفقته على أمته صلى الله عليه وسلم
تخفيفه وتسهيله عليهم، وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم، كقوله: لولا أن أشق على
أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء. وخبر صلاة الليل، ونهيهم عن الوصال، وكراهته
دخول الكعبة لئلا يعنت أمته، ورغبته لربه أن يجعل سبه ولعنه لهم رحمة لهم. وأنه كان
يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته. ومن شفقته صلى الله عليه وسلم أن دعا ربه وعاهده
فقال: أيما رجل سببته أو لعنته فاجعل ذلك له زكاة ورحمة وصلاة وطهورا وقربة
تقربه بها إليك يوم القيامة. ولما كذبه قومه أتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله قد
سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك
الجبال وسلم عليه وقال: مرني بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. قال صلى الله عليه
وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا. وروى ابن
المنكدر أن جبريل عليه السلام قال للنبي عليه السلام: إن الله تعالى أمر السماء والأرض

والجبال أن تطبق عليهم فقال أو خير من ذلك لعل الله أن يتوب عليهم قالت عائشة رضي الله
عنها ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما وقال ابن مسعود
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا . وعن عائشة
رضي الله عنها أنها ركبت بعيرا وفيه صعوبة فجعلت تردده فقال لها رسول الله
صلى الله عليه وسلم عليك بالرفق

فصل وأما خلقه صلى الله عليه وسلم في الوفاء
وحسن العهد وصلة الرحم . فحدثنا القاضي أبو عامر محمد بن إسمعيل بقراءتي عليه قال
حدثنا أبو بكر محمد بن محمد قال حدثنا أبو إسحق الحبال حدثنا أبو محمد بن النحاس حدثنا
ابن الأعرابي حدثنا أبو داود حدثنا محمد بن يحيى حدثنا محمد بن سنان حدثنا إبراهيم بن
طهمان عن بديل عن عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق عن أبيه عن عبد الله بن أبي الحمساء
قال بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه
بها في مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فإذا هو في مكانه فقال يا فتى لقد
شققت علي أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك . وعن أنس كان النبي صلى الله عليه وسلم
إذا أتي بهدية قال اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة إنها كانت
تحب خديجة . وعن عائشة رضي الله عنها قالت ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة
رضي الله عنها لما كنت أسمعه يذكرها وإن كان ليذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها
واستأذنت عليه أختها فارتاح إليها ودخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال
عنها فلما خرجت قال إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان ووصفه
بعضهم فقال كان يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم وقال صلى
الله عليه وسلم إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء غير أن لهم رحما سأبلها ببلالها . وقد صلى
عليه السلام بأمامة ابنة ابنته زينب يحملها على عاتقه فإذا سجد وضعها وإذا قام
حملها . وعن أبي قتادة وفد وفد النجاشي فقام النبي عليه السلام يخدمهم فقال له أصحابه
نكفيك فقال إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإني أحب أن أكافيهم . ولما جيء بأخته
من الرضاعة الشيماء في سبايا هوازن وتعرفت له بسط لها رداءه وقال لها إن

أحببت أقمت عندي مكرمة محببة أو متعتك ورجعت إلى قومك فاختارت قومها فمتعها
وقال أبو الطفيل رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا غلام إذ أقبلت امرأة حتى دنت منه
فبسط لها رداءه فجلست عليه فقلت من هذه قالوا أمه التي أرضعته . وعن عمر بن
السائب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا يوما فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع
له بعض ثوبه فقعد عليه ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه
ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجلسه بين يديه . وكان
يبعث إلى ثويبة مولاة أبي لهب مرضعته بصلة وكسوة فلما ماتت سأل من بقي من قرابتها
فقيل لا أحد . وفي حديث خديجة أنها قالت له صلى الله عليه وسلم أبشر فوالله لا يخزيك الله
أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب
الحق

فصل وأما تواضعه صلى الله عليه وسلم على علو منصبه ورفعة رتبته
فكان أشد الناس تواضعا وأقلهم كبرا وحسبك أنه خير بين أن يكون نبيا
ملكا أو نبيا عبدا فاختار أن يكون نبيا عبدا فقال له إسرافيل عند ذلك فإن الله قد
أعطاك بما تواضعت له أنك سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من تنشق عنه الأرض وأول
شافع . حدثنا أبو الوليد بن العواد الفقيه رحمه الله بقراءتي عليه في منزله بقرطبة
سنة سبع وخمسمائة قال حدثنا أبو علي الحافظ قال حدثنا أبو عمر حدثنا ابن عبد المؤمن
حدثنا ابن داسة حدثنا أبو داود حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن
نمير عن مسعر عن أبي العنبس عن أبي العدبس عن أبي مرزوق عن أبي غالب عن أبي
أمامة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئا على عصا فقمنا له فقال لا
تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضا وقال إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد
وأجلس كما يجلس العبد وكان يركب الحمار ويردف خلفه ويعود المساكين ويجالس
الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حيث ما انتهى به المجلس
جلس . وفي حديث عمر عنه لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا
عبد الله ورسوله . وعن أنس أن امرأة كان في عقلها شيء جاءته فقالت إن لي إليك

حاجة فقال اجلسي يا أم فلان في أي طرق المدينة شئت أجلس إليك حتى أقضي حاجتك. قال
فجلست فجلس النبي صلى الله عليه وسلم إليها حتى فرغت من حاجتها. قال أنس: كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ويجيب دعوة العبد. وكان يوم بني قريظة على
حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف. قال: وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة
السنخة فيجيب. قال: وحج صلى الله عليه وسلم على رحل رث وعليه قطيفة ما تساوي
أربعة دراهم فقال: اللهم اجعله حجا لا رياء فيه ولا سمعة. هذا وقد فتحت عليه
الأرض وأهدى في حجه ذلك مائة بدنة. ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش
المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قادمته تواضعا لله تعالى. ومن تواضعه
صلى الله عليه وسلم قوله: لا تفضلوني على يونس بن متى، ولا تفضلوا بين الأنبياء، ولا
تخيروني على موسى، ونحن أحق بالشك من إبراهيم، ولو لبثت ما لبث يوسف في السجن
لأجبت الداعي. وقال للذي قال له: يا خير البرية، ذاك إبراهيم. وسيأتي الكلام على هذه
الأحاديث بعد هذا إن شاء الله. وعن عائشة والحسن وأبي سعيد وغيرهم في صفته
وبعضهم يزيد على بعض: كان في بيته في مهنة أهله، يفلي ثوبه ويحلب شاته
ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعلف ناضحه ويقم البيت ويعقل البعير
ويأكل مع الخادم ويعجن معها ويحمل بضاعته من السوق. وعن أنس: إن كانت الأمة
من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت
حتى يقضي حاجتها. ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال له: هون عليك
فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد. وعن أبي هريرة: دخلت السوق
مع النبي صلى الله عليه وسلم فاشترى سراويل وقال للوزان: زن وأرجح. وذكر القصة
قال: فوثب إلى يد النبي صلى الله عليه وسلم يقبلها، فجذب يده وقال: هذا تفعله الأعاجم بملوكها،
ولست بملك، إنما أنا رجل منكم. ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله فقال: صاحب الشيء
أحق بشيئه أن يحمله.

فصل: وأما عدله صلى الله عليه وسلم وأمانته وعفته
وصدق لهجته فكان صلى الله عليه وسلم آمن الناس وأعدل الناس وأعف الناس وأصدقهم
لهجة منذ كان، اعترف له بذلك محادوه وعداه، وكان يسمى قبل نبوته الأمين. قال ابن
إسحاق: كان يسمى الأمين بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة. وقال تعالى: مطاع ثم أمين،
أكثر المفسرين على أنه محمد عليه السلام. ولما اختلفت قريش وتحازبت عند بناء الكعبة
فيمن يضع الحجر حكموا أول داخل عليهم، فإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم داخل، وذلك قبل
نبوته، فقالوا: هذا محمد، هذا الأمين، قد رضينا به. وعن الربيع بن خثيم: كان يتحاكم إلى
النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية قبل الإسلام. وقال صلى الله عليه وسلم: والله إني
لأمين في السماء، أمين في الأرض. حدثنا أبو علي الصدفي الحافظ بقراءتي عليه
حدثنا أبو الفضل بن خيرون حدثنا أبو يعلى بن زوج الحرة حدثنا أبو علي السنجي
حدثنا محمد بن محبوب المروزي حدثنا أبو عيسى الحافظ حدثنا أبو كريب حدثنا
معاوية بن هشام عن سفيان عن أبي إسحاق عن ناجية بن كعب عن علي بن أبي طالب
رضي الله عنه أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت
به. فأنزل الله تعالى: فإنهم لا يكذبونك الآية. وروى غيره: لا نكذبك وما أنت فينا بمكذب.
وقيل: إن الأخنس بن شريق لقي أبا جهل يوم بدر فقال له: يا أبا الحكم ليس هنا غيري
وغيرك يسمع كلامنا، تخبرني عن محمد صادق أم كاذب؟ فقال أبو جهل: والله إن
محمدا لصادق وما كذب محمد قط. وسأل هرقل عنه أبا سفيان فقال: هل كنتم تتهمونه
بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. وقال النضر بن الحارث لقريش: قد كان محمد فيكم
غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم
في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر. وفي
الحديث عنه: ما لمست يده يد امرأة قط لا يملك رقها. وفي حديث علي في وصفه عليه
السلام: أصدق الناس لهجة. وقال في الصحيح: ويحك فمن يعدل إن لم أعدل، خبت وخسرت
إن لم أعدل. قالت عائشة رضي الله عنها: ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرين
إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه. قال أبو العباس
المبرد: قسم كسرى أيامه فقال: يصلح يوم الريح للنوم، ويوم الغيم للصيد، ويوم المطر

للشرب والتفوق بين الشمس للجماع . قال ابن خالويه لما كان أعرفهم بسياسة دنياهم
يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون لكن نبينا صلى الله عليه
وسلم جزأ نهاره ثلاثة أجزاء جزءا لله وجزءا لأهله وجزءا لنفسه ثم جزأ جزءه بينه
وبين الناس فكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول أبلغوا حاجة من لا يستطيع
إبلاغي فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع آمنه الله يوم الفزع الأكبر . وعن
الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ أحدا بقرف أحد ولا يصدق أحدا على
أحد . وذكر أبو جعفر الطبري عن علي رضي الله عنه عنه صلى الله عليه وسلم
ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين كل ذلك يحول الله
بيني وبين ما أريد من ذلك ثم ما هممت بشيء حتى أكرمني الله برسالته قلت ليلة
لغلام كان يرعى معي لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر
الشباب فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة سمعت عزفا بالدفوف والمزامير
لعرس بعضهم فجلست أنظر فضرب على أذني فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس
فرجعت ولم أقض شيئا ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك ثم لم أهم بعد ذلك بسوء

فصل وأما وقاره صلى الله عليه وسلم وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه
فحدثنا أبو علي الجياني الحافظ إجازة وعارضت بكتابه قال حدثنا أبو العباس
الدلائي حدثنا أبو ذر الهروي حدثنا أبو عبد الله الوراق حدثنا اللؤلؤي حدثنا
أبو داود حدثنا عبد الرحمن بن سلام حدثنا حجاج بن محمد عن عبد الرحمن بن أبي
الزناد عن عمر بن عبد العزيز بن وهيب سمعت خارجة بن زيد يقول كان النبي صلى
الله عليه وسلم أوقر الناس في مجلسه لا يكاد يخرج شيئا من أطرافه . وروى أبو
سعيد الخدري كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس في المجلس احتبى بيديه
وكذلك كان أكثر جلوسه صلى الله عليه وسلم محتبيا وعن جابر بن سمرة أنه تربع
وربما جلس القرفصاء وهو في حديث قيلة وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير
حاجة يعرض عمن تكلم بغير جميل وكان ضحكه تبسما وكلامه فصلا لا فضول ولا

تقصير وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيرا له واقتداء به مجلسه مجلس حلم
وحياء وخير وأمانة لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم إذا تكلم أطرق
جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير . وفي صفته يخطو تكفؤا ويمشي هونا كأنما
ينحط من صبب . وفي الحديث الآخر إذا مشى مشى مجتمعا يعرف في مشيته أنه غير غرض
ولا وكل أي غير ضجر ولا كسلان . وقال عبد الله بن مسعود إن أحسن الهدي هدي محمد
صلى الله عليه وسلم وعن جابر بن عبد الله كان في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ترتيل
أو ترسيل . قال ابن أبي هالة كان سكوته على أربع على الحلم والحذر والتقدير والتفكر
قالت عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو عده العاد أحصاه
وكان صلى الله عليه وسلم يحب الطيب والرائحة الحسنة ويستعملهما كثيرا ويحض عليهما
ويقول حبب إلي من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة
ومن مروءته صلى الله عليه وسلم نهيه عن النفخ في الطعام والشراب والأمر بالأكل مما
يلي والأمر بالسواك وإنقاء البراجم والرواجب واستعمال خصال الفطرة

فصل وأما زهده في الدنيا فقد تقدم من الأخبار أثناء هذه السيرة ما يكفي وحسبك من
تقلله منها وإعراضه عن زهرتها وقد سيقت إليه بحذافيرها وترادفت عليه
فتوحها إلى أن توفي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله
وهو يدعو ويقول اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا قوتا . حدثنا سفيان بن العاصي
والحسين بن محمد الحافظ والقاضي أبو عبد الله التميمي قالوا حدثنا أحمد بن عمر
قال حدثنا أبو العباس الرازي قال حدثنا أبو أحمد الجلودي حدثنا ابن سفيان حدثنا
أبو الحسين بن الحجاج حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن
إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام
تباعا من خبز حتى مضى لسبيله . وفي رواية أخرى من خبز شعير يومين متواليين
ولو شاء لأعطاه الله ما لا يخطر ببال . وفي رواية أخرى ما شبع آل رسول الله صلى الله
عليه وسلم من خبز بر حتى لقي الله . وقالت عائشة ما ترك رسول الله صلى الله عليه

صلى الله عليه وسلم

رضي الله عنها

دينارا ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا. وفي حديث عمرو بن الحارث ما ترك إلا سلاحه وبغلته
وأرضا جعلها صدقة. قالت عائشة ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا
شطر شعير في رف لي. وقال لي إني عرض علي أن تجعل لي بطحاء مكة ذهبا فقلت
لا يا رب أجوع يوما وأشبع يوما فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك
وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك. وفي حديث آخر أن جبريل نزل عليه
فقال له إن الله يقرئك السلام ويقول لك أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا وتكون معك
حيثما كنت فأطرق ساعة ثم قال يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال
له قد يجمعها من لا عقل له فقال له جبريل ثبتك الله يا محمد بالقول الثابت. وعن عائشة
قالت إن كنا آل محمد لنمكث شهرا ما نستوقد نارا إن هو إلا التمر والماء. وعن عبد
الرحمن بن عوف توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز
الشعير. وعن عائشة وأبي أمامة وابن عباس نحوه. قال ابن عباس كان صلى الله
عليه وسلم يبيت هو وأهله الليالي المتتابعة طاويا لا يجدون عشاء. وعن أنس
ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة ولا خبز له مرقق
ولا رأى شاة سميطا قط. وعن عائشة إنما كان فراشه الذي ينام عليه أدما حشوه
ليف. وعن حفصة كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي مسحا نثنيه ثنيتين
فينام عليه فثنيناه له ليلة بأربع فلما أصبح قال ما فرشتموني الليلة فذكرنا ذلك
له فقال ردوه بحاله فإن وطأته منعتني الليلة صلاتي وكان ينام أحيانا على سرير
مرمول بشريط حتى يؤثر في جنبه. وعن عائشة قالت لم يمتل جوف نبي الله
شبعا قط ولم يبث شكوى إلى أحد وكانت الفاقة إليه أحب من الغنى وإن
كان ليظل جائعا يلتوي طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه ولو شاء سأل
ربه كنوز جميع الأرض وثمارها ورغد عيشها ولقد كنت أبكي له رحمة مما أرى به
وأمسح بيدي على بطنه مما به من الجوع وأقول نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بما
يقوتك فيقول يا عائشة ما لي وللدنيا إخواني أولو العزم من الرسل صبروا على ما

هو أشد من هذا مضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدني
أستحيي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غدا دونهم وما من شيء هو أحب إلي من
اللحوق بإخواني وأخلائي. قالت فما أقام بعد إلا شهرا حتى توفي صلوات الله عليه.

فصل وأما خوفه ربه وطاعته له وشدة عبادته فعلى قدر علمه بربه ولذلك
قال فيما حدثنا أبو محمد بن عتاب قراءة مني عليه قال حدثنا أبو القاسم الطرابلسي
حدثنا أبو الحسن القابسي حدثنا أبو زيد المروزي حدثنا أبو عبد الله الفربري حدثنا
محمد بن إسماعيل حدثنا يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سعيد بن
المسيب أن أبا هريرة كان يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم
قليلا ولبكيتم كثيرا. زاد في روايتنا عن أبي عيسى الترمذي رفعه إلى أبي ذر إني
أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع
أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم
كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله لوددت
أني شجرة تعضد. وروي هذا الكلام وددت أني شجرة تعضد من قول أبي ذر نفسه وهو
أصح. وفي حديث المغيرة صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه. وفي
رواية أنه كان يصلي حتى ترم قدماه فقيل له أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من
ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا. ونحوه عن أبي سلمة وأبي هريرة. وقالت
عائشة كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديمة وأيكم يطيق ما كان يطيق
وقالت كان يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم. ونحوه عن ابن عباس
وأم سلمة وأنس وقال كنت لا تشاء أن تراه من الليل مصليا إلا رأيته مصليا ولا نائما إلا
رأيته نائما. وقال عوف بن مالك كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فاستاك
ثم توضأ ثم قام يصلي فقمت معه فبدأ فاستفتح البقرة فلا يمر بآية رحمة إلا وقف
فسأل ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول سبحان ذي
الجبروت والملكوت والعظمة ثم سجد وقال مثل ذلك ثم قرأ آل عمران ثم سورة سورة

يفعل مثل ذلك. وعن حذيفة مثله وقال في غير حديث قيامه وجلوسه بين السجدتين نحوًا
منه وقال حتى قرأ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة. وعن عائشة قام رسول الله صلى
الله عليه وسلم بآية من القرآن ليلة. وعن عبد الله بن الشخير أتيت رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل. قال ابن أبي هالة كان صلى الله عليه وسلم
متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة. وقال عليه السلام إني لأستغفر الله
في اليوم مائة مرة. وروي سبعين مرة. وعن علي رضي الله عنه قال سألت رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني والحب أساسي
والشوق مركبي وذكر الله أنيسي والثقة كنزي والحزن رفيقي والعلم سلاحي والصبر
ردائي والرضى غنيمتي والعجز فخري والزهد حرفتي واليقين قوتي والصدق
شفيعي والطاعة حسبي والجهاد خلقي وقرة عيني في الصلاة. وفي حديث
آخر وثمرة فؤادي في ذكره وغمي لأجل أمتي وشوقي إلى ربي. **فصل** اعلم وفقنا
الله وإياك أن صفات جميع الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم من كمال الخلق وحسن
الصورة وشرف النسب وحسن الخلق وجميع المحاسن هي هذه الصفة لأنها صفة الكمال
والكمال والتمام البشري والفضل الجميع لهم صلوات الله عليهم إذ رتبتهم أشرف
الرتب ودرجاتهم أرفع الدرجات ولكن فضل الله بعضهم على بعض قال تعالى تلك الرسل
فضلنا بعضهم على بعض وقال ولقد اخترناهم على علم على العالمين وقد قال عليه
السلام إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم قال آخر الحديث على
خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم عليه السلام طوله ستون ذراعا في السماء
وفي حديث أبي هريرة رأيت موسى فإذا رجل ضرب رجل أقنى كأنه من رجال شنوءة
ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربعة كثير خيلان الوجه أحمر كأنما خرج من ديماس
وفي حديث آخر مبطن مثل السيف قال وأنا أشبه ولد إبراهيم به. وقال في حديث آخر
في صفة موسى كأحسن ما أنت راء من أدم الرجال. وفي حديث أبي هريرة عنه صلى
الله عليه وسلم ما بعث الله تعالى من بعد لوط نبيا إلا في ذروة من قومه ويروى في ثروة

أي في كثرة ومنعة. وحكى الترمذي عن قتادة ورواه الدارقطني من حديث قتادة
عن أنس ما بعث الله نبيا إلا حسن الوجه حسن الصوت وكان نبيكم أحسنهم وجها
وأحسنهم صوتا. وفي حديث هرقل وسؤاله أبا سفيان عن نسبه فقلت هو فيكم ذو نسب وكذلك
الرسل تبعث في أنساب قومها. وقال تعالى في أيوب إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه
أواب. وقال تعالى يا يحيى خذ الكتاب بقوة إلى قوله ويوم يبعث حيا. وقال إن الله يبشرك
بيحيى إلى قوله من الصالحين. وقال إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران
الآيتين. وقال في نوح إنه كان عبدا شكورا. وقال إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه
المسيح إلى الصالحين. وقال إني عبد الله آتاني الكتاب إلى ما دمت حيا. وقال يا أيها
الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى الآية. قال النبي صلى الله عليه وسلم كان موسى
رجلا حييا ستيرا ما يرى من جسده شيء استحياء الحديث. وقال تعالى عنه فوهب
لي ربي حكما الآية. وقال في وصف جماعة منهم إني لكم رسول أمين. وقال إن
خير من استأجرت القوي الأمين. وقال فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل وقال ووهبنا
له إسحاق ويعقوب كلا هدينا إلى قوله بهداهم اقتده فوصفهم بأوصاف جمة من
الصلاح والهدى والاجتباء والحكم والنبوة. وقال فبشرناه بغلام عليم وحليم
وقال ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم إلى أمين. وقال ستجدني إن
شاء الله من الصابرين. وقال في إسماعيل إنه كان صادق الوعد الآيتين. وفي موسى
إنه كان مخلصا. وفي سليمان نعم العبد إنه أواب. وقال واذكر عبادنا إبراهيم
وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إلى الأخيار. وفي داود إنه أواب. ثم قال
وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب. وقال عن يوسف اجعلني على خزائن
الأرض إني حفيظ عليم. وفي موسى ستجدني إن شاء الله صابرا. وقال وما أريد
أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت. وقال ولوطا آتيناه
حكما وعلما. وقال إنهم كانوا يسارعون في الخيرات الآية. قال سفيان هو الحزن الدائم
في آي كثيرة ذكر فيها من خصالهم ومحاسن أخلاقهم الدالة على كمالهم. وجاء من ذلك في

الأحاديث كثير لقوله إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبي
ابن نبي ابن نبي ابن نبي. وفي حديث أخر: وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم
وروي أن سليمان كان مع ما أعطي من الملك لا يرفع بصره إلى السماء تخشعا وتواضعا
لله. وكان يطعم الناس لذائذ الأطعمة ويأكل خبز الشعير. وأوحي إليه يا رأس العابدين
وابن محجة الزاهدين. وكانت العجوز تعترضه وهو على الريح في جنوده فيأمر الريح
فتقف فينظر في حاجتها ويمضي. وقيل ليوسف ما لك تجوع وأنت على خزائن الأرض
قال أخاف أن أشبع فأنسى الجائع. وروى أبو هريرة عنه عليه السلام خفف على داود
القرآن فكان يأمر بدابته لتسرج فيفرغ من القرآن قبل أن تسرج ولا يأكل إلا من عمل
يده. قال الله تعالى وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد. وكان سأل ربه
أن يرزقه عملا بيده يغنيه عن بيت مال الله. وقال عليه السلام أحب الصلاة إلى الله
صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه
وينام سدسه ويصوم يوما ويفطر يوما وكان يلبس الصوف ويفترش الشعر
ويأكل خبز الشعير بالملح والرماد ويمزج شرابه بالدموع ولم ير ضاحكا بعد الخطيئة
ولا شاخصا ببصره إلى السماء حياء من ربه ولم يزل باكيا حياته كلها. وقيل بكى
حتى نبت العشب من دموعه وحتى اتخذت الدموع في خده أخدودا. وقيل كان يخرج
متنكرا يتعرف سيرته فيستمع الثناء عليه فيزداد تواضعا. وقيل لعيسى عليه السلام
لو اتخذت حمارا فقال أنا أكرم على الله من أن يشغلني بحمار. وكان يلبس الشعر ويأكل
الشجر ولم يكن له بيت أينما أدركه النوم نام. وكان أحب الأسامي إليه أن يقال له
مسكين. وقيل إن موسى لما ورد ماء مدين كانت ترى خضرة البقل في بطنه من
الهزال. وقال عليه السلام لقد كان الأنبياء قبلي يبتلى أحدهم بالفقر والقمل وكان
ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم. وقال عيسى لخنزير اذهب بسلام فقيل
له في ذلك فقال أكره أن أعود لساني النطق بالسوء. وقال مجاهد كان طعام يحيى
العشب وكان يبكي من خشية الله حتى اتخذ الدمع مجرى في خده. وكان يأكل

مع الوحش ليلا لا يخالط الناس. وحكى الطبري عن وهب أن موسى كان يستظل
بعريش ويأكل في نقرة من حجر ويكرع فيها إذا أراد أن يشرب كما تكرع الدابة تواضعا
لله بما أكرمه به من كلامه. وأخبارهم في هذا كله مسطورة وصفاتهم في الكمال
وجميل الأخلاق وحسن الصور والشمائل معروفة مشهورة فلا نطول بها ولا تلتفت إلى ما
تجده في كتب بعض جهلة المؤرخين والمفسرين مما يخالف هذا

فصل

قد أتيناك أكرمك الله من ذكر الأخلاق الحميدة والفضائل المجيدة وخصال الكمال العديدة
وأريناك صحتها له صلى الله عليه وسلم وجلبنا من الآثار ما فيه مقنع والأمر أوسع
فمجال هذا الباب في حقه صلى الله عليه وسلم ممتد تنقطع دون نفاده الأدلاء وبحر علم
خصائصه زاخر لا تكدره الدلاء ولكننا أتينا فيه بالمعروف مما أكثره في الصحيح
والمشهور من المصنفات واقتصرنا في ذلك بقل من كل وغيض من فيض ورأينا
أن نختم هذه الفصول بذكر حديث الحسن عن أبي هالة لجمعه من شمائله وأوصافه كثيرا
وإدماجه جملة كافية من سيره وفضائله ونصله بتنبيه لطيف على غريبه
ومشكله. **حدثنا** القاضي أبو علي الحسين بن محمد الحافظ رحمه الله بقراءتي عليه
سنة ثمان وخمسمائة قال حدثنا الإمام أبو القاسم عبد الله بن طاهر التميمي قال قرئ
عليه أخبركم الفقيه الأديب أبو بكر محمد بن عبد الله بن الحسن النيسابوري والشيخ
الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحسن الحمري والقاضي أبو علي الحسن بن علي بن جعفر
الوخشي قالوا أخبرنا أبو القاسم علي بن أحمد بن محمد بن الحسن الخزاعي قال أخبرنا أبو
سعيد الهيثم بن كليب الشاشي قال أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الحافظ
قال حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا جميع بن عمر بن عبد الرحمن العجلي إملاء من كتابه
قال حدثني رجل من بني تميم من ولد أبي هالة زوج خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها
يكنى أبا عبد الله عن ابن لأبي هالة عن الحسن بن علي بن أبي طالب رحمه الله قال سألت
خالي هند بن أبي هالة. قال القاضي أبو علي رحمه الله وقرأت على الشيخ أبي طاهر أحمد بن
الحسن بن أحمد بن خداداذ الكرجي الباقلاني قال وأجاز لنا الشيخ الأجل أبو الفضل أحمد

ابن الحسن بن خيرون قالا أخبرنا أبو علي الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد بن
شاذان بن حرب بن مهران الفارسي قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن
جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بابن أخي طاهر
العلوي قال حدثنا إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن
أبي طالب قال حدثني علي بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أخيه موسى بن جعفر
عن جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن علي بن الحسين قال قال الحسن بن علي واللفظ
لسنا الشنر سألت خالي هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان
وصافا وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئا أتعلق به قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر أطول من المربوع وأقصر من المشذب
عظيم الهامة رجل الشعر إن انفرقت عقيقته فرق وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه
إذا هو وفره أزهر اللون واسع الجبين أزج الحواجب سوابغ من غير قرن بينهما
عرق يدره الغضب أقنى العرنين له نور يعلوه ويحسبه من لم يتأمله أشم كث
اللحية أدعج سهل الخدين ضليع الفم أشنب مفلج الأسنان دقيق المسربة كأن عنقه
جيد دمية في صفاء الفضة معتدل الخلق بادن متماسك سواء البطن والصدر
مشيح الصدر بعيد ما بين المنكبين ضخم الكراديس أنور المتجرد موصول ما
بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط عاري الثديين مما سوى ذلك أشعر
الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر طويل الزندين رحب الراحة شثن الكفين
والقدمين سائل الأطراف سبط القصب مسيح خمصان الأخمصين مسيح القدمين
ينبو عنهما الماء إذا زال زال تقلعا ويخطو تكفؤا ويمشي هونا ذريع المشية إذا
مشى كأنما ينحط من صبب وإذا التفت التفت جميعا خافض الطرف نظره إلى الأرض
أطول من نظره إلى السماء جل نظره الملاحظة يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام
قلت صف لي منطقه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل
الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة ولا يتكلم في غير حاجة طويل السكوت

يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ويتكلم بجوامع الكلم فصلا لا فضول فيه ولا تقصير
دمثا ليس بالجافي ولا المهين يعظم النعمة وإن دقت لا يذم شيئا لم يكن يذم ذواقا
ولا يمدحه ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا
ينتصر لها إذا أشار أشار بكفه كلها وإذا تعجب قلبها وإذا تحدث اتصل
بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى وإذا غضب أعرض وأشاح وإذا فرح
غض طرفه جل ضحكه التبسم ويفتر عن مثل حب الغمام. قال الحسن فكتمتها
الحسين بن علي زمانا ثم حدثته فوجدته قد سبقني إليه فسأل أباه عن مدخل رسول
الله صلى الله عليه وسلم ومخرجه ومجلسه وشكله فلم يدع منه شيئا. قال الحسين
سألت أبي عليه السلام عن دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كان دخوله
لنفسه مأذونا له في ذلك فكان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزءا
لله وجزءا لأهله وجزءا لنفسه ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس فيرد ذلك على
العامة بالخاصة ولا يدخر عنهم شيئا فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل
الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم
ذو الحوائج فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما أصلحهم والأمة من مسألته عنهم وإخبارهم
بالذي ينبغي لهم ويقول ليبلغ الشاهد منكم الغائب وأبلغوني حاجة من لا يستطيع
إبلاغي حاجته فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه
يوم القيامة لا يذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره يدخلون روادا وفي حديث
سفيان بن وكيع روادا قال في حديث سفيان يدخلون روادا ولا يتفرقون إلا عن
ذواق ويخرجون أدلة يعني فقهاء **قلت** فأخبرني عن مخرجه كيف كان يصنع
فيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخزن لسانه إلا مما يعنيهم ويؤلفهم ولا
ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي
عن أحد بشره وخلقه ويتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس ويحسن الحسن
ويقويه ويقبح القبيح ويوهنه معتدل الأمر غير مختلف لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو

يملؤ الكل حال عنده عتاد لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره الذين يلونه من الناس
خيارهم وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة
ومؤازرة **فسألته** عن مجلسه عما كان يصنع فيه فقال كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها
وإذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ويعطي كل جلسائه
نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه من جالسه أو قاومه
لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه من سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور
من القول وقد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق
متقاربين متفاضلين فيه بالتقوى وفي الرواية الأخرى وصاروا عنده في الحق
سواء مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن
فيه الحرم ولا تنثى فلتاته وهذه الكلمة في غير الروايتين متعادلين فيه بالتقوى
متواضعين يوقرون الكبير ويرحمون الصغير ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون
الغريب **فسألته** عن سيرته صلى الله عليه وسلم في جلسائه فقال كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ
ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مشاح ولا مزاح يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه
قد ترك نفسه من ثلاث المراء والإكثار وما لا يعنيه وترك الناس من ثلاث كان لا يذم
أحدا ولا يعيره ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه إذا تكلم أطرق جلساؤه
كأنما على رؤوسهم الطير وإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث من تكلم
عنده أنصتوا له حتى يفرغ حديثهم عنده حديث أولهم يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما
يتعجبون منه ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ويقول إذا رأيتم صاحب الحاجة
يطلبها فأرفدوه ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز
فيقطعه بانتهاء أو قيام هنا انتهى حديث سفيان بن وكيع وزاد الآخر
قلت كيف كان سكوته صلى الله عليه وسلم قال كان سكوته على أربع

على الحلم والحذر والتقدير والتفكر فأما تقديره ففي تسوية النظر والاستماع من
الناس وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى وجمع له الحلم صلى الله عليه وسلم في الصبر
فكان لا يغضبه شيء يستفزه وجمع له في الحذر أربع أخذه بالحسن ليقتدى به
وتركه القبيح لينتهى عنه واجتهاده الرأي بما أصلح أمته والقيام لهم بما جمع لهم أمر
الدنيا والآخرة انتهى الوصف بحمد الله

فصل في تفسير غريب من الحديث ومشكله قوله المشذب
أي البائن الطول في نحافة وهو مثل قوله في الحديث الآخر ليس بالطويل الممغط والرجل
الذي كأنه مشط فتكسر قليلا ليس بسبط ولا جعد والعقيقة شعر الرأس أراد إن
انفرقت من ذات نفسها فرقها وإلا تركها معقوصة ويروى عقيصته وأزهر اللون
نيره وقيل أزهر حسن ومنه زهرة الحياة الدنيا أي زينتها وهذا كما قال في الحديث الآخر
ليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم والأمهق هو الناصع البياض والآدم الأسمر اللون ومثله
في الحديث الآخر أبيض مشرب أي فيه حمرة والحاجب الأزج المقوس الطويل الوافر
الشعر والأقنى السائل الأنف المرتفع وسطه والأشم الطويل قصبة الأنف والقرن اتصال
شعر الحاجبين وضده البلج ووقع في حديث أم معبد وصفه بالقرن والأدعج
الشديد سواد الحدقة وفي الحديث الآخر أشكل العين وأسجر العين وهو الذي في بياضها
حمرة والضليع الواسع والشنب رونق الأسنان وماؤها وقيل رقتها وتحزيز فيها كما
يوجد في أسنان الشباب والفلج فرق بين الثنايا والدقيق المسربة خيط الشعر
الذي بين الصدر والسرة بادن ذو لحم متماسك أي معتدل الخلق يمسك بعضه
بعضا مثل قوله في الحديث الآخر لم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم أي ليس بمسترخي اللحم
والمكلثم القصير الذقن وسواء البطن والصدر مستويهما ومشيح الصدر إن صحت
هذه اللفظة فيكون من الإقبال وهو أحد معاني أشاح أي أنه كان بادي الصدر ولم يكن
في صدره قعس وهو تطامن فيه وبه يتضح قوله قبل سواء البطن والصدر أي ليس
بمتقاعس الصدر ولا مفاض البطن ولعل اللفظة مسيح بالسين وفتح الميم بمعنى عريض

كما وقع في الرواية الأخرى وحكاه ابن دريد والكراديس رؤوس العظام وهو مثل
قوله في الحديث الآخر جليل المشاش والكتد والمشاش رؤوس المناكب والكتد مجتمع
الكتفين وشثن الكفين والقدمين لحيمهما والزندان عظما الذراعين وسائل الأطراف
أي طويل الأصابع وذكر ابن الأنباري أنه روي سائن الأطراف أو قال سائل بالنون قال
وهما بمعنى تبدل اللام من النون إن صحت الرواية بها وأما على الرواية الأخرى وسائر
الأطراف فإشارة إلى فخامة جوارحه كما وقعت مفصلة في الحديث ورحب الراحة أي
واسعها وقيل كنى به عن سعة العطاء والجود خمصان الأخمصين أي متجافي
أخمص القدم وهو الموضع الذي لا تناله الأرض من وسط القدم ومسيح القدمين أي أملسهما
ولهذا قال ينبو عنهما الماء وفي حديث أبي هريرة خلاف هذا قال فيه إذا وطئ
بقدمه وطئ بكلها ليس له أخمص وهذا يوافق معنى قوله مسيح القدمين وبه قالوا
سمي المسيح بن مريم أي لم يكن له أخمص وقيل مسيح لا لحم عليهما وهذا أيضا
يخالفه شثن القدمين ومسيح القدمين أملسهما ولهذا قال ينبو عنهما الماء وفي
حديث ابن أبي هالة والتقلع رفع الرجل بقوة والتكفؤ الميل إلى سنن المشي
وقصده والهون الرفق والوقار والذريع الواسع الخطو أي أن مشيه كان يرفع
فيه رجليه بسرعة ويمد خطوه خلاف مشية المختال ويقصد سمته وكل ذلك
برفق وتثبت دون عجلة كما قال كأنما ينحط من صبب وقوله يفتتح الكلام
ويختمه بأشداقه لسعة فمه والعرب تتمادح بهذا وتذم بصغر الفم وأشاح مال
وانقبض وحب الغمام البرد وقوله فيرد ذلك بالخاصة على العامة أي جعل
من جزء نفسه ما يوصل الخاصة إليه فتوصل عنه للعامة وقيل يجعل منه للخاصة
ثم يبدلها في جزء آخر بالعامة ويدخلون روادا أي محتاجين إليه وطالبين لما عنده
ولا يتفرقون إلا عن ذواق قيل عن علم يتعلمونه ويشبه أن يكون على ظاهره أي في
الغالب والأكثر والعتاد العدة والشيء الحاضر المعد والموازرة المعاونة وقوله
لا يوطن الأماكن أي لا يتخذ لمصلاه موضعا معلوما وقد ورد نهيه عن هذا مفسرا في

غير هذا الحديث وصابر أي حبس نفسه على ما يريد صاحبه ولا تؤبن فيه الحرم أي
لا يذكرن بسوء ولا تنثى فلتاته أي لا يتحدث بها أي لم تكن فيه فلتة وإن كانت من
أحد سترت ويرفدون يعينون والسخاب الكثير الصياح وقوله ولا يقبل الثناء إلا من
مكافئ قيل مقتصد في ثنائه ومدحه وقيل إلا من مسلم وقيل إلا من مكافئ على يد
سبقت من النبي صلى الله عليه وسلم له ويستفزه يستخفه وفي حديث آخر في وصفه
منهوس العقب أي قليل لحمها وأهدب الأشفار أي طويل شعرها

الباب الثالث

فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها
بعظيم قدره عند ربه ومنزلته وما خصه به في الدارين من كرامته لا خلاف أنه
أكرم البشر وسيد ولد آدم وأفضل الناس منزلة عند الله وأعلاهم درجة وأقربهم
زلفى **اعلم** أن الأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جدا وقد اقتصرنا منها على
صحيحها ومنتشرها وحصرنا معاني ما ورد منها في اثني عشر فصلا

الفصل الأول

فيما ورد من ذكر مكانته عند ربه بالاصطفاء
ورفعة الذكر والتفضيل وسيادة ولد آدم وما خصه به في الدنيا من مزايا الرتب
وبركة اسمه الطيب **أخبرنا** الشيخ أبو محمد عبد الله بن أحمد العدل إذنا بلفظه قال حدثنا
أبو الحسن الفرغاني حدثتنا أم القاسم بنت أبي بكر بن يعقوب عن أبيها حدثنا حاتم هو
ابن عقيل عن يحيى هو ابن إسماعيل عن يحيى الحماني حدثنا قيس عن الأعمش عن عباية بن
ربعي عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قسم الخلق قسمين فجعلني
من خيرهم قسما فذلك قوله أصحاب اليمين وأصحاب الشمال فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب
اليمين ثم جعل القسمين أثلاثا فجعلني في خيرها ثلثا وذلك قوله فأصحاب الميمنة
وأصحاب المشأمة والسابقون السابقون فأنا من السابقين وأنا خير السابقين ثم جعل الأثلاث
قبائل فجعلني من خيرها قبيلة وذلك قوله وجعلناكم شعوبا وقبائل الآية فأنا أتقى
ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر ثم جعل القبائل بيوتا فجعلني في خيرها بيتا فذلك
قوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس الآية وعن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قالوا

يا رسول الله متى وجبت لك النبوة قال وآدم بين الروح والجسد. وعن واثلة بن الاسقع
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله اصطفى من ولد ابرهيم اسمعيل واصطفى من
ولد اسمعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم
واصطفاني من بني هاشم. ومن حديث أنس أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر. وفي
حديث ابن عباس أنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر. وعن عايشة عنه عليه السلام
أتاني جبريل فقال قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلا أفضل من محمد ولم أر
بني أب أفضل من بني هاشم. وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بالبراق ليلة
أسري به فاستصعب عليه فقال له جبريل أبمحمد تفعل هذا فما ركبك أحد أكرم على
الله منه فارفض عرقا. وعن ابن عباس عنه عليه السلام لما خلق الله آدم أهبطني
في صلبه إلى الأرض وجعلني في صلب نوح في السفينة وقذف بي في النار في صلب
ابرهيم ثم لم يزل ينقلني في الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجني
بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط. وإلى هذا أشار العباس بن عبد المطلب بقوله

من قبلها طبت في الظلال وفي ... مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر ... أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ... ألجم نسرا وأهله الغرق
تنقل من صالب إلى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق

في أبيات أخر. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أبو ذر وابن عمر وابن عباس وأبو
هريرة وجابر بن عبد الله أنه قال أعطيت خمسا وفي بعضها ستا لم يعطهن نبي قبلي
نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأيما رجل من أمتي
أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وبعثت إلى الناس
كافة وأعطيت الشفاعة. وفي رواية بدل هذه الكلمة وقيل لي سل تعطه. وفي
رواية أخرى وعرضت علي أمتي فلم يخف علي التابع من المتبوع. وفي رواية
بعثت إلى الأحمر والأسود قيل السود العرب لأن الغالب على ألوانهم الأدمة ومنهم

...يجمعوا الأبيض والأسود
...ت جوامع الكلم وبينا
...وابه عليه وختم بي
...كم وأيما بشر علتكم
...خزاين الأرض وأيضا في
...أن تقاربعثوا بهما
...محمد النبي الأمي
...النار وحملة العرش
...صلى الله عليه وسلم أنه
...ابرهيم خليلا وكلمت
...في الآخرين يعني
...ملك اشد مع اخي
...وغفرت لهما تقدم
...صنع ذلك الآخرين
...النبي غيلا وفي
...منه هي التي سعون
...امتي لا تغلب
...وكيف لي وامتي الغنائم
...رين حرج وعن
...أعطي من الآيات
...الذي قال وجاز أن أكون
...معجزته تابعت الدنيا
...صرلنا ومعجزة القرآن

من السود والحمر العجم. وقيل البيض والسود من الأمم. وقيل الحمر الإنس والسود
الجن. وفي الحديث الآخر عن أبي هريرة ونصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم وبينا
أنا نائم إذ جيء بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي. وفي رواية عنه وختم بي
النبيون. وعن عقبة بن عامر أنه قال عليه السلام إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم
وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض وإني
والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها
وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنا محمد النبي الأمي
لا نبي بعدي أوتيت جوامع الكلم وخواتمه وعلمت خزنة النار وحملة العرش
وعن ابن عمر بعثت بين يدي الساعة. ومن رواية ابن وهب عنه صلى الله عليه وسلم أنه
قال قال الله تبارك وتعالى سل يا محمد فقلت ما أسأل يا رب اتخذت إبراهيم خليلا وكلمت
موسى تكليما واصطفيت نوحا وأعطيت سليمان ملكا لا ينبغي لأحد من بعده
فقال الله تعالى ما أعطيتك خير من ذلك أعطيتك الكوثر وجعلت اسمك مع اسمي
ينادى به في جوف السماء وجعلت الأرض طهورا لك ولأمتك وغفرت لك ما تقدم
من ذنبك وما تأخر فأنت تمشي في الناس مغفورا لك ولم أصنع ذلك لأحد قبلك
وجعلت قلوب أمتك مصاحفها وخبأت لك شفاعتك ولم أخبأها لنبي غيرك. وفي
حديث آخر رواه حذيفة بشرني يعني ربه أول من يدخل الجنة معي من أمتي سبعون
ألفا مع كل ألف سبعون ألفا ليس عليهم حساب. وأعطاني أن لا تجوع أمتي ولا تغلب
وأعطاني النصر والعزة والرعب يسعى بين يدي أمتي شهرا وطيب لي ولأمتي الغنائم
وأحل لنا كثيرا مما شدد على من قبلنا ولم يجعل علينا في الدين من حرج. وعن أبي
هريرة عنه صلى الله عليه وسلم ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات
ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي فأرجو أن أكون
أكثرهم تابعا يوم القيامة. **معنى هذا** عند المحققين بقاء معجزته ما بقيت الدنيا
وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين ولم يشاهدها إلا الحاضر لها ومعجزة القرآن

يقعد علينا فرون بخروجهم عنا أن لا أحبسنا إلى يوم القيامة وفيه كلام يطول هذا نحيته وقد بسطنا القول فيه وفيما ذكر فيه سوى هذا في باب المعجزات. وعن علي لم يكن نبي إلا أعطي سبعة نجباء من أمته وأعطي نبيكم أربعة عشر نجيبا منهم أبو بكر وعمر وابن مسعود وعمار. وقال صلى الله عليه وسلم إن الله قد حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين وإنها لم تحل لأحد بعدي وإنما أحلت لي ساعة من نهار. وعن العرباض بن سارية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إني عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وعدة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بن مريم. وعن ابن عباس قال إن الله فضل محمدا صلى الله عليه وسلم على أهل السماء وعلى الأنبياء صلوات الله عليهم قالوا فما فضله على أهل السماء قال إن الله قال لأهل السماء ومن يقل منهم إني إله من دونه الآية. وقال لمحمد إنا فتحنا لك فتحا مبينا الآية قالوا فما فضله على الأنبياء قال إن الله قال وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه الآية وقال لمحمد وما أرسلناك إلا كافة للناس. وعن خالد بن معدان أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله أخبرنا عن نفسك. وقد روي نحوه عن أبي ذر وشداد بن أوس وأنس بن مالك فقال نعم أنا دعوة أبي إبراهيم يعني قوله وابعث فيهم رسولا منهم وبشرى عيسى ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام واسترضعت في بني سعد بن بكر فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا إذ جاءني رجلان عليهما ثياب بيض وفي حديث آخر ثلاثة رجال بطست من ذهب مملوءة ثلجا فأخذاني فشقا بطني قال في غير هذا الحديث من نحري إلى مراق بطني ثم استخرجا منه قلبي فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا بطني وقلبي بذلك الثلج حتى أنقياه. قال في حديث آخر ثم تناول أحدهما شيئا فإذا بخاتم في يده من نور يحار الناظر دونه فختم به قلبي فامتلأ إيمانا وحكمة ثم أعاده مكانه وأمر الآخر يده على مفرق صدري فالتأم. وفي رواية أن جبريل قال قلب وكيع أي شديد فيه عينان تبصران وأذنان تسمعان ثم قال أحدهما لصاحبه

زنه بعشرة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم ثم قال زنه بمائة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم ثم قال زنه بألف من أمته فوزنني بهم فوزنتهم ثم قال دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنها. قال في الحديث الآخر ثم ضموه إلى صدورهم وقبلوا رأسه وما بين عينيه ثم قالوا يا حبيب لم ترع إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت عيناك. وفي بقية هذا الحديث من قولهم ما أكرمك على الله إن الله معك وملائكته. قال في حديث أبي ذر فما هو إلا أن وليا عني فكأنما أرى الأمر معاينة. وحكى أبو محمد مكي وأبو الليث السمرقندي وغيرهما أن آدم عند معصيته قال اللهم بحق محمد اغفر لي خطيئتي ويروى تقبل توبتي فقال الله له من أين عرفت محمدا قال رأيت في كل موضع من الجنة مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله. ويروى محمد عبدي ورسولي فعلمت أنه أكرم خلقك عليك فتاب الله عليه وغفر له. وهذا عند قائله تأويل قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه. وفي رواية الآجري فقال آدم لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنه ليس أحد أعظم قدرا عندك ممن جعلت اسمه مع اسمك فأوحى الله إليه وعزتي وجلالي إنه لآخر النبيين من ذريتك ولولاه ما خلقتك. قال وكان آدم يكنى بأبي محمد وقيل بأبي البشر. وعن عبد الله بن مسعود أن الله نظر إلى قلوب العباد فاختار منها قلب محمد عليه السلام فاصطفاه لنفسه فبعثه برسالته. وحكى النقاش أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا قام خطيبا فقال يا معشر أهل الإيمان إن الله فضلني عليكم تفضيلا وفضل نسائي على نسائكم تفضيلا الحديث. وروي عن شريح بن يونس أنه قال إن لله ملائكة سياحين عبادتهم كل دار فيها أحمد أو محمد إكراما منهم لمحمد عليه السلام. وروى ابن قانع القاضي عن أبي الحمراء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسري بي إلى السماء إذا على العرش مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله أيدته بعلي. وفي التفسير عن ابن عباس في قوله تعالى وكان تحته كنز لهما قال لوح من ذهب فيه مكتوب عجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك

عجبا لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها أنا الله لا إله إلا أنا محمد عبدي ورسولي
وعن ابن عباس على باب الجنة مكتوب إني أنا الله لا إله إلا أنا محمد رسول الله لا أعذب
من قالها وذكر أنه وجد على الحجارة القديمة مكتوب محمد تقي مصلح وسيد أمين وذكر
السمنطاري أنه شاهد في بعض بلاد خراسان مولودا ولد على أحد جنبيه مكتوب لا إله
إلا الله وعلى الآخر محمد رسول الله. وذكر الأخباريون أن ببلاد الهند وردا أحمر مكتوب
عليه بالأبيض لا إله إلا الله محمد رسول الله. وروي عن جعفر بن محمد عن أبيه إذا كان
يوم القيامة نادى مناد ألا ليقم من اسمه محمد فليدخل الجنة لكرامة اسمه عليه السلام
وروى ابن القاسم في سماعه وابن وهب في جامعه عن مالك سمعت أهل مكة يقولون
ما من بيت فيه اسم محمد إلا نما ورزقوا ورزق جيرانهم وعنه عليه السلام ما ضر أحدكم
أن يكون في بيته محمد ومحمدان وثلاثة

فصل في تفضيله

بما تضمنته كرامة الإسراء من المناجاة والرؤية وإمامة الأنبياء والعروج به إلى
سدرة المنتهى وما رأى من آيات ربه الكبرى **ومن خصائصه** عليه السلام قصة
الإسراء وما انطوت عليه من درجات الرفعة مما نبه عليه الكتاب العزيز وشرحته
صحاح الأخبار **قال الله** تعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الآية
وقال والنجم إذا هوى إلى قوله لقد رأى من آيات ربه الكبرى فلا خلاف بين المسلمين
في صحة الإسراء به عليه السلام إذ هو نص القرآن وجاءت بتفصيله وشرح عجائبه
وخواص نبينا محمد عليه السلام فيه أحاديث كثيرة منتشرة رأينا أن نقدم أكملها
ونشير إلى زيادة من غيره يجب ذكرها **حدثنا** القاضي الشهيد أبو علي والفقيه
أبو بحر بسماعي عليهما والقاضي أبو عبد الله التميمي وغير واحد من شيوخنا قالوا
حدثنا أبو العباس العذري حدثنا أبو العباس الرازي حدثنا أبو أحمد الجلودي حدثنا
ابن سفيان حدثنا مسلم بن الحجاج حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا حماد بن سلمة
حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت بالبراق
وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال فركبته

لاستحالة وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة إذ لو كان مناما لقال
بروح عبده ولم يقل بعبده وقوله ما زاغ البصر وما طغى ولو كان مناما لما
كانت فيه آية ولا معجزة ولما استبعده الكفار ولا كذبوه فيه ولا ارتد به ضعفاء من
أسلم وافتتنوا به إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد
علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته إلى ما ذكر في الحديث من ذكر
صلاته بالأنبياء ببيت المقدس في رواية أنس أو في السماء على ما روى غيره وذكر
مجيء جبريل عليه السلام له بالبراق وخبر المعراج واستفتاح السماء فيقال
ومن معك فيقول محمد ولقائه الأنبياء فيها وخبرهم معه وترحيبهم به وشأنه في
فرض الصلاة ومراجعته مع موسى في ذلك وفي بعض هذه الأخبار فأخذ يعني
جبريل بيدي إلى السماء إلى قوله ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف
الأقلام وأنه وصل لسدرة المنتهى وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكره. قال ابن
عباس هي رؤيا عين رآها النبي صلى الله عليه وسلم لا رؤيا منام. وعن الحسن فيه
بينا أنا نائم في الحجر جاءني جبريل فهمزني بعقبه فقمت فجلست فلم أر شيئا فعدت
لمضجعي ذكر ذلك ثلاثا فقال في الثالثة فأخذ بعضدي فجرني إلى باب المسجد
فإذا أنا بدابة وذكر خبر البراق. وعن أم هانئ ما أسري برسول الله صلى الله عليه
وسلم إلا وهو في بيتي تلك الليلة صلى العشاء الآخرة ونام بيننا فلما كان قبيل
الفجر أهبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى الصبح وصلينا قال يا أم هانئ
لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ثم جئت بيت المقدس فصليت
فيه ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون وهذا بين في أنه بجسمه. وعن أبي بكر
من رواية شداد بن أوس عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه ليلة أسري به طلبتك
يا رسول الله البارحة في مكانك فلم أجدك فأجابه أن جبريل حمله إلى المسجد
الأقصى. وعن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري بي في مقدم
المسجد ثم دخلت الصخرة فإذا بملك قائم معه آنية ثلاث وذكر الحديث وهذه

التصريحات ظاهرة غير مستحيلة فتحمل على ظاهرها. وعن أبي ذر عنه صلى
الله عليه وسلم فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل فشرح صدري ثم غسله
بماء زمزم إلى آخر القصة ثم أخذ بيدي فعرج بي وعن أنس أتيت فانطلقوا
بي إلى زمزم فشرح عن صدري وعن أبي هريرة عنه عليه السلام لقد رأيتني
في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء لم أثبتها فكربت كربا
ما كربت مثله قط فرفعه الله لي أنظر إليه ونحوه عن جابر. وقد روى عمر
ابن الخطاب في حديث الإسراء عنه عليه السلام أنه قال ثم رجعت إلى خديجة
وما تحولت عن جانبها

فصل في إبطال حجج من قال إنها نوم

احتجوا بقوله تعالى وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس فسماها
رؤيا قلنا قوله سبحان الذي أسرى بعبده يرده لأنه لا يقال في النوم إسراء. وقوله فتنة
للناس يؤيد أنها رؤيا عين وإسراء بشخص إذ ليس في الحلم فتنة ولا يكذب به أحد
لأن كل أحد يرى مثل ذلك في منامه من الكون في ساعة واحدة في أقطار متباينة
على أن المفسرين قد اختلفوا في هذه الآية فذهب بعضهم إلى أنها نزلت في قضية
الحديبية وما وقع في نفوس الناس من ذلك وقيل غير هذا. وأما قولهم أنه قد
سماها في الحديث مناما وقوله في حديث آخر بين النائم واليقظان وقوله
أيضا وهو نائم وقوله ثم استيقظت فلا حجة فيه إذ يحتمل أن أول وصول الملك إليه
كان وهو نائم أو أول حمله والإسراء به وهو نائم وليس في الحديث أنه كان نائما
في القصة كلها إلا ما يدل عليه ثم استيقظت وأنا في المسجد الحرام فلعل قوله
استيقظت بمعنى أصبحت أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته ويدل عليه أن
مسراه لم يكن طول ليله وإنما كان في بعضه. وقد يكون قوله استيقظت
وأنا في المسجد الحرام لما كان غمره من عجائب ما طالع من ملكوت السموات والأرض
وخامر باطنه من مشاهدة الملأ الأعلى وما رأى من آيات ربه الكبرى فلم يستفق
ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام ووجه ثالث أن يكون نومه

واستغراقه حقيقة على مقتضى لفظه ولكنه أسري بجسده وقلبه حاضر ورؤيا
الأنبياء حق تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحو من
هذا قال تغميض عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله تعالى ولا يصح
هذا أن يكون في وقت صلاته بالأنبياء ولعله كانت له في هذا الإسراء حالات

ووجه رابع وهو أن يعبر بالنوم هاهنا عن هيئة النائم من الاضطجاع
يقويه قوله في رواية عبد بن حميد عن همام بينا أنا نائم وربما قال في الحجر مضطجع
وقوله في الرواية الأخرى بين النائم واليقظان فيكون سمى هيئته بالنوم لما
كانت هيئة النائم غالبا. وذهب بعضهم إلى أن هذه الزيادات من النوم وذكر
شق البطن ودنو الرب الواقعة في هذا الحديث إنما هي من رواية شريك عن أنس
فهي منكرة من روايته إذ شق البطن في الأحاديث الصحيحة إنما كان في صغره
عليه السلام وقبل النبوة ولأنه قال في الحديث قبل أن يبعث والإسراء بالإجماع
كان بعد المبعث فهذا كله يوهن ما وقع في رواية أنس مع أن أنسا قد بين
من غير طريق أنه إنما رواه عن غيره وأنه لم يسمعه من النبي صلى الله عليه وسلم
فقال مرة عن مالك بن صعصعة وفي كتاب مسلم لعله عن مالك بن صعصعة
على الشك وقال مرة كان أبو ذر يحدث. وأما قول عائشة ما فقد جسده
فعائشة لم تحدث به عن مشاهدة لأنها لم تكن حينئذ زوجه ولا في سن من
يضبط ولعلها لم تكن ولدت بعد على الخلاف في الإسراء متى كان فإن الإسراء
كان في أول الإسلام على قول الزهري ومن وافقه بعد المبعث بعام ونصف
وكانت عائشة في الهجرة بنت نحو ثمانية أعوام وقد قيل كان الإسراء لخمس
قبل الهجرة وقيل قبل الهجرة بعام والأشبه أنه لخمس والحجة لذلك تطول
ليست من غرضنا فإذا لم تشاهد ذلك عائشة دل أنها حدثت بذلك عن
غيرها فلم يرجح خبرها على خبر غيرها وغيرها يقول خلافه مما وقع نصا
في حديث أم هانئ وغيره وأيضا فليس حديث عائشة بالثابت والأحاديث

ولا خبر ثبت لنا نفي حديث أم هانئ وما ذكرت فيه خديجة وأيضا فقد روي
في حديث عائشة ما فقدت ولم يدخل بها النبي صلى الله عليه وسلم إلا بالمدينة
وكل هذا يوهنه بل الذي يدل عليه صحيح قولها أنه بجسده لإنكارها أن تكون
رؤيا لربه رؤيا عين ولو كانت عندها مناما لم تنكره. فإن قيل
فقد قال تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى فقد جعل ما رآه للقلب وهذا يدل على أنها رؤيا
نوم ووحي لا مشاهدة عين وحس قلنا يقابله قوله تعالى ما زاغ البصر وما طغى
فقد أضاف الأمر إلى البصر وقد قال أهل التفسير في قوله تعالى ما كذب الفؤاد ما
رأى أي لم يوهم القلب العين غير الحقيقة بل صدق رؤيتها وقيل ما أنكر قلبه
ما رأته عينه.

فصل وأما رؤيته صلى الله عليه لربه جل وعز فاختلف
السلف فيها فأنكرته عائشة. حدثنا أبو الحسين سراج بن عبد الملك الحافظ
بقراءتي عليه قال حدثني أبي وأبو عبد الله بن عتاب الفقيه قالا حدثنا القاضي
يونس بن مغيث حدثنا أبو الفضل الصقلي حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت عن أبيه
وجده قالا حدثنا عبد الله بن علي حدثنا محمود بن آدم حدثنا وكيع عن ابن
أبي خالد عن عامر عن مسروق أنه قال لعائشة يا أم المؤمنين هل رأى محمد ربه
فقالت لقد قف شعري مما قلت ثلاث من حدثك بهن فقد كذب من حدثك أن محمدا
رأى ربه فقد كذب ثم قرأت لا تدركه الأبصار الآية وذكر الحديث وقالت جماعة
بقول عائشة وهو المشهور عن ابن مسعود ومثله عن أبي هريرة أنه إنما رأى
جبريل واختلف عنه وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من
المحدثين والفقهاء والمتكلمين. وعن ابن عباس أنه رآه بعينه. وروى عطاء
عنه رآه بقلبه. وعن أبي العالية عنه رآه بفؤاده مرتين. وذكر ابن
إسحاق أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس يسأله هل رأى محمد ربه فقال نعم والأشهر
عنه أنه رأى ربه بعينه وروي ذلك عنه من طرق وقال إن الله اختص موسى
بالكلام وإبراهيم بالخلة ومحمدا بالرؤية وحجته قوله ما كذب الفؤاد ما رأى

أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى. قال الماوردي قيل إن الله تعالى قسم
كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد فرآه محمد مرتين وكلمه موسى مرتين وحكى
أبو الفتح الرازي وأبو الليث السمرقندي الحكاية عن كعب وروى عبد الله بن
الحارث قال اجتمع ابن عباس وكعب فقال ابن عباس أما نحن بنو هاشم فنقول إن محمدا
قد رأى ربه مرتين فكبر كعب حتى جاوبته الجبال وقال إن الله قسم رؤيته وكلامه
بين محمد وموسى فكلمه موسى ورآه محمد بقلبه. وروى شريك عن أبي ذر في
تفسير الآية قال رأى النبي ربه وحكى السمرقندي عن محمد بن كعب القرظي وربيع
ابن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل هل رأيت ربك قال رأيته بفؤادي ولم
أره بعيني. وروى مالك بن يخامر عن معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال رأيت
ربي وذكر كلمة فقال يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى الحديث. وحكى عبد
الرزاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربه وحكاه أبو عمر الطلمنكي
عن عكرمة وحكى بعض المتكلمين هذا المذهب عن ابن مسعود وحكى ابن إسحاق
أن مروان سأل أبا هريرة هل رأى محمد ربه فقال نعم وحكى النقاش عن أحمد بن
حنبل أنه قال أنا أقول بحديث ابن عباس بعينه رآه رآه حتى انقطع نفسه
يعني نفس أحمد. وقال أبو عمر قال أحمد بن حنبل رآه بقلبه وجبن عن
القول برؤيته في الدنيا بالأبصار. وقال سعيد بن جبير لا أقول رآه ولا لم يره
وقد اختلف في تأويل الآية عن ابن عباس وعكرمة والحسن وابن مسعود فحكي
عن ابن عباس وعكرمة رآه بقلبه. وعن الحسن وابن مسعود رأى جبريل وحكى
عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه أنه قال رآه. وعن ابن عطاء في قوله ألم نشرح
لك صدرك قال شرح صدره للرؤية وشرح صدر موسى للكلام وقال
أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رضي الله عنه وجماعة من أصحابه أنه رأى
الله ببصره وعيني رأسه وقال كل آية أوتيها نبي من الأنبياء عليهم السلام
فقد أوتي مثلها نبينا وخص من بينهم بتفضيل الرؤية ووقف بعض مشايخنا

في هذا وقال ليس عليه دليل واضح ولكنه جائز أن يكون **قال القاضي**
أبو الفضل رضي الله عنه والحق الذي لا امتراء فيه أن رؤيته تعالى في الدنيا جائزة
عقلا وليس في العقل ما يحيلها والدليل على جوازها في الدنيا سؤال موسى لها
ومحال أن يجهل نبي ما يجوز على الله وما لا يجوز بل لم يسأل إلا جائزا غير مستحيل
ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذي لا يعلمه إلا من علمه الله فقال له الله
لن تراني أي لن تطيق ولا تحتمل رؤيتي ثم ضرب له مثلا مما هو أقوى من بنية
موسى وأثبت وهو الجبل وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤيته في الدنيا بل فيه
جوازها على الجملة وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا امتناعها
إذ كل موجود فرؤيته جائزة غير مستحيلة ولا حجة لمن استدل على منعها
بقوله لا تدركه الأبصار لاختلاف التأويلات في الآية وإذ ليس يقتضي قول
من قال في الدنيا الاستحالة وقد استدل بعضهم بهذه الآية نفسها على جواز الرؤية
وعدم استحالتها على الجملة وقد قيل لا تدركه أبصار الكفار وقيل لا تدركه
الأبصار لا تحيط به وهو قول ابن عباس وقد قيل لا تدركه الأبصار وإنما يدركه
المبصرون وكل هذه التأويلات لا تقتضي منع الرؤية ولا استحالتها وكذلك
لا حجة لهم بقوله لن تراني الآية وقوله تبت إليك لما قدمناه ولأنها ليست على العموم
ولأن من قال معناها لن تراني في الدنيا إنما هو تأويل وأيضا فليس فيه نص الامتناع
وإنما جاءت في حق موسى وحيث تتطرق التأويلات وتتسلط الاحتمالات فليس
للقطع إليه سبيل وقوله تبت إليك أي من سؤالي ما لم تقدره لي وقد قال أبو بكر
الهذلي في قوله لن تراني أي ليس لبشر أن يطيق أن ينظر إلي في الدنيا وأنه من نظر
إلي مات وقد رأيت لبعض السلف والمتأخرين ما معناه أن رؤيته تعالى في الدنيا
ممتنعة لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم وكونها متغيرة غرضا للآفات
والفناء فلم تكن لهم قوة على الرؤية فإذا كان في الآخرة وركبوا تركيبا آخر
ورزقوا قوى ثابتة باقية وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم قووا بها على الرؤية وقد

رأيت نحو هذا لمالك بن أنس رحمه الله قال لم ير في الدنيا لأنه باق ولا يرى الباقي
بالفاني فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصارا باقية رئي الباقي بالباقي وهذا
كلام حسن مليح وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القدرة
فإذا قوى الله من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقه
وقد تقدم ما ذكر في قوة بصر موسى ومحمد عليهما السلام ونفوذ إدراكهما بقوة
إلهية منحاها لإدراك ما أدركاه ورؤية ما رأياه والله أعلم **وقد**
ذكر القاضي أبو بكر في أثناء أجوبته عن الآيتين ما معناه أن موسى عليه
السلام رأى الله فلذلك خر صعقا وأن الجبل رأى ربه فصار دكا بإدراك
خلقه الله له واستنبط ذلك والله أعلم من قوله ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر
مكانه فسوف تراني ثم قال فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا
وتجليه للجبل هو ظهوره له حتى رآه على هذا القول وقال جعفر بن محمد شغله
بالجبل حتى تجلى ولولا ذلك لمات صعقا بلا إفاقة وقوله هذا يدل على أن موسى
رآه وقد وقع لبعض المفسرين في الجبل أنه رآه وبرؤية الجبل له استدل من قال برؤية
محمد نبينا له إذ جعله دليلا على الجواز ولا مرية في الجواز إذ ليس في الآيات
نص بالمنع وأما وجوبه لنبينا والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع أيضا
ولا نص إذ المعول فيه على آيتي النجم والتنازع فيهما مأثور والاحتمال لهما ممكن
ولا أثر قاطع متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وحديث ابن عباس
خبر عن اعتقاده لم يسنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيجب العمل باعتقاد
مضمنه ومثله حديث أبي ذر في تفسير الآية وحديث معاذ محتمل للتأويل
وهو مضطرب الإسناد والمتن وحديث أبي ذر الآخر مختلف محتمل مشكل
فروي نور أنى أراه وحكى بعض شيوخنا أنه روي نوراني أراه وفي
حديثه الآخر سألته فقال رأيت نورا وليس يمكن الاحتجاج بواحد منهما على
صحة الرؤية فإن كان الصحيح رأيت نورا فهو قد أخبر أنه لم ير الله وإنما رأى

نوراً منعه وحجبه عن رؤية الله وإلى هذا يرجع قوله نورٌ أنّى أراه أي كيف أراه
مع حجاب النور المغشي للبصر. ومن هذا مثل ما جاء في الحديث الآخر حجابه النور
وفي الحديث الآخر لم أره بعيني ولكن رأيته بقلبي مرتين وتلا ثم دنا فتدلى والله
قادر على خلق الإدراك الذي في البصر في القلب أو كيف شاء لا إله غيره فإن
ورد حديث نص بيّن في الباب اعتُقد ووجب المصير إليه إذ لا استحالة فيه
ولا مانع قطعي يرده والله الموفق تعالى. **فصل** وأما ما ورد في هذه
القصة من مناجاته لله وكلامه معه بقوله فأوحى إلى عبده ما أوحى إلى
ما تضمنته الأحاديث فأكثر المفسرين على أن الموحي الله إلى جبريل وجبريل
إلى محمد إلا شذوذاً منهم فذكر عن جعفر بن محمد الصادق قال أوحى الله إليه
بلا واسطة ونحوه عن الواسطي وإلى هذا ذهب بعض المتكلمين أن محمداً كلم ربه
في الإسراء وحكي عن الأشعري وحكوه عن ابن مسعود وابن عباس وأنكره
آخرون وذكر النقاش عن ابن عباس في قصة الإسراء عنه عليه السلام
في قوله ثم دنا فتدلى قال فارقني جبريل فانقطعت الأصوات عني فسمعت
كلام ربي وهو يقول ليهدأ روعك يا محمد ادن ادن وفي حديث أنس في
الإسراء نحو منه وقد احتجوا في هذا بقوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله
إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء فقالوا هي
ثلاثة أقسام من وراء حجاب كتكليم موسى وبإرسال الملائكة كحال جميع الأنبياء
وأكثر أحوال نبينا صلى الله عليه وسلم الثالث قوله وحياً ولم يبق من تقسيم صور
الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة وقد قيل الوحي هنا هو ما يلقيه في قلب
النبي دون واسطة وقد ذكر أبو بكر البزار عن علي في حديث الإسراء ما هو
أوضح في سماع النبي لكلام الله من الآية فذكر فيه فقال الملك الله أكبر الله أكبر
فقيل لي من وراء الحجاب صدق عبدي أنا أكبر أنا أكبر. وقال في سائر كلمات الأذان
مثل ذلك ويجيء الكلام في مشكل هذين الحديثين في الفصل بعد هذا مع ما يشبهه

وفي أول فصل من الباب منه وكلام الله لمحمد ومن اختصه من أنبيائه جائز غير
ممتنع عقلاً ولا ورد في الشرع قاطع يمنعه فإن صح في ذلك خبر اعتُمد عليه
وكلامه تعالى لموسى كائن حق مقطوع به نص ذلك في الكتاب وأكده بالمصدر
دلالة على الحقيقة ورفع مكانه على ما ورد في الحديث في السماء السابعة بسبب
كلامه ورفع محمداً فوق هذا كله حتى بلغ مستوى وسمع صريف الأقلام فكيف
يستحيل في حق هذا أو يبعد سماع الكلام فسبحان من خص من شاء بما شاء وجعل
بعضهم فوق بعض درجات. **فصل** وأما ما ورد في حديث الإسراء وظاهر
الآية من الدنو والقرب من قوله ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأكثر المفسرين
أن الدنو والتدلي منقسم ما بين محمد وجبريل أو مختص بأحدهما من الآخر أو من
السدرة المنتهى قال الرازي وقال ابن عباس هو محمد دنا فتدلى من ربه وقيل
معنى دنا قرب وتدلى زاد في القرب وقيل هما بمعنى واحد أي قرب. وحكى مكي والماوردي
عن ابن عباس هو الرب دنا من محمد فتدلى إليه أي أمره وحكمه وحكى النقاش عن
الحسن قال دنا من عبده محمد صلى الله عليه وسلم فتدلى فقرب منه فأراه ما شاء أن يريه
من قدرته وعظمته قال وقال ابن عباس هو مقدم ومؤخر تدلى الرفرف لمحمد ليلة
المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنا من ربه قال فارقني جبريل وانقطعت عني
الأصوات وسمعت كلام ربي. وعن أنس في الصحيح عرج بي جبريل إلى
سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى
فأوحى إليه بما شاء وأوحى إليه خمسين صلاة وذكر حديث الإسراء. وعن
محمد بن كعب هو محمد دنا من ربه فكان قاب قوسين وقال جعفر بن محمد أدناه ربه
منه حتى كان منه كقاب قوسين وقال جعفر بن محمد والدنو من الله لا حد له ومن العباد
بالحدود. وقال أيضاً انقطعت الكيفية عن الدنو ألا ترى كيف حجب جبريل عن
دنوه ودنا محمد إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه
وزال عن قلبه الشك والارتياب. **قال القاضي أبو الفضل** رضي

الله عنه إعلم أن ما وقع من إضافة الدنو والقرب هنا من الله أو إلى الله فليس بدنو
مكان ولا قرب مدى بل كما ذكرنا عن جعفر الصادق ليس بدنو حد وإنما دنو
النبي من ربه وقربه منه إبانة عظيم منزلته وتشريف رتبته وإشراق أنوار
معرفته ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته ومن الله تعالى له مبرة وتأنيس وبسط
وإكرام ويتأول فيه ما يتأول في قوله ينزل ربنا إلى سماء الدنيا على أحد الوجوه
نزول إفضال وإجمال وقبول وإحسان قال الواسطي من توهم أنه بنفسه دنا جعل
ثم مسافة بل كلما دنا بنفسه من الحق تدلى بعدا يعني عن درك حقيقته إذ لا
دنو للحق ولا بعد وقوله قاب قوسين أو أدنى فمن جعل الضمير عائدا إلى الله لا إلى جبريل
على هذا كان عبارة عن نهاية القرب ولطف المحل وإيضاح المعرفة والإشراف على
الحقيقة من محمد وعبارة عن إجابة الرغبة وقضاء المطالب وإظهار التحفي وإنافة
المنزلة والمرتبة من الله له ويتأول فيه ما يتأول في قوله من تقرب مني شبرا تقربت
منه ذراعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة قرب بالإجابة والقبول وإتيان بالإحسان
وتعجيل المأمول

فصل في ذكر تفضيله في القيامة بخصوص الكرامة

حدثنا القاضي أبو علي حدثنا أبو الفضل وأبو الحسين حدثنا أبو يعلى حدثنا السنجي
حدثنا ابن محبوب حدثنا الترمذي حدثنا الحسين بن يزيد الكوفي حدثنا عبد السلام
ابن حرب عن ليث عن الربيع بن أنس عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا
أيسوا لواء الحمد بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر وفي رواية ابن
زحر عن الربيع عن أنس في غير هذا الحديث أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا وأنا
قائدهم إذا وفدوا وأنا خطيبهم إذا أنصتوا وأنا شفيعهم إذا حبسوا وأنا مبشرهم
إذا أبلسوا لواء الكرم بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر ويطوف علي
ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون وعن أبي هريرة وأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم
عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري وعن أبي سعيد قال قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وبيدي لواء الحمد ولا فخر
وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر
وعن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من
ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع وعن ابن عباس أنا حامل لواء الحمد
يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر وأنا أول من يحرك حلق
الجنة فيفتح لي فأدخلها مع فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين
ولا فخر وعن أنس أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الناس تبعا وعن أبي
هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم أنا سيد الناس يوم القيامة وتدرون لم ذلك يجمع الله
الأولين والآخرين وذكر حديث الشفاعة وعن أبي مريم أنه عليه السلام قال إني
لأرجو أن أكون أعظم الأنبياء أجرا يوم القيامة وفي حديث آخر أما ترضون أن يكون
إبراهيم وعيسى فيكم يوم القيامة ثم قال إنهما في أمتي يوم القيامة أما إبراهيم
فيقول أنت دعوتي وذريتي فاجعلني من أمتك وأما عيسى فالأنبياء إخوة بنو
علات أمهاتهم شتى وإن عيسى أخي ليس بيني وبينه نبي وأنا أولى الناس به **قوله**
أنا سيد الناس يوم القيامة هو سيدهم في الدنيا ويوم القيامة ولكن أشار عليه
السلام لانفراده فيه بالسؤدد والشفاعة دون غيره إذ لجأ إليه الناس في ذلك فلم
يجدوا سواه والسيد هو الذي يلجأ الناس إليه في حوائجهم فكان حينئذ سيدا منفردا
من بين البشر لم يزاحمه أحد في ذلك ولا ادعاه كما قال الله تعالى لمن الملك اليوم
لله الواحد القهار والملك لله تعالى في الدنيا والآخرة لكن في الآخرة انقطعت دعوى
المدعين لذلك في الدنيا وكذلك لجأ إلى محمد جميع الناس في الشفاعة فكان سيدهم
في الأخرى دون دعوى وعن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم آتي باب الجنة يوم
القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد فيقول بك أمرت لا أفتح لأحد
قبلك وعن عبد الله بن عمرو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حوضي مسيرة شهر
وزواياه سواء وماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك كيزانه كنجوم السماء

من شرب منه لم يظمأ أبدا وعن أبي ذر نحوه وقال طوله ما بين عمان إلى أيلة يشخب
فيه ميزابان من الجنة وعن ثوبان مثله وقال أحدهما من ذهب والآخر من ورق وفي
رواية حارثة بن وهب كما بين المدينة وصنعاء وقال أنس أيلة وصنعاء وقال ابن عمر
كما بين الكوفة والحجر الأسود وروى حديث الحوض أيضا أنس وجابر بن سمرة وابن عمر
وعقبة بن عامر وحارثة بن وهب الخزاعي والمستورد وأبو برزة الأسلمي وحذيفة
ابن اليمان وأبو أمامة وزيد بن أرقم وابن مسعود وعبد الله بن زيد وسهل بن سعد
وأبو بكر وعمر بن الخطاب وابن بريدة وسويد بن غفلة وعبد الله الصنابحي وأبو سعيد
الخدري وأبو هريرة والبراء وجندب وعائشة وأسماء بنت أبي بكر وأبو بكرة وخولة
بنت قيس وغيرهم. **فصل في تفضيله** بالمحبة والخلة جاءت بذلك الآثار
الصحيحة واختص صلى الله عليه وسلم على ألسنة المسلمين بحبيب الله. حدثنا
أبو القاسم بن إبراهيم الخطيب وغيره عن كريمة بنت محمد حدثنا أبو الهيثم وحدثنا
حسين بن محمد الحافظ سماعا عليه حدثنا القاضي أبو الوليد حدثنا عبد بن أحمد
حدثنا أبو الهيثم حدثنا أبو عبد الله محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا
عبد الله بن محمد حدثنا أبو عامر حدثنا فليح حدثنا أبو النضر عن بسر بن سعيد عن
أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت
أبا بكر. وفي حديث آخر وإن صاحبكم خليل الله. ومن طريق عبد الله بن مسعود
وقد اتخذ الله صاحبكم خليلا. وعن ابن عباس قال جلس ناس من أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم ينتظرونه قال فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون
فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا إن الله اتخذ من خلقه خليلا وقال آخر ماذا بأعجب
من كلام موسى كلمه الله تكليما. وقال آخر فعيسى كلمة الله وروحه. وقال
آخر آدم اصطفاه الله فخرج عليهم فسلم وقال قد سمعت كلامكم وعجبكم أن
الله اتخذ إبراهيم خليلا وهو كذلك وموسى نجي الله وهو كذلك وعيسى روح الله
وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل

لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر وأنا أول من يحرك
حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين
والآخرين ولا فخر. وفي حديث أبي هريرة من قول الله تعالى لنبيه عليه السلام إني
اتخذتك خليلا فهو مكتوب في التوراة أنت حبيب الرحمن. **قال القاضي**
أبو الفضل رضي الله عنه اختلف في تفسير الخلة وأصل اشتقاقها فقيل الخليل المنقطع
إلى الله الذي ليس في انقطاعه إليه ومحبته له اختلال وقيل الخليل المختص واختار
هذا القول غير واحد وقال بعضهم أصل الخلة الاستصفاء وسمي إبراهيم خليل الله لأنه
يوالي فيه ويعادي فيه وخلة الله له نصره وجعله إماما لمن بعده وقيل الخليل أصله
الفقير المحتاج المنقطع مأخوذ من الخلة وهي الحاجة فسمي بها إبراهيم لأنه قصر حاجته
على ربه وانقطع إليه بهمه ولم يجعله قبل غيره إذ جاءه جبريل وهو في المنجنيق
ليرمى في النار فقال ألك حاجة قال أما إليك فلا. وقال الأستاذ الإمام أبو بكر
ابن فورك الخلة صفاء المودة التي توجب الاختصاص بتخلل الأسرار وقال بعضهم
أصل الخلة المحبة ومعناها الإسعاف والإلطاف والترفيع والتشفيع وقد بين ذلك
تعالى في كتابه بقوله وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم
يعذبكم بذنوبكم فأوجب للمحبوب أن لا يؤاخذ بذنوبه قال هذا والخلة أقوى من
البنوة لأن البنوة قد تكون فيها العداوة كما قال تعالى إن من أزواجكم وأولادكم
عدوا لكم ولا يصح أن تكون عداوة مع خلة فإذن تسمية إبراهيم ومحمد عليهما
السلام بالخلة إما بانقطاعهما إلى الله ووقف حوائجهما عليه والانقطاع عمن دونه
والإضراب عن الوسائط والأسباب أو لزيادة الاختصاص منه تعالى لهما وخفي ألطافه
عندهما وما خالل بواطنهما من أسرار إلهيته ومكنون غيوبه ومعرفته أو لاستصفائه
لهما واستصفاء قلوبهما عمن سواه حتى لم يخاللهما حب لغيره ولهذا قال بعضهم
الخليل من لا يتسع قلبه لسواه وهو عندهم معنى قوله عليه السلام لو كنت متخذا
خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا لكن أخوة الإسلام. واختلف العلماء وأرباب القلوب

أيهما أرفع درجة الخلة أو درجة المحبة فجعلهما بعضهم سواء فلا يكون الحبيب إلا خليلا والخليل إلا حبيبا لكنه خص إبراهيم بالخلة ومحمدا بالمحبة وبعضهم قال درجة الخلة أرفع واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذا خليلا غير ربي فلم يتخذه وقد أطلق المحبة عليه السلام لفاطمة وابنيها وأسامة وغيرهما وأكثرهم جعل المحبة أرفع من الخلة لأن درجة الحبيب نبينا أرفع من درجة الخليل إبراهيم وأصل المحبة الميل إلى ما يوافق المحب ولكن هذا في حق من يصح الميل منه والانتفاع بالوفق وهي درجة المخلوق فأما الخالق جل جلاله فمنزه عن الأعراض فمحبته لعبده تمكينه من سعادته وعصمته وتوفيقه وتهيئته أسباب القرب وإفاضة رحمته عليه وقصواها كشف الحجب عن قلبه حتى يراه بقلبه وينظر إليه ببصيرته فيكون كما قال في الحديث فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ولا ينبغي أن يفهم من هذا سوى التجرد لله والانقطاع إلى الله والإعراض عن غير الله وصفاء القلب لله وإخلاص الحركات لله كما قالت عائشة كان خلقه القرآن برضاه يرضى وبسخطه يسخط ومن هذا عبر بعضهم عن الخلة بقوله

قد تخللت مسلك الروح مني … وبذا سمي الخليل خليلا

فإذا ما نطقت كنت حديثي … وإذا ما سكت كنت الغليلا

فإذن مزية الخلة وخصوصية المحبة حاصلة لنبينا عليه السلام بما دلت عليه الآثار الصحيحة المنتشرة المتلقاة بالقبول من الأمة وكفى بقوله تعالى قل إن كنتم تحبون الله الآية حكى أهل التفسير أن هذه الآية لما نزلت قال الكفار إنما يريد محمد أن نتخذه حنانا كما اتخذت النصارى عيسى فأنزل الله غيظا لهم ورغما على مقالتهم هذه الآية قل أطيعوا الله والرسول فزاده شرفا بأمرهم بطاعته وقرنها بطاعته ثم توعدهم على التولي عنه بقوله فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين وقد نقل الإمام أبو بكر بن فورك عن بعض المتكلمين كلاما في الفرق بين

المحبة والخلة يطول وجملة إشاراته إلى تفضيل مقام المحبة على الخلة ونحن نذكر منه طرفا يهدي إلى ما بعده فمن ذلك قولهم الخليل يصل بالواسطة من قوله وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض والحبيب يصل إليه به من قوله فكان قاب قوسين أو أدنى وقيل الخليل الذي تكون مغفرته في حد الطمع من قوله والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي والحبيب الذي مغفرته في حد اليقين من قوله ليغفر لك الله ما تقدم الآية والخليل قال ولا تخزني والحبيب قيل له يوم لا يخزي الله النبي فابتدئ بالبشارة قبل السؤال والخليل قال في المحنة حسبي الله والحبيب قيل له يا أيها النبي حسبك الله والخليل قال واجعل لي لسان صدق والحبيب قيل له ورفعنا لك ذكرك أعطي بلا سؤال والخليل قال واجنبني وبني أن نعبد الأصنام والحبيب قيل له إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت وفيما ذكرناه تنبيه على مقصد أصحاب هذا المقال من تفضيل المقامات والأحوال وكل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا

فصل في تفضيله بالشفاعة والمقام المحمود

قال الله تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا. حدثنا الشيخ أبو علي الغساني الجياني فيما كتب به إلي بخطه حدثنا سراج بن عبد الله القاضي حدثنا أبو محمد الأصيلي حدثنا أبو زيد وأبو أحمد قالا حدثنا محمد بن يوسف قال حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبان حدثنا أبو الأحوص عن آدم بن علي قال سمعت ابن عمر يقول إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا كل أمة تتبع نبيها يقولون يا فلان اشفع لنا يا فلان اشفع لنا حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود. وعن أبي هريرة سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني قوله عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا فقال هي الشفاعة وروى كعب بن مالك رضي الله عنه عنه عليه السلام يحشر الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل ويكسوني ربي حلة خضراء ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول فذلك المقام المحمود. وعن ابن عمر وذكر

حديث الشفاعة قال فيتمنى حتى ما آخر خلقه في الجنة فيؤمر فيبعثه الله المقام المحمود
الذي وعده وعن ابن مسعود عنه عليه السلام أنه قيامه عن يمين العرش مقاما لا يقومه
غيره يغبطه فيه الأولون والآخرون وفي رواية هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه
وعن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لقائم المقام المحمود قيل وما هو
قال ذلك يوم ينزل الله تبارك وتعالى على كرسيه وعن أبي موسى عنه عليه السلام
خيرت أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة لأنها أعم
أترونها للمتقين لا ولكنها للمذنبين الخطائين وعن أبي هريرة قلت له يا رسول
الله ماذا رد إليك في الشفاعة فقال شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصا
يصدق لسانه قلبه وعن أم حبيبة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أريت ما تلقى
أمتي من بعدي وسفك بعضهم دماء بعض وسبق لهم من الله ما سبق للأمم قبلهم
فسألت الله أن يوليني شفاعة يوم القيامة فيهم ففعل وقال حذيفة يجمع الله
الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي وينفذهم البصر حفاة عراة كما
خلقوا سكوتا لا تكلم نفس إلا بإذنه فينادى محمد فيقول لبيك وسعديك والخير
في يديك والشر ليس إليك والمهتدي من هديت وعبدك بين يديك وبك وإليك
لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت قال فهذا
المقام المحمود الذي ذكر الله وقال ابن عباس إذا دخل أهل النار النار وأهل الجنة
الجنة فتبقى آخر زمرة من الجنة وآخر زمرة من النار فتقول زمرة النار لزمرة الجنة
ما نفعكم إيمانكم فيدعون ربهم ويضجون فيسمعهم أهل الجنة فيسألون آدم وغيره
بعده في الشفاعة لهم فكل يعتذر إليهم حتى يأتوا محمدا فيشفع لهم فذلك المقام
المحمود ونحوه عن ابن مسعود أيضا ومجاهد وذكره علي بن حسين عن النبي
عليه السلام وقال جابر بن عبد الله ليزيد الفقير سمعت بمقام محمد يعني الذي
يبعثه الله فيه قلت نعم قال فإنه مقام محمد المحمود الذي يخرج الله به من يخرج
يعني من النار وذكر حديث الشفاعة في إخراج الجهنميين وعن أنس نحوه

وقال فهذا المقام المحمود الذي وعده وعن سلمان المقام المحمود هو الشفاعة في
أمته يوم القيامة ومثله عن أبي هريرة وقال قتادة كان أهل العلم يرون المقام
المحمود هو شفاعته يوم القيامة وعلى أن المقام المحمود هو مقامه عليه السلام
للشفاعة مذاهب السلف والصحابة والتابعين وعامة أئمة المسلمين من الله جاءت
مفسرة في صحيح الأخبار عنه عليه السلام وجاءت مقالة في تفسيرها
شاذة عن بعض السلف يجب أن لا تثبت إذ لم يعضدها صحيح أثر ولا سند نظر
ولو صحت لكان لها تأويل غير مستنكر لكنها بتفسير النبي صلى الله عليه وسلم في صحاح
الآثار مردودة فلا يجب أن يلتفت إليها مع أنه لم يأت في كتاب ولا سنة ولا اتفق
على القائل به أئمة وفي إطلاقها منكر من القول وشنعة وفي رواية أنس
وأبي هريرة وغيرهما دخل حديث بعضهم في بعض قال عليه السلام يجمع الله
الأولين والآخرين يوم القيامة فيهتمون أو قال فيلهمون فيقولون لو استشفعنا إلى
ربنا فيريحنا من مكاننا وعنه ماج الناس بعضهم في بعض وعن أبي هريرة وتدنو الشمس
فيبلغ الناس من الغم ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقولون ألا تنظرون من يشفع لكم
فيأتون آدم فيقولون زاد بعضهم أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك
من روحه وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء اشفع لنا
عند ربك حتى يريحنا من مكاننا ألا ترى ما نحن فيه فيقول إن ربي غضب اليوم
غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ونهاني عن الشجرة فعصيته
نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا فيقولون أنت أول
الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبدا شكورا ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما بلغنا
ألا تشفع لنا إلى ربك فيقول إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله
ولا يغضب بعده مثله نفسي نفسي قال في رواية أنس ويذكر خطيئته التي أصاب
سؤاله ربه بغير علم وفي رواية أبي هريرة وقد كانت لي دعوة دعوتها على قومي
اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقولون أنت

نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول إن ربي
قد غضب اليوم غضبا ويذكر ثلاث كلمات كذبهن نفسي نفسي فيقول لست لها
ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله وفي رواية فإنه عبد آتاه الله التوراة وكلمه
وقربه نجيا قال فيأتون موسى فيقول لست لها ويذكر خطيئته التي أصاب قتله
النفس نفسي نفسي ولكن عليكم بعيسى فإنه روح الله وكلمته فيأتون عيسى
فيقول لست لها ولكن عليكم بمحمد عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتوني
فأقول أنا لها فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي فإذا رأيته وقعت ساجدا
وفي رواية فآتي تحت العرش فأخر ساجدا وفي رواية فأقوم بين يديه فأحمده
بمحامد لا أقدر عليها إلا أن يلهمنيها الله وفي رواية فيفتح الله علي من محامده
وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي قال في رواية أبي هريرة فيقال
يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول يا رب أمتي
يا رب أمتي فيقول أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة
وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ولم يذكر في رواية أنس فصل
وفي رواية أنس فقال مكانه ثم أخر ساجدا فيقال لي يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع
لك واشفع تشفع وسل تعطه فأقول رب أمتي أمتي فيقال انطلق فمن كان في قلبه
مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه فأنطلق فأفعل ثم أرجع إلى ربي
فأحمده بتلك المحامد وذكر مثل الأول وقال فيه مثقال حبة من خردل قال فأفعل
ثم أرجع وذكر مثل ما تقدم وقال فيه من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال
حبة من خردل فأفعل وذكر في المرة الرابعة فيقال لي ارفع رأسك وقل تسمع
واشفع تشفع وسل تعطه فأقول يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله قال ليس
ذلك إليك ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن من النار
من قال لا إله إلا الله ومن رواية قتادة عنه قال فلا أدري في الثالثة أو الرابعة
فأقول يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن أي وجب عليه الخلود وعن

أبي بكر وعقبة بن عامر وأبي سعيد وحذيفة مثله قال فيأتون محمدا فيؤذن
له وتأتي الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط وذكر في رواية أبي مالك عن
حذيفة فيأتون محمدا فيشفع فيضرب الصراط فيمرون أولهم كالبرق ثم كالريح
والطير وأشد الرجال ونبيكم صلى الله عليه على الصراط يقول اللهم سلم
سلم حتى يجتاز الناس وذكر آخرهم جوازا الحديث وفي رواية أبي هريرة
فأكون أول من يجيز وعن ابن عباس عنه عليه السلام توضع للأنبياء
منابر يجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه قائما بين يدي ربي منتصبا
فيقول الله تبارك وتعالى ما تريد أن أصنع بأمتك فأقول يا رب عجل حسابهم فيدعى
بهم فيحاسبون فمنهم من يدخل الجنة برحمته ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي ولا أزال
أشفع حتى أعطى صكاكا برجال قد أمر بهم إلى النار حتى إن خازن النار ليقول
يا محمد ما تركت لغضب ربك من نقمة ومن طريق زياد النميري عن أنس أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنا أول من تنشق الأرض عن جمجمته ولا فخر وأنا
سيد الناس يوم القيامة ولا فخر ومعي لواء الحمد يوم القيامة وأنا أول من تفتح له
الجنة ولا فخر فآخذ بحلقة الجنة فيقال من هذا فأقول محمد فيفتح لي فيستقبلني
الجبار تعالى فأخر له ساجدا وذكر نحو ما تقدم ومن رواية أنس سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول لأشفعن يوم القيامة لأكثر مما في الأرض من حجر وشجر
فقد اجتمع من اختلاف ألفاظ هذه الآثار أن شفاعته عليه السلام ومقامه المحمود
من أول الشفاعات إلى آخرها من حين يجتمع الناس للحشر وتضيق بهم الحناجر ويبلغ
منهم العرق والشمس والوقوف مبلغه وذلك قبل الحساب فيشفع حينئذ لإراحة
الناس من الموقف ثم يوضع الصراط ويحاسب الناس كما جاء في الحديث عن أبي هريرة
وحذيفة وهذا الحديث أتقن فيشفع في تعجيل من لا حساب عليه من أمته إلى الجنة
كما تقدم في الحديث ثم يشفع فيمن وجب عليه العذاب ودخل النار منهم حسب ما
تقتضيه الأحاديث الصحيحة ثم فيمن قال لا إله إلا الله وليس هذا لسواه عليه السلام

وفي الحديث المشهور لكل نبي دعوة يدعو بها واختبأت دعوتي شفاعة لأمتي
يوم القيامة. قال أهل العلم معناه دعوة أعلم أنها تستجاب لهم ويبلغ فيها مرغوبهم
وإلا فكم لكل نبي منهم من دعوة مستجابة ولنبينا منها ما لا يعد لكن حالهم
عند الدعاء بها بين الرجاء والخوف وضمنت لهم إجابة دعوة فيما شاءوه يدعون
بها على يقين من الإجابة. وقد قال محمد بن زياد عن أبي هريرة في هذا الحديث
لكل نبي دعوة دعا بها في أمته فاستجيب له وأنا أريد أن أؤخر دعوتي
شفاعة لأمتي يوم القيامة. وفي رواية أبي صالح لكل نبي دعوة مستجابة
فتعجل كل نبي دعوته. ونحوه في رواية أبي زرعة عن أبي هريرة. وعن أنس
مثل رواية ابن زياد عن أبي هريرة فتكون هذه الدعوة المذكورة مخصوصة
مضمونة الإجابة وإلا فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه سأل لأمته أشياء من أمور
الدين والدنيا أعطي بعضها ومنع بعضها وادخر لهم هذه الدعوة ليوم القيامة وخاتمة
المحن وعظيم السؤل والرغبة جزاه الله أحسن ما جزى نبيا عن أمته وصلى عليه
كثيرا وسلم.

فصل في تفضيله في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة
والكوثر والفضيلة. حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي والفقيه
أبو الوليد هشام بن أحمد الفقيه بقراءتي عليه قالا حدثنا أبو علي الغساني حدثنا النمري
حدثنا ابن عبد المؤمن حدثنا أبو بكر التمار حدثنا أبو داود حدثنا محمد بن سلمة
حدثنا ابن وهب عن ابن لهيعة وحيوة وسعيد بن أبي أيوب عن كعب بن علقمة
عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاصي أنه سمع النبي صلى الله عليه
وسلم يقول إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإنه من صلى علي
صلى الله عليه عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا
لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه
الشفاعة. وفي حديث آخر عن أبي هريرة الوسيلة أعلى درجة في الجنة. وعن
أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا أنا أسير في الجنة إذ عرض لي نهر
حافتاه قباب اللؤلؤ قلت لجبريل ما هذا قال هذا الكوثر الذي أعطاكه الله
قال ثم ضرب بيده إلى طينته فاستخرج مسكا. وعن عائشة وعبد الله بن عمرو
مثله قال ومجراه على الدر والياقوت وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج. وفي
رواية عنه فإذا هو يجري ولم يشق شقا عليه حوض ترد عليه أمتي. وذكر
حديث الحوض ونحوه عن ابن عباس. وعن ابن عباس أيضا قال الكوثر الخير الذي
أعطاه الله إياه. وقال سعيد بن جبير والنهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله
وعن حذيفة فيما ذكر عليه السلام عن ربه وأعطاني الكوثر نهرا من الجنة يسيل
في حوضي. وعن ابن عباس في قوله ولسوف يعطيك ربك فترضى قال ألف قصر من
لؤلؤ ترابهن المسك وفيه ما يصلحهن. وفي رواية أخرى وفيه ما ينبغي له
من الأزواج والخدم.

فصل فإن قلت إذا تقرر من دليل القرآن وصحيح
الأثر وإجماع الأمة كونه أكرم البشر وأفضل الأنبياء فما معنى الأحاديث
الواردة بنهيه عن التفضيل كقوله فيما حدثناه الأسدي قال حدثنا السمرقندي
حدثنا الفارسي حدثنا الجلودي حدثنا ابن سفيان حدثنا مسلم حدثنا ابن مثنى
حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن قتادة سمعت أبا العالية يقول حدثني
ابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم يعني ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى. وفي غير هذا الطريق
عن أبي هريرة قال يعني الله ما ينبغي لعبد الحديث. وفي حديث أبي هريرة في
اليهودي الذي قال والذي اصطفى موسى على البشر فلطمه رجل من الأنصار وقال
تقول ذلك ورسول الله بين أظهرنا فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال لا
تفضلوا بين الأنبياء. وفي رواية لا تخيروني على موسى فذكر الحديث وفيه ولا أقول
إن أحدا أفضل من يونس بن متى. وعن أبي هريرة من قال أنا خير من يونس بن
متى فقد كذب. وفي حديثه الآخر فجاءه رجل فقال يا خير البرية فقال ذاك إبراهيم
فاعلم أن للعلماء في هذه الأحاديث تأويلات أحدها أن نهيه عن التفضيل كان

قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم فنهى عن التفضيل إذ يحتاج إلى توقيف وأن من فضل بلا
علم فقد كذب وكذلك قوله لا أقول إن أحدا أفضل منه لا يقتضي تفضيله هو وإنما
هو في الظاهر كف عن التفضيل الوجه الثاني أنه قاله صلى الله عليه وسلم على طريق
التواضع ونفي التكبر والعجب وهذا لا يسلم من الاعتراض الوجه الثالث ألا
يفضل بينهم تفضيلا يؤدي إلى تنقص بعضهم أو الغض منه لا سيما في جهة يونس عليه
السلام إذ أخبر الله عنه بما أخبر لئلا يقع في نفس من لا يعلم منه بذلك غضاضة
وانحطاط من رتبته الرفيعة إذ قال تعالى عنه إذ أبق إلى الفلك المشحون وظن أن
لن نقدر عليه فربما يخيل لمن لا علم عنده حطيطته بذلك الوجه الرابع منع
التفضيل في حق النبوة والرسالة فإن الأنبياء فيها على حد واحد إذ هي شيء واحد
لا يتفاضل وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والرتب والألطاف
وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل وإنما التفاضل بأمور أخر زائدة عليها ولذلك
منهم رسل ومنهم أولو عزم من الرسل ومنهم من رفع مكانا عليا ومنهم من أوتي الحكم صبيا
وأوتي بعضهم الزبر وبعضهم البينات ومنهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات
قال الله تعالى ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض الآية وقال تلك الرسل فضلنا بعضهم
على بعض الآية قال بعض أهل العلم والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا وذلك بثلاثة
أحوال أن تكون آياته ومعجزاته أظهر وأشهر أو تكون أمته أزكى وأكثر أو يكون
في ذاته أفضل وأظهر وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله به من كرامته واختصاصه
من كلام أو خلة أو رؤية أو ما شاء الله من ألطافه وتحف ولايته واختصاصه وقد
روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن للنبوة أثقالا وإن يونس تفسخ منها تفسخ
الربع فحفظ صلى الله عليه وسلم موضع الفتنة من أوهام من يسبق إليه بسببها
جرح في نبوته أو قدح في اصطفائه وحط من رتبته ووهن في عصمته شفقة منه
صلى الله عليه وسلم على أمته وقد يتوجه على هذا الترتيب وجه خامس وهو أن يكون
أنا راجعا إلى القائل نفسه أي لا يظن أحد وإن بلغ من الذكاء والعصمة والطهارة

ما بلغ أنا خير من يونس لأجل ما حكى الله عنه فإن درجة النبوة أفضل وأعلا
وإن تلك الأقدار لم تحطه عنها حبة خردلة ولا أدنا وسنزيد في القسم الثالث في هذا
بيانا إن شاء الله فقد بان لك الغرض وسقط بما حررناه شبهة المعترض

فصل في أسمائه عليه السلام وما تضمنته من فضيلته

حدثنا
أبو عمران موسى بن أبي تليد الفقيه قال حدثنا أبو عمر الحافظ حدثنا سعيد بن نصر حدثنا
قاسم بن أصبغ حدثنا محمد بن وضاح حدثنا يحيى حدثنا مالك عن ابن شهاب عن محمد
ابن جبير بن مطعم عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي خمسة أسماء أنا
محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس
على قدمي وأنا العاقب وقد سماه الله في كتابه محمدا وأحمد فمن خصائصه تعالى
له أن ضمن أسماءه ثناءه وطوى أثناء ذكره عظيم شكره فأما اسمه أحمد فأفعل
مبالغة من صفة الحمد ومحمد مفعل مبالغة من كثرة الحمد فهو صلى الله عليه وسلم
أجل من حمد وأفضل من حمد وأكثر الناس حمدا فهو أحمد المحمودين وأحمد الحامدين
ومعه لواء الحمد يوم القيامة ليتم له كمال الحمد ويشتهر في تلك العرصات بصفة الحمد
ويبعثه ربه هناك مقاما محمودا كما وعده يحمده فيه الأولون والآخرون بشفاعته
لهم ويفتح عليه فيه من المحامد كما قال عليه السلام ما لم يعط غيره وسمى أمته
في كتابه بالحمادين فحقيق أن يسمى محمدا وأحمد ثم في هذين الاسمين من عجائب
خصائصه وبدائع آياته فن آخر هو أن الله جل اسمه حمى أن يسمى بهما أحد قبل زمانه
أما أحمد الذي أتى في الكتب وبشرت به الأنبياء فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمى به
أحد غيره ولا يدعى به مدعو قبله حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أو شك
وكذلك محمد أيضا لم يتسم به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده عليه
السلام وميلاده أن نبيا يبعث اسمه محمد فسمى قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء
أن يكون أحدهم هو والله أعلم حيث يجعل رسالاته وهم محمد بن أحيحة بن الجلاح
الأوسي ومحمد بن مسلمة الأنصاري ومحمد بن براء البكري ومحمد بن سفيان بن مجاشع

ومحمد بن حمران الجعفي ومحمد بن خزاعي السلمي لا سابع لهم. ويقال أول من
تسمى بمحمد محمد بن سفيان واليمن تقول بل محمد بن اليحمد من الأزد. ثم حمى الله
كل من تسمى به أن يدعي النبوة أو يدعيها أحد له أو يظهر عليه سبب يشكك
أحدا في أمره حتى تحققت السمتان له عليه السلام ولم ينازع فيهما. وأما قوله
وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ففسر في الحديث ويكون محو الكفر إما من مكة
وبلاد العرب وما زوي له من الأرض ووعد أنه يبلغه ملك أمته أو يكون المحو عاما
بمعنى الظهور والغلبة كما قال تعالى ليظهره على الدين كله وقد ورد تفسيره في الحديث
أنه الذي محيت به سيئات من اتبعه من الأنبياء. وقوله وأنا الحاشر الذي يحشر الناس
على قدمي أي على زماني وعهدي أي ليس بعدي نبي كما قال وخاتم النبيين وسمي
عاقبا لأنه عقب غيره من الأنبياء. وقيل معنى على قدمي أي يحشر الناس بمشاهدتي
كما قال تعالى لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا. ومعنى
قوله لي خمسة أسماء قيل إنها موجودة في الكتب المتقدمة وعند أولي العلم من
الأمم السالفة والله أعلم. وقد روي عنه عليه السلام لي عشرة أسماء وذكر
منها طه ويس حكاه مكي. وقد قيل في بعض تفاسير طه إنه يا طاهر يا هادي
وفي يس يا سيد حكاه السلمي عن الواسطي وجعفر بن محمد. وذكر غيره
لي عشرة أسماء فذكر الخمسة التي في الحديث الأول قال وأنا رسول الرحمة
ورسول الراحة ورسول الملاحم وأنا المقفي قفيت النبيين وأنا قيم والقيم الجامع
الكامل كذا وجدته ولم أروه وأرى أن صوابه قثم بالثاء بعد رواية الحربي عنه
عليه السلام أتاني ملك فقال أنت قثم أي مجتمع والقثوم الجامع للخير وهو اسم في
بني هاشم معلوم. وروى النقاش عنه عليه السلام لي في القرآن سبعة أسماء محمد
وأحمد ويس وطه والمدثر والمزمل وعبد الله. وفي حديث عن جبير بن مطعم
هي ست محمد وأحمد وخاتم وحاشر وعاقب وماحي. ويقال أول من تسمى بمحمد
محمد بن سفيان واليمن تقول بل محمد بن اليحمد من الأزد. وفي حديث أبي موسى الأشعري

أنه كان عليه السلام يسمي لنا نفسه أسماء فيقول أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر
ونبي التوبة ونبي الملحمة ويروى المرحمة والرحمة والراحة وكل صحيح إن شاء الله
ومعنى المقفي معنى العاقب. وأما نبي الرحمة والتوبة والمرحمة والراحة فقد قال الله تعالى
وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين وكما وصفه بأنه يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة
ويهديهم إلى صراط مستقيم وبالمؤمنين رؤوف رحيم. وقد قال في صفة أمته إنها أمة
مرحومة وقال تعالى فيهم وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أي يرحم بعضهم بعضا
فبعثه عليه السلام رحمة لأمته ورحمة للعالمين ورحيما بهم ومترحما مستغفرا
لهم وجعل أمته مرحومة ووصفها بالرحمة وأمرها بالتراحم وأثنى عليه فقال إن الله
يحب من عباده الرحماء. وقال الراحمون يرحمهم الله يوم القيامة ارحموا من في الأرض
يرحمكم من في السماء. وأما رواية نبي الملحمة فإشارة إلى ما بعث به من القتال
والسيف صلى الله عليه وسلم وهي صحيحة. وروى حذيفة مثل حديث أبي موسى
وفيه ونبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملاحم. وروى الحربي في حديثه أنه عليه
السلام قال أتاني ملك فقال أنت قثم أي مجتمع قال والقثوم الجامع للخير وهذا اسم
في أهل بيته صلى الله عليه وسلم معلوم. وقد جاءت من ألقابه عليه السلام وسماته
في القرآن عدة كثيرة سوى ما ذكرناه كالنور والسراج المنير والمنذر والنذير
والمبشر والبشير والشاهد والشهيد والحق المبين وخاتم النبيين والرؤوف
الرحيم والأمين وقدم الصدق ورحمة للعالمين ونعمة الله والعروة الوثقى والصراط
المستقيم والنجم الثاقب والكريم والنبي الأمي وداعي الله في أوصاف كثيرة وسمات
جليلة. وجرى منها في كتب الله المتقدمة وكتب أنبيائه وأحاديث رسوله
وإطلاق الأمة جملة شافية كتسميته بالمصطفى والمجتبى وأبي القاسم والحبيب
ورسول رب العالمين والشفيع المشفع والمتقي والمصلح والطاهر والمهيمن والصادق
والمصدوق والهادي وسيد ولد آدم وسيد المرسلين وإمام المتقين وقائد الغر
المحجلين وخليل الله وحبيب الرحمن وصاحب الحوض المورود والشفاعة والمقام

المحمود، وصاحب الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وصاحب التاج والمعراج
واللواء والقضيب وراكب البراق والناقة والنجيب وصاحب الحجة والسلطان والخاتم
والعلامة والبرهان وصاحب الهراوة والنعلين. ومن أسمائه في الكتب المتوكل
والمختار ومقيم السنة والمقدس وروح القدس وروح الحق وهو معنى البارقليط في الإنجيل
وقال ثعلب البارقليط الذي يفرق بين الحق والباطل. ومن أسمائه في الكتب السالفة
ماذ ماذ ومعناه طيب طيب وحمطايا والخاتم والحاتم حكاه كعب الأحبار
قال ثعلب فالخاتم الذي ختم الأنبياء والحاتم أحسن الأنبياء خلقا وخلقا صلى الله
عليه وسلم ويسمى بالسريانية مشفح والمنحمنا واسمه أيضا في التوراة أحيد
روي ذلك عن ابن سيرين ومعنى صاحب القضيب أي السيف ووقع ذلك مفسرا في الإنجيل
قال معه قضيب من حديد يقاتل به وأمته كذلك. وقد يحمل على أنه القضيب الممشوق
الذي كان يمسكه عليه السلام وهو الآن عند الخلفاء. وأما الهراوة التي وصف بها
فهي في اللغة العصا وأراها والله أعلم العصا المذكورة في حديث الحوض أذود
الناس عنه بعصاي لأهل اليمن. وأما التاج فالمراد به العمامة ولم تكن حينئذ إلا
للعرب والعمائم تيجان العرب وأوصافه وألقابه وسماته في الكتب كثيرة وفيما ذكرناه
منها مقنع إن شاء الله. وكانت كنيته المشهورة أبا القاسم. وروي عن أنس أنه لما
ولد له إبراهيم جاءه جبريل فقال له السلام عليك يا أبا إبراهيم.

فصل في تشريف الله تعالى له بما سماه من أسمائه الحسنى ووصفه به من صفاته العلى

قال القاضي أبو الفضل وفقه الله: ما أحرى هذا الفصل بفصول
الباب الأول لانخراطه في سلك مضمونها وامتزاجه بعذب معينها لكن لم يشرح
الله الصدر للهداية إلى استنباطه ولا أنار الفكر لاستخراج جوهره والتقاطه
إلا عند الخوض في الفصل الذي قبله فرأينا أن نضيفه إليه ونجمع به شمله. فاعلم
أن الله تعالى خص كثيرا من أنبيائه بكرامة خلعها عليهم من أسمائه كتسميته إسحاق
وإسماعيل بعليم وحليم وإبراهيم بحليم ونوحا بشكور وعيسى ويحيى ببر وموسى

بكريم وقوي ويوسف بحفيظ عليم وأيوب بصابر وإسماعيل بصادق الوعد كما نطق
به الكتاب العزيز من مواضع ذكرهم. وفضل محمدا نبينا عليه السلام بأن حلاه
منها في كتابه العزيز وعلى ألسنة أنبيائه بعدة كثيرة اجتمع لنا منها جملة بعد إعمال
الفكر وإحضار الذكر إذ لم نجد من جمع منها فوق اسمين ولا من تفرغ فيها لتأليف
فصلين وحررنا منها في هذا الفصل نحو ثلاثين اسما. ولعل الله تعالى كما ألهم إلى ما
علم منها وحققه يتم النعمة بإبانة ما لم يظهر لنا الآن ويفتح غلقه. فمن أسمائه
تعالى الحميد ومعناه المحمود لأنه حمد نفسه وحمده عباده ويكون أيضا بمعنى
الحامد لنفسه ولأعمال الطاعات وسمى النبي عليه السلام محمدا وأحمد فمحمد بمعنى
محمود وكذا وقع اسمه في زبور داود وأحمد بمعنى أكبر من حمد وأجل من حمد
وقد أشار إلى نحو هذا حسان بقوله:

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

وفي شعر عبد المطلب محمد وهو في التوراة محمود. ومن أسمائه تعالى الرؤوف الرحيم وهما
بمعنى متقارب وسماه في كتابه بذلك فقال بالمؤمنين رءوف رحيم. ومن أسمائه تعالى الحق
المبين ومعنى الحق الموجود المتحقق أمره وكذلك المبين أي البين أمره وإلهيته
بان وأبان بمعنى ويكون بمعنى المبين لعباده أمر دينهم ومعادهم وسمى النبي بذلك
في كتابه فقال حتى جاءهم الحق ورسول مبين وقال وقل إني أنا النذير المبين وقال
قد جاءكم الحق من ربكم وقال فقد كذبوا بالحق لما جاءهم قيل محمد وقيل القرآن
ومعناه هنا ضد الباطل والمتحقق صدقه وأمره وهو بالمعنى الأول والمبين البين
أمره ورسالته أو المبين عن الله ما بعثه به كما قال لتبين للناس ما نزل إليهم. ومن أسمائه
تعالى النور ومعناه ذو النور أي خالقه أو منور السماوات والأرض بالأنوار ومنور قلوب
المؤمنين بالهداية وسماه نورا فقال قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين قيل محمد
وقيل القرآن وقال فيه وسراجا منيرا سمي بذلك لوضوح أمره وبيان نبوته وتنوير
قلوب المؤمنين والعارفين بما جاء به. ومن أسمائه تعالى الشهيد ومعناه العالم وقيل

الشاهد على عباده يوم القيامة ويسمى شهيدا وشاهدا فقال إنا أرسلناك شاهدا
وقال ويكون الرسول عليكم شهيدا وهو بمعنى الأول ومن أسمائه تعالى الكريم ومعناه
الكثير الخير وقيل المفضل وقيل العفو وقيل العلي وفي الحديث المروي في أسمائه تعالى
الأكرم وسماه تعالى كريما بقوله إنه لقول رسول كريم قيل محمد وقيل جبريل وقال عليه
السلام أنا أكرم ولد آدم ومعاني الاسم صحيحة فيه عليه السلام ومن أسمائه تعالى
العظيم ومعناه الجليل الشأن الذي كل شيء دونه وقال في النبي عليه السلام
وإنك لعلى خلق عظيم ووقع في أول سفر من التوراة عن إسماعيل وسيلد عظيما
لأمة عظيمة فهو عظيم وعلى خلق عظيم ومن أسمائه تعالى الجبار ومعناه المصلح
وقيل القاهر وقيل العلي العظيم الشأن وقيل المتكبر وسمي النبي صلى الله عليه وسلم
في كتاب داود بجبار فقال تقلد أيها الجبار سيفك فإن ناموسك وشرائعك مقرونة
بهيبة يمينك ومعناه في حق النبي صلى الله عليه وسلم إما لإصلاحه الأمة بالهداية
والتعليم أو لقهره أعداءه أو لعلو منزلته على البشر وعظيم خطره ونفى تعالى عنه
في القرآن جبرية التكبر التي لا تليق به فقال وما أنت عليهم بجبار ومن أسمائه
تعالى الخبير ومعناه المطلع بكنه الشيء العالم بحقيقته وقيل معناه المخبر وقال
الله تعالى الرحمان فاسأل به خبيرا قال القاضي بكر بن العلاء المأمور بالسؤال غير
النبي والمسؤول الخبير هو النبي وقال غيره بل السائل النبي والمسؤول الله فالنبي
خبير بالوجهين المذكورين قيل لأنه عالم على غاية من العلم بما أعلمه الله من مكنون
علمه وعظيم معرفته مخبر لأمته بما أذن له في إعلامهم به ومن أسمائه تعالى الفتاح
ومعناه الحاكم بين عباده أو فاتح أبواب الرزق والرحمة والمنغلق من أمورهم عليهم
أو يفتح قلوبهم وبصائرهم لمعرفة الحق ويكون أيضا بمعنى الناصر كقوله تعالى إن
تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أي إن تستنصروا فقد جاءكم النصر وقيل معناه
مبتدئ الفتح والنصر وسمى الله نبيه عليه السلام بالفاتح في حديث الإسراء
الطويل من رواية الربيع بن أنس عن أبي العالية وغيره عن أبي هريرة وفيه من

قول الله تعالى وجعلتك فاتحا وخاتما وفيه من قول النبي صلى الله عليه وسلم في ثنائه
على ربه وتعديد مراتبه ورفع لي ذكري وجعلني فاتحا وخاتما فيكون الفاتح هنا
بمعنى الحاكم أو الفاتح لأبواب الرحمة على أمته والفاتح لبصائرهم لمعرفة الحق والإيمان
بالله أو الناصر للحق أو المبتدئ بهداية الأمة أو المبدأ المقدم في الأنبياء والخاتم لهم
كما قال عليه السلام كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث ومن أسمائه
تعالى في الحديث الشكور ومعناه المثيب على العمل القليل وقيل المثني على المطيعين
ووصف بذلك نبيه نوحا فقال إنه كان عبدا شكورا وقد وصف النبي صلى الله
عليه وسلم بذلك نفسه فقال أفلا أكون عبدا شكورا أي معترفا بنعم ربي عالما بقدر
ذلك مثنيا عليه مجهدا نفسي في الزيادة من ذلك لقوله لئن شكرتم لأزيدنكم
ومن أسمائه تعالى العليم والعلام وعالم الغيب والشهادة ووصف نبيه بالعلم وخصه
بمزية منه فقال وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما وقال ويعلمكم
الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ومن أسمائه تعالى الأول والآخر
ومعناهما السابق للأشياء قبل وجودها والباقي بعد فنائها وتحقيقه أنه ليس له
أول ولا آخر وقال عليه السلام كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث
وفي تفسير قوله تعالى وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح فقدم محمدا
وقد أشار إلى نحو منه عمر بن الخطاب رحمه الله ومنه قوله نحن الآخرون السابقون
وقوله أنا أول من تنشق عنه الأرض وأول من يدخل الجنة وأول شافع وأول
مشفع وهو خاتم النبيين وآخر الرسل صلى الله عليه وسلم ومن أسمائه تعالى القوي
وذو القوة المتين ومعناه القادر وقد وصفه الله بذلك فقال ذي قوة عند ذي العرش
مكين قيل محمد وقيل جبريل ومن أسمائه تعالى الصادق في الحديث المأثور وورد
في الحديث أيضا اسمه عليه السلام بالصادق المصدوق ومن أسمائه تعالى الولي
والمولى ومعناهما الناصر وقد قال الله تعالى إنما وليكم الله ورسوله وقال عليه السلام
أنا ولي كل مؤمن وقال الله تعالى النبي أولى بالمؤمنين وقال عليه السلام من كنت

مولاه بمعنى مولاه. ومن أسمائه تعالى العفو ومعناه الصفوح وقد وصف الله بهذا
نبيه في القرآن والتوراة وأمره بالعفو فقال خذ العفو وقال أبي عفا عنهم واصفح
وقال له جبريل وقد سأله عن قوله خذ العفو قال أن تعفو عمن ظلمك وقال في التوراة
في الحديث المشهور في صفته ليس بفظ ولا غليظ ولكن يعفو ويصفح. ومن أسمائه
تعالى الهادي وهو بمعنى توفيق الله لمن أراد من عباده وبمعنى الدلالة والدعاء قال الله
تعالى والله يدعوا إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وأصل الجميع
من الميل وقيل من التقدم وقيل في تفسير طه أنه يا طاهر يا هادي يعني النبي عليه
السلام وقال تعالى له وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم وقال تعالى فيه وداعيا إلى الله
بإذنه فالله مختص بالمعنى الأول قال تعالى له إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء
وبمعنى الدلالة يطلقون على غير الله تعالى ومن أسمائه تعالى المؤمن المهيمن وقيل هما بمعنى
واحد ومعنى المؤمن في حقه تعالى المصدق وعده عباده والمصدق قوله الحق والمصدق
لعباده المؤمنين ورسله. وقيل الموحد نفسه وقيل المؤمن عباده في الدنيا من ظلمه
والمؤمنين في الآخرة من عذابه. وقيل المهيمن بمعنى الأمين مصغر منه بقلب الهمزة
هاء وقد قيل أن قولهم في الدعاء آمين أنه اسم من أسماء الله تعالى ومعناه معنى المؤمن
وقيل المهيمن بمعنى الشاهد والحافظ والنبي عليه السلام أمين ومهيمن ومؤمن وقد
سماه الله أمينا فقال مطاع ثم أمين وكان عليه السلام يعرف بالأمين وشهر به قبل
النبوة وبعدها وسماه العباس في شعره مهيمنا في قوله

ثم احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتها النطق

قيل المراد
يا أيها المهيمن قاله القتبي والإمام أبو القاسم القشيري وقال تعالى يؤمن بالله ويؤمن
للمؤمنين أي يصدق وقال أنا أمنة لأصحابي فهذا بمعنى المؤمن ومن أسمائه تعالى القدوس
ومعناه المنزه عن النقائص المطهر من سمات الحدث ويسمى بيت المقدس لأنه يتطهر
فيه من الذنوب ومنه الوادي المقدس وروح القدس ووقع في كتب الأنبياء في أسمائه
عليه السلام المقدس أي المطهر من الذنوب كما قال ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك

وما تأخر أو الذي يتطهر به من الذنوب ويتنزه باتباعه عنها كما قال ويزكيهم وقال
ويخرجهم من الظلمات إلى النور. أو يكون مقدسا بمعنى مطهرا من الأخلاق الذميمة
والأوصاف الدنية ومن أسمائه تعالى العزيز ومعناه الممتنع الغالب أو الذي لا نظير له
أو المعز لغيره وقال تعالى ولله العزة ولرسوله أي الامتناع وجلالة القدر. وقد
وصف الله تعالى نفسه بالبشارة والنذارة فقال يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان
وقال إن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسماه تعالى مبشرا ونذيرا وبشيرا
أي مبشرا لأهل طاعته ونذيرا لأهل معصيته ومن أسمائه تعالى فيما ذكره بعض
المفسرين طه ويس وقد ذكر بعضهم أيضا أنهما من أسماء محمد صلى الله عليه وسلم
وشرف وكرم

فصل

قال القاضي أبو الفضل وفقه الله وها أنا أذكر
نكتة أذيل بها هذا الفصل وأختم بها هذا القسم وأزيح الإشكال بها فيما تقدم عن
كل ضعيف الوهم سقيم الفهم تخلصه من مهاوي التشبيه وتزحزحه عن شبه
التمويه وهو أن يعتقد أن الله جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته وحسنى
أسمائه وعلي صفاته لا يشبه شيئا من مخلوقاته ولا يشبه به وأن ما جاء مما
أطلقه الشرع على الخالق وعلى المخلوق فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي إذ
صفات القديم بخلاف صفات المخلوق فكما أن ذاته تعالى لا تشبه الذوات كذلك
صفاته تعالى لا تشبه صفات المخلوقين إذ صفاتهم لا تنفك عن الأغراض والأعراض
وهو تعالى منزه عن ذلك بل لم يزل بصفاته وأسمائه وكفى في هذا قوله تعالى
ليس كمثله شيء ولله در من قال من العلماء العارفين المحققين التوحيد إثبات
ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة من الصفات. وزاد هذه النكتة الواسطي
رحمه الله بيانا وهي مقصودنا فقال ليس كذاته ذات ولا كاسمه اسم ولا كفعله
فعل ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ اللفظ وجلت الذات القديمة أن
تكون لها صفة حديثة كما استحال أن تكون للذات المحدثة صفة قديمة. وهذا كله
مذهب أهل الحق والسنة والجماعة رضي الله عنهم. وقد فسر الإمام أبو القاسم القشيري

رحمه الله قوله هذا اليوم بيانا فقال من الحكاية تشتمل على جوامع مسائل التوحيد
وكيف تشبه ذاته ذات المحدثات وهي بوجودها مستغنية، وكيف يشبه فعله
فعل الخلق وهو لغير جلب أنس أو دفع نقص حصل ولا بخواطر وأغراض وجد ولا
بمباشرة ومعالجة ظهر، وفعل الخلق لا يخرج عن هذه الوجوه. وقال آخر من مشايخنا
ما توهمتموه بأوهامكم أو أدركتموه بعقولكم فهو محدث مثلكم. وقال الإمام أبو المعالي
الجويني من اطمأن إلى موجود انتهى إليه فكره فهو مشبه، ومن اطمأن إلى النفي
المحض فهو معطل، وإن قطع بموجود اعترف بالعجز عن درك حقيقته فهو موحد.
وما أحسن قول ذي النون المصري حقيقة التوحيد أن تعلم أن قدرة الله في الأشياء
بلا علاج وصنعه لها بلا مزاج وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه وما تصور
في وهمك فالله بخلافه. وهذا كلام عجيب نفيس محقق والفصل الآخر تفسير
لقوله ليس كمثله شيء والثاني تفسير لقوله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون والثالث
تفسير لقوله إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون. ثبتنا الله
وإياك على التوحيد والإثبات والتنزيه وجنبنا طرفي الضلالة والغواية من
التعطيل والتشبيه بمنه ورحمته.

الباب الرابع فيما أظهره الله على يديه من المعجزات وشرفه به من الخصائص والكرامات

قال القاضي أبو الفضل رضي
الله عنه حسب المتأمل أن يحقق أن كتابنا هذا لم نجمعه لمنكر نبوة نبينا ولا
لطاعن في معجزاته فنحتاج إلى نصب البراهين عليها وتحصين حوزتها حتى لا يتوصل
الطاعن إليها ونذكر شروط المعجز والتحدي وحده وفساد قول من أبطل نسخ
الشرائع ورده. بل ألفناه لأهل ملته الملبين لدعوته المصدقين لنبوته ليكون
تأكيدا في محبتهم له ومنماة لأعمالهم وليزدادوا إيمانا مع إيمانهم. ونيتنا أن نثبت
في هذا الباب أمهات معجزاته ومشاهير آياته لتدل على عظيم قدره عند ربه وأتينا
منها بالمحقق والصحيح الإسناد وأكثره مما بلغ القطع أو كاد وأضفنا إليها بعض
ما وقع في مشاهير كتب الأئمة. وإذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمناه من جميل أثره
وحميد سيره وبراعة علمه ورجاحة عقله وحلمه وجملة كماله وجميع خصاله وشاهد
حاله وصواب مقاله لم يمتر في صحة نبوته وصدق دعوته. وقد كفى هذا غير واحد
في إسلامه والإيمان به. فروينا عن الترمذي وابن قانع وغيرهما بأسانيدهم أن عبد الله
ابن سلام قال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جئته لأنظر إليه فلما
استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب. حدثنا به القاضي الشهيد أبو علي
رحمه الله قال حدثنا أبو الحسين الصيرفي وأبو الفضل بن خيرون عن أبي يعلى البغدادي
عن أبي علي السنجي عن ابن محبوب عن الترمذي حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الوهاب
الثقفي ومحمد بن جعفر وابن أبي عدي ويحيى بن سعيد عن عوف بن أبي جميلة الأعرابي
عن زرارة بن أوفى عن عبد الله بن سلام الحديث. وعن أبي رمثة التيمي أتيت النبي
صلى الله عليه وسلم ومعي ابن لي فأريته النبي فلما رأيته قلت هذا نبي الله. وروى
مسلم وغيره أن ضمادا لما وفد عليه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم إن الحمد لله نحمده
ونستعينه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله قال له أعد علي كلماتك هؤلاء فلقد بلغن
قاموس البحر هات يدك أبايعك. وقال جامع بن شداد كان رجل منا يقال له طارق
فأخبر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقال هل معكم من شيء تبيعونه
قلنا هذا البعير قال بكم قلنا بكذا وكذا وسقا من تمر فأخذ بخطامه وسار إلى المدينة
فقلنا بعنا من رجل لا ندري من هو ومعنا ظعينة فقالت أنا ضامنة لثمن البعير رأيت
وجه رجل مثل القمر ليلة البدر لا يخيس بكم فأصبحنا فجاء رجل بتمر فقال أنا
رسول رسول الله إليكم يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر وتكتالوا حتى تستوفوا ففعلنا
وفي خبر الجلندى ملك عمان لما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام
قال الجلندى والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به
ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له وأنه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر ويفي

بالقمر ويجزه الموعود وأشعر أنه نبي. وقال نفطويه في قوله تعالى يكاد زيتها
يضيء ولو لم تمسسه نار، هذا مثل ضربه الله لنبيه عليه السلام يقول يكاد منظره
يدل على نبوته وإن لم يتل قرآنا كما قال ابن رواحة ۞ في سيد المصطفى
لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ينبيك بالخبر . وقد آن أن
نأخذ في ذكر النبوءة والوحي والرسالة وبعده في معجزة القرآن وما فيه من
براهين ودلالة

فصل واعلم أن الله جل اسمه قادر على خلق المعرفة
في قلوب عباده والعلم بذاته وأسمائه وصفاته وجميع تكليفاته ابتداء دون واسطة
لو شاء كما حكي عن سنته في بعض الأنبياء وذكره بعض أهل التفسير في قوله
وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا الآية وجائز أن يوصل إليهم جميع ذلك بواسطة
تبلغهم كلامه وتكون تلك الواسطة إما من غير البشر كالملائكة مع الأنبياء
أو من جنسهم كالأنبياء مع الأمم ولا مانع لهذا من دليل العقل ۞ وإذا جاز هذا ولم
يستحل وجاءت الرسل بما دل على صدقهم من معجزاتهم وجب تصديقهم في جميع
ما أتوا به لأن المعجزة مع التحدي من النبي قائم مقام قول الله صدق عبدي فأطيعوه
واتبعوه وشاهد على صدقه فيما يقوله وهذا كاف والتطويل فيه خارج عن الغرض
فمن أراد تتبعه وجده مستوفى في مصنفات أئمتنا رحمهم الله ۞ والنبوءة في لغة
من همز مأخوذة من النبأ وهو الخبر وقد لا يهمز على هذا التأويل تسهيلا والمعنى أن
الله أطلعه على غيبه وأعلمه أنه نبيه فيكون نبي منبأ فعيل بمعنى مفعول أو يكون
مخبرا عما بعثه الله به ومنبئا بما أطلعه الله عليه فعيل بمعنى فاعل ويكون عند
من لم يهمزه من النبوة وهو ما ارتفع من الأرض معناها أن له رتبة شريفة ومكانة
نبيهة عند مولاه منيفة فالوصفان في حقه مؤتلفان ۞ وأما الرسول فهو المرسل
ولم يأت فعول بمعنى مفعل في اللغة إلا نادرا وإرساله أمر الله له بالإبلاغ إلى من
أرسله إليه واشتقاقه من التتابع ومنه قولهم جاء الناس أرسالا إذا تبع بعضهم
بعضا فكأنه ألزم تكرير التبليغ أو ألزمت الأمة اتباعه ۞ واختلف العلماء هل

النبي والرسول بمعنى أو بمعنيين فقيل هما سواء وأصله من الإنباء وهو الإعلام
واحتجوا بقوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي فقد أثبت لهما معا
الإرسال قال ولا يكون النبي إلا رسولا ولا الرسول إلا نبيا وقيل هما مفترقان من
وجه إذ قد اجتمعا في النبوءة التي هي الاطلاع على الغيب والإعلام بخواص النبوءة
أو الرفعة لمعرفة ذلك وحوز درجتها وافترقا في زيادة الرسالة للرسول وهو الأمر
بالإنذار والإعلام كما قلنا وحجتهم من الآية نفسها التفريق بين الاسمين ولو كانا
شيئا واحدا لما حسن تكرارهما في الكلام البليغ قالوا والمعنى وما أرسلنا من رسول
إلى أمة أو نبي ليس بمرسل إلى أحد وقد ذهب بعضهم إلى أن الرسول من جاء بشرع
مبتدإ ومن لم يأت به نبي غير رسول وإن أمر بالإبلاغ والإنذار والصحيح والذي
عليه الجم الغفير أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا وأول الرسل آدم وآخرهم
محمد عليهما السلام وفي حديث أبي ذر أن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون
ألف نبي وذكر أن الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أولهم آدم فقد بان لك معنى
النبوءة والرسالة وليستا عند المحققين ذاتا للنبي ولا صفة ذات خلافا للكرامية
في تطويل لهم وتهويل ليس عليه تعويل وأما الوحي فأصله الإسراع فلما كان
النبي يتلقى ما يأتيه من ربه بعجل سمي وحيا وسميت أنواع الإلهامات وحيا
تشبيها بالوحي إلى النبي وسمي الخط وحيا لسرعة حركة يد كاتبه ووحي
الحاجب واللحظ لسرعتهما إشارة ومنه قوله تعالى فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا
أي أومأ ورمز وقيل كتب ومنه قولهم الوحا الوحا أي السرعة وقيل أصل الوحي السر
والإخفاء ومنه سمي الإلهام وحيا ومنه قوله وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم أي
يوسوسون في صدورهم ومنه قوله وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت
عليه أي ألقي في قلبها وقد قيل ذلك في قوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا
وحيا أي ما يلقيه في قلبه دون واسطة **فصل** اعلم أن معنى تسميتنا ما
جاءت به الأنبياء معجزة هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها وهي على ضربين ضرب

عن فعل الله

سوه من نوع قدرة البشر فعجزوا عنه فتعجيزهم عنه فعل الله دل على صدق نبيه كصرفهم
عن تمني الموت وتعجيزهم عن الاتيان بمثل القرآن على رأي بعضهم ونحوه وضرب هو
خارج عن قدرتهم فلم يقدروا على الاتيان بمثله كإحياء الموتى وقلب العصا حية وإخراج
ناقة من صخرة وكلام شجرة ونبع الماء من الاصابع وانشقاق القمر مما لا يمكن أن
يفعله أحد إلا الله فيكون ذلك على يد النبي من فعل الله تعالى وتحديه من يكذبه
أن يأتي بمثله تعجيز له **واعلم** أن المعجزات التي ظهرت على يد نبينا صلى
الله عليه وسلم ودلائل نبوته وبراهين صدقه من هذين النوعين معا وهو أكثر
الرسل معجزة وأبهرهم آية وأظهرهم برهانا كما سنبينه وهي في كثرتها لا
يحيط بها ضبط فإن واحدا منها وهو القرآن لا يحصى عدد معجزاته بألف ولا ألفين
ولا أكثر لأن النبي قد تحدى بسورة منه فعجز عنها قال أهل العلم وأقصر السور إنا
أعطيناك الكوثر فكل آية أو آيات منه بعددها وقدرها معجزة ثم فيها نفسها
معجزات على ما سنفصله فيما انطوى عليه من المعجزات ثم معجزاته صلى الله عليه وسلم
على قسمين قسم منها علم قطعا ونقل إلينا متواترا كالقرآن فلا مرية ولا خلاف
بمجيء النبي به وظهوره من قبله واستدلاله بحجته وإن أنكر هذا معاند جاحد
فهو كإنكاره وجود محمد في الدنيا وإنما جاء اعتراض الجاحدين في الحجة به فهو في نفسه
وجميع ما تضمنه من معجز معلوم ضرورة ووجه إعجازه معلوم ضرورة ونظرا كما
سنشرحه. قال بعض أئمتنا ويجري هذا المجرى على الجملة أنه قد جرى على يديه عليه السلام
آيات وخوارق عادات إن لم يبلغ واحد منها معينا القطع فيبلغه جميعها فلا مرية في
جريان معانيها على يديه ولا يختلف مؤمن ولا كافر أنه جرت على يديه عجائب وإنما
خلاف المعاند في كونها من قبل الله وقد قدمنا كونها من قبل الله وأن ذلك
بمثابة قوله صدقت فقد علم وقوع مثل هذا أيضا من نبينا ضرورة لاتفاق معانيها
كما يعلم ضرورة جود حاتم وشجاعة عنترة وحلم أحنف لاتفاق الأخبار الواردة
عن كل واحد منهم على كرم هذا وشجاعة هذا وحلم هذا وإن كان كل خبر منها بنفسه

لا يوجب العلم ولا يقطع بصحته والقسم الثاني ما لم يبلغ مبلغ الضرورة
والقطع وهو على نوعين نوع منه مشتهر منتشر رواه العدد وشاع
به الخبر عند المحدثين والرواة ونقلة السير والأخبار كنبع الماء من بين الاصابع
وتكثير الطعام ونوع منه اختص به الواحد أو الاثنان ورواه العدد اليسير ولم
يشتهر اشتهار غيره لكنه إذا جمع إلى مثله اتفقا في المعنى واجتمعا على الاتيان بالمعجز
كما قدمناه **قال القاضي** أبو الفضل رضي الله عنه وأنا أقول صدعا
بالحق إن كثيرا من هذه الآيات المأثورة عنه عليه السلام معلومة بالقطع أما
انشقاق القمر فالقرآن نص بوقوعه وأخبر عن وجوده ولا يعدل عن ظاهر إلا بدليل
وجاء برفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة فلا يوهن عزمنا خلاف أخرق
منحل عرى الدين ولا يلتفت إلى سخافة مبتدع يلقي الشك على قلوب ضعفاء المؤمنين
بل نرغم بهذا أنفه وننبذ بالعراء سخفه وكذلك قصة نبع الماء وتكثير الطعام
رواها الثقات والعدد الكثير عن الجم الغفير عن العدد الكثير من الصحابة ومنها ما
رواه الكافة عن الكافة متصلا عمن حدث بها من جملة الصحابة وأخبارهم أن ذلك كان
في مواطن اجتماع الكثير منهم في يوم الخندق وفي غزوة بواط وعمرة الحديبية
وغزوة تبوك وأمثالها من محافل المسلمين ومجمع العساكر ولم يؤثر عن أحد من
الصحابة مخالفة للراوي فيما حكاه ولا إنكار عما ذكر عنهم أنهم رأوه كما رآه
فسكوت الساكت منهم كنطق الناطق إذ هم المنزهون عن السكوت على باطل
والمداهنة في كذب وليس هناك رغبة ولا رهبة تمنعهم ولو كان ما سمعوه منكرا
عندهم وغير معروف لديهم لأنكروه كما أنكر بعضهم على بعض أشياء رواها من السنن
والسير وحروف القرآن وخطأ بعضهم بعضا ووهمه في ذلك مما هو معلوم فهذا
النوع كله يلحق بالقطعي من معجزاته لما بيناه وأيضا فإن أمثال الأخبار التي
لا أصل لها وبنيت على باطل لا بد مع مرور الزمان وتداول الناس وأهل البحث من انكشاف
ضعفها وخمول ذكرها كما نشاهد في كثير من الأخبار الكاذبة والأراجيف الطارئة

وأعلام نبينا هذه الواردة من طريق الآحاد لا تزداد مع مرور الزمان إلا ظهورا
ومع تداول الفرق وكثرة طعن العدو وحرصه على توهينها وتضعيف أصلها
واجتهاد الملحد على إطفاء نورها إلا قوة وقبولا ولا للطاعن عليها إلا حسرة وغليلا
وكذلك إخباره عن الغيوب وإنباؤه بما يكون وكان معلوم من آياته على الجملة
بالضرورة وهذا حق لا غطاء عليه وقد قال بهذا من أئمتنا القاضي والأستاذ أبو
بكر وغيرهما رحمهم الله وما عندي أوجب قول القائل إن هذه القصص المشهورة
من باب خبر الواحد إلا قلة مطالعته للأخبار وروايتها وشغله بغير ذلك من
المعارف وإلا فمن اعتنى بطرق النقل وطالع الحديث والسير لم يرتب في صحة
هذه القصص المشهورة على الوجه الذي ذكرناه ولا يبعد أن يحصل العلم بالتواتر عند
واحد ولا يحصل عند آخر فإن أكثر الناس يعلمون بالخبر كون بغداد موجودة وأنها
مدينة عظيمة ودار الإمامة والخلافة وآحاد من الناس لا يعلمون اسمها فضلا عن
وصفها وهكذا يعلم الفقهاء من أصحاب مالك بالضرورة وتواتر النقل عنه أن
مذهبه إيجاب قراءة أم القرآن في الصلاة للمنفرد والإمام وإجزاء النية في
أول ليلة من رمضان عما سواه وأن الشافعي يرى تجديد النية كل ليلة والاقتصار
في المسح على بعض الرأس وأن مذهبهما القصاص بالمحدد في القتل وغيره وإيجاب
النية في الوضوء واشتراط الولي في النكاح وأن أبا حنيفة يخالفهما في هذه
المسائل وغيرهم ممن لم يشتغل بمذاهبهم ولا روى أقوالهم لا يعلم هذا من مذاهبهم
فضلا عن سواه وعند ذكرنا آحاد هذه المعجزات نزيد الكلام فيها بيانا إن شاء الله

فصل في إعجاز القرآن اعلم وفقنا الله وإياك أن كتاب الله العزيز
منطو على وجوه من الإعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة
وجوه أولها حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة
عادة العرب وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام قد خصوا من البلاغة
والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان ومن فصل
الخطاب ما يبهر الألباب جعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة وفيهم غريزة وقوة يأتون منه
على البديهة بالعجب ويدلون به إلى كل سبب فيخطبون بديها في المقامات وشديد الخطب
ويرتجزون به بين الطعن والضرب ويمدحون ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون ويرفعون
ويضعون فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل فيخدعون
الألباب ويذللون الصعاب ويذهبون الإحن ويهيجون الدمن ويجرئون الجبان
ويبسطون يد الجعد البنان ويصيرون الناقص كاملا ويتركون النبيه خاملا
منهم البدوي ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهري والمنزع
القوي ومنهم الحضري ذو البلاغة البارعة والألفاظ الناصعة والكلمات الجامعة
والطبع السهل والتصرف في القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية
وكلا البابين فلهما في البلاغة الحجة البالغة والقوة الدامغة والقدح الفالج والمهيع
الناهج لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم والبلاغة ملك قيادهم قد حووا فنونها
واستنبطوا عيونها ودخلوا من كل باب من أبوابها وعلوا صرحا لبلوغ أسبابها
فقالوا في الخطير والمهين وتفننوا في الغث والسمين وتقاولوا في القل والكثر
وتساجلوا في النظم والنثر فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أحكمت آياته وفصلت كلماته وبهرت
بلاغته العقول وظهرت فصاحته على كل مقول وتظافر إيجازه وإعجازه وتظاهرت
حقيقته ومجازه وتبارت في الحسن مطالعه ومقاطعه وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه
واعتدل مع إيجازه حسن نظمه وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه وهم أفسح ما كانوا
في هذا الباب مجالا وأشهر في الخطابة رجالا وأكثر في السجع والشعر سجالا وأوسع
في الغريب واللغة مقالا بلغتهم التي بها يتحاورون ومنازعهم التي عنها يتناضلون
صارخا بهم في كل حين ومقرعا لهم بضعا وعشرين عاما على رؤوس الملأ أجمعين
أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا
فأتوا بسورة من مثله إلى قوله ولن تفعلوا وقل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن

يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله الآية. وقل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وذلك
أن المفترى أسهل ووضع الباطل والمختلق على الاختيار أقرب واللفظ إذا تبع المعنى
الصحيح كان أصعب. ولهذا قيل فلان يكتب كما يقال له وفلان يكتب كما يريد وللأول
على الثاني فضل وبينهما شأو بعيد فلم يزل يقرعهم صلى الله عليه وسلم أشد التقريع
ويوبخهم غاية التوبيخ ويسفه أحلامهم ويحط أعلامهم ويشتت نظامهم ويذم
آلهتهم وآباءهم ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم. وهم في كل هذا ناكصون
عن معارضته محجمون عن مماثلته يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب والإغراء
بالافتراء وقولهم إن هذا إلا سحر يؤثر وسحر مستمر وإفك افتراه وأساطير
الأولين والمباهتة والرضى بالدنية كقولهم قلوبنا غلف. وفي أكنة مما تدعونا
إليه وفي آذاننا وقر. ومن بيننا وبينك حجاب ولا تسمعوا لهذا القرآن والغوا
فيه لعلكم تغلبون والادعاء مع العجز بقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا. وقد قال لهم
الله ولن تفعلوا فما فعلوا ولا قدروا. ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كشف
عواره لجميعهم وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم. وإلا فلم يخف على أهل الميز
منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم بل ولوا عنه مدبرين وأتوا مذعنين
من بين مهتد وبين مفتون ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي صلى الله عليه وسلم إن
الله يأمر بالعدل والإحسان الآية قال والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن
أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر ما يقول هذا بشر. وذكر أبو عبيد أن أعرابيا
سمع رجلا يقرأ فاصدع بما تؤمر فسجد وقال سجدت لفصاحته وسمع آخر رجلا
يقرأ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا فقال أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا
الكلام. وحكي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يوما نائما في المسجد فإذا
هو بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق فاستخبره فأعلمه أنه من بطارقة الروم
ممن يحسن كلام العرب وغيرها وأنه سمع رجلا من أسرى المسلمين يقرأ آية من
كتابكم فتأملتها فإذا قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى بن مريم من أحوال الدنيا

والآخرة وهو قوله تعالى ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه الآية. وحكى الأصمعي
أنه سمع كلام جارية فقال لها قاتلك الله ما أفصحك فقالت أويعد هذا فصاحة بعد
قول الله تعالى وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه الآية فجمع في آية واحدة بين أمرين
ونهيين وخبرين وبشارتين فهذا نوع من إعجازه منفرد بذاته غير مضاف إلى غيره على
التحقيق والصحيح من القولين وكون القرآن من قبل النبي وأنه أتى به معلوم ضرورة
وكونه عليه السلام متحديا به معلوم ضرورة وعجز العرب عن الإتيان به معلوم
ضرورة وكونه في فصاحته خارقا للعادة معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه
البلاغة وسبيل من ليس من أهلها علم ذلك بعجز المنكرين من أهلها عن معارضته
واعتراف المقرين بإعجاز بلاغته. وأنت إذا تأملت قوله تعالى ولكم في القصاص
حياة وقوله ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب وقوله ادفع بالتي
هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وقوله وقيل يا أرض
ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي. وقوله فكلا أخذنا بذنبه الآية وأشباهها من الآي
بل أكثر القرآن حققت ما بينته من إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها وديباجة عبارتها
وحسن تأليف حروفها وتلاؤم كلمها وأن تحت كل لفظة منها جملا كثيرة وفصولا
جمة وعلوما زواخر ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منها وكثرت المقالات
في المستنبطات عنها ثم هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التي يضعف
في عادة الفصحاء عندها الكلام ويذهب ماء البيان آية لمتأمله من ربط الكلام بعضه
ببعض والتئام سرده وتناصف وجوهه كقصة يوسف على طولها ثم إذا ترددت
قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها حتى تكاد كل واحدة تنسي
في البيان صاحبتها وتناصف في الحسن وجه مقابلتها ولا نفور للنفوس من ترديدها
ولا معاداة لمعادها

فصل

الوجه الثاني من إعجازه صورة نظمه العجيب
والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء
عليه ووقفت مقاطع آيه وانتهت فواصل كلماته إليه ولم يوجد قبله ولا بعده نظير

له ولا استطاع أحد على مماثلة شيء منه بل حارت فيه عقولهم وتولهت دونه أحلامهم
ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر. ولما سمع
كلامه صلى الله عليه وسلم الوليد بن المغيرة وقرأ عليه القرآن رق فجاءه أبو جهل
منكرا عليه قال والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني والله ما يشبه الذي يقول
شيئا من هذا وفي خبره الآخر حين جمع قريشا عند حضور الموسم وقال إن وفود
العرب ترد فأجمعوا فيه رأيا لا يكذب بعضكم بعضا فقالوا نقول كاهن قال والله
ما هو بكاهن ما هو بزمزمته ولا سجعه قالوا مجنون قال ما هو بمجنون ولا بخنقه
ولا وسوسته قالوا فنقول شاعر قال ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه
وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه ما هو بشاعر قالوا فنقول ساحر قال ما
هو بساحر ولا نفثه ولا عقده قالوا فما نقول قال ما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا وأنا
أعرف أنه باطل وإن أقرب القول أنه ساحر فإنه سحر يفرق بين المرء وابنه والمرء
وأخيه والمرء وزوجه والمرء وعشيرته فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون
الناس فأنزل الله تعالى في الوليد ذرني ومن خلقت وحيدا الآيات وقال عتبة بن
ربيعة حين سمع القرآن يا قوم قد علمتم أني لم أترك شيئا إلا وقد علمته وقرأته
وقلته والله لقد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة
وقال النضر بن الحارث نحوه وفي حديث إسلام أبي ذر ووصف أخاه أنيسا
فقال والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس لقد ناقض اثني عشر شاعرا في الجاهلية
أنا أحدهم وإنه انطلق إلى مكة وجاء إلى أبي ذر بخبر النبي قلت فما يقول الناس
قال يقولون شاعر كاهن ساحر لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ولقد وضعته
على أقراء الشعر فلم يلتئم وما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر وإنه لصادق
وإنهم لكاذبون والأخبار في هذا صحيحة كثيرة والإعجاز بكل واحد من النوعين
الإيجاز والبلاغة بذاتها والأسلوب الغريب بذاته كل واحد منهما نوع إعجاز على التحقيق
لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما إذ كل واحد خارج عن قدرتها مباين لفصاحتها

وكلامها .. وإلى هذا ذهب غير واحد من المحققين وذهب بعض المقتدين إلى أن الإعجاز
في مجموع البلاغة والأسلوب وأتى على ذلك بقول تمجه الأسماع وتنفر منه القلوب
والصحيح ما قدمناه والعلم بهذا كله ضرورة وقطعا ومن تفنن في علوم البلا
غة وأرهف خاطره ولسانه أدب هذه الصناعة لم يخف عليه ما قلناه وقد اختلف
أئمة السلف في وجه عجزهم عنه فأكثرهم يقول إنه مما جمع في قوة جزالته ونصاعة
ألفاظه وحسن نظمه وإيجازه وبديع تأليفه وأسلوبه لا يصح أن يكون في مقدور
البشر وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن إقدار الخلق عليها كإحياء الموتى وقلب
العصا وتسبيح الحصا وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله
تحت مقدور البشر ويقدرهم الله عليه ولكنه لم يكن هذا ولا يكون فمنعهم
الله هذا وعجزهم عنه وقال به جماعة من أصحابه وعلى الطريقين فعجز العرب عنه
ثابت وإقامة الحجة عليهم بما يصح أن يكون في مقدور البشر وتحديهم بأن يأتوا
بمثله قاطع وهو أبلغ في التعجيز وأحرى بالتقريع والاحتجاج بمجيء بشر مثلهم بشيء
ليس من قدرة البشر لازم وهو أبهر آية وأقمع دلالة وعلى كل حال فما أتوا في ذلك
بمقال بل صبروا على الجلاء والقتل وتجرعوا كاسات الصغار والذل وكانوا من شموخ
الأنف وإباية الضيم بحيث لا يؤثرون ذلك اختيارا ولا يرضونه إلا اضطرارا وإلا
فالمعارضة لو كانت من قدرتهم والشغل بها أهون عليهم وأسرع بالنجح وقطع العذر
وإفحام الخصم لديهم وهم ممن لهم قدرة على الكلام وقدوة في المعرفة به لجميع الأنام
وما منهم إلا من جهد جهده واستنفد ما عنده في إخفاء ظهوره وإطفاء نوره
فما جلوا في ذلك خبيئة من بنات شفاههم ولا أتوا بنطفة من معين مياههم مع
طول الأمد وكثرة العدد وتظاهر الوالد وما ولد بل أبلسوا فما نبسوا ومنعوا
فانقطعوا. فهذان نوعان من إعجازه.

فصل

الوجه الثالث من الإعجاز
ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوجد كما ورد وعلى
الوجه الذي أخبر كقوله لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين وقوله وهم من بعد

عليهم سيغلبون وقوله ليظهره على الدين كله وقوله وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا
الصالحات ليستخلفنهم في الأرض الآية وقوله إذا جاء نصر الله إلى آخرها فكان
جميع هذا كما قال فغلبت الروم فارس في بضع سنين ودخل الناس في الإسلام أفواجا
فما مات عليه السلام وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام واستخلف
المؤمنين في الأرض ومكن فيها دينهم وملكهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى
المغارب كما قال عليه السلام زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك
أمتي ما زوي لي منها وقوله إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون فكان
كذلك لا يكاد يعد من سعى في تغييره وتبديل محكمه من الملحدة والمعطلة
لا سيما القرامطة فأجمعوا كيدهم وحولهم وقوتهم اليوم نيفا على خمسمائة عام
فما قدروا على إطفاء شيء من نوره ولا تغيير كلمة من كلامه ولا تشكيك المسلمين
في حرف من حروفه والحمد لله ومنه قوله سيهزم الجمع ويولون الدبر ومنه
قوله قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم الآية وقوله هو الذي أرسل رسوله بالهدى الآية
وقوله لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم الآية فكان كل ذلك وما فيه من كشف
أسرار المنافقين واليهود ومقالهم وكذبهم في حلفهم وتقريعهم بذلك كقوله ويقولون
في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول وقوله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك الآية
وقوله من الذين هادوا سماعون للكذب الآية إلى قوله في الدين وقد قال مبديا ما قدره الله
وما اعتقده المؤمنون يوم بدر وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون
أن غير ذات الشوكة تكون لكم ومنه قوله إنا كفيناك المستهزئين ولما نزلت
بشر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك أصحابه بأن الله كفاه إياهم وكان المستهزئون
نفرا بمكة ينفرون الناس عنه ويؤذونه فهلكوا وقوله والله يعصمك من الناس
فكان كذلك على كثرة من رام ضره وقصد قتله والأخبار بذلك معروفة صحيحة

فصل الوجه الرابع ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع
الداثرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع
عمره في تعلم ذلك فيورده النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه ويأتي به على نصه
فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه وأن مثله لم ينله بتعليم وقد علموا أنه صلى الله
عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة ولا مثافنة لم يغب عنهم ولا جهل
حاله أحد منهم وقد كان أهل الكتاب كثيرا ما يسألونه صلى الله عليه وسلم عن هذا
فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرا كقصص الأنبياء مع قومهم وخبر
موسى والخضر ويوسف وإخوته وأصحاب الكهف وذي القرنين ولقمان وابنه وأشباه
ذلك من الأنباء والقصص وبدء الخلق وما في التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم
وموسى مما صدقه فيه العلماء بها ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها بل أذعنوا
لذلك فمن موفق آمن بما سبق له من خير ومن شقي معاند حاسد ومع هذا لم يحك
عن واحد من اليهود والنصارى على شدة عداوتهم له وحرصهم على تكذيبه وطول
احتجاجه عليهم بما في كتبهم وتقريعهم بما انطوت عليه مصاحفهم وكثرة سؤالهم
له عليه السلام وتعنيتهم إياه عن أخبار أنبيائهم وأسرار علومهم ومستودعات
سيرهم وإعلامه لهم بمكتوم شرائعهم ومضمنات كتبهم مثل سؤالهم عن الروح وذي
القرنين وأصحاب الكهف وعيسى وحكم الرجم وما حرم إسرائيل على نفسه وما حرم
عليهم من الأنعام ومن طيبات كانت أحلت لهم فحرمت عليهم ببغيهم وقوله ذلك
مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل وغير ذلك من أمورهم التي نزل فيها القرآن فأجابهم
وعرفهم بما أوحي إليه من ذلك أنه أنكر ذلك أو كذبه بل أكثرهم صرح بصحة نبوته
وصدق مقالته واعترف بعناده وحسده إياه كأهل نجران وابن صوريا وابني
أخطب وغيرهم ومن باهت في ذلك بعض المباهتة وادعى أن فيما عندهم من ذلك
لما حكاه مخالفة دعي إلى إقامة حجته وكشف دعوته فقيل له فأتوا بالتوراة فاتلوها
إن كنتم صادقين إلى قوله الظالمون فقرع ووبخ ودعي إلى إحضار ممكن غير ممتنع
فمن معترف بما جحده ومتواقح يلقي على فضيحته من كتابه يده ولم يؤثر أن واحدا
منهم أظهر خلاف قوله من كتبه ولا أبدى صحيحا ولا سقيما من صحفه قال الله يا أهل

الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن
كثير الآية. فصل هذه الوجوه الأربعة من إعجازه بينة لا نزاع فيها ولا مرية
ومن الوجوه البينة في إعجازه من غير هذه الوجوه آي وردت بتعجيز قوم في قضايا
وإعلامهم أنهم لا يفعلونها فما فعلوا ولا قدروا على ذلك كقوله لليهود قل إن كانت
لكم الدار الآخرة عند الله خالصة الآية. قال أبو إسحاق الزجاج في هذه الآية أعظم حجة
وأظهر دلالة على صحة الرسالة لأنه قال لهم فتمنوا الموت وأعلمهم أنهم لن يتمنوه
أبدا فلم يتمنه واحد منهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لا يقولها
رجل منهم إلا غص بريقه يعني يموت مكانه فصرفهم الله عن تمنيه وجزعهم ليظهر
صدق رسوله وصحة ما أوحي إليه إذ لم يتمنه أحد منهم وكانوا على تكذيبه
أحرص لو قدروا ولكن الله يفعل ما يريد فظهرت بذلك معجزته وبانت حجته
قال أبو محمد الأصيلي من أعجب أمرهم أنه لا توجد منهم جماعة ولا واحد من يوم أمر
الله بذلك نبيه يقدم عليه ولا يجيب إليه وهذا موجود مشاهد لمن أراد أن يمتحنه
منهم وكذلك آية المباهلة من هذا المعنى حيث وفد عليه أساقفة نجران وأبوا
الإسلام فأنزل الله عليه آية المباهلة بقوله فمن حاجك فيه الآية فامتنعوا منها
ورضوا بأداء الجزية وذلك أن العاقب عظيمهم قال لهم قد علمتم أنه نبي وأنه
ما لاعن قوم نبيا قط فبقي كبيرهم ولا صغيرهم. ومثله قوله وإن كنتم في ريب
مما نزلنا على عبدنا إلى قوله فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فأخبرهم أنهم لا يفعلون كما
كان وهذه الآية أدخل في باب الأخبار عن الغيب ولكن فيها من التعجيز ما في التي
قبلها. فصل ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند
سماعه والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وإنافة خطره وهي على
المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورا كما قال تعالى ويودون
انقطاعه لكراهتهم له ولهذا قال عليه السلام إن القرآن صعب مستصعب على من
كرهه وهو الحكم. وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه

انجذابا وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه وتصديقه به قال تعالى تقشعر منه جلود
الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. وقال لو أنزلنا هذا القرآن
على جبل الآية. ويدل على أن هذا شيء خص به أنه يعتري من لا يفهم معانيه ولا يعلم
تفاسيره كما روي عن نصراني أنه مر بقارئ فوقف يبكي فقيل له مم بكيت قال للشجا والنظم
وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده فمنهم من أسلم لها أول وهلة
وآمن به ومنهم من كفر. فحكي في الصحيح عن جبير بن مطعم قال سمعت النبي صلى
الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية أم خلقوا من غير شيء أم هم
الخالقون إلى قوله المصيطرون كاد قلبي يطير. وفي رواية وذلك أول ما وقر
الإيمان في قلبي. وعن عتبة بن ربيعة أنه كلم النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من
خلاف قومه فتلا عليه حم فصلت إلى قوله صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأمسك
عتبة بيده على في النبي صلى الله عليه وناشده الرحم أن يكف. وفي رواية
فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ وعتبة مصغ ملق يديه خلف ظهره معتمد
عليهما حتى انتهى إلى السجدة فسجد النبي صلى الله عليه وسلم وقام عتبة لا يدري بما
يراجعه ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه فاعتذر لهم وقال والله لقد
كلمني بكلام والله ما سمعت أذناي بمثله قط فما دريت ما أقول له. وقد حكي عن غير
واحد ممن رام معارضته أنه اعترته روعة وهيبة كف بها عن ذلك فحكي أن
ابن المقفع طلب ذلك ورامه وشرع فيه فمر بصبي يقرأ وقيل يا أرض ابلعي ماءك
فرجع ومحا ما عمل وقال أشهد أن هذا لا يعارض وما هو من كلام البشر وكان أفصح
أهل وقته. وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الأندلس في زمانه فحكي أنه رام شيئا من هذا
فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها وينسج بزعمه على منوالها قال فاعترتني
خشية ورقة حملتني على التوبة والإنابة. فصل ومن وجوه إعجازه المعدودة
كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه فقال إنا نحن نزلنا
الذكر وإنا له لحافظون وقال لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسائر

في رواية

معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها فلم يبق إلا خبرها والقرآن العزيز الباهرة آياته الظاهرة معجزاته على ما كان عليه اليوم مدة خمس مائة عام وخمس وثلاثين سنة لأول نزوله إلى وقتنا هذا حجته قاهرة ومعارضته ممتنعة والأعصار كلها طافحة بأهل البيان وحملة علم اللسان وأئمة البلاغة وفرسان الكلام وجهابذة البراعة والملحد فيهم كثير والمعادي للشرع عتيد فما منهم من أتى بشيء يؤثر في معارضته ولا ألف كلمتين في مناقضته ولا قدر فيه على مطعن صحيح ولا قدح المتكلف من ذهنه في ذلك إلا بزند شحيح بل المأثور عن كل من رام ذلك إلقاؤه في العجز بيديه والنكوص على عقبيه

فصل

وقد عد جماعة من الأئمة ومقلدي الأمة في إعجازه وجوها كثيرة منها أن قارئه لا يمله وسامعه لا يمجه بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة وترديده يوجب له محبة لا يزال غضا طريا وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه يمل مع الترديد ويعادى إذا أعيد وكتابنا يستلذ به في الخلوات ويؤنس بتلاوته في الأزمات وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك حتى أحدث أصحابها لها لحونا وطرقا يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها ولهذا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن بأنه لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عبره ولا تفنى عجائبه هو الفصل ليس بالهزل لا يشبع منه العلماء ولا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة هو الذي لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة ولا محمد صلى الله عليه وسلم قبل نبوته خاصة بمعرفتها ولا القيام بها ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم فجمع فيه من بيان علم الشرائع والتنبيه على طرق الحجج العقليات والرد على فرق الأمم ببراهين قوية وأدلة بينة سهلة الألفاظ موجزة المقاصد رام المتحذلقون بعد أن ينصبوا أدلة مثلها فلم يقدروا عليها كقوله أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم وقل يحييها الذي أنشأها أول مرة ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا

إلى ما حواه من علوم السير وأنباء الأمم والمواعظ والحكم وأخبار الدار الآخرة ومحاسن الآداب والشيم قال الله جل اسمه ما فرطنا في الكتاب من شيء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل وقال عليه السلام إن الله أنزل هذا القرآن آمرا وزاجرا وسنة خالية ومثلا مضروبا فيه نبأكم وخبر ما كان قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم لا يخلقه طول الرد ولا تنقضي عجائبه هو الحق ليس بالهزل من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن خاصم به فلج ومن قسم به أقسط ومن عمل به أجر ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم ومن طلب الهدى من غيره أضله الله ومن حكم بغيره قصمه الله هو الذكر الحكيم والنور المبين والصراط المستقيم وحبل الله المتين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ونحوه عن ابن مسعود وقال فيه ولا يختلف ولا يتشان فيه نبأ الأولين والآخرين وفي الحديث قال الله لمحمد عليه السلام إني منزل عليك توراة حديثة تفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا فيها ينابيع العلم وفهم الحكمة وربيع القلوب وعن كعب عليكم بالقرآن فإنه فهم العقل ونور الحكمة وقال تعالى إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون وقال هذا بيان للناس وهدى الآية فجمع فيه مع وجازة ألفاظه وجوامع كلمه أضعاف ما في الكتب قبله التي ألفاظها على الضعف منه مرات ومنها جمعه فيه بين الدليل ومدلوله وذلك أنه احتج بنظم القرآن وحسن وصفه وإيجازه وبلاغته وأثناء هذه البلاغة أمره ونهيه ووعده ووعيده فالتالي له يفهم موضع الحجة والتكليف معا من كلام واحد وسورة منفردة ومنها أن جعله في حيز المنظوم الذي لم يعهد ولم يكن في حيز المنثور لأن المنظوم أسهل على النفوس وأوعى للقلوب وأسمع في الآذان وأحلى على الأفهام فالناس إليه أميل والأهواء إليه أسرع ومنها تيسيره تعالى حفظه لمتعلميه وتقريبه على متحفظيه قال الله تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر وسائر الأمم لا يحفظ كتبها الواحد منهم فكيف الجماء على مرور السنين عليهم والقرآن

ميسر حفظه للغلمان في أقرب مدة ومنها مشاكلة بعض أجزائه بعضا وحسن ائتلاف
أنواعها والتئام أقسامها وحسن التخلص من قصة إلى أخرى والخروج من باب إلى غيره
على اختلاف معانيه وانقسام السورة الواحدة على أمر ونهي وخبر واستخبار
ووعد ووعيد وإثبات نبوة وتوحيد وتفريد وترغيب وترهيب إلى غير ذلك
من فوائده دون خلل يتخلل فصوله والكلام الفصيح إذا اعتوره مثل هذا ضعفت
قوته ولانت جزالته وقل رونقه وتقلقلت ألفاظه فتأمل أول ص وما جمع فيها من
أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم وما ذكر من تكذيبهم
لمحمد عليه السلام وتعجبهم مما أتى به والخبر عن اجتماع ملئهم على الكفر وما ظهر
من الحسد في كلامهم وتعجيزهم وتوهينهم ووعيدهم بخزي الدنيا والآخرة وتكذيب
الأمم قبلهم وإهلاك الله لهم ووعيد هؤلاء مثل مصابهم وتصبير النبي عليه السلام
على أذاهم وتسليته بكل ما تقدم ذكره ثم أخذ في ذكر داود وقصص الأنبياء
كل هذا في أوجز كلام وأحسن نظام ومنه الجملة الكثيرة التي انطوت عليها
الكلمات القليلة وهذا كله وكثير مما ذكرنا أنه ذكر في إعجاز القرآن إلى وجوه
كثيرة ذكرها الأئمة لم نذكرها إذ أكثرها داخل في باب بلاغته فلا يجب أن يعد
فنا منفردا في إعجازه إلا في باب تفصيل فنون البلاغة وكذلك كثير مما قدمنا ذكره
عنهم يعد في خواصه وفضائله لا إعجازه وحقيقة الإعجاز الوجوه الأربعة التي ذكرنا
فليعتمد عليها وما بعدها من خواص القرآن وعجائبه التي لا تنقضي والله ولي التوفيق

فصل في انشقاق القمر وحبس الشمس قال الله تعالى اقتربت الساعة

وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر أخبر تعالى بوقوع انشقاقه
بلفظ الماضي وإعراض الكفرة عن آياته وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه
أخبرنا الحسين بن محمد الحافظ من كتابه حدثنا القاضي سراج بن عبد الله حدثنا
الأصيلي حدثنا المروزي حدثنا الفربري حدثنا البخاري حدثنا مسدد حدثنا
يحيى عن شعبة وسفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن ابن مسعود قال انشق

القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا وفي رواية مجاهد ونحن مع النبي صلى الله
عليه وسلم وفي بعض طرق الأعمش بمنى ورواه أيضا عن ابن مسعود الأسود وقال
حتى رأيت الجبل بين فرجتي القمر ورواه عنه مسروق أنه كان بمكة وزاد فقال
كفار قريش سحركم ابن أبي كبشة فقال رجل منهم إن محمدا إن كان سحر القمر فإنه
لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر هل رأوا هذا
فأتوا فسألوا فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك وحكى السمرقندي عن الضحاك نحوه
وقال فقال أبو جهل هذا سحر فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا أرأوا ذلك أم لا
فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقا فقالوا يعني الكفار هذا سحر مستمر ورواه
أيضا عن ابن مسعود علقمة فهؤلاء أربعة عن عبد الله وقد رواه غير ابن مسعود
كما رواه ابن مسعود منهم أنس وابن عباس وابن عمر وحذيفة وعلي وجبير بن مطعم
رضي الله عنهم فقال علي من رواية أبي حذيفة الأرحبي انشق القمر ونحن مع النبي
صلى الله عليه وسلم وعن أنس سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية
فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتى رأوا حراء بينهما رواه عن أنس قتادة وفي رواية
معمر وغيره عن قتادة عنه أراهم القمر مرتين انشقاقه فنزلت اقتربت الساعة
ورواه عن جبير بن مطعم ابنه محمد وابن ابنه جبير بن محمد ورواه عن ابن عباس عبيد
الله بن عبد الله بن عتبة ورواه عن ابن عمر مجاهد ورواه عن حذيفة أبو عبد الرحمن
السلمي ومسلم بن أبي عمران الأزدي وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة والآية
مصرحة ولا يلتفت إلى اعتراض مخذول بأنه لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض إذ هو
شيء ظاهر لجميعهم إذ لم ينقل إلينا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق
ولو نقل إلينا عمن لا يجوز تمالؤهم لكثرتهم على الكذب لما كانت علينا به حجة إذ
ليس القمر في حد واحد لجميع أهل الأرض فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين
وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابليهم من أقطار الأرض أو يحول بين قوم وبينه

سحاب أو جبال، ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض، وفي بعضها جزئية
وفي بعضها كلية، وفي بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلمها، ذلك تقدير العزيز العليم،
وآية القمر كانت ليلا، والعادة من الناس بالليل الهدو والسكون وإيجاف الأبواب
وقطع التصرف، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئا إلا من رصد ذلك واشتغل به،
ولذلك ما يكون الكسوف القمري كثيرا في البلاد وأكثرهم لا يعلم به حتى يخبر، وكثيرا
ما يحدث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار ونجوم طوالع عظام تظهر في الأحيان
بالليل في السماء ولا علم عند أحد منها، وخرج الطحاوي في مشكل الحديث عن
أسماء بنت عميس من طريقين أن النبي صلى الله عليه وسلم: أصليت يا علي؟ قال: لا. فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد
عليه الشمس. قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعدما غربت ووقفت على
الجبال والأرض، وذلك بالصهباء في خيبر. قال: وهذان الحديثان ثابتان ورواتهما ثقات،
وحكى الطحاوي أن أحمد بن صالح كان يقول: لا ينبغي لمن سبيله العلم التخلف عن
حفظ حديث أسماء لأنه من علامات النبوة. وروى يونس بن بكير في زيادة المغازي
في روايته عن ابن إسحاق: لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر قومه بالرفقة
والعلامة التي في العير قالوا: متى تجيء؟ قال: يوم الأربعاء. فلما كان ذلك اليوم أشرفت
قريش ينظرون وقد ولى النهار ولم تجئ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزيد له
في النهار ساعة وحبست عليه الشمس.

فصل في نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته صلى الله عليه وسلم

أما الأحاديث في هذا فكثيرة جدا، روى حديث نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة منهم أنس وجابر
وابن مسعود. حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر الفقيه رحمه الله بقراءتي عليه،
حدثنا القاضي عيسى بن سهل، حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد، حدثنا أبو عمر بن الفخار،
حدثنا أبو عيسى، حدثنا عبيد الله، حدثنا يحيى، حدثنا مالك، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي
طلحة، عن أنس بن مالك: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت صلاة العصر فالتمس

الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء، فوضع رسول
الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الإناء يده وأمر الناس أن يتوضؤوا منه، قال: فرأيت الماء
ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم. ورواه أيضا عن
أنس قتادة، وقال: بإناء فيه ماء يغمر أصابعه أو لا يكاد يغمر، قال: كم كنتم؟ قال: زهاء ثلاث
مائة. وفي رواية عنه: وهم بالزوراء عند السوق. ورواه أيضا حميد وثابت والحسن
عن أنس، وفي رواية حميد: قلت كم كانوا؟ قال: ثمانين. ونحوه عن ثابت عنه، وعنه أيضا:
وهم نحو من سبعين رجلا. وأما ابن مسعود ففي الصحيح عنه من رواية علقمة: بينما نحن
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: اطلبوا
من معه فضل ماء. فأتي بماء فصبه في إناء ثم وضع كفه فيه، فجعل الماء ينبع من بين
أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي الصحيح عن سالم بن أبي الجعد عن جابر:
عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة فتوضأ
منها، وأقبل الناس نحوه وقالوا: ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك. فوضع النبي صلى
الله عليه وسلم يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، وفيه:
فقلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة. وروي مثله
عن أنس عن جابر، وفيه أنه كان بالحديبية. وفي رواية الوليد بن عبادة بن
الصامت عنه في حديث مسلم الطويل في ذكر غزوة بواط قال: قال لي رسول الله
صلى الله عليه وسلم: يا جابر ناد الوضوء. وذكر الحديث بطوله، وأنه لم يجد إلا قطرة
في عزلاء شجب، فأتي به النبي صلى الله عليه وسلم فغمزه وتكلم بشيء لا أدري ما هو،
وقال: ناد بجفنة الركب، فأتيت بها فوضعتها بين يديه. وذكر أن النبي صلى الله
عليه وسلم بسط يده في الجفنة وفرق أصابعه وصب جابر عليه، وقال: بسم الله. قال:
فرأيت الماء يفور من بين أصابعه، ثم فارت الجفنة واستدارت حتى امتلأت،
وأمر الناس بالاستقاء فاستقوا حتى رووا، فقلت: هل بقي أحد له حاجة؟ فرفع
رسول الله صلى الله عليه وسلم يده من الجفنة وهي ملأى. وعن الشعبي أن النبي صلى

الله عليه وسلم في بعض أسفاره بإداوة من ماء وقيل ما معنا يا رسول الله ماء غيره فسكبها في ركوة ووضع أصبعه وسطها وغمسها في الماء وجعل الناس يجيئون ويتوضؤون ثم يقومون. قال الترمذي وفي الباب عن عمران بن حصين ومثل هذا في هذه المواطن الحفلة والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة إلى المحدث به لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه لما جبلت عليه النفوس من ذلك ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل فهؤلاء قد رووا هذا وأشاعوه ونسبوا حضور الجم الغفير له ولم ينكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه فصار كتصديق جميعهم له.

فصل ومما يشبه هذا من معجزاته تفجير الماء ببركته وانبعاثه بمسه ودعوته فيما روى مالك في الموطأ عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوك وأنهم وردوا العين وهي تبض بشيء من ماء مثل الشراك فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء ثم غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه ويديه وأعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس. قال في حديث ابن إسحاق فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق. ثم قال يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانا. وفي حديث البراء وسلمة بن الأكوع وحديثه أتم في قصة الحديبية وهم أربع عشرة مائة وبئرها لا تروي خمسين شاة فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جباها. قال البراء وأتي بدلو منها فبصق فدعا وقال سلمة فإما دعا وإما بصق فيها فجاشت فأرووا أنفسهم وركابهم. وفي غير هذين الطريقين من هذه القصة من طريق ابن شهاب في الحديبية فأخرج سهما من كنانته فوضع في قعر قليب ليس فيه ماء فروي الناس حتى ضربوا بعطن. وعن أبي قتادة وذكر أن الناس شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش في بعض أسفاره فدعا بالميضأة فجعلها في ضبنه ثم التقم فمها فالله أعلم نفث فيها أم لا فشرب الناس حتى رووا وملؤوا كل إناء معهم فخيل إلي أنها كما أخذها مني وكانوا اثنين وسبعين رجلا وروى

مثله عمران بن حصين. وذكر الطبري حديث أبي قتادة على غير ما ذكره أهل الصحيح وأن النبي خرج بهم ممدا لأهل مؤتة عندما بلغه قتل الأمراء وذكر حديثا طويلا فيه معجزات وآيات للنبي وفيه إعلامهم أنهم يفقدون الماء في غد وذكر حديث الميضأة قال والقوم زهاء ثلاث مائة. وفي كتاب مسلم أنه قال لأبي قتادة احفظ علي ميضأتك فإنه سيكون لها نبأ وذكر نحوه. ومن ذلك حديث عمران بن حصين حين أصاب النبي وأصحابه عطش في بعض أسفارهم فوجه رجلين من أصحابه وأعلمهما أنهما يجدان امرأة بمكان كذا معها بعير عليه مزادتان الحديث فوجداها وأتيا بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل في إناء من مزادتيها وقال فيه ما شاء الله أن يقول ثم أعاد الماء في المزادتين ثم فتحت عزاليهما وأمر الناس فملؤوا أسقيتهم حتى لم يدعوا شيئا إلا ملؤوه. قال عمران ويخيل إلي أنهما لم تزدادا إلا امتلاء ثم أمر فجمع للمرأة من الأزواد حتى ملأ ثوبها وقال اذهبي فإنا لم نأخذ من مائك شيئا ولكن الله سقانا الحديث بطوله. وعن سلمة بن الأكوع قال نبي الله عليه السلام هل من وضوء فجاء رجل بإداوة فيها نطفة فأفرغها في قدح فتوضأنا كلنا ندغفقه دغفقة أربع عشرة مائة. وفي حديث عمر في جيش العسرة وذكر ما أصابهم من العطش حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه فرغب أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فانسكبت فملؤوا ما معهم من آنية ولم تجاوز العسكر. وعن عمرو بن شعيب أن أبا طالب قال للنبي صلى الله عليه وسلم وهو رديفه بذي المجاز عطشت وليس عندي ماء فنزل النبي عليه السلام وضرب بقدمه الأرض فخرج الماء فقال اشرب. والحديث في هذا الباب كثير ومنه الإجابة بدعاء الاستسقاء وما جانسه.

فصل ومن معجزاته عليه السلام تكثير الطعام القليل ببركته ودعائه. حدثنا القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله حدثنا العذري حدثنا الرازي حدثنا الجلودي حدثنا ابن سفيان حدثنا مسلم بن الحجاج حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا الحسن بن أعين حدثنا معقل عن أبي الزبير عن جابر أن رجلا

أتى النبي صلى الله عليه وسلم يستطعمه فأطعمه شطر وسق شعير فما زال يأكل منه
وامرأته وضيفه حتى كاله فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال لو لم تكله
لأكلتم منه ولقام بكم ۞ ومن ذلك حديث أبي طلحة المشهور وإطعامه صلى الله عليه
وسلم ثمانين أو سبعين رجلا من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت يده أي إبطه فأمر
بها ففتت وقال فيها ما شاء الله أن يقول وحديث جابر في إطعامه صلى الله عليه
وسلم يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق قال جابر فأقسم بالله لأكلوه
حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هي وإن عجيننا ليخبز وكان رسول
الله صلى الله عليه وسلم بصق في العجين والبرمة وبارك رواه عن جابر سعيد بن
ميناء وأيمن ۞ وعن ثابت مثله عن رجل من الأنصار وامرأته ولم يسمهما قال وجيء
بمثل الكف فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يبسطها في الإناء ويقول ما شاء الله
فأكل من في البيت والحجرة والدار وكان ذلك قد امتلأ ممن قدم معه صلى الله عليه
وسلم لذلك وبقي بعد ما شبعوا مثل ما كان في الإناء ۞ وحديث أبي أيوب أنه صنع
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبي بكر من الطعام زهاء ما يكفيهما فقال له النبي
صلى الله عليه وسلم ادع ثلاثين من أشراف الأنصار فدعاهم فأكلوا حتى تركوه
ثم قال ادع ستين فكان مثل ذلك ثم قال ادع سبعين فأكلوا حتى تركوا وما خرج
منهم أحد إلا حتى أسلم وبايع قال أبو أيوب فأكل من طعامي مائة وثمانون رجلا
وعن سمرة بن جندب أتي النبي صلى الله عليه وسلم بقصعة فيها لحم فتعاقبوها من
غدوة حتى الليل يقوم قوم ويقعد آخرون ۞ ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي بكر
كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومائة وذكر في الحديث أنه عجن صاع من طعام
وصنعت شاة فشوي سواد بطنها قال وايم الله ما من الثلاثين ومائة إلا وقد حز
له حزة من سواد بطنها ثم جعل منها قصعتين فأكلنا أجمعون وفضل في القصعتين
فحملته على البعير ۞ ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري عن أبيه ومثله
لسلمة بن الأكوع وأبي هريرة وعمر بن الخطاب فذكروا مخمصة أصابت الناس مع

النبي صلى الله عليه وسلم في بعض مغازيه فدعا ببقية الأزواد فجاء الرجل بالحثية من
الطعام وفوق ذلك وأعلاهم الذي أتى بالصاع من التمر فجمعه على نطع قال سلمة
فحزرته كربضة العنز ثم دعا الناس بأوعيتهم فما بقي في الجيش وعاء إلا ملأوه وبقي
منه ۞ وعن أبي هريرة أمرني النبي صلى الله عليه وسلم أن أدعو له أهل الصفة فتتبعتهم
حتى جمعتهم فوضعت بين أيدينا صحفة فأكلنا ما شئنا وفرغنا وهي مثلها
حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع ۞ وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه جمع
رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب وكانوا أربعين منهم قوم يأكلون
الجذعة ويشربون الفرق فصنع لهم مدا من طعام فأكلوا حتى شبعوا وبقي كما هو
ثم دعا بعس فشربوا حتى رووا وبقي كأنه لم يشرب ۞ وقال أنس إن النبي صلى
الله عليه وسلم حين ابتنى بزينب أمره أن يدعو له قوما سماهم وكل من لقيت حتى
امتلأ البيت والحجرة وقدم إليهم تورا فيه قدر مد من تمر جعل حيسا فوضعه قدامه
وغمس ثلاث أصابعه وجعل القوم يتغدون ويخرجون وبقي التور نحوا مما كان
وكان القوم أحدا واثنين وسبعين وفي رواية أخرى في هذه القصة أو مثلها أن
القوم كانوا زهاء ثلاث مائة وأنهم أكلوا حتى شبعوا وقال لي ارفع فلا أدري حين
وضعت كانت أكثر أو حين رفعت ۞ وفي حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن علي
أن فاطمة طبخت قدرا لغدائهما ووجهت عليا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليتغدى
معهما فأمرها فغرفت منها لجميع نسائه صحفة صحفة ثم له عليه السلام ولعلي ثم
لها ثم رفعت القدر وإنها لتفيض قالت فأكلنا منها ما شاء الله ۞ وأمر عمر بن الخطاب
أن يزود أربع مائة راكب من أحمس فقال يا رسول الله ما هي إلا أصوع قال اذهب
فذهب فزودهم منه ۞ وكان قدره الفصيل الرابض من التمر وبقي بحاله من رواية
دكين الأحمسي ومن رواية جرير ومثله من رواية النعمان بن مقرن الخبر بعينه
إلا أنه قال أربع مائة راكب من مزينة ۞ ومن ذلك حديث جابر في دين أبيه بعد
موته وقد كان بذل لغرماء أبيه أصل ماله فلم يقبلوه ولم يكن في ثمرها سنتين كفاء

دينهم فجاءه النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أمره بجدها وجعلها بيادر في أصولها
فمشى فيها ودعا فأوفى منه جابر غرماء أبيه وفضل مثل ما كانوا يجدون كل سنة
وفي رواية مثل ما أعطاهم. قال وكان الغرماء يهود فعجبوا من ذلك وقال أبو هريرة
أصاب الناس مخمصة فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم هل من شيء قلت نعم شيء
من التمر في المزود قال فأتني به فأدخل يده فأخرج قبضة فبسطها ودعا بالبركة ثم قال
ادع عشرة فأكلوا حتى شبعوا ثم عشرة كذلك حتى أطعم الجيش كلهم وشبعوا
وقال خذ ما جئت به وأدخل يدك واقبض منه ولا تكبه فقبضت على أكثر مما
جئت به فأكلت منه وأطعمت حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر
إلى أن قتل عثمان فانتهب مني فذهب. وفي رواية فقد حملت من ذلك التمر كذا
وكذا وسقا في سبيل الله وذكر مثل هذه الحكاية في غزوة تبوك وأن
التمر كان بضع عشرة تمرة. ومنه أيضا حديث أبي هريرة حين أصابه الجوع
فاستتبعه النبي صلى الله عليه وسلم فوجد لبنا في قدح قد أهدي إليه وأمره أن
يدعو أهل الصفة قال فقلت ما هذا اللبن فيهم كنت أحق أن أصيب منه شربة أتقوى
بها فدعوتهم وذكر أمر النبي صلى الله عليه وسلم له أن يسقيهم فجعلت أعطي
الرجل فيشرب حتى يروى ثم يأخذه الآخر حتى روي جميعهم قال فأخذ النبي
صلى الله عليه وسلم القدح وقال بقيت أنا وأنت اقعد فاشرب فشربت ثم قال اشرب
وما زال يقولها وأشرب حتى قلت لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكا فأخذ
القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة. وفي حديث خالد بن عبد العزى أنه أجزر
النبي صلى الله عليه وسلم شاة وكان عيال خالد كثيرا يذبح الشاة فلا تبد عياله
عظما عظما وأن النبي صلى الله عليه وسلم أكل من هذه الشاة وجعل فضلتها في دلو
خالد ودعا له بالبركة فنثره لعياله فأكلوا وأفضلوا. ذكر خبره الدولابي
ومن حديث الأجري في إنكاح النبي صلى الله عليه علياً فاطمة أن النبي صلى الله
عليه وسلم أمر بلالا بقصعة من أربعة أمداد أو خمسة ويذبح جزورا لوليمتها قال

فأتيته بذلك فطعن في رأسها ثم أدخل الناس رفقة رفقة يأكلون منها حتى فرغوا
وبقيت منها فضلة فبرك فيها وأمر بحملها إلى أزواجه وقال كلن وأطعمن من
غشيكن. وفي حديث أنس تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فصنعت أمي
أم سليم حيسا فجعلته في تور فبعثت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ضعه
وادع لي فلانا وفلانا ومن لقيت فدعوتهم ولم أدع أحدا لقيته إلا دعوته وذكر
أنهم كانوا زهاء ثلاثمائة حتى ملأوا الصفة والحجرة فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم
تحلقوا عشرة عشرة ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على الطعام فدعا
فيه وقال ما شاء الله أن يقول فأكلوا حتى شبعوا كلهم فقال لي ارفع فما أدري حين
وضعت كان أكثر أم حين رفعت. وأكثر أحاديث هذه الفصول الثلاثة في الصحيح
وقد اجتمع على معنى حديث هذا الفصل بضعة عشر من الصحابة رواه عنهم أضعافهم
من التابعين ثم من لا يعد بعدهم وأكثرها في قصص مشهورة ومجامع مشهودة
لا يمكن التحدث عنها إلا بالحق ولا يسكت الحاضر لها على ما أنكر.

فصل في كلام الشجر وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دعوته صلى الله عليه وسلم

حدثنا أحمد بن محمد بن غلبون الشيخ الصالح فيما أجاز فيه عن أبي عمر الطلمنكي
عن أبي بكر بن المهندس عن أبي القاسم البغوي حدثنا أحمد بن عمران الأخنسي حدثنا
أبو حيان التيمي وكان صدوقا عن مجاهد عن ابن عمر قال كنا مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم في سفر فدنا منه أعرابي فقال يا أعرابي أين تريد قال إلى أهلي
قال هل لك إلى خير قال وما هو قال تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا
عبده ورسوله قال من يشهد لك على ما تقول قال هذه الشجرة السمرة وهي بشاطئ
الوادي فادعها فإنها تجيبك قال فدعوتها فأقبلت تخد الأرض حتى قامت بين
يديه فاستشهدها ثلاثا فشهدت أنه كما قال ثم رجعت إلى مكانها. وعن بريدة
سأل أعرابي النبي صلى الله عليه وسلم آية فقال له قل لتلك الشجرة رسول الله يدعوك
قال فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها فتقطعت عروقها ثم جاءت

تخد الأرض بعروقهما مغبرتين حتى وقفتا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقالتا السلام عليك يا رسول الله قال الأعرابي مرهما فليرجعا إلى منبتهما فرجعتا فدلتا
عروقهما في ذلك فاستوتا فقال الأعرابي ائذن لي أسجد لك قال لو أمرت أحدا أن يسجد
لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها قال فأذن لي أقبل يديك ورجليك فأذن له
وفي الصحيح في حديث جابر بن عبد الله الطويل ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقضي حاجته فلم ير شيئا يستتر به فإذا بشجرتين بشاطئ الوادي فانطلق
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال انقادي
علي بإذن الله فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده وذكر أنه
فعل بالأخرى مثل ذلك حتى إذا كان بالمنصف بينهما قال التئما علي بإذن الله
فالتأمتا. وفي رواية أخرى فقال يا جابر قل لهذه الشجرة يقول لك رسول الله الحقي
بصاحبتك حتى أجلس خلفكما ففعلت فرجعت حتى لحقت بصاحبتها فجلس
خلفهما فخرجت أحضر وجلست أحدث نفسي فالتفت فإذا رسول الله صلى الله
عليه وسلم مقبلا والشجرتان قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق فوقف
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقفة فقال برأسه هكذا يمينا وشمالا وروى أسامة بن
زيد نحوه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض مغازيه هل تعني مكانا
لحاجة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت إن الوادي ما فيه موضع بالناس فقال هل ترى
من نخل أو حجارة قلت أرى نخلات متقاربات قال انطلق وقل لهن إن رسول الله يأمركن
أن تأتين لمخرج رسول الله وقل للحجارة مثل ذلك فقلت ذلك لهن فوالذي بعثه بالحق
لقد رأيت النخلات يتقاربن حتى اجتمعن والحجارة يتعاقدن حتى صرن ركاما
خلفهن فلما قضى حاجته قال لي قل لهن يفترقن فوالذي نفسي بيده لرأيتهن والحجارة
يفترقن حتى عدن إلى مواضعهن وقال يعلى بن سيابة كنت مع النبي صلى الله
عليه وسلم في مسير وذكر نحوا من هذين الحديثين وذكر فأمر وديتين فانضمتا
وفي رواية أشاءتين وعن غيلان بن سلمة الثقفي مثله في شجرتين وعن ابن مسعود

عن النبي عليه السلام مثله في غزاة حنين وعن يعلى بن مرة وهو ابن سيابة أيضا
وذكر أشياء رآها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر أن طلحة أو سمرة جاءت
فأطافت به ثم رجعت إلى منبتها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها استأذنت أن تسلم
علي. وفي حديث عبد الله بن مسعود آذنت النبي صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة
استمعوا له شجرة وعن مجاهد عن ابن مسعود في هذا الحديث أن الجن قالوا من يشهد
لك قال هذه الشجرة فقال يا شجرة فجاءت تجر عروقها لها قعاقع وذكر مثل الحديث
الأول أو نحوه. **قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه** فهذا ابن عمر
وبريدة وجابر وابن مسعود ويعلى بن مرة وأسامة بن زيد وأنس بن مالك وعلي بن
أبي طالب وابن عباس وغيرهم قد اتفقوا على هذه القصة نفسها أو معناها ورواها
عنهم من التابعين أضعافهم فصارت في انتشارها من القوة حيث هي وذكر ابن
فورك أنه صلى الله عليه وسلم سار في غزوة الطائف ليلا وهو وسن فاعترضته سدرة
فانفرجت له نصفين حتى جاز بينهما وبقيت على ساقين إلى وقتنا وهي هناك
معروفة معظمة. ومن ذلك حديث أنس أن جبريل عليه السلام قال للنبي عليه السلام
ورآه حزينا أتحب أن أريك آية قال نعم فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شجرة
من وراء الوادي فقال ادع تلك الشجرة فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه قال مرها
فلترجع فعادت إلى مكانها. وعن علي نحو هذا ولم يذكر فيه جبريل قال اللهم
أرني آية لا أبالي من كذبني بعدها فدعا شجرة وذكر مثله. وحزنه صلى الله
عليه وسلم لتكذيب قومه وطلبه الآية لهم لا له وذكر ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه
وسلم أرى ركانة مثل هذه الآية في شجرة دعاها فأتت حتى وقفت بين يديه ثم قال
ارجعي فرجعت. وعن الحسن أنه عليه السلام شكا إلى ربه من قومه وأنهم يخوفونه
وسأله آية يعلم بها أن لا مخافة عليه فأوحى إليه أن ائت وادي كذا فيه شجرة فادع
غصنا منها يأتك ففعل فجاء يخط الأرض خطا حتى انتصب بين يديه فحبسه ما
شاء الله ثم قال له ارجع كما جئت فرجع فقال يا رب علمت أن لا مخافة علي ونحو منه

عن عمر وقال فيه أرني آية لا أبالي من كذبني بعدها فذكر نحوه. وعن ابن عباس
أنه صلى الله عليه وسلم قال لأعرابي أرأيت إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني
رسول الله قال نعم فدعاه فجعل ينقز حتى أتاه فقال ارجع فعاد إلى مكانه. وخرّجه
الترمذي وقال هذا حديث صحيح

فصل في قصة حنين الجذع

وبعض هذا الحديث أنين الجذع وهو في نفسه مشهور منتشر والخبر به متواتر
خرّجه أهل الصحيح ورواه من الصحابة بضعة عشر منهم أبي بن كعب وجابر بن عبد الله
وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وسهل بن سعد وأبو سعيد الخدري
وبريدة وأبي بن كعب وأم سلمة والمطلب بن أبي وداعة كلهم يحدث بمعنى هذا
الحديث. قال الترمذي وحديث أنس صحيح. قال جابر بن عبد الله كان المسجد مسقوفا
على جذوع نخل وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها فلما
صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار. وفي رواية أنس حتى
ارتج المسجد لخواره. وفي رواية سهل وكثر بكاء الناس لما رأوا به. وفي رواية
المطلب حتى تصدع وانشق حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه فسكت
زاد غيره فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن هذا بكى لما فقد من الذكر. وزاد غيره
فقال النبي صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة
تحزنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر به نبي الله صلى الله عليه وسلم فدفن تحت
المنبر كذا في حديث المطلب وسهل بن سعد وإسحاق عن أنس. وفي بعض الروايات
عن سهل فدفن تحت منبره أو جعل في السقف. وفي حديث أبي فكان إذا صلى
النبي صلى الله عليه وسلم صلى إليه فلما هدم المسجد أخذه أبي فكان عنده إلى أن
أكلته الأرض وعاد رفاتا. وذكر الإسفراييني أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاه إلى
نفسه فجاءه يخرق الأرض فالتزمه ثم أمره فعاد إلى مكانه. وفي حديث بريدة فقال
يعني النبي صلى الله عليه وسلم إن شئت أردك إلى الحائط الذي كنت فيه تنبت لك عروقك
ويكمل خلقك ويجدد لك خوص وثمرة وإن شئت أغرسك في الجنة فيأكل أولياء الله

من ثمرك. ثم أصغى له النبي صلى الله عليه وسلم يستمع ما يقول فقال بل تغرسني في الجنة فيأكل
مني أولياء الله وأكون في مكان لا أبلى فيه فسمعه من يليه فقال النبي صلى الله عليه وسلم
قد فعلت. ثم قال اختار دار البقاء على دار الفناء. فكان الحسن إذا حدث بهذا بكى وقال
يا عباد الله الخشبة تحن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شوقا إليه لمكانه فأنتم أحق أن
تشتاقوا إلى لقائه. رواه عن جابر حفص بن عبيد الله ويقال عبيد الله بن حفص وأيمن
وأبو نضرة وابن المسيب وسعيد بن أبي كرب وكريب وأبو صالح. ورواه عن أنس بن
مالك الحسن وثابت وإسحاق بن أبي طلحة. ورواه عن ابن عمر نافع وأبو حية. ورواه
أبو نضرة وأبو الوداك عن أبي سعيد. وعمار بن أبي عمار عن ابن عباس. وأبو حازم وعباس
ابن سهل بن سعد عن سهل بن سعد. وكثير بن زيد عن المطلب. وعبد الله بن بريدة عن
أبيه. والطفيل بن أبي عن أبيه. **قال القاضي** أبو الفضل رضي الله عنه فهذا
حديث كما تراه خرّجه أهل الصحة ورواه من الصحابة من ذكرنا وغيرهم من التابعين
ضعفهم إلى من لم نذكره ومن دون هذه العدة يقع العلم لمن اعتنى بهذا الباب والله المثبت
على الصواب.

فصل

ومثل هذا في سائر الجمادات. حدثنا القاضي أبو عبد الله
محمد بن عيسى التميمي قال حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن المرابط حدثنا المهلب
أبو القاسم حدثنا أبو الحسن القابسي حدثنا المروزي حدثنا الفربري حدثنا البخاري
حدثنا محمد بن المثنى حدثنا أبو أحمد الزبيري قال حدثنا إسرائيل عن منصور عن إبراهيم
عن علقمة عن عبد الله قال لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. وفي غير
هذه الرواية عن ابن مسعود كنا نأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطعام
ونحن نسمع تسبيحه. وقال أنس أخذ النبي صلى الله عليه وسلم كفا من حصى فسبحن
في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا التسبيح ثم صبهن في يد أبي بكر
فسبحن ثم في أيدينا فما سبحن. ورواه أبو ذر وذكر أنهن سبحن في كف
عمر وعثمان. وقال علي كنا بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إلى بعض
نواحيها فما استقبله شجرة ولا جبل إلا قال له السلام عليك يا رسول الله. وعن

جابر بن سمرة عنه عليه السلام إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قيل إنه الحجر الأسود وعن عائشة لما استقبلني جبريل بالرسالة جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله وعن جابر بن عبد الله لم يكن صلى الله عليه وسلم يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له وفي حديث العباس إذ اشتمل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعلى بنيه بملاءة ودعا لهم بالستر من النار كستره إياهم بملاءته فأمنت أسكفة الباب وحوائط البيت آمين آمين وعن جعفر بن محمد عن أبيه مرض النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه جبريل بطبق فيه رمان وعنب فأكل منه صلى الله عليه وسلم فسبح وعن أنس صعد النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان أحدا فرجف بهم فقال اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان ومثله عن أبي هريرة في حراء وزاد معه وعلي وطلحة والزبير وقال فإنما عليك نبي أو صديق أو شهيد والخبر في حراء أيضا عن عثمان قال ومعه عشرة من أصحابه أنا فيهم وزاد عبد الرحمن وسعدا قال ونسيت الاثنين وفي حديث سعيد بن زيد أيضا مثله وذكر عشرة وزاد نفسه وقد روي أنه حين طلبته قريش قال له ثبير اهبط يا رسول الله فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله فقال حراء إلي يا رسول الله وروى ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر وما قدروا الله حق قدره ثم قال يمجد الجبار نفسه أنا الجبار أنا الجبار أنا الكبير المتعال فرجف به المنبر حتى قلنا ليخرن عنه وعن ابن عباس كان حول البيت ستون وثلاث مائة صنم مثبتة الأرجل بالرصاص في الحجارة فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام عام الفتح جعل يشير بقضيب في يده إليها ولا يمسها ويقول جاء الحق وزهق الباطل الآية فما أشار إلى وجه صنم إلا وقع لقفاه ولا لقفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقي منها صنم ومثله في حديث ابن مسعود وقال فجعل يطعنها ويقول جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ومن ذلك حديثه مع الراهب في ابتداء أمره إذ خرج تاجرا مع عمه وكان الراهب لا يخرج إليهم فخرج وجعل يتخللهم حتى أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال

هذا سيد العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين فقال له أشياخ من قريش ما علمك فقال إنه لم يبق شجر ولا حجر إلا خر له ساجدا ولا يسجد إلا لنبي وذكر القصة ثم قال وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه غمامة تظله فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس مال الفيء إليه

فصل في الآيات في ضروب الحيوانات

حدثنا سراج بن عبد الملك أبو الحسين الحافظ حدثنا أبي حدثنا القاضي يونس حدثنا أبو الفضل الصقلي حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت عن أبيه وجده قالا حدثنا أبو العلاء حدثنا أحمد بن عمران حدثنا محمد بن فضيل حدثنا يونس بن عمرو حدثنا مجاهد عن عائشة قالت كان عندنا داجن فإذا كان عندنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قر وثبت مكانه فلم يجئ ولم يذهب وإذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء وذهب وروي عن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في محفل من أصحابه إذ جاء أعرابي قد صاد ضبا فقال من هذا قالوا نبي الله فقال واللات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب وطرحه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي عليه السلام يا ضب فأجابه بلسان مبين يسمعه القوم جميعا لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة قال من تعبد قال الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه وفي البحر سبيله وفي الجنة رحمته وفي النار عقابه قال فمن أنا قال رسول رب العالمين وخاتم النبيين وقد أفلح من صدقك وخاب من كذبك فأسلم الأعرابي ومن ذلك قصة كلام الذئب المشهورة عن أبي سعيد الخدري بينا راع يرعى غنما له عرض الذئب لشاة منها فأخذها الراعي منه فأقعى الذئب وقال للراعي ألا تتقي الله حلت بيني وبين رزقي قال الراعي العجب من ذئب يتكلم بكلام الإنس فقال الذئب ألا أخبرك بأعجب من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحرتين يحدث الناس بأنباء ما سبق فأتى الراعي النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال النبي عليه السلام قم فحدثهم ثم قال صدق والحديث فيه قصة وفي بعضه طول وروى حديث الذئب عن أبي هريرة وفي بعض الطرق عن أبي هريرة فقال الذئب أنت أعجب واقفا على غنمك وتركت

نبيا لم يبعث الله نبيا قط أعظم منه عندي قدرا قد فتحت له أبواب الجنة وأشرف أهلها
على أصحابه ينظرون قتالهم وما بينك وبينه إلا هذا الشعب فتصير في جنود الله
قال الراعي من لي بغنمي قال الذئب أنا أرعاها حتى ترجع فأسلم الرجل إليه
غنمه ومضى وذكر قصته وإسلامه ووجوده النبي يقاتل فقال له النبي عد إلى غنمك
تجدها بوفرها فوجدها كذلك وذبح للذئب شاة منها ۝ وعن أهبان بن أوس
وأنه كان صاحب القصة والمحدث بها ومكلم الذئب ۝ وعن سلمة بن عمرو بن الأكوع
وأنه كان صاحب القصة أيضا وسبب إسلامه بمثل حديث أبي سعيد وقد روى ابن
وهب مثل هذا أنه جرى لأبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية مع ذئب وجداه أخذ
ظبيا فدخل الظبي الحرم فانصرف الذئب فعجبا من ذلك فقال الذئب أعجب من ذلك محمد
ابن عبد الله بالمدينة يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار فقال أبو سفيان واللات والعزى
لئن ذكرت هذا بمكة لتتركنها خلوفا ۝ وقد روي مثل هذا الخبر وأنه جرى لأبي
جهل وأصحابه ۝ وعن عباس بن مرداس لما تعجب من كلام ضمار صنمه وإنشاده
الشعر الذي ذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم فإذا طائر سقط فقال يا عباس أتعجب
من كلام ضمار ولا تعجب من نفسك إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام
وأنت جالس فكان سبب إسلامه ۝ وعن جابر بن عبد الله عن رجل أتى النبي صلى
الله عليه وسلم وآمن به وهو على بعض حصون خيبر وكان في غنم يرعاها لهم فقال
يا رسول الله كيف بالغنم قال احصب وجوهها فإن الله سيؤدي عنك أمانتك
ويردها إلى أهلها ففعل فسارت كل شاة حتى دخلت إلى أهلها ۝ وعن أنس دخل
النبي صلى الله عليه وسلم حائط أنصاري وأبو بكر وعمر ورجل من الأنصار وفي
الحائط غنم فسجدت له فقال أبو بكر نحن أحق بالسجود لك منها الحديث وعن أبي
هريرة دخل النبي صلى الله عليه وسلم حائطا فجاء بعير فسجد له وذكر مثله
ومثله في الجمل عن ثعلبة بن مالك وجابر بن عبد الله ويعلى بن مرة وعبد الله بن
جعفر قال وكان لا يدخل أحد الحائط إلا شد عليه الجمل فلما دخل عليه النبي عليه

السلام ثم جاء بموضع مشفره في الأرض وبرك بين يديه فخطمه وقال ما بين السماء
والأرض شيء إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس ۝ ومثله عن عبد الله بن
أبي أوفى ۝ وفي خبر آخر في حديث الجمل أن النبي صلى الله عليه وسلم سألهم عن
شأنه فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه ۝ وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم
إنه شكا كثرة العمل وقلة العلف ۝ وفي رواية أنه شكا إلي أنكم أردتم ذبحه بعد
أن استعملتموه في شاق العمل من صغره فقالوا نعم ۝ وقد روي في قصة العضباء
وكلامها للنبي صلى الله عليه وسلم وتعريفها له بنفسها ومبادرة العشب إليها في
الرعي وتجنب الوحوش عنها ونداءهم لها إنك لمحمد صلى الله عليه وسلم وأنها لم تأكل
ولم تشرب بعد موته حتى ماتت ذكره الإسفرائني ۝ وروى ابن وهب أن حمام مكة
أظلت النبي عليه السلام يوم فتحها فدعا لها بالبركة ۝ وروي عن أنس وزيد بن أرقم
والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهم أن النبي عليه السلام ليلة الغار أمر الله تعالى
شجرة فنبتت تجاه النبي صلى الله عليه وسلم فسترته وأمر حمامتين فوقفتا بفم
الغار ۝ وفي حديث آخر وأن العنكبوت نسجت على بابه فلما أتى الطالبون له
ورأوا ذلك قالوا لو كان فيه أحد لم تكن الحمامتان ببابه والنبي صلى الله عليه
وسلم يسمع كلامهم فانصرفوا ۝ وعن عبد الله بن قرط قرب إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم بدنات خمس أو ست أو سبع لينحرها يوم عيد فازدلفن إليه بأيتهن يبدأ
وعن أم سلمة كان النبي صلى الله عليه وسلم في صحراء فنادته ظبية يا رسول الله
قال ما حاجتك قالت صادني هذا الأعرابي ولي خشفان في ذلك الجبل فأطلقني
حتى أذهب فأرضعهما وأرجع قال وتفعلين قالت نعم فأطلقها فذهبت ورجعت
فأوثقها فانتبه الأعرابي وقال يا رسول الله ألك حاجة قال تطلق هذه الظبية فأطلقها
فخرجت تعدو في الصحراء وتقول أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ۝ ومن هذا
الباب ما روي من تسخير الأسد لسفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ وجهه إلى
معاذ باليمن فلقي الأسد فعرفه أنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه كتابه

مُحتسبٍ ونحّى عن الطريق وذكر في منصبٍ به مثل الذي وفي رواية أخرى عنه أن سفينة تكسرت به فخرج إلى جزيرة فإذا الأسد فقلت أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يغمزني بمنكبه حتى أقامني على الطريق وأخذ عليه السلام بأذن شاة لقوم من عبد القيس بين أصبعيه ثم خلّاها فصار لها ميسماً وبقي ذلك الأثر فيها وفي نسلها بعد. وما روي عن إبراهيم بن حماد بسنده من كلام الحمار الذي أصابه بخيبر وقال له اسمي يزيد بن شهاب فسماه النبي عليه السلام يعفوراً وأنه كان يوجهه إلى دور أصحابه فيضرب عليهم الباب برأسه ويستدعيهم وأن النبي عليه السلام لما مات تردّى في بير جزعاً وحزناً فمات. وحديث الناقة التي شهدت عند النبي عليه السلام لصاحبها أنه ما سرقها وأنها ملكه. وفي العنز التي أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم في عسكره وقد أصابهم عطش ونزلوا على غير ماء وهم زهاء ثلاث مائة فحلبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأروى الجند ثم قال لرافع املكها وما أراك فربطها فوجدها قد انطلقت رواه ابن قانع وغيره وفيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الذي جاء بها هو الذي ذهب بها. وقال لفرسه عليه السلام وقد قام إلى الصلاة في بعض أسفاره لا تبرح بارك الله فيك حتى نفرغ من صلاتنا وجعله قبلته فما حرك عضواً حتى صلى صلى الله عليه وسلم ويلحق بهذا ما رواه الواقدي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وجه رسله إلى الملوك فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد فأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم. والحديث في هذا الباب كثير وقد جئنا منه بالمشهور منه وما وقع في كتب الأئمة.

فصل في إحياء الموتى وكلامهم وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له بالنبوة صلى الله عليه وسلم

حدثنا أبو الوليد هشام بن أحمد الفقيه بقراءتي عليه والقاضي أبو الوليد محمد بن رشد والقاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي وغير واحد سماعاً وإذناً قالوا حدثنا أبو علي الحافظ قال حدثنا أبو عمر الحافظ حدثنا أبو زيد عبد الرحمن ابن يحيى العطار حدثنا أحمد بن سعيد حدثنا ابن الأعرابي حدثنا أبو داود حدثنا

وهب بن بقية عن خالد هو الطحان عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن يهودية أهدت للنبي صلى الله عليه وسلم بخيبر شاة مصلية سمتها فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وأكل القوم وقال ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة فمات بشر بن البراء وقال لليهودية ما حملك على ما صنعت قالت إن كنت نبياً لم يضرك الذي صنعت وإن كنت ملكاً أرحت الناس منك فأمر بها فقتلت. وقد روى هذا الحديث أنس وفيه قالت أردت قتلك فقال ما كان الله ليسلطك على ذلك فقالوا نقتلها قال لا. وكذلك عن أبي هريرة من رواية غيره وفيه فما عرض لها. ورواه أيضاً جابر بن عبد الله وفيه أخبرتني به هذه الذراع قال ولم يعاقبها. وفي رواية الحسن أن فخذها تكلمني أنها مسمومة. وفي رواية أبي سلمة بن عبد الرحمن فقالت إني مسمومة. وكذلك ذكر الخبر ابن إسحاق وقال فيه فتجاوز عنها. وفي الحديث الآخر عن أنس أنه قال فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في وجعه الذي مات منه ما زالت أكلة خيبر تعادني فالآن أوان قطعت أبهري. وحكى ابن إسحاق إن كان المسلمون ليرون أن رسول الله مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة. وقال ابن سحنون أجمع أهل الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل اليهودية التي سمته. وقد ذكرنا اختلاف الروايات في ذلك عن أبي هريرة وأنس وجابر. وفي رواية ابن عباس أنه دفعها لأولياء بشر بن البراء فقتلوها. وكذلك قد اختلف في قتله الذي سحره. قال الواقدي وعفوه عنه أثبت عندنا. وقد روي أنه قتله. وروى الحديث البزار عن أبي سعيد فذكر مثله إلا أنه قال في آخره فبسط يده وقال كلوا بسم الله فأكلنا وذكرنا اسم الله فلم تضر أحداً منا.

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه وقد روى حديث الشاة المسمومة أهل الصحيح وخرجه الأئمة وهو حديث مشهور. واختلف أئمة أهل النظر في هذا الباب فمن قائل يقول هو كلام يخلقه الله تعالى في الشاة الميتة أو الحجر أو الشجرة وحروف وأصوات يحدثها الله فيها ويسمعها منها دون تغيير أشكالها ونقلها عن هيئتها

ومذهب الشيخ أبي الحسن والقاضي أبي بكر رحمهما الله. وآخرون ذهبوا إلى إيجاد
الحياة بها وأنه لا يتأتى الكلام بغيرها. ويحكى هذا أيضا عن شيخنا أبي الحسن وكل محتمل
والله أعلم إذ لم تجعل الحياة شرطا لوجود الحروف والأصوات إذ لا يستحيل وجودها
مع عدم الحياة بمجردها فأما إذا كانت عبارة عن الكلام النفسي فلا بد من شرط
الحياة لها إذ لا يوجد كلام النفس إلا من حي خلافا للجبائي من بين سائر متكلمي
الفرق في إحالته وجود الكلام اللفظي والحروف والأصوات إلا من حي مركب على
تركيب من يصح منه النطق بالحروف والأصوات والتزم ذلك في الحصى والجذع والذراع
وقال إن الله خلق فيها حياة وخرق لها فما ولسانا وآلة أمكنها بها من الكلام وهذا
لو كان لكان نقله والتهمم به آكد من التهمم بنقل تسبيحه أو حنينه ولم ينقل أحد
من أهل السير والرواية شيئا من ذلك فدل على سقوط دعواه مع أنه لا ضرورة إليه
في النظر والموفق الله. وروى وكيع رفعه عن فهد بن عطية أن النبي صلى الله
عليه وسلم أتي بصبي قد شب لم يتكلم قط فقال من أنا فقال رسول الله. وروي عن
معرض بن معيقيب رأيت من النبي صلى الله عليه وسلم عجبا جيء بصبي يوم ولد
فذكر مثله. وهو حديث مبارك اليمامة ويعرف بحديث شاصونة اسم راويه. وفيه
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم صدقت بارك الله فيك ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها
حتى شب فكان يسمى مبارك اليمامة وكانت هذه القصة بمكة في حجة الوداع. وعن
الحسن أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له أنه طرح بنية له في وادي كذا
فانطلق معه إلى الوادي وناداها باسمها يا فلانة أجيبي بإذن الله فخرجت وهي تقول
لبيك وسعديك فقال لها إن أبويك قد أسلما فإن أحببت أن أردك عليهما قالت لا حاجة
لي فيهما وجدت الله خيرا لي منهما. وعن أنس أن شابا من الأنصار توفي وله أم عجوز
عمياء فسجيناه وعزيناها فقالت مات ابني قلنا نعم قالت اللهم إن كنت تعلم أني
هاجرت إليك وإلى نبيك رجاء أن تعينني على كل شدة فلا تحملن علي هذه المصيبة
فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه فطعم وطعمنا. وروي عن عبد الله بن عبيد الله

الأنصاري كنت فيمن دفن ثابت بن قيس بن شماس وكان قتل باليمامة فسمعناه حين
أدخلناه القبر يقول محمد رسول الله أبو بكر الصديق عمر الشهيد عثمان البر الرحيم
فنظرنا فإذا هو ميت. وذكر عن النعمان بن بشير أن زيد بن خارجة خر ميتا في بعض
أزقة المدينة فرفع وسجي إذ سمعوه بين العشاءين والنساء يصرخن حوله يقول
أنصتوا أنصتوا فحسر عن وجهه فقال محمد رسول الله النبي الأمي وخاتم النبيين
كان ذلك في الكتاب الأول ثم قال صدق صدق وذكر أبا بكر وعمر وعثمان
ثم قال السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ثم عاد ميتا كما كان. وتركناه
سبحان العظيم لا إله إلا هو.

فصل

حدثنا أبو الحسن علي بن مشرف فيما أجازنيه
وقرأته على غيره قال حدثنا أبو إسحاق الحبال قال حدثنا أبو محمد بن النحاس حدثنا ابن
الورد عن البرقي عن ابن هشام عن زياد البكائي عن محمد بن إسحاق حدثنا ابن شهاب وعاصم
ابن عمر بن قتادة وجماعة ذكرهم بعضهم أحد بطولها قالوا وقال سعد بن أبي
وقاص إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليناولني السهم لا نصل له فيقول ارم به وقد
رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ عن قوسه حتى اندقت وأصيب يومئذ عين
قتادة يعني ابن النعمان حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم
فكانت أحسن عينيه. وروى قصة قتادة عاصم بن عمر بن قتادة ويزيد بن عياض بن
عمر بن قتادة ورواها أبو سعيد الخدري عن قتادة. وبصق على أثر سهم في وجه
قتادة في يوم ذي قرد قال فما ضرب علي ولا قاح. وروى النسائي عن عثمان بن حنيف
أن أعمى قال يا رسول الله ادع الله أن يكشف لي عن بصري قال فانطلق فتوضأ ثم صل
ركعتين ثم قل اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيي محمد نبي الرحمة يا محمد إني
أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصري اللهم شفعه في قال فرجع وقد كشف الله
عن بصره. وروي أن ابن ملاعب الأسنة أصابه استسقاء فبعث إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فأخذ بيده حثوة من الأرض فتفل عليها ثم أعطاها رسوله فأخذها
متعجبا يرى أن قد هزئ به فأتاه بها وهو على شفا فشربها فشفاه الله. وذكر

العقيلي عن حبيب بن فريك ويقال فويك ان اباه ابيضت عيناه فكان لا يبصر بهما
شيئا فنفث رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه فابصر فرايته يدخل الخيط في
الابرة وهو ابن ثمانين. ورمي كلثوم بن الحصين يوم احد في نحره فبصق
رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه فبرئ. وتفل على شجة عبد الله بن انيس فلم تمد
وتفل في عيني علي يوم خيبر وكان رمدا فاصبح بارئا. ونفث على ضربة بساق
سلمة بن الاكوع يوم خيبر فبرئت. وفي رجل زيد بن معاذ حين اصابها السيف
الى الكعب حين قتل ابن الاشرف فبرئت. وعلى ساق علي بن الحكم يوم الخندق اذ انكسرت
فبرئ مكانه وما نزل عن فرسه. واشتكى علي بن ابي طالب فجعل يدعو فقال النبي
صلى الله عليه وسلم اللهم اشفه او عافه ثم ضربه برجله فما اشتكى ذلك الوجع بعد.
وقطع ابو جهل يوم بدر يد معوذ بن عفراء فجاء يحمل يده فبصق عليها رسول الله صلى
الله عليه وسلم والصقها فلصقت. رواه ابن وهب. ومن روايته ايضا ان خبيب بن
يساف اصيب يوم بدر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بضربة على عاتقه حتى مال شقه
فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفث عليه حتى صح. واتته امراة من خثعم
معها صبي به بلاء لا يتكلم فاتي بماء فمضمض فاه وغسل يديه ثم اعطاها اياه
وامرها بسقيه ومسه به فبرا الغلام وعقل عقلا يفضل عقول الناس. وعن ابن عباس
جاءت امراة بابن لها به جنون فمسح صدره فثع ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو
الاسود فشفي. وانكفات القدر على ذراع محمد بن حاطب وهو طفل فمسح عليه ودعا
له وتفل فيه فبرئ لحينه. وكانت في كف شرحبيل الجعفي سلعة تمنعه القبض
على السيف وعنان الدابة فشكاها للنبي عليه السلام فما زال يطحنها بكفه حتى
رفعها ولم يبق لها اثر. وسالته جارية طعاما وهو ياكل فناولها من بين يديه
وكانت قليلة الحياء فقالت انما اريد من الذي في فيك فناولها ما في فيه ولم يكن صلى
الله عليه يسال شيئا فيمنعه فلما استقر في جوفها القي عليها من الحياء ما لم تكن
امراة بالمدينة اشد حياء منها.

فصل في اجابة دعائه

وهذا باب واسع جدا واجابة دعوة النبي لجماعة بما دعا لهم وعليهم
متواتر على الجملة معلوم ضرورة. وقد جاء في حديث حذيفة كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم اذا دعا لرجل ادركت الدعوة ولده وولد ولده. حدثنا ابو محمد
العتابي بقراءتي عليه حدثنا ابو القاسم حاتم بن محمد حدثنا ابو الحسن القابسي
حدثنا ابو زيد المروزي حدثنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن اسمعيل حدثنا عبد الله
ابن ابي الاسود حدثنا حرمي حدثنا شعبة عن قتادة عن انس قال قالت امي
يا رسول الله خادمك انس ادع الله له قال اللهم اكثر ماله وولده وبارك له فيما اتيته
ومن رواية عكرمة قال انس فوالله ان مالي لكثير وان ولدي وولد ولدي ليتعادون
اليوم على نحو المائة. وفي رواية وما اعلم احدا اصاب من رخاء العيش ما اصبت ولقد
دفنت بيدي هاتين مائتين من ولدي لا اقول سقطا ولا ولد ولد. ومنه دعاؤه لعبد الرحمن
ابن عوف بالبركة قال عبد الرحمن فلو رفعت حجرا لرجوت ان اصيب تحته ذهبا وفتح
الله عليه ومات فحفر الذهب من تركته بالفؤوس حتى مجلت فيه الايدي واخذت
كل زوجة ثمانين الفا وكن اربعا وقيل مائة الف. وقيل بل صولحت احداهن لانه
طلقها في مرضه على نيف وثمانين وقيل مائة الف. واوصى بخمسين الفا بعد صدقاته
الفاشية في حياته وعوارفه العظيمة اعتق يوما ثلاثين عبدا وتصدق مرة بعير
فيها سبع مائة بعير وردت عليه تحمل من كل شيء فتصدق بها وبما عليها وباقتابها
واحلاسها. ودعا لمعوية بالتمكين في البلاد فنال الخلافة. ولسعد بن ابي وقاص
ان يجيب الله دعوته فما دعا على احد الا استجيب له. ودعا بعز الاسلام بعمر او
بابي جهل فاستجيب له في عمر قال ابن مسعود ما زلنا اعزة منذ اسلم عمر. واصاب
الناس في بعض مغازيه عطش فساله عمر الدعاء فدعا فجاءت سحابة فسقتهم
حاجتهم ثم اقلعت. ودعا في الاستسقاء فسقوا ثم شكوا اليه المطر فدعا فصحوا
وقال لابي قتادة افلح وجهك اللهم بارك له في شعره وبشره فمات وهو ابن سبعين
سنة وكانه ابن خمس عشرة. وقال للنابغة لا يفضض الله فاك فما سقطت له

سِنٌّ، وفي رواية فكان أحسن الناس ثغرًا، إذا سقطت له سنّ نبتت له أخرى، وعاش
عشرين ومائة سنة، وقيل أكثر من هذا. ودعا لابن عباس اللهم فقّهه في الدين وعلّمه
التأويل فسمّي بعدُ الحبر، وترجمان القرآن. ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة في صفقة
يمينه فما اشترى شيئًا إلا ربح فيه. ودعا للمقداد بالبركة فكانت عنده غرائر من المال
ودعا بمثله لعروة بن أبي الجعد فقال فلقد كنت أقوم بالكناسة فما أرجع حتى أقوم
بأربعين ألفًا. وقال البخاري في حديثه فكان لو اشترى التراب ربح فيه. وروي
مثل هذا لغرقدة أيضًا. وندّت له ناقة فدعا فجاء بها إعصار ريح حتى ردّها عليه.
ودعا لأم أبي هريرة فأسلمت. ودعا لعلي أن يكفى الحرّ والقرّ فكان يلبس في
الشتاء ثياب الصيف، وفي الصيف ثياب الشتاء، ولا يصيبه حرّ ولا برد. ودعا لفاطمة
ابنته رضي الله عنها ألا يجيعها قالت فما جعت بعد. وسأله الطفيل بن عمرو
آية لقومه فقال اللهم نوّر له، فسطع نور بين عينيه فقال يا رب أخاف أن يقولوا مثلة
فتحوّل إلى طرف سوطه فكان يضيء في الليلة المظلمة فسمّي ذا النور. ودعا على
مضر فأقحطوا حتى استعطفته قريش فدعا لهم فسقوا. ودعا على كسرى حين
مزّق كتابه أن يمزّق الله ملكه فلم تبق له باقية، ولا بقيت لفارس رياسة في أقطار الدنيا.
ودعا على صبي قطع عليه الصلاة أن يقطع الله أثره فأقعد. وقال لرجل رآه
يأكل بشماله كل بيمينك فقال لا أستطيع فقال لا استطعت فلم يرفعها إلى فيه.
وقال لعتبة بن أبي لهب اللهم سلّط عليه كلبًا من كلابك فأكله الأسد. وقال لامرأة
أكلك الأسد فأكلها. وحديثه المشهور من رواية عبد الله بن مسعود في دعائه على
قريش حين وضعوا السلا على رقبته وهو ساجد مع الفرث والدم وسمّاهم فقال فلقد
رأيتهم قتلوا يوم بدر. ودعا على الحكم بن أبي العاص وكان يختلج بوجهه ويغمز
عند النبي صلى الله عليه وسلم فرآه فقال كذلك كن فلم يزل يختلج إلى أن مات.
ودعا على محلّم بن جثّامة فمات لسبع فلفظته الأرض ثم ووري فلفظته مرات فألقوه
بين صدين ورضموا عليه بالحجارة الصخر بالصاد جانب الوادي. وجحده رجل بيع

فرس وهي التي شهد فيها خزيمة للنبي صلى الله عليه وسلم فردّ الفرس فقال النبي عليه
السلام على الرجل وقال اللهم إن كان كاذبًا فلا تبارك له فيها، فأصبحت شاصية برجلها
أي رابعة. وهذا الباب أكثر من أن يحاط به.

فصل في كراماته

وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره صلى الله عليه وسلم. حدثنا أحمد بن
محمد حدثنا أبو ذر الهروي إجازة، وحدثنا القاضي أبو علي سماعًا والقاضي أبو عبد الله
محمد بن عبد الرحمن وغير واحد قالوا حدثنا أبو الوليد الباجي حدثنا أبو ذر حدثنا أبو محمد وأبو
إسحاق وأبو الهيثم حدثنا الفربري حدثنا البخاري حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد
عن قتادة عن أنس بن مالك أن أهل المدينة فزعوا مرة فركب رسول الله صلى الله عليه
وسلم فرسًا لأبي طلحة كان يقطف أو به قطاف، وقال غيره فبطّأ فلما رجع
قال وجدنا فرسكم بحرًا فكان بعدُ لا يجارى. ونخس جمل جابر وكان قد أعيا فنشط
حتى كان ما يملك زمامه. وصنع مثل ذلك بفرس لجعيل الأشجعي خفقها بمخفقة
معه وبرّك عليها فلم يملك رأسها نشاطًا، وباع من نسلها باثني عشر ألفًا. وركب
حمارًا قطوفًا لسعد بن عبادة فردّه هملاجًا لا يساير. وكانت شعرات من شعره
عليه السلام في قلنسوة خالد بن الوليد فلم يشهد بها قتالًا إلا رزق النصر. وفي الصحيح
عن أسماء بنت أبي بكر أنها أخرجت جبة طيالسة وقالت كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها. وحدثني القاضي أبو علي عن
شيخه أبي القاسم بن المأمون قال كانت عندنا قصعة من قصاع النبي صلى الله عليه وسلم
فكنا نجعل فيها الماء للمرضى فيستشفون بها. وأخذ جهجاه الغفاري القضيب
من يد عثمان رضي الله عنه ليكسره على ركبته فصاح الناس به فأخذته
فيها الأكلة فقطعها ومات قبل الحول. وسكب صلى الله عليه وسلم من فضل وضوئه
في بئر قباء فما نزفت بعد. وبزق في بئر كانت في دار أنس فلم يكن بالمدينة
أعذب منها. ومرّ على ماء فسأل عنه فقيل له اسمه بيسان وماؤه ملح فقال بل هو نعمان
وماؤه طيب فطاب. وأتي بدلو من ماء زمزم فمجّ فيه فصار أطيب من المسك. وأعطى

للحسن والحسين لسانه فمصّاه، وكانا يبكيان عطشاً فسكتا ○ وكان لأم
مالك عكّة تهدي فيها للنبي صلى الله عليه وسلم سمناً فأمرها النبي صلى الله عليه
وسلم ألا تعصرها ثم دفعها إليها فإذا هي مملوءة سمناً فيأتيها بنوها يسألونها
الأدم وليس عندهم شيء فتعمد إليها فتجد فيها سمناً فكانت تقيم أدمها حتى
عصرتها ○ وكان يتفل في أفواه الصبيان المراضع فيجزيهم ريقه إلى الليل ومن
ذلك بركة يده فيما لمسه وغرسه لسلمان حين كاتبه مواليه على ثلاثمائة ودية
يغرسها لهم كلها تعلق وتطعم وعلى أربعين أوقية من ذهب فقام عليه السلام
وغرسها له بيده إلا واحدة غرسها غيره فأخذت كلها إلا تلك الواحدة فقلعها
النبي عليه السلام وردها فأخذت وفي كتاب البزار فأطعم النخل من عامه إلا
الواحدة فقلعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغرسها فأطعمت من عامها ○ وأعطاه
مثل بيضة الدجاجة من ذهب بعد أن أدارها على لسانه فوزن منها لمواليه أربعين
أوقية وبقي عنده مثل ما أعطاهم ○ وفي حديث حنش بن عقيل سقاني رسول الله
صلى الله عليه وسلم شربة من سويق شرب أولها وشربت آخرها فما برحت أجد شبعها
إذا جعت وريّها إذا عطشت وبردها إذا ضحيت ○ وأعطى قتادة بن النعمان وصلى
معه العشاء في ليلة مظلمة مطيرة عرجوناً وقال انطلق به فإنه سيضيء لك من
بين يديك عشراً ومن خلفك عشراً فإذا دخلت بيتك فسترى سواداً فاضربه
حتى يخرج فإنه الشيطان فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته ووجد السواد
فضربه حتى خرج ○ ومنها دفعه لعكاشة جذل حطب وقال اضرب به حين انكسر
سيفه في يوم بدر فعاد في يده سيفاً صارماً طويل القامة أبيض شديد المتن فقاتل به
ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف إلى أن استشهد في قتال أهل الردة وكان هذا السيف
يسمى العون ○ ودفعه لعبد الله بن جحش يوم أحد وقد ذهب سيفه عسيب نخل فرجع
في يده سيفاً ○ ومنه بركته في درور الشياه الحوائل باللبن الكثير كقصة شاة أم
معبد وأعنز معاوية بن ثور وشاة أنس وغنم حليمة مرضعته وشارفها وشاة عبد الله

ابن مسعود وكانت لم ينز عليها فحل وشاة المقداد ○ ومن ذلك تزويده أصحابه سقاء ماء
بعد أن أوكاه ودعا فيه فلما حضرتهم الصلاة نزلوا فحلّوه فإذا به لبن طيب وزبدة
في فمه من رواية حماد بن سلمة ○ ومسح على رأس عمير بن سعد وبرّك فمات وهو ابن
ثمانين فما شاب ○ وروي مثل هذه القصص عن غير واحد منهم السائب بن يزيد
ومدلوك ○ وكان يوجد لعتبة بن فرقد طيب يغلب طيب نسائه لأن رسول الله صلى
الله عليه وسلم مسح بيده على بطنه وظهره ○ وسلت الدم عن وجه عائذ بن عمرو وكان
جرح يوم حنين ودعا له فكانت له غرة كغرة الفرس ○ ومسح على رأس قيس بن
زيد الجذامي ودعا له فهلك وهو ابن مائة سنة ورأسه أبيض وموضع كف النبي
صلى الله عليه وسلم وما مرت يده عليه من شعره أسود فكان يدعى الأغر ○
وروي مثل هذه الحكاية لعمرو بن ثعلبة الجهني ○ ومسح وجه آخر فما زال على
وجهه نور ○ ومسح وجه قتادة بن ملحان فكان لوجهه بريق حتى كان ينظر في
وجهه كما ينظر في المرآة ○ ووضع يده عليه السلام على رأس حنظلة بن حذيم
وبرّك عليه فكان حنظلة يؤتى بالرجل قد ورم وجهه والشاة قد ورم ضرعها فيوضع
على موضع كف النبي صلى الله عليه وسلم فيذهب الورم ○ ونضح في وجه زينب
بنت أم سلمة نضحة من ماء فما يعرف كان في وجه امرأة من الجمال ما بها ○ ومسح على
رأس صبي به عاهة فبرأ واستوى شعره ○ وروي مثله في خبر الهلب بن قنافة
وعلى غير واحد من الصبيان والمرضى والمجانين فبرءوا ○ وأتاه رجل به أدرة فأمره
أن ينضحها بماء من عين مجّ فيه ففعل فبرأ ○ وعن طاوس لم يؤت النبي صلى الله
عليه وسلم بأحد به مس فصك في صدره إلا ذهب المس والجنون ○ ومج في دلو
من بئر ثم صب فيها ففاح منها ريح المسك ○ وأخذ قبضة من تراب يوم بدر فرمى بها
في وجوه الكفار وقال شاهت الوجوه فانصرفوا يمسحون القذى عن أعينهم ○ وشكا
إليه أبو هريرة النسيان فأمره ببسط ثوبه وغرف بيده فيه ثم أمره بضمه ففعل فما
نسي شيئاً بعد ○ وما يروى عنه في هذا كثير ○ وضرب صدر جرير بن عبد الله

وقد عاد وكان ذكر له أنه لا يثبت على الخيل فصار من أفرس العرب وأثبتهم ۝ ومسح رأس عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وهو صغير وكان دميما ودعا له بالبركة ففرع الرجال طولا وتماما ۝

فصل ومن ذلك ما أطلع عليه من الغيوب وما يكون والأحاديث في هذا الباب بحر لا يدرك قعره ولا ينزف غمره وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر لكثرة رواتها واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب ۝ حدثنا الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الفهري إجازة وقرأته على غيره قال أبو بكر حدثنا أبو علي التستري حدثنا أبو عمر الهاشمي حدثنا اللؤلؤي حدثنا أبو داود حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن أبي وائل عن حذيفة قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما فما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه قد علمه أصحابي هؤلاء وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه ثم قال حذيفة ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاث مائة فصاعدا إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته وقال أبو ذر لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما ۝ وقد خرج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم به أصحابه صلى الله عليه وسلم مما وعدهم به من الظهور على أعدائه وفتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله ۝ وأن المدينة ستغزى وتفتح خيبر على يد علي في غد يومه وما يفتح الله على أمته من الدنيا ويؤتون من زهرتها وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر وما يحدث بينهم من الفتن والاختلاف والأهواء وسلوك سبيل من قبلهم وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة الناجية منها واحدة وأنها ستكون لهم أنماط ويغدو أحدهم في حلة ويروح في أخرى وتوضع بين يديه صحفة وترفع أخرى

ذكرنا

وقيصر

من أولئك

ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة ثم قال آخر الحديث وأنتم اليوم خير منكم يومئذ وأنهم إذا مشوا المطيطاء وخدمتهم بنات فارس والروم رد الله بأسهم بينهم وسلط شرارهم على خيارهم ۝ وقتالهم الترك والخزر والروم وذهاب كسرى وفارس حتى لا كسرى ولا فارس بعده وقيصر حتى لا قيصر بعده وذكر أن الروم ذات قرون إلى آخر الدهر وبذهاب الأمثل فالأمثل من الناس وتقارب الزمان وقبض العلم وظهور الفتن والهرج وقال ويل للعرب من شر قد اقترب وأنه زويت له الأرض فأري مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمته ما زوي له منها ولذلك كان انتشرت في المشارق والمغارب ما بين أرض الهند أقصى المشرق إلى بحر طنجة حيث لا عمارة وراءه وذلك ما لم تملكه أمة من الأمم ولم يمتد في الجنوب ولا في الشمال مثل ذلك ۝ وقوله لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة ذهب ابن المديني إلى أنهم العرب لأنهم المختصون بالسقي بالغرب وهي الدلو وغيره يذهب إلى أنهم أهل المغرب وقد ورد المغرب كذا في الحديث بمعناه وفي حديث آخر من رواية أبي أمامة لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق قاهرين لعدوهم حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك قيل يا رسول الله وأين هم قال ببيت المقدس ۝ وأخبر بملك بني أمية وولاية معاوية ووصاه ۝ واتخاذ بني أمية مال الله دولا ۝ وخروج ولد العباس بالرايات السود وملكهم أضعاف ما ملكوا وخروج المهدي وما ينال أهل بيته وتشريدهم وقتل علي ۝ وأن أشقاها الذي يخضب هذه من هذه أي لحيته من رأسه وأنه قسيم النار يدخل أولياؤه الجنة وأعداؤه النار فكان ممن عاداه الخوارج والناصبة وطائفة ممن ينسب إليه من الروافض كفروه وقال يقتل عثمان وهو يقرأ في المصحف وأن الله عسى أن يلبسه قميصا وأنهم يريدون خلعه وأنه سيقطر دمه على قوله فسيكفيكهم الله وأن الفتن لا تظهر ما دام عمر حيا وبمحاربة الزبير لعلي ۝ وبنباح كلاب الحوأب على بعض أزواجه وأنه يقتل حولها قتلى كثيرة وتنجو بعدما كادت فنبحت على عائشة عند خروجها إلى البصرة وأن عمارا تقتله الفئة الباغية فقتله أصحاب معاوية ۝ وقال لعبد الله بن الزبير ويل للناس منك وويل

وتقتيلهم

رضي الله عنه

لحسن الثابت. وقال في قزمان وقد أبلى مع المسلمين إنه من أهل النار فقتل نفسه. وقال في
جماعة فيهم أبو هريرة وسمرة بن جندب وحذيفة آخركم موتا في النار فكان بعضهم
يسأل عن بعض فكان سمرة آخرهم موتا هرم وخرف فاصطلى بالنار فاحترق فيها
وقال في حنظلة الغسيل سلوا زوجته عنه فإني رأيت الملائكة تغسله فسألوها
فقالت إنه خرج جنبا وأعجله الحال عن الغسل قال أبو سعيد فوجدنا رأسه يقطر
ماء. وقال الخلافة في قريش ولن يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين. وقال يكون
في ثقيف كذاب ومبير فرأوهما الحجاج والمختار. وأن مسيلمة يعقره الله وأن
فاطمة أول أهله لحوقا به. وأنذر بالردة وبأن الخلافة بعده ثلاثون ثم تكون ملكا
فكانت كذلك بمدة الحسن بن علي رضي الله عنه. وقال إن هذا الأمر بدأ نبوة ورحمة
ثم يكون رحمة وخلافة ثم يكون ملكا عضوضا ثم يكون عتوا وجبروتا وفسادا
في الأمة. وأخبر بشأن أويس القرني وبأمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها وسيكون
في أمتي ثلاثون كذابا فيهم أربع نسوة. وفي حديث آخر ثلاثون دجالا كذابا
أحدهم الدجال الكذاب كلهم يكذب على الله ورسوله. وقال يوشك أن يكثر فيكم
العجم يأكلون فيئكم ويضربون رقابكم. ولا تقوم الساعة حتى يسوق الناس
بعصاه رجل من قحطان. وقال خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يأتي
بعد ذلك قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا
يوفون. وقال لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه. وقال هلاك أمتي على يدي أغيلمة
من قريش. قال أبو هريرة راويه لو شئت سميتهم لكم بنو فلان وبنو فلان. وأخبر
بظهور القدرية والرافضة وسب آخر هذه الأمة أولها. وقلة الأنصار حتى يكونوا
كالملح في الطعام فلم يزل أمرهم يتبدد حتى لم يبق لهم جماعة وأنهم سيلقون بعده
أثرة. وأخبر بشأن الخوارج وصفتهم والمخدج الذي فيهم وأن سيماهم التحليق ويرى
رعاء الغنم رءوس الناس والعراة الحفاة يتبارون في البنيان وأن تلد الأمة ربتها
وأن قريشا والأحزاب لا يغزونه أبدا وأنه هو يغزوهم. وأخبر بالموتان الذي يكون

بعد فتح بيت المقدس وما وعد من سكنى البصرة وأنهم يغزون في البحر كالملوك على الأسرة
وأن الدين لو كان منوطا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس وهاجت ريح في غزاته فقال
هاجت لموت منافق فلما رجعوا إلى المدينة وجدوا ذلك. وقال لقوم من جلسائه ضرس
أحدكم في النار أعظم من أحد. قال أبو هريرة فذهب القوم يعني ماتوا وبقيت أنا
ورجل فقتل مرتدا يوم اليمامة. وأعلم بالذي غل خرزا من يهود فوجدت في رحله
وبالذي غل الشملة وحيث هي وناقته حين ضلت وكيف تعلقت بالشجرة بخطامها
وبشأن كتاب حاطب إلى أهل مكة وبقضية عمير مع صفوان حين ساره وشارطه
على قتل النبي صلى الله عليه وسلم فلما جاء عمير النبي صلى الله عليه وسلم قاصدا
لقتله وأطلعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأمر والسر أسلم. وأخبر بالمال الذي
تركه عمه العباس عند أم الفضل بعد أن كتمه فقال ما علمه غيري وغيرها فأسلم
وأعلم بأنه سيقتل أبي بن خلف. وفي عتبة بن أبي لهب أنه يأكله كلب الله. وعن
مصارع أهل بدر فكان كما قال. وقال في الحسن إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين
فئتين. ولسعد لعلك تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويستضر بك آخرون. وأخبر
بقتل أهل مؤتة يوم قتلوا وبينهم مسيرة شهر أو أزيد. وبموت النجاشي يوم مات وهو
بأرضه. وأخبر فيروز إذ ورد عليه رسولا من كسرى بموت كسرى ذلك اليوم فلما
حقق فيروز القصة أسلم. وأخبر أبا ذر بتطريده كما كان ووجده في المسجد نائما
فقال له كيف بك إذا أخرجت منه قال أسكن المسجد الحرام قال فإذا أخرجت منه الحديث
وبعيشه وحده وموته وحده. وأخبر أن أسرع أزواجه لحوقا به أطولهن يدا فكانت
زينب لطول يدها بالصدقة. وأخبر بقتل الحسين بالطف وأخرج بيده تربة وقال
فيها مضجعه. وقال في زيد بن صوحان يسبقه عضو منه إلى الجنة فقطعت يده في
الجهاد. وقال في الذين كانوا معه على حراء اثبت فإنما عليك نبي وصديق وشهيد
فقتل علي وعمر وعثمان وطلحة والزبير وطعن سعد. وقال لسراقة كيف بك إذا
ألبست سواري كسرى فلما أتي بهما عمر ألبسهما إياه وقال الحمد لله الذي سلبهما كسرى

وأبنيها سرانه. وقال تبنى مدينة بين دجلة ودجيل وقطربل والصراة تجبى اليها
خزاين الارض يخسف بها يعني بغداد. وقال سيكون في هذه الامة رجل يقال له الوليد
هو شر لهذه الامة من فرعون لقومه وقال لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان دعواهما
واحدة. وقال لعمر في سهيل بن عمرو وعسى أن يقوم مقاما يسرك يا عمر فكان كذلك
قام بمكة مقام أبي بكر يوم بلغهم موت النبي صلى الله عليه وسلم وخطب بنحو
خطبته وثبتهم وقوى بصايرهم. وقال لخالد حين وجهه لأكيدر إنك تجده
يصيد البقر فوجدت هذه الامور كلها في حياته وبعد موته كما قال عليه السلام
إلى ما أخبر به جلساءه من أسرارهم وبواطنهم واطلع عليه من أسرار
المنافقين وكفرهم وقولهم فيه وفي المومنين حتى إن كان بعضهم ليقول لصاحبه
اسكت فوالله لو لم يكن عنده من يخبره لأخبرته حجارة البطحاء وإعلامه بصفة السحر
الذي سحره به لبيد بن الاعصم وكونه في مشط ومشاقة في جف طلع نخلة ذكر
وأنه ألقي في بير ذروان فكان كما قال ووجد على تلك الصفة وإعلامه قريشا بأكل
الارضة ما في صحيفتهم التي تظاهروا بها على بني هاشم وقطعوا بها رحمهم وأنها
أبقت فيها كل اسم لله فوجدوها كما قال. ووصفه لكفار قريش بيت المقدس حين
كذبوه في خبر الاسراء ونعته إياه نعت من عرفه وإعلامهم بعيرهم التي مر
عليها في طريقه وإنذارهم بوقت وصولها فكان ذلك كله كما قال عليه السلام إلى
ما أخبر به من الحوادث التي تكون ولم تأت بعد ومنها ما ظهرت مقدماتها كقوله
عمران بيت المقدس خراب يثرب وخراب يثرب خروج الملحمة وخروج الملحمة فتح
القسطنطينية. ومن أشراط الساعة وآيات حلولها وذكر النشر والحشر وأخبار
الأبرار والفجار والجنة والنار وعرصات القيامة. وبحسب هذا الفصل أن يكون
ديوانا مفردا يشتمل على أجزاء وحده. وفيما أشرنا إليه من نكت الأحاديث التي
ذكرناها كفاية وأكثرها في الصحيح وعند الأئمة.

فصل في عصمة الله تعلى له من الناس وكفايته من آذاه

قال الله تعلى والله
يعصمك من الناس. وقال تعلى واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا. وقال تعلى أليس
الله بكاف عبده قيل بكاف محمدا أعداءه المشركين وقيل غير هذا. وقال تعلى إنا
كفيناك المستهزئين وقال تعلى وإذ يمكر بك الذين كفروا الآية. أخبرنا القاضي
الشهيد أبو علي الصدفي قراءة عليه والحافظ الفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري
قالا حدثنا أبو الحسين الصيرفي قال حدثنا أبو يعلى البغدادي حدثنا أبو علي السنجي
حدثنا أبو العباس المروزي حدثنا أبو عيسى الحافظ حدثنا عبد بن حميد حدثنا مسلم
ابن إبراهيم حدثنا الحارث بن عبيد عن سعيد الجريري عن عبد الله بن شقيق عن عائشة
قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية والله يعصمك من
الناس فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة فقال لهم يا أيها الناس انصرفوا
فقد عصمني ربي عز وجل. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل منزلا
اختار له أصحابه شجرة يقيل تحتها فأتاه أعرابي فاخترط سيفه فقال من يمنعك مني
فقال الله فرعدت يد الأعرابي وسقط سيفه وضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه
فنزلت الآية. وقد رويت هذه القصة في الصحيح وأن غورث بن الحارث صاحب هذه
القصة وأن النبي صلى الله عليه وسلم عفا عنه فرجع إلى قومه وقال جئتكم من عند خير
الناس. وقد حكيت مثل هذه الحكاية أنها جرت له يوم بدر وقد انفرد من أصحابه لقضاء حاجته
فتبعه رجل من المنافقين وذكر مثله. وقد روي أنه وقع له مثلها في غزوة غطفان
مع رجل اسمه دعثور بن الحارث وأن الرجل أسلم فلما رجع إلى قومه الذين أغروه وكان
سيدهم وأشجعهم قالوا له أين ما كنت تقول وقد أمكنك فقال إني نظرت إلى رجل
أبيض طويل دفع في صدري فوقعت لظهري وسقط السيف فعرفت أنه ملك وأسلمت
قيل وفيه نزلت يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا
إليكم أيديهم الآية. وفي رواية الخطابي أن غورث بن الحارث المحاربي أراد أن يفتك
بالنبي صلى الله عليه وسلم فلم يشعر به إلا وهو قائم على رأسه منتضيا سيفه فقال
اللهم اكفنيه بما شئت فانكب من وجهه من زلخة زلخها بين كتفيه وندر سيفه

رضي الله عنه

ثم قال

بذي أمر

من بدر، وأنزلت في رجع الظهر وقيل في قصته غير هذا وقد ذكر أن فيه نزلت يا أيها الذين
آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم الآية. وقيل كان النبي صلى الله عليه وسلم
يخاف قريشا فلما نزلت هذه الآية استلقى ثم قال من شاء فليخذلني. وذكر عبد بن
حميد قال كانت حمالة الحطب تضع العضاة وهي جمر على طريق رسول الله صلى الله
عليه وسلم فكأنما يطؤها كثيبا أهيلا. وذكر ابن إسحاق عنها أنها لما بلغها نزول تبت
يدا أبي لهب وذكرها بما ذكرها الله تعالى مع زوجها من الذم أتت رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو جالس في المسجد ومعه أبو بكر وفي يدها فهر من حجارة فلما وقفت
عليهما لم تر إلا أبا بكر وأخذ الله ببصرها عن نبيه عليه السلام فقالت يا أبا بكر
أين صاحبك فقد بلغني أنه يهجوني والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه.
وعن الحكم بن أبي العاص تواعدنا على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا رأيناه
سمعنا صوتا خلفنا ما ظننا أنه بقي بتهامة أحد فوقعنا مغشيا علينا فما أفقنا
حتى قضى صلاته ورجع إلى أهله ثم تواعدنا ليلة أخرى فجئنا حتى إذا رأيناه جاءت
الصفا والمروة فحالت بيننا وبينه. وعن عمر تواعدت أنا وأبو جهم بن حذيفة ليلة
قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئنا منزله فسمعنا له فافتتح وقرأ الحاقة ما الحاقة
إلى فهل ترى لهم من باقية فضرب أبو جهم على عضد عمر وقال انج وفرا هاربين
فكانت من مقدمات إسلام عمر. ومنه العبرة المشهورة والكفاية التامة عندما
أخافته قريش واجتمعت على قتله وبيتوه فخرج عليهم من بيته فقام على رؤوسهم
وقد ضرب الله على أبصارهم وذر التراب على رؤوسهم وخلص منهم وحمايته عن
رؤيتهم في الغار بما هيأ الله له من الآيات ومن العنكبوت الذي نسج عليه حتى
قال أمية بن خلف حين قالوا ندخل الغار ما أربكم فيه وعليه من نسج العنكبوت
ما أرى أنه قبل أن يولد محمد ووقفت حمامتان على فم الغار فقالت قريش لو كان فيه أحد
لما كانت هناك الحمام. وقصته مع سراقة بن مالك بن جعشم حين الهجرة وقد
جعلت قريش فيه وفي أبي بكر الجعائل فأنذر به فركب فرسه واتبعه حتى

من العضاة

رضي الله عنه

رضي الله عنه
واجتمعت

أنه

إذا قرب منه دعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم فساخت قوائم فرسه فخر عنها
واستقسم بالأزلام فخرج له ما يكره ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة النبي وهو لا
يلتفت وأبو بكر يلتفت وقال للنبي أتينا فقال لا تحزن إن الله معنا فساخت ثانية
إلى ركبتيها وخر عنها فزجرها فنهضت ولقوائمها مثل الدخان فناداهم بالأمان
فكتب له النبي صلى الله عليه وسلم أمانا كتبه ابن فهيرة وقيل أبو بكر وأخبرهم
بالأخبار وأمره النبي صلى الله عليه وسلم ألا يترك أحدا يلحق بهم فانصرف يقول للناس
كفيتم ما ها هنا وقيل بل قال لهما أراكما دعوتما علي فادعوا لي فنجا ووقع في
نفسه ظهور النبي صلى الله عليه وسلم. وفي خبر آخر أن راعيا عرف خبرهما
فخرج يشتد يعلم قريشا فلما ورد مكة ضرب الله على قلبه فما يدري ما يصنع وأنسي
ما خرج له حتى رجع إلى موضعه. وجاءه فيما ذكر ابن إسحاق وغيره أبو جهل بصخرة
وهو ساجد وقريش ينظرون ليطرحها عليه فلزقت بيده ويبست يداه إلى عنقه
وأقبل يرجع القهقرى إلى خلفه ثم سأله أن يدعو له ففعل فانطلقت يداه وكان قد تواعد
مع قريش بذلك وحلف لئن رآه ليدمغنه فسألوه عن شأنه فذكر أنه عرض لي دونه
فحل ما رأيت مثله قط هم بي أن يأكلني فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذاك جبريل
لو دنا لأخذه. وذكر السمرقندي أن رجلا من بني المغيرة أتى النبي صلى الله عليه وسلم
ليقتله فطمس الله على بصره فلم ير النبي صلى الله عليه وسلم وسمع قوله فرجع إلى
أصحابه فلم يرهم حتى نادوه. وذكر أن في هاتين القصتين نزلت إنا جعلنا في
أعناقهم أغلالا. ومن ذلك ما ذكره ابن إسحاق في قصته إذ خرج إلى بني قريظة
في أصحابه فجلس إلى جدار بعض آطامهم فانبعث عمرو بن جحاش أحدهم ليطرح
عليه رحا فقام النبي صلى الله عليه وسلم فانصرف إلى المدينة وأعلمهم بقصتهم وقد
قيل إن قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم في هذه القصة
نزلت. وحكى السمرقندي أنه خرج إلى بني النضير يستعين في عقل الكلابيين
اللذين قتل عمرو بن أمية فقال له حيي بن أخطب اجلس يا أبا القاسم حتى نطعمك

صلى الله عليه وسلم

ركبتيها

أعرابيا

ونحكيه ما سألتنا جلوس النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر وعمر وتوامر جيبي
معهم على قتله فأعلم جبريل بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فتحول من مكانه فقام كأنه يريد
حاجته حتى دخل المدينة. وذكر أهل التفسير ومعنى الحديث عن أبي هريرة أن أبا
جهل وعد قريشا لئن رأى محمدا يصلي ليطأن رقبته فلما صلى النبي صلى الله عليه وسلم
أعلموه فأقبل فلما قرب منه ولى هاربا ناكصا على عقبيه متقيا بيديه فسئل
فقال لما دنوت منه أشرفت على خندق مملوء نارا كدت أهوي فيه وأبصرت هولا
عظيما وخفق أجنحة قد ملأت الأرض فقال عليه السلام تلك الملائكة لو دنا
لاختطفته عضوا عضوا ثم أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم كلا إن الإنسان
ليطغى إلى آخر السورة. ويروى أن رجلا يعرف بشيبة أدركه يوم حنين وكان
حمزة قد قتل أباه وعمه فقال اليوم أدرك ثأري من محمد ورفع سيفه ليصبه عليه
وأتاه من خلفه لما اختلط الناس قال فلما دنوت منه ارتفع إلي شواظ من نار أسرع
من البرق فوليت هاربا وأحس بي النبي صلى الله عليه وسلم فدعاني فوضع يده على
صدري وهو أبغض الخلق إلي فما رفعها إلا وهو أحب الخلق إلي. وقال لي ادن فقاتل
فتقدمت أمامه أضرب بسيفي وأقيه بنفسي ولو لقيت أبي تلك الساعة لأوقعت به
دونه. وعن فضالة بن عمير أردت قتل النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح وهو يطوف
بالبيت فلما دنوت منه قال أفضالة قلت نعم قال ما كنت تحدث به نفسك قلت لا شيء
فضحك واستغفر لي ووضع يده على صدري فسكن قلبي فوالله ما رفعها حتى ما
خلق الله شيئا أحب إلي منه. ومن مشهور ذلك خبر عامر بن الطفيل وأربد بن
قيس حين وفدا على النبي صلى الله عليه وسلم وكان عامر قال له أنا أشغل عنك وجه
محمد فاضربه أنت فلم يره فعل شيئا فلما كلمه في ذلك قال له والله ما هممت أن أضربه
إلا وجدتك بيني وبينه أفأضربك. ومن عصمته تعالى له أن كثيرا من اليهود
والكهنة أنذروا به وعينوه لقريش وأخبروهم بسطوته بهم وحضوهم على قتله فعصمه
الله تعالى حتى بلغ فيه أمره. ومن ذلك نصره بالرعب أمامه مسيرة شهر كما قال عليه

صلى الله عليه وسلم

السلام. **فصل** ومن معجزاته الباهرة ما جمعه الله له من المعارف والعلوم وخصه
به من الاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين ومعرفته بأمور شرائعه وقوانين دينه
وسياسة عباده ومصالح أمته وما كان في الأمم قبله وقصص الأنبياء والرسل والجبابرة
والقرون الماضية من لدن آدم عليه السلام إلى زمنه وحفظ شرائعهم وكتبهم ووعي
سيرهم وسرد أنبائهم وأيام الله فيهم وصفات أعيانهم واختلاف آرائهم والمعرفة بمددهم
وأعمارهم وحكم حكمائهم ومحاجة كل أمة من الكفرة ومعارضة كل فرقة من الكتابيين
بما في كتبهم وإعلامهم بأسرارها ومخبآت علومها وإخبارهم بما كتموه من ذلك وغيروه
إلى الاحتواء على لغات العرب وغريب ألفاظ فرقها والإحاطة بضروب فصاحتها والحفظ
لأيامها وأمثالها وحكمها ومعاني أشعارها والتخصيص بجوامع كلمها إلى المعرفة بضرب
الأمثال الصحيحة والحكم البينة لتقريب التفهيم للغامض والتبيين للمشكل إلى تمهيد
قواعد الشرع الذي لا تناقض فيه ولا تخاذل مع اشتمال شريعته على محاسن الأخلاق
ومحامد الآداب وكل شيء مستحسن مفضل لم ينكر منه ملحد ذو عقل سليم شيئا
إلا من جهة الخذلان بل كل جاحد له وكافر من الجاهلية به إذا سمع ما يدعو إليه صوبه
واستحسنه دون طلب إقامة برهان عليه ثم ما أحل لهم من الطيبات وحرم عليهم من
الخبائث وصان به أنفسهم وأعراضهم وأموالهم من المعاقبات والحدود عاجلا والتخويف
بالنار آجلا إلى الاحتواء على ضروب العلوم وفنون المعارف كالطب والعبارة والفرائض
والحساب والنسب وغير ذلك من العلوم مما اتخذ أهل هذه المعارف كلامه عليه السلام
فيها قدوة وأصولا في علمهم كقوله عليه السلام الرؤيا لأول عابر وهي على رجل طائر
وقوله عليه السلام الرؤيا ثلاث رؤيا حق ورؤيا يحدث بها الرجل نفسه ورؤيا تحزين
من الشيطان. وقوله إذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب. وقوله عليه السلام
أصل كل داء البردة. وما روي عنه في حديث أبي هريرة من قوله المعدة حوض البدن
والعروق إليها واردة وإن كان هذا حديثا لا نصححه لضعفه وكونه موضوعا تكلم
عليه الدارقطني. وقوله خير ما تداويتم به السعوط واللدود والحجامة والمشي

عليه السلام

وخير الحجامة يوم سبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين. وفي العود الهندي سبعة أشفية. وقوله عليه السلام ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن إلى قوله فإن كان لا بد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس. وقوله وقد سئل عن سبإ أرجل هو أم امرأة أو أرض فقال رجل ولد عشرة تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة الحديث بطوله. وكذلك جوابه في نسب قضاعة وغير ذلك مما اضطرت العرب على شغلها بالنسب إلى سؤاله عما اختلفوا فيه من ذلك. وقوله حمير رأس العرب ونابها ومذحج هامتها وغلصمتها والأزد كاهلها وجمجمتها وهمدان غاربها وذروتها. وقوله إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. وقوله في الحوض زواياه سواء. وقوله في حديث الذكر وإن الحسنة بعشر أمثالها فتلك مائة وخمسون على اللسان وألف وخمسمائة في الميزان. وقوله نعم موضع الحمام هذا. وقوله ما بين المشرق والمغرب قبلة. وقوله لعيينة أو الأقرع أنا أفرس بالخيل منك. وقوله لكاتبه ضع القلم على أذنك فإنه أذكر للمملي. هذا مع أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يكتب ولكنه أوتي علم كل شيء حتى قد وردت آثار بمعرفته حروف الخط وحسن تصويرها كقوله لا تمدوا بسم الله الرحمن الرحيم رواه ابن شعبان من طريق ابن عباس. وقوله في الحديث الآخر الذي يروى عن معاوية أنه كان يكتب بين يديه عليه السلام فقال له ألق الدواة وحرف القلم وأقم الباء وفرق السين ولا تعور الميم وحسن الله ومد الرحمن وجود الرحيم. وهذا وإن لم تصح الرواية أنه عليه السلام كتب فلا يبعد أن يرزق علم هذا ويمنع الكتابة والقراءة. وأما علمه عليه السلام بلغات العرب وحفظه معاني أشعارها فأمر مشهور قد نبهنا على بعضه أول الكتاب. وكذلك حفظه لكثير من لغات الأمم كقوله في الحديث سنه سنه وهي حسنة بالحبشية. وقوله ويكثر الهرج وهو القتل بها. وقوله في حديث أبي هريرة أشكنب درد أي وجع البطن بالفارسية. إلى غير ذلك مما لا يعلم بعض هذا ولا يقوم به ولا ببعضه إلا من مارس الدرس والعكوف على الكتب ومثافنة أهلها عمره وهو رجل كما قال الله تعالى أمي لم يكتب ولم يقرأ

ولا عرف بصحبة من هذه صفته ولا نشأ بين قوم لهم علم ولا قراءة لشيء من هذه الأمور ولا عرف هو قبل بشيء منها قال الله تعالى وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك الآية. إنما كانت غاية معارف العرب النسب وأخبار أوائلها والشعر والبيان وإنما حصل ذلك لهم بعد التفرغ لعلم ذلك والاشتغال بطلبه ومباحثة أهله عنه. وهذا العلم نقطة من بحر علمه صلى الله عليه وسلم ولا سبيل إلى جحد الملحد لشيء مما ذكرناه ولا وجد الكفرة حيلة في دفع ما نصصناه إلا قولهم أساطير الأولين وإنما يعلمه بشر فرد الله تعالى قولهم بقوله لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين. ثم ما قالوه مكابرة العيان فإن الذي نسبوا تعليمه إليه إما هو سلمان الفارسي أو العبد الرومي وسلمان إنما عرفه بعد الهجرة ونزول الكثير من القرآن وظهور ما لا ينعد من الآيات. وأما الرومي فكان أسلم وكان يقرأ على النبي عليه السلام. واختلف في اسمه وقيل بل كان النبي عليه السلام يجلس عنده عند المروة وكلاهما أعجمي اللسان وهم الفصحاء اللد والخطباء اللسن قد عجزوا عن معارضة ما أتى به والإتيان بمثله بل عن فهم وصفه وصورة تأليفه ونظمه فكيف بأعجمي ألكن. نعم وقد كان سلمان أو بلعام الرومي أو يعيش أو جبر أو يسار على اختلافهم في اسمه بين أظهرهم يكلمونهم مدى أعمارهم فهل حكي عن واحد منهم شيء من مثل ما كان يجيء به محمد عليه السلام وهل عرف واحد منهم بمعرفة بشيء من ذلك وما منع العدو حينئذ على كثرة عدده ودؤوب طلبه وقوة حسده أن يجلس إلى هذا فيأخذ عنه أيضا ما يعارض به ويتعلم منه ما يحتج به على شيعته كفعل النضر بن الحارث بما كان يمخرق به من أخبار كتبه. ولا غاب النبي صلى الله عليه وسلم عن قومه ولا كثرت اختلافاته إلى بلاد أهل الكتاب فيقال إنه استمد منهم بل لم يزل بين أظهرهم يرعى في صغره وشبابه على عادة أبنائهم ثم لم يخرج عن بلادهم إلا في سفرة أو سفرتين لم يطل فيهما مكثه مدة يحتمل فيها تعليم القليل فكيف الكثير بل كان في سفره في صحبة قومه ورفاقه عشيرته لم يغب عنهم ولا خالف حاله مدة مقامه بمكة من تعليم واختلاف إلى حبر أو قس أو منجم أو كاهن بل لو

كان هذا بغير كلام لكان بحيث ما أتى به من معجزات القرآن قاطعا لكل عذر، ومدحضا
لكل شبهة، ومجليا لكل أمر. **فصل** ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم وكرامته
وباهر آياته أنباؤه مع الملائكة والجن، وإمداد الله له بالملائكة، وطاعة الجن له
ورؤية كثير من أصحابه لهم. قال الله تعالى: وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه الآية.
وقال تعالى: إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا. وقال تعالى: إذ
تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم الآية. وقال: وإذ صرفنا إليك
نفرا من الجن يستمعون القرآن الآية. حدثنا سفيان بن العاصي الفقيه سماعي عليه
حدثنا أبو الليث السمرقندي قال حدثنا عبد الغافر الفارسي حدثنا أبو أحمد الجلودي
حدثنا ابن سفيان حدثنا مسلم حدثنا عبيد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا شعبة
عن سليمان الشيباني سمع زر بن حبيش عن عبد الله قال: لقد رأى من آيات ربه الكبرى،
قال: رأى جبريل في صورته له ست مائة جناح. والخبر في محادثته مع جبريل وإسرافيل
وغيرهم من الملائكة وما شاهده من كثرتهم وعظم صور بعضهم ليلة الإسراء
مشهور. وقد رآهم بحضرته جماعة من أصحابه في مواطن مختلفة، فرأى أصحابه جبريل
في صورة رجل يسأله عن الإيمان والإسلام. ورأى ابن عباس وأسامة وغيرهما
عنده جبريل في صورة دحية. ورأى سعد على يمينه ويساره جبريل وميكائيل في صورة
رجلين عليهما ثياب بيض، ومثله عن غير واحد. وسمع بعضهم زجر الملائكة خيلها
يوم بدر، وبعضهم رأى تطاير الرؤوس من الكفار ولا يرون الضارب. ورأى أبو سفيان
ابن الحارث يومئذ رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والأرض ما يقوم لها شيء. وقد
كانت الملائكة تصافح عمران بن الحصين. وأرى النبي عليه السلام حمزة جبريل في
الكعبة فخر مغشيا عليه. ورأى عبد الله بن مسعود الجن ليلة الجن وسمع كلامهم وشبههم
برجال الزط. وذكر ابن سعد أن مصعب بن عمير لما قتل يوم أحد أخذ الراية
ملك على صورته، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: تقدم يا مصعب، فقال له الملك:
لست بمصعب، فعلم أنه ملك صلى الله عليه وسلم. وقد ذكر غير واحد من المصنفين عن

لأقرب الخلق مكانا، وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتي هذه. فقال
الملك: الله أكبر الله أكبر، فقيل له من وراء الحجاب: صدق عبدي أنا أكبر أنا أكبر.
ثم قال الملك: أشهد أن لا إله إلا الله، فقيل له من وراء الحجاب: صدق عبدي أنا لا إله
إلا أنا. وذكر مثل هذا في بقية الأذان إلا أنه لم يذكر جوابا عن قوله حي على
الصلاة حي على الفلاح. **وقال**: ثم أخذ الملك بيد محمد فقدمه فأم أهل السماء
فيهم آدم ونوح. **قال** أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين راويه: أكمل الله لمحمد صلى الله
عليه وسلم الشرف على أهل السماوات والأرض. **قال القاضي** رضي الله عنه:
ما في هذا الحديث من ذكر الحجاب فهو في حق المخلوق لا في حق الخالق، فهم المحجوبون
والباري جل اسمه منزه عما يحجبه، إذ الحجب إنما تحيط بمقدر محسوس، ولكن
حجبه على أبصار خلقه وبصائرهم وإدراكاتهم بما شاء وكيف شاء ومتى شاء،
كقوله: كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. فقوله في هذا الحديث الحجاب
وإذ خرج ملك من الحجاب يجب أن يقال إنه حجاب حجب به من وراءه من
ملائكته عن الاطلاع على ما دونه من سلطانه وعظمته وعجائب ملكوته وجبروته.
ويدل عليه من الحديث قول جبريل عن الملك الذي خرج من ورائه: إن هذا الملك
ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتي هذه، فدل أن هذا الحجاب لم يختص بالذات. ويدل
عليه قول كعب في تفسير سدرة المنتهى قال: إليها ينتهي علم الملائكة وعندها
يجدون أمر الله لا يجاوزها علمهم. **وأما** قوله الذي يلي الرحمن فيحمل على حذف
المضاف، أي يلي عرش الرحمن، أو أمرا ما من عظيم آياته أو مبادئ حقائق معارفه
مما هو أعلم به، كما قال تعالى: واسأل القرية، أي أهلها. وقوله فقيل من وراء
الحجاب: صدق أنا أكبر، فظاهره أنه سمع في هذا الموطن كلام الله، ولكن
من وراء حجاب، كما قال: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء
حجاب، أي وهو لا يراه، حجب بصره عن رؤيته. فإن صح القول بأن محمدا صلى الله
عليه وسلم رأى ربه فيحتمل أنه في غير هذا الموطن بعد هذا أو قبله رفع الحجاب

عن بصره حتى رآه والله أعلم **فصل** ثم اختلف السلف والعلماء
هل كان إسراؤه بروحه أو جسده على ثلاث مقالات فذهبت طائفة إلى أنه إسراء
بالروح وأنه رؤيا منام مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحي وإلى هذا ذهب
معاوية وحكي عن الحسن والمشهور عنه خلافه وإليه أشار محمد بن إسحاق واحتجوا ب
قوله وما جعلنا الرؤيا التي أريناك وما حكوا عن عائشة ما فقدت جسد رسول
الله صلى الله عليه وسلم وقوله بينا أنا نائم وقول أنس وهو نائم في المسجد الحرام وذكر
القصة ثم قال في آخرها فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام ۝ وذهب معظم السلف
والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفي اليقظة وهذا هو الحق وهو قول ابن عباس
وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبي هريرة ومالك بن صعصعة وأبي حبة
البدري وابن مسعود والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وابن المسيب وابن شهاب
وابن زيد والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج وهو دليل
قول عائشة وهو قول الطبري وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين وهو قول أكثر
المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين ۝ وقالت طائفة كان
الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس وإلى السماء بالروح واحتجوا بقوله سبحان
الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فجعل إلى المسجد الأقصى
غاية الإسراء الذي وقع التعجب فيه بعظيم القدرة والتمدح بتشريف النبي محمد
صلى الله عليه وسلم به وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه قال هؤلاء ولو كان
الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره فيكون أبلغ في المدح ۝ ثم
اختلفت هذه الفرقتان هل صلى ببيت المقدس أم لا ففي حديث أنس وغيره ما
تقدم من صلاته فيه وأنكر ذلك حذيفة بن اليمان وقال والله ما زالا عن ظهر
البراق حتى رجعا **قال القاضي رضي الله عنه** والحق من هذا والصحيح
إن شاء الله أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها وعليه تدل الآية
وصحيح الأخبار والاعتبار ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند

عمر بن الخطاب أنه قال بينا نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل شيخ بيده
عصا فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فرد عليه وقال نغمة الجن من أنت قال أنا هامة بن
الهيم بن لاقيس بن إبليس فذكر أنه لقي نوحا ومن بعده في حديث طويل وأن النبي صلى
الله عليه وسلم علمه سورا من القرآن ۝ وذكر الواقدي قتل خالد عند هدمه العزى
للسوداء التي خرجت له ناشرة شعرها عريانة وقال عليه السلام إن شيطانا تفلت البارحة
ليقطع علي صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري
المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان رب اغفر لي وهب لي ملكا
لا ينبغي لأحد من بعدي الآية فرده الله خاسئا وهذا باب واسع **فصل** ومن دلائل
نبوته وعلامات رسالته ما ترادفت به الأخبار عن الرهبان والأحبار وعلماء أهل الكتاب
من صفته وصفة أمته واسمه وعلاماته وذكر الخاتم الذي بين كتفيه وما وجد من
ذلك في أشعار الموحدين المتقدمين من شعر تبع والأوس بن حارثة وشعر كعب
ابن لؤي وسفيان بن مجاشع وقس بن ساعدة وما ذكر عن سيف بن ذي يزن وغيرهم
وما عرف به من أمره زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعثكلان الحميري وعلماء
يهود وشامول عالمهم صاحب تبع من صفته وخبره وما ألفي من ذلك في التوراة والإنجيل
مما قد جمعه العلماء وبينوه ونقله عنهما ثقات من أسلم منهم مثل ابن سلام وبني سعية
وابن يامين ومخيريق وكعب وأشباههم ممن أسلم من علماء يهود وبحيرا ونسطور
وصاحب بحيرا وراهب بصرى ونصارى الحبشة وضغاطر وأسقف الشام والجارود
وسلمان والنجاشي ونصارى الحبشة وأساقف نجران وغيرهم ممن أسلم من علماء النصارى
وقد اعترف بذلك هرقل وصاحب رومة عالما النصرانية ورئيساهم ومقوقس
صاحب مصر والشيخ صاحبه وابن صوريا وابن أخطب وأخوه وكعب بن أسد
والزبير بن باطيا وغيرهم من علماء اليهود ممن حمله الحسد والنفاسة على البقاء على
الشقاوة والأخبار في هذا كثيرة لا تنحصر وقد قرع أسماع يهود والنصارى بما ذكر
أنه في كتبهم من صفته وصفة أصحابه واحتج عليهم بما انطوت عليه من ذلك صحفهم

وذمهم بتحريف ذلك وكتمانه وليهم ألسنتهم ببيان أمره ودعوتهم المباهلة على الكاذب
فما منهم إلا من نفر عن معارضته وإبداء ما ألزمهم من كتبهم إظهاره، ولو وجدوا خلاف
قوله لكان إظهاره أهون عليهم من بذل النفوس والأموال والأبناء وتخريب الديار ونبذ
القتال وقد قال لهم قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين إلى ما أنذر به الكهان
مثل شافع بن كليب وشق وسطيح وسواد بن قارب وخنافر وأفعى نجران وجذل بن
جذل الكندي وابن خلصة الدوسي وسعدى بنت كريز وفاطمة بنت النعمان ومن
لا يعد كثرة إلى ما ظهر على ألسنة الأصنام من نبوته وحلول وقت رسالته وسمع
من هواتف الجان ومن ذبائح النصب وأجواف الصور وما وجد من اسم النبي عليه
السلام والشهادة له بالرسالة مكتوبا في الحجارة والقبور بالخط القديم ما أكثره مشهور
وما أسلم من أسلم بسبب ذلك معلوم مذكور.

فصل

ومن ذلك ما ظهر من
الآيات عند مولده وما حكته أمه ومن حضره من العجائب وكونه رافعا رأسه عند
ما وضعته شاخصا ببصره إلى السماء وما رأته من النور الذي خرج معه عند ولادته وما
رأته إذ ذاك أم عثمان بن أبي العاص من تدلي النجوم وظهور النور عند ولادته حتى
ما تنظر إلا النور وقول الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف لما سقط عليه السلام على يدي واستهل
سمعت قائلا يقول رحمك الله وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى قصور
الروم وما تعرفت به حليمة وزوجها ظئراه من بركته ودرور لبنها له ولبن شارفها
وخصب غنمها وسرعة شبابه وحسن نشأته وما جرى من العجائب ليلة مولده من ارتجاج
إيوان كسرى وسقوط شرفاته وغيض بحيرة طبرية وخمود نار فارس وكان لها
ألف عام لم تخمد وأنه كان إذا أكل مع عمه أبي طالب وآله وهو صغير شبعوا ورووا
فإذا غاب فأكلوا في غيبته لم يشبعوا، وكان سائر ولد أبي طالب يصبحون شعثا
ويصبح صلى الله عليه وسلم صقيلا دهينا كحيلا قالت أم أيمن حاضنته ما رأيته صلى
الله عليه وسلم يشكو جوعا ولا عطشا صغيرا ولا كبيرا. ومن ذلك حراسة السماء
بالشهب وقطع رصد الشياطين ومنعهم استراق السمع وما نشأ عليه من بغض الأصنام

والعفة عن أمور الجاهلية وما خصه الله به من ذلك وحماه حتى في ستره في الخبر
المشهور عند بناء الكعبة إذ أخذ إزاره ليجعله على عاتقه ليحمل عليه الحجارة وتعرى فسقط
إلى الأرض حتى رد إزاره عليه فقال له عمه ما بالك فقال إني نهيت عن التعري. ومن ذلك
إظلال الله تعالى له بالغمام في سفره وفي رواية أن خديجة ونساءها رأينه لما قدم وملكان
يظلانه فذكرت ذلك لميسرة فأخبرها أنه رأى ذلك منذ خرج معه في سفره. وقد روي
أن حليمة رأت غمامة تظله وهو عندها وروي ذلك عن أخيه من الرضاعة. ومن ذلك
أنه صلى الله عليه وسلم نزل في بعض أسفاره قبل مبعثه تحت شجرة يابسة فاعشوشب ما
حولها وأينعت هي فأشرقت وتدلت عليه أغصانها بمحضر من رآه. وميل فيء الشجرة
إليه في الخبر الآخر حتى أظلته. وما ذكر من أنه كان لا ظل لشخصه في شمس ولا قمر
لأنه كان نورا وأن الذباب كان لا يقع على جسده ولا ثيابه. ومن ذلك تحبيب الخلوة
إليه حتى أوحي إليه ثم إعلامه بموته ودنو أجله وأن قبره في المدينة وفي بيته
وأن بين بيته ومنبره روضة من رياض الجنة وتخيير الله له عند موته وما اشتمل عليه
حديث الوفاة من كراماته وتشريفه وصلاة الملائكة على جسده على ما رويناه في
بعضها واستئذان ملك الموت عليه ولم يستأذن على غيره قبله وندائهم الذي سمعوه
أن لا تنزعوا القميص عنه عند غسله. وما روي من تعزية الخضر والملائكة عليهم السلام
أهل بيته عند موته إلى ما ظهر على أصحابه من كراماته وبركته في حياته ومماته كاستسقاء
عمر بعمه وتبرك غير واحد بذريته.

فصل

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه
قد أتينا في هذا الباب على نكت من معجزاته واضحة وجمل من علامات نبوته مقنعة في
واحد منها الكفاية والغنية وتركنا الكثير سوى ما ذكرنا واقتصرنا من الأحاديث
الطوال على عين الغرض وفص المقصد ومن كثير الأحاديث وغريبها على ما صح واشتهر
إلا يسيرا من غريبه مما ذكره مشاهير الأئمة وحذفنا الإسناد في جمهورها طلبا
للاختصار وبحسب هذا الباب لو تقصي أن يكون ديوانا جامعا يشتمل على مجلدات
عدة. ومعجزات نبينا أظهر من سائر معجزات الرسل بوجهين أحدهما كثرتها وأنه

لم يؤت نبي من معجزة إلا وعند نبينا مثلها أو ما هو أبلغ منها. وقد نبه الناس على ذلك
فإن أردته فتأمل فصول هذا الباب ومعجزات من تقدم من الأنبياء تقف على ذلك إن شاء الله
وأما كونها كثيرة فهذا القرآن وكله معجز وأقل ما يقع الإعجاز فيه عند بعض أئمة
المحققين سورة إنا أعطيناك الكوثر أو آية في قدرها. وذهب بعضهم إلى أن كل آية
منه كيف كانت معجزة وزاد آخرون أن كل جملة منتظمة منه معجزة وإن كانت من
كلمة أو كلمتين والحق ما ذكرناه أولا لقوله تعالى فأتوا بسورة من مثله فهو أقل
ما تحداهم به مع ما ينصر هذا من نظر وتحقيق يطول بسطه. وإذا كان هذا ففي
القرآن من الكلمات نحو من سبعة وسبعين ألف كلمة ونيف على عدد بعضهم وعدد
كلمات إنا أعطيناك الكوثر عشر كلمات فيتجزأ القرآن على نسبة عدد إنا أعطيناك
الكوثر أزيد من سبعة آلاف جزء كل واحد منها معجز في نفسه ثم إعجازه كما تقدم
بوجهين طريق بلاغته وطريق نظمه فصار في كل جزء من هذا العدد معجزتان فتضاعف
العدد من هذا الوجه. ثم فيه وجوه إعجاز أخر من الأخبار بعلوم الغيب فقد يكون
في السورة الواحدة من هذه التجزئة الخبر عن أشياء من الغيب كل خبر منها بنفسه
معجز فتضاعف العدد كرة أخرى. ثم وجوه الإعجاز الأخر التي ذكرناها توجب
التضعيف هذا في حق القرآن فلا يكاد يأخذ العد معجزاته ولا يحوي الحصر براهينه
ثم الأحاديث الواردة والأخبار الصادرة عنه عليه السلام في هذه الأبواب وعما دل
على أمره مما أشرنا إلى جمله يبلغ نحوا من هذا. الوجه الثاني وضوح معجزاته
صلى الله عليه وسلم فإن معجزات الرسل كانت بقدر همم أهل زمانهم وبحسب الفن
الذي سما فيه قرنه. فلما كان زمن موسى غاية علم أهله السحر بعث إليهم موسى بمعجزة
تشبه ما يدعون قدرتهم عليه فجاءهم منها ما خرق عادتهم ولم يكن في قدرتهم وأبطل
سحرهم. وكذلك زمن عيسى أغنى ما كان الطب وأوفر ما كان أهله فجاءهم أمر
لا يقدرون عليه وأتاهم ما لم يحتسبوه من إحياء الميت وإبراء الأكمه والأبرص دون معالجة
ولا طب. وهكذا سائر معجزات الأنبياء. ثم إن الله بعث محمدا وجملة معارف العرب

أزمانهم

إلى آخ

عليه السلام

عليه السلام

المؤتى

صلى الله عليه وسلم

وعلومها أربعة. البلاغة والشعر والخبر والكهانة فأنزل عليه القرآن الخارق لهذه الأربعة
فصول من الفصاحة والإيجاز والبلاغة الخارجة عن نمط كلامهم. ومن النظم الغريب
والأسلوب العجيب الذي لم يهتدوا في المنظوم إلى طريقه ولا علموا في أساليب الأوزان
منهجه. ومن الأخبار عن الكوائن والحوادث والأسرار والمخبآت والضمائر فتوجد على
ما كانت ويعترف المخبر عنها بصحة ذلك وصدقه وإن كان أعدى العدو فأبطل الكهانة
التي تصدق مرة وتكذب عشرا ثم اجتثها من أصلها برجم الشهب ورصد النجوم
وجاء من الأخبار عن القرون السالفة وأنباء الأنبياء والأمم البائدة والحوادث الماضية
ما يعجز من تفرغ لهذا العلم عن بعضه على الوجوه التي بسطناها وبينا المعجز فيها
ثم بقيت هذه المعجزة الجامعة لهذه الوجوه إلى الفصول الأخر التي ذكرناها في معجزات
القرآن ثابتة إلى يوم القيامة بينة الحجة لكل أمة تأتي لا تخفى وجوه ذلك على من نظر
فيه وتأمل وجوه إعجازه. إلى ما أخبر به من الغيوب على هذه السبيل فلا يمر عصر ولا زمن
إلا ويظهر فيه صدقه بظهور مخبره على ما أخبر فيتجدد الإيمان ويتظاهر البرهان
وليس الخبر كالعيان وللمشاهدة زيادة في اليقين والنفس أشد طمأنينة إلى عين
اليقين منها إلى علم اليقين وإن كان كل عندها حقا. وسائر معجزات الرسل انقرضت
بانقراضهم وعدمت بعدم ذواتها ومعجزة نبينا لا تبيد ولا تنقطع وآياته تتجدد
ولا تضمحل ولهذا أشار عليه السلام بقوله فيما حدثنا القاضي الشهيد أبو علي
حدثنا القاضي أبو الوليد حدثنا أبو ذر حدثنا أبو محمد وأبو إسحاق وأبو الهيثم قالوا
حدثنا الفربري حدثنا البخاري حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا الليث عن سعيد
عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من الأنبياء نبي إلا
أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي
فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة. هذا معنى الحديث عند بعضهم وهو الظاهر والصحيح
إن شاء الله. وذهب غير واحد من العلماء في تأويل هذا الحديث وظهور معجزة نبينا
عليه السلام إلى معنى آخر من ظهورها بكونها وحيا وكلاما لا يمكن التخييل فيه ولا

فيه

التخييل عليه، والتشبيه بأن غيرها من معجزات الرسل قد رام المعاندون لها بأشياء طمعوا
في التخييل بها على الضعفاء، كإلقاء السحرة حبالهم وعصيهم وشبه هذا مما يخيله الساحر
أو يتحيل فيه، والقرآن كلام ليس للحيلة ولا للسحر في التخييل فيه عمل، فكان من هذا الوجه
عندهم أظهر من غيره من المعجزات، كما لا يتم لشاعر ولا خطيب أن يكون شاعرا أو
خطيبا بضرب من الحيل والتمويه، والتأويل الأول أخلص وأرضى. وفي هذا التأويل
الثاني ما يغمض القلب عليه ويغضي. وجه رابع على مذهب من قال بالصرفة وأن المعارضة
كانت في مقدور البشر فصرفوا عنها، أو على أحد مذهبي أهل السنة من أن الإتيان بمثله
من جنس مقدورهم ولكنه لم يكن ذلك قبل ولا يكون بعد لأن الله تعالى لم يقدرهم
ولا يقدرهم عليه، وبين المذهبين فرق بين، وعليهما جميعا فترك العرب الإتيان بما في مقدورهم
أو ما هو من جنس مقدورهم ورضاهم بالبلاء والجلاء والسباء والإذلال وتغيير الحال
وسلب النفوس والأموال والتقريع والتوبيخ والتعجيز والتهديد والوعيد أبين
آية للعجز عن الإتيان بمثله والنكول عن معارضته وأنهم منعوا عن شيء هو من جنس
مقدورهم. وإلى هذا ذهب الإمام أبو المعالي الجويني وغيره، قال: وهذا عندنا أبلغ في
خرق العادة بالأفعال البديعة في أنفسها كقلب العصا حية ونحوها، فإنه قد يسبق
إلى بال الناظر بدارا أن ذلك من اختصاص صاحب ذلك بمزية معرفة في ذلك الفن وفضل
علم، إلى أن يرد ذلك صحيح النظر. وأما التحدي للخلائق المئين من السنين بكلام من
جنس كلامهم ليأتوا بمثله فلم يأتوا، فلم يبق بعد توفر الدواعي على المعارضة ثم عدمها
إلا منع الله الخلق عنها بمثابة ما لو قال نبي: آيتي أن يمنع الله القيام عن الناس مع
مقدرتهم عليه وارتفاع الزمانة عنهم، فكان ذلك، وعجزهم الله عن القيام،
لكان ذلك من أبهر آية وأظهر دلالة، وبالله التوفيق. **وقد غاب** عن بعض
العلماء وجه ظهور آيته على سائر آيات الأنبياء حتى احتاج للعذر عن ذلك بدقة
أفهام العرب وذكاء ألبابها ووفور عقولها، وأنهم أدركوا المعجزة فيه بفطنتهم وجاءتهم
من ذلك بحسب إدراكهم. وغيرهم من القبط وبني إسرائيل وغيرهم لم يكونوا بهذه

بالتخييل صح

وجه ثالث

السبيل، بل كانوا من الغباوة وقلة الفطنة بحيث جوز عليهم فرعون أنه ربهم، وجوز عليهم
السامري ذلك في العجل بعد إيمانهم، وعبدوا المسيح بعد إجماعهم على صلبه، وما قتلوه
وما صلبوه ولكن شبه لهم، فجاءتهم من الآيات الظاهرة البينة للأبصار بقدر غلظ
أفهامهم ما لا يشكون فيه، ومع هذا فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، ولم
يصبروا على المن والسلوى واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير. والعرب على
جاهليتها أكثرها يعترف بالصانع، وإنما كانت تتقرب بالأصنام إلى الله زلفى،
ومنهم من آمن بالله ووحده من قبل الرسول بدليل عقله وصفاء لبه. ولما جاءهم
الرسول بكتاب الله فهموا حكمته، وتبينوا بفضل إدراكهم لأول وهلة معجزته
فآمنوا به وازدادوا كل يوم إيمانا، ورفضوا الدنيا كلها في صحبته، وهجروا ديارهم
وأموالهم، وقتلوا آباءهم وأبناءهم في نصرته، وأتى في معنى هذا بما يلوح له رونق
ويعجب منه زبرج لو احتيج إليه وحقق، لكنا قدمنا من بيان معجزته تبيينا وظهورها
ما يغني عن ركوب بطون هذه المسالك وظهورها، وبالله أستعين.

كمل النصف الأول من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى والحمد لله
كثيرا والصلاة على محمد عبده ورسوله وخاتم أنبيائه وعلى آله يتلوه
ابتداء الثاني عاجلا إن شاء الله تعالى القسم الثاني فيما يجب على الأنام
من حقوقه عليه السلام.

صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم — صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

القسم الثاني فيما يجب على الأنام من حقوقه عليه السلام قال الفقيه

القاضي أبو الفضل رضي الله عنه وهذا قسم لخصنا فيه الكلام في أربعة أبواب على ما ذكرناه أول الكتاب وهو مجموعها في وجوب تصديقه واتباعه وطاعته ومحبته ومناصحته وتوقيره وبره وحكم الصلاة عليه والتسليم وزيارة قبره صلى الله عليه وسلم

الباب الأول في فرض الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سنته

إذا تقرر بما قدمناه ثبوت نبوته وصحة رسالته وجب الإيمان به وتصديقه فيما أتى به قال الله تعالى فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا وقال تعالى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وقال فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الآية فالإيمان بالنبي محمد عليه السلام واجب متعين لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلا معه قال الله تعالى ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا حدثنا أبو محمد الخشني الفقيه بقراءتي عليه حدثنا الإمام أبو علي الطبري حدثنا عبد الغافر الفارسي حدثنا ابن عمرويه حدثنا ابن سفيان حدثنا أبو الحسين حدثنا أمية بن بسطام حدثنا يزيد بن زريع حدثنا روح عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه والإيمان به عليه السلام هو تصديق نبوته ورسالة الله له وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه رسول الله فإذا اجتمع التصديق به بالقلب والنطق بالشهادة بذلك باللسان تم الإيمان به والتصديق له كما ورد في هذا الحديث نفسه من رواية عبد الله بن عمر أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا

صح صلى الله عليه وسلم

أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقد زاده وضوحا في حديث جبريل إذ قال أخبرني عن الإسلام فقال النبي صلى الله عليه وسلم أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وذكر أركان الإسلام ثم سأله عن الإيمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله الحديث فقد قرر أن الإيمان به محتاج إلى العقد بالجنان والإسلام به مضطر إلى النطق باللسان وهذه الحالة المحمودة التامة وأما الحالة المذمومة فالشهادة باللسان دون تصديق القلب وهذا هو النفاق قال الله تعالى إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون أي لكاذبون في قولهم ذلك عن اعتقادهم وتصديقهم وهم لا يعتقدونه فلما لم تصدق ذلك ضمائرهم لم ينفعهم أن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فخرجوا عن اسم الإيمان ولم يكن لهم في الآخرة حكمه إذ لم يكن معهم ولحقوا بالكافرين في الدرك الأسفل من النار وبقي عليهم حكم الإسلام بإظهار شهادة اللسان في أحكام الدنيا المتعلقة بالأئمة وحكام المسلمين الذين أحكامهم على الظواهر بما أظهروه من علامة الإسلام إذ لم يجعل للبشر سبيل إلى السرائر ولا أمروا بالبحث عنها بل نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التحكم عليها وذم ذلك وقال هلا شققت عن قلبه والفرق بين القول والعقد ما جعل في حديث جبريل الشهادة من الإسلام والتصديق من الإيمان وبقيت حالتان أخريان بين هذين إحداهما أن يصدق بقلبه ثم يخترم قبل اتساع وقت الشهادة بلسانه فاختلف فيه فشرط بعضهم من تمام الإيمان القول والشهادة به ورآه بعضهم مؤمنا مستوجبا للجنة لقوله عليه السلام يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان فلم يذكر سوى ما في القلب وهذا مؤمن بقلبه غير عاص ولا مفرط بترك غيره وهذا هو الصحيح في هذا الوجه الثانية أن يصدق بقلبه ويطول مهله وعلم ما يلزمه من الشهادة فلم ينطق بها جملة ولا استشهد في عمره ولا مرة فهذا اختلف فيه أيضا فقيل هو مؤمن لأنه مصدق والشهادة من جملة الأعمال فهو عاص بتركها غير مخلد وقيل ليس بمؤمن حتى يقارن عقده شهادة إذ الشهادة إنشاء عقد والتزام إيمان وهي مرتبطة مع العقد ولا يتم التصديق مع المهلة إلا بها وهذا هو

وفق

خ في النار

الصحيح ومن أنجز بغيته إلى التتبع من الكلام في الإسلام والإيمان وأبوابهما وفي الزيادة
فيهما والنقصان وهل التجزي ممتنع على مجرد التصديق لا يصح فيه جملة وإنما يرجع إلى
ما زاد عليه من عمل أو قد يعرض فيه لاختلاف صفاته وتباين حالاته من قوة اليقين
والتصميم والاعتقاد ووضوح المعرفة ودوام حالته وحضور القلب وفي بسط هذا خروج
عن غرض التأليف وفيما ذكرنا غنية فيما قصدنا إن شاء الله **فصل** وأما وجوب
طاعته فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به وجبت طاعته لأن ذلك مما
أتى به قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله لعلكم ترحمون وقال قل
أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وقال وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون وقال وإن
تطيعوه تهتدوا. وقال من يطع الرسول فقد أطاع الله وقال وما آتاكم الرسول فخذوه
وما نهاكم عنه فانتهوا وقال ومن يطع الله والرسول فأولئك الآية. وقال وما أرسلنا
من رسول إلا ليطاع بإذن الله فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته وقرن طاعته بطاعته
ووعد على ذلك بجزيل الثواب وأوعد على مخالفته بسوء العقاب وأوجب امتثال
أمره واجتناب نهيه. قال المفسرون والأئمة طاعة الرسول في التزام سنته والتسليم
لما جاء به وقالوا ما أرسل الله من رسول إلا فرض الله طاعته على من أرسله إليه وقالوا
من يطع الرسول في سنته يطع الله في فرائضه وسئل سهل بن عبد الله عن شرائع
الإسلام فقال وما آتاكم الرسول فخذوه وقال السمرقندي يقال أطيعوا الله في فرائضه
والرسول في سنته. وقيل أطيعوا الله فيما حرم عليكم والرسول فيما بلغكم. وقيل
أطيعوا الله بالشهادة له بالربوبية والنبي بالشهادة له بالنبوة. حدثنا أبو محمد
ابن عتاب بقراءتي عليه حدثنا حاتم بن محمد حدثنا أبو الحسن علي بن خلف حدثنا
محمد بن أحمد حدثنا محمد بن يوسف حدثنا البخاري حدثنا عبدان أخبرنا عبد الله
حدثنا يونس عن الزهري أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أنه سمع أبا هريرة يقول إن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله
ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني فطاعة الرسول من طاعة

الله إذ الله أمر بطاعته فطاعته امتثال لما أمر الله به وطاعة له وقد حكى الله
عن الكفار في دركات جهنم يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا
الله وأطعنا الرسولا فتمنوا طاعته حيث لا ينفعهم التمني وقال عليه السلام إذا نهيتكم
عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم. وفي حديث أبي
هريرة عنه عليه السلام كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا ومن يأبى قال من
أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى وفي الحديث الصحيح عنه عليه السلام
مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني
وإني أنا النذير العريان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم
فنجوا وكذبته طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم
فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق
وفي الحديث الآخر في مثله كمثل من بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا فمن
أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل
من المأدبة فالدار الجنة والداعي محمد فمن أطاع محمدا فقد أطاع الله ومن عصى محمدا فقد
عصى الله ومحمد فرق بين الناس **فصل** وأما وجوب اتباعه وامتثال سنته والاقتداء
بهديه فقد قال تعالى قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم
وقال فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم
تهتدون وقال فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك إلى قوله تسليما أي ينقادون لحكمك
يقال سلم واستسلم وأسلم إذا انقاد وقال لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان
يرجو الله واليوم الآخر الآية. وقال محمد بن علي الترمذي الأسوة في الرسول الاقتداء
به والاتباع لسنته وترك مخالفته في قول أو فعل وقال غير واحد من المفسرين بمعناه
وقيل هو عتاب للمتخلفين عنه. وقال سهل في قوله تعالى صراط الذين أنعمت عليهم قال
بمتابعة السنة فأمرهم تعالى بذلك ووعدهم الاهتداء باتباعه لأن الله أرسله بالهدى
ودين الحق ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم ووعدهم

محبته تعلى في الآية الأخرى وتغفر له إذا اتبعوه وآثروه على أهوائهم وما يجنح
إليه نفوسهم وأن صحة إعلانهم بالانقياد فيه له وطاعتهم بحكمه وترك الاعتراض عليه
وروي عن الحسن أن قوما قالوا يا رسول الله إنا نحب الله فأنزل الله قل إن كنتم تحبون
الله الآية. وروي أن الآية نزلت في كعب بن الأشرف وغيره وأنهم قالوا نحن أبناء الله
وأحباؤه ونحن أشد حبا لله فأنزل الآية وقال الزجاج معناه إن كنتم تحبون الله
أي تقصدون طاعته فافعلوا ما أمرتكم به إذ محبة العبد لله والرسول طاعته لهما
ورضاه بأمرهما ومحبة الله لهم عفوه عنهم وإنعامه عليهم برحمته. ويقال الحب من
الله عصمة وتوفيق ومن العباد طاعة كما قال القائل

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

ويقال محبة العبد لله تعظيمه له وتهيبه منه ومحبة الله له رحمته له وإرادته الجميل
له وتكون بمعنى مدحه وثنائه عليه. قال القشيري فإذا كان بمعنى الرحمة والإرادة
والمدح كان من صفات الذات وسيأتي بعد في ذكر محبة العبد غير هذا بحول الله
حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر الفقيه. قال حدثنا أبو الأصبغ عيسى بن سهل وحدثنا
أبو الحسن يونس بن مغيث الفقيه بقراءتي عليه قالا حدثنا حاتم بن محمد قال حدثنا
أبو حفص الجهني حدثنا أبو بكر الآجري حدثنا ... بن موسى الجوزي حدثنا داود بن
رشيد حدثنا الوليد بن مسلم عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمرو
السلمي وحجر الكلاعي عن العرباض بن سارية في حديثه في موعظة النبي عليه
السلام أنه قال فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ
وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة. وزاد في حديث
جابر بمعناه وكل ضلالة في النار. وفي حديث أبي رافع عنه عليه السلام لا ألفين
أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول
لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه. وفي حديث عائشة صنع رسول الله

صلى الله عليه وسلم شيئا ترخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه
وسلم فحمد الله ثم قال ما بال قوم يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله
وأشدهم له خشية. وروي عنه عليه السلام أنه قال القرآن صعب مستصعب
على من كرهه وهو الحكم فمن استمسك بحديثي وفهمه وحفظه جاء مع القرآن ومن
تهاون بالقرآن وحديثي خسر الدنيا والآخرة أمرت أمتي أن يأخذوا بقولي ويطيعوا
أمري ويتبعوا سنتي فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن قال الله وما آتاكم الرسول
فخذوه الآية وقال عليه السلام من اقتدى بي فهو مني ومن رغب عن سنتي فليس مني
وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن أحسن الحديث كتاب الله
وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها. وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي
قال النبي صلى الله عليه وسلم العلم ثلاثة فما سوى ذلك فهو فضل آية محكمة أو سنة
قائمة أو فريضة عادلة. وعن الحسن بن أبي الحسن قال عنه عليه السلام عمل قليل
في سنة خير من عمل كثير في بدعة. وقال عليه السلام إن الله يدخل العبد الجنة
بالسنة تمسك بها. وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال المتمسك
بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد. وقال عليه السلام إن بني إسرائيل
افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن أمتي تفترق على ثلاث وسبعين كلها في
النار إلا واحدة قالوا ومن هي يا رسول الله قال الذي أنا عليه اليوم وأصحابي. وعن
أنس قال عليه السلام من أحيا سنتي فقد أحياني ومن أحياني كان معي. وعن عمرو
ابن عوف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلال بن الحارث من أحيا سنة من سنتي
قد أميتت بعدي فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا
ومن ابتدع بدعة ضلالة لا ترضي الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص
ذلك من أوزار الناس شيئا

فصل

وأما ما ورد عن السلف والأئمة من اتباع
سنته والاقتداء بهديه حدثنا الشيخ أبو عمران موسى بن عبد الرحمن الفقيه سماعا
عليه قال حدثنا أبو عمر الحافظ قال حدثنا سعيد بن نصر حدثنا قاسم بن أصبغ ووضاح

ابن مسرة قال حدثنا محمد بن وضاح حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا مالك عن ابن شهاب
عن رجل من آل خالد بن أسيد أنه سأل عبد الله بن عمر فقال يا أبا عبد الرحمن إنا نجد صلاة
الخوف وصلاة الحضر في القرآن ولا نجد صلاة السفر فقال ابن عمر يا ابن أخي إن
الله بعث إلينا محمدا ولا نعلم شيئا فإنما نفعل كما رأيناه يفعل وقال عمر بن عبد العزيز
سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر بعده سننا الأخذ بها تصديق
لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها
ولا النظر في رأي من خالفها من اقتدى بها مهتد ومن استنصر بها منصور ومن
خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا
وقال الحسن بن أبي الحسن عمل قليل في سنة خير من عمل كثير في بدعة. وقال ابن
شهاب بلغنا عن رجال من أهل العلم قالوا الاعتصام بالسنة نجاة. وكتب عمر بن
الخطاب أن تعلموا السنة والفرائض واللحن أي اللغة وقال إن ناسا يجادلونكم يعني بالقرآن
فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله. وفي خبره حين صلى بذي
الحليفة ركعتين فقال أصنع كما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع. وعن علي
حين قرن فقال له عثمان تراني أنهى الناس عنه وتفعله قال لم أكن أدع سنة
رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول أحد من الناس. وعنه ألا إني لست بنبي ولا يوحى
إلي ولكني أعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ما استطعت.
وكان ابن مسعود يقول القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة. وقال ابن عمر
صلاة السفر ركعتان من خالف السنة كفر. وقال أبي بن كعب عليكم بالسبيل
والسنة فإنه ما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله في نفسه ففاضت عيناه
من خشيته فيعذبه الله أبدا وما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر
الله في نفسه فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها
فهي كذلك إذ أصابتها ريح شديدة فتحات عنها ورقها إلا حط الله عنه خطاياه
كما تحات عن الشجرة ورقها وإن اقتصادا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف

سبيل وسنة. وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهادا واقتصادا أن يكون على
منهاج الأنبياء وسنتهم. وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إلى عمر بحال بلده
وكثرة لصوصه هل يأخذهم بالظنة أو يحملهم على البينة وما جرت به السنة
فكتب إليه عمر خذهم بالبينة وما جرت عليه السنة فإن لم يصلحهم الحق فلا
أصلحهم الله. وعن عطاء في قوله فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول
إلى كتاب الله وسنة رسول الله. وقال الشافعي ليس في سنة رسول الله صلى الله
عليه وسلم إلا اتباعها. وقال عمر ونظر إلى الحجر الأسود إنك حجر لا تنفع ولا
تضر ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك
ورئي عبد الله بن عمر يدير ناقته في مكان فسئل فقال لا أدري إلا أني رأيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم فعله ففعلته. وقال أبو عثمان الحيري من أمر
السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة. ومن أمر الهوى على نفسه نطق
بالبدعة. قال سهل التستري أصول مذهبنا ثلاثة الاقتداء بالنبي في الأخلاق
والأفعال والأكل من الحلال وإخلاص النية في جميع الأعمال. وجاء في تفسير
قوله والعمل الصالح يرفعه أنه الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم. وحكي أن
أحمد بن حنبل قال يوما كنت مع جماعة تجردوا ودخلوا الماء فاستعملت الحديث
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر ولم أتجرد فرأيت تلك
الليلة قائلا لي يا أحمد أبشر فإن الله قد غفر لك باستعمالك السنة وجعلك
إماما يقتدى بك قلت من أنت قال جبريل

فصل

ومخالفة أمره وتبديل
سنته ضلال وبدعة متوعد من الله عليه بالخذلان والعذاب قال الله تعالى فليحذر
الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم. وقال ومن يشاقق
الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى الآية حدثنا
أبو محمد عبد الله بن أبي جعفر وعبد الرحمن بن عتاب بقراءتي عليهما قالا حدثنا
أبو القاسم حاتم بن محمد حدثنا أبو الحسن القابسي حدثنا أبو الحسن بن مسرور الدباغ

حدثنا أحمد بن أبي سليمان حدثنا سحنون بن سعيد حدثنا ابن القاسم حدثنا مالك عن
العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج
إلى المقبرة وذكر الحديث في صفة أمته وفيه فليذادن رجال عن حوضي كما
يذاد البعير الضال فأناديهم ألا هلم ألا هلم ألا هلم فيقال إنهم قد بدلوا بعدك فأقول
فسحقا فسحقا فسحقا. وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من رغب عن
سنتي فليس مني وقال من أدخل في أمرنا ما ليس منه فهو رد. وروى ابن أبي
رافع عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته
يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدري ما وجدنا في كتاب
الله اتبعناه. زاد في حديث المقدام ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله
وقال عليه السلام وجيء بكتاب في كتف كفى بقوم حمقا أو قال ضلالا أن
يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم فنزلت أولم يكفهم
أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم الآية. وقال عليه السلام هلك المتنطعون
وقال أبو بكر الصديق لست تاركا شيئا كان رسول الله صلى الله عليه يعمل به
إلا عملت به إني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ.

الباب الثاني في لزوم محبته

قال الله تعالى قل إن كان
آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها
الآية فكفى بهذا حضا وتنبيها ودلالة وحجة على إلزام محبته ووجوب فرضها
وعظم خطرها واستحقاقه عليه السلام لها إذ قرع تعالى من كان ماله وولده
أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ثم
فسقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله. حدثنا أبو علي الغساني
الحافظ فيما أجازنيه وهو مما قرأته على غير واحد قال حدثنا سراج بن عبد الله
القاضي حدثنا أبو محمد الأصيلي حدثنا المروزي حدثنا أبو عبد الله محمد بن
يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن
عبد العزيز بن صهيب عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يؤمن أحدكم
حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين. وعن أبي هريرة نحوه
وعن أنس عنه عليه السلام ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون
الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن
يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار. وعن عمر بن الخطاب أنه قال للنبي
عليه السلام لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي التي بين جنبي فقال
النبي صلى الله عليه وسلم لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه فقال
عمر والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي فقال له
النبي صلى الله عليه وسلم الآن يا عمر. قال سهل من لم ير ولاية الرسول صلى الله
عليه وسلم في جميع الأحوال ويرى نفسه في ملكه عليه السلام لا يذوق حلاوة
سنته لأن النبي عليه السلام قال لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه
الحديث.

فصل في ثواب محبته

حدثنا أبو محمد بن عتاب بقراءتي عليه حدثنا
أبو القاسم حاتم بن محمد حدثنا أبو الحسن علي بن خلف حدثنا أبو زيد المروزي حدثنا
محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا عبدان حدثنا أبي حدثنا شعبة عن عمرو
ابن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن أنس أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال
متى الساعة يا رسول الله قال ما أعددت لها قال ما أعددت لها من كبير صلاة ولا
صوم ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله قال أنت مع من أحببت. وعن صفوان
ابن قدامة هاجرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأتيته فقلت يا رسول الله ناولني
يدك أبايعك فناولني يده فقلت يا رسول الله إني أحبك قال المرء مع من أحب
وروى هذا اللفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن مسعود وأبو موسى وأنس
وعن أبي ذر بمعناه. وعن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بيد حسن
وحسين فقال من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي
يوم القيامة. وروي أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله لأنت أحب

إلي من أهلي ومالي وإني لأذكرك فما أصبر حتى أجيء فأنظر إليك وإذا ذكرت موتي
وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلتها لا أراك فأنزل
الله ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا فدعا به فقرأها عليه . وفي حديث
آخر كان رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم ينظر إليه لا يطرف فقال ما بالك
قال بأبي أنت وأمي أتمتع من النظر إليك فإذا كان يوم القيامة رفعك الله بتفضيله
فأنزل الله الآية . وفي حديث أنس ومن أحبني كان معي في الجنة .

فصل فيما روي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم
وشوقهم له . حدثنا القاضي الشهيد حدثنا العذري حدثنا الرازي حدثنا
الجلودي حدثنا ابن سفيان حدثنا مسلم حدثنا قتيبة حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن
عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أشد
أمتي لي حبا ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله . ومثله عن أبي
ذر . وقد تقدم حديث عمر وقوله للنبي صلى الله عليه وسلم لأنت أحب إلي
من نفسي . وما تقدم عن الصحابة في مثله . وعن عمرو بن العاصي ما كان أحد
أحب إلي من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن عبدة بنت خالد بن معدان قالت
ما كان خالد يأوي إلى فراش إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار يسميهم ويقول هم أصلي وفصلي
وإليهم يحن قلبي طال شوقي إليهم فعجل رب قبضي إليك حتى يغلبه النوم .
وروي عن أبي بكر أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم والذي بعثك بالحق لإسلام
أبي طالب كان أقر لعيني من إسلامه يعني أباه أبا قحافة وذلك أن إسلام
أبي طالب كان أقر لعينك . ونحوه عن عمر بن الخطاب قال للعباس أن تسلم
أحب إلي من أن يسلم الخطاب لأن ذلك أحب إلى رسول الله . وعن ابن إسحاق أن
امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

الناس

ابن اسحق

صلى الله عليه وسلم

فقالت ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا خيرا هو بحمد الله كما تحبين قالت
أرونيه حتى أنظر إليه فلما رأته قالت كل مصيبة بعدك جلل . وسئل علي بن
أبي طالب كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان والله أحب إلينا
من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمإ . وعن زيد بن أسلم
خرج عمر ليلة يحرس فرأى مصباحا في بيت وإذا عجوز تنفش صوفا وتقول
على محمد صلاة الأبرار صلى عليه الطيبون الأخيار قد كنت قواما بكا بالأسحار
يا ليت شعري والمنايا أطوار هل تجمعني وحبيبي الدار تعني النبي صلى الله عليه وسلم
فجلس عمر يبكي . وفي الحكاية طول . وروي أن عبد الله بن عمر خدرت رجله فقيل له
اذكر أحب الناس إليك يزل عنك فصاح يا محمداه فانتشرت . ولما احتضر بلال
نادت امرأته واحزناه فقال واطرباه غدا ألقى الأحبه محمدا وحزبه . ويروى
أن امرأة قالت لعائشة اكشفي لي عن قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشفته
لها فبكت حتى ماتت . ولما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه
قال له أبو سفيان بن حرب أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك
تضرب عنقه وأنك في أهلك فقال زيد والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي
هو فيه تصيبه شوكة وإني جالس في أهلي فقال أبو سفيان ما رأيت من الناس أحدا
يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا صلى الله عليه وسلم . وعن ابن عباس كانت
المرأة إذا أتت النبي صلى الله عليه وسلم حلفها بالله ما خرجت من بغض زوج
ولا رغبة بأرض عن أرض وما خرجت إلا حبا لله ورسوله . ووقف ابن عمر
على ابن الزبير بعد قتله فاستغفر له وقال كنت والله ما علمت صواما قواما تحب
الله ورسوله .

فصل في علامة محبته صلى الله عليه وسلم اعلم أن من أحب
شيئا آثره وآثر موافقته وإلا لم يكن صادقا في حبه وكان مدعيا فالصادق في
حب النبي صلى الله عليه وسلم من تظهر علامة ذلك عليه وأولها الاقتداء
به واستعمال سنته واتباع أقواله وأفعاله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه

وصحبه

والتأدب بآدابه في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه وشاهد هذا قوله تعلى قل
إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله وإيثار ما شرعه وحض عليه على هوى
نفسه وموافقة شهوته قال الله تعلى والذين تبوءو الدار والإيمان من قبلهم يحبون
من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو
كان بهم خصاصة وإسخاط العباد في رضى الله تعلى حدثنا القاضي الشهيد
أبو علي الحافظ حدثنا أبو الحسين الصيرفي وأبو الفضل بن خيرون قالا حدثنا
أبو يعلى البغدادي حدثنا أبو علي السنجي حدثنا محمد بن محبوب حدثنا أبو عيسى
حدثنا مسلم بن حاتم حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن علي بن زيد عن
سعيد بن المسيب قال قال أنس بن مالك قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بني
إن قدرت أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غش لأحد فافعل ثم قال لي يا بني
وذلك من سنتي ومن أحيا سنتي فقد أحبني ومن أحبني كان معي في الجنة
فمن اتصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله ومن خالفها في بعض هذه
الأمور فهو ناقص المحبة ولا يخرج عن اسمها ودليل ذلك قوله عليه السلام للذي حده في
الخمر فلعنه بعضهم وقال ما أكثر ما يؤتى به فقال صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فإنه
يحب الله ورسوله ومن علامات محبة النبي عليه السلام كثرة ذكره له
فمن أحب شيئا أكثر ذكره ومنها كثرة شوقه إلى لقائه فكل حبيب يحب لقاء
حبيبه وفي حديث الأشعريين عند قدومهم المدينة أنهم كانوا يرتجزون
غدا نلقى الأحبة محمدا وصحبه وتقدم قول بلال ومثله قال عمار قبل قتله
وكما ذكرناه من قصة خالد بن معدان ومن علاماته مع كثرة ذكره تعظيمه
له وتوقيره عند ذكره وإظهار الخشوع والانكسار مع سماع ذكره
وقال إسحاق التجيبي كان أصحاب النبي بعده لا يذكرونه إلا خشعوا واقشعرت
جلودهم وبكوا وكذلك كثير من التابعين منهم من يفعل ذلك محبة له وشوقا
إليه ومنهم من يفعله تهيبا وتوقيرا ومنها محبته لمن أحب النبي صلى الله عليه وسلم

تلقى
وما
عنه

ومن هو بسببه من آل بيته وصحابته من الأنصار والمهاجرين وعداوة من عاداهم
وبغض من أبغضهم وسبهم فمن أحب شيئا أحب من يحب وقد قال عليه السلام
في الحسن والحسين اللهم إني أحبهما فأحبهما وفي رواية في الحسن فأحب من يحبه
وقال من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض
الله وقال الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن
أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن
آذى الله يوشك أن يأخذه وقال في فاطمة إنها بضعة مني يغضبني ما أغضبها
وقال لعائشة في أسامة بن زيد أحبيه فإني أحبه وقال آية الإيمان حب الأنصار
وآية النفاق بغضهم وفي حديث ابن عمر من أحب العرب فبحبي أحبهم ومن
أبغضهم فببغضي أبغضهم فبالحقيقة من أحب شيئا أحب كل شيء يحبه وهذه
سيرة السلف حتى في المباحات وشهوات النفس وقد قال أنس حين رأى النبي
صلى الله عليه وسلم يتتبع الدباء من حوالي القصعة فما زلت أحب الدباء من يومئذ
وهذا الحسن بن علي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر أتوا سلمى وسألوها
أن تصنع لهم طعاما مما كان يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ابن عمر
يلبس النعال السبتية ويصبغ بالصفرة إذ رأى النبي صلى الله عليه وسلم يفعل نحو
ذلك ومنها بغض من أبغض الله ورسوله ومعاداة من عاداه ومجانبة من خالف
سنته وابتدع في دينه واستثقاله كل أمر يخالف شريعته قال الله تعلى لا تجد قوما
يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله وهؤلاء أصحابه عليه
السلام قد قتلوا أحباءهم وقاتلوا آباءهم وأبناءهم في مرضاته وقال له عبد الله
ابن عبد الله بن أبي لو شئت لأتيتك برأسه يعني أباه ومنها أن يحب القرآن
الذي أتى به عليه السلام وهدى به واهتدى وتخلق به حتى قالت عائشة رضي الله
عنها كان خلقه القرآن ومحبته للقرآن تلاوته وتفهمه والعمل به ويحب سنته
ويقف عند حدودها قال سهل بن عبد الله علامة حب الله حب القرآن وعلامة

ومن أحبني فقد أحب الله
بعدي
واستثقال
القرآن

حب الله وحب القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم وعلامة حب النبي حب السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا ألا يدخر منها إلا زادا وبلغة إلى الآخرة. وقال ابن مسعود لا يسأل أحد عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ورسوله. ومن علامة حبه للنبي عليه السلام شفقته على أمته ونصحه لهم وسعيه في مصالحهم ورفع المضار عنهم كما كان عليه السلام بالمؤمنين رؤوفا رحيما ومن علامة تمام محبته زهد مدعيها في الدنيا وإيثاره الفقر واتصافه به وقد قال عليه السلام لأبي سعيد الخدري إن الفقر إلى من يحبني منكم أسرع من السيل من أعلى الوادي أو الجبل إلى أسفله وفي حديث عبد الله بن مغفل قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله إني أحبك فقال انظر ما تقول قال والله إني أحبك ثلاث مرات قال إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافا ثم ذكر نحو حديث أبي سعيد بمعناه.

فصل في معنى المحبة للنبي عليه السلام وحقيقتها. اختلف الناس في تفسير محبة الله ومحبة النبي عليه السلام وكثرت عباراتهم في ذلك وليست ترجع بالحقيقة إلى اختلاف مقال ولكنها اختلاف أحوال فقال سفيان المحبة اتباع الرسول عليه السلام كأنه التفت إلى قوله تعالى قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله الآية. وقال بعضهم محبة الرسول اعتقاد نصرته والذب عن سنته والانقياد لها وهيبة مخالفته وقال بعضهم المحبة الشوق إلى المحبوب وقال بعضهم المحبة دوام الذكر للمحبوب وقال آخر إيثار المحبوب وقال بعضهم المحبة مواطأة القلب لمراد الرب يحب ما أحب ويكره ما كره. وقال آخر المحبة ميل القلب إلى موافق له. وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات المحبة دون حقيقتها وحقيقة المحبة الميل إلى ما يوافق الإنسان وتكون موافقته له إما لاستلذاذه بإدراكه كحب الصور الجميلة والأصوات الحسنة والأطعمة والأشربة اللذيذة وأشباهها مما كل طبع سليم مائل إليها لموافقتها له أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسة عقله وقلبه معاني باطنة شريفة كمحبة الصالحين والعلماء وأهل المعروف

عليه السلام

والمأثور عنهم السير الجميلة والأفعال الحسنة فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء حتى يبلغ التعصب بقوم لقوم والتشيع من أمة في آخرين ما يؤدي إلى الجلاء عن الأوطان وهتك الحرم واخترام النفوس أو يكون حبه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها فإذا تقرر لك هذا نظرت هذه الأسباب كلها في حقه عليه السلام فعلمت أنه عليه السلام جامع لهذه المعاني الثلاثة الموجبة للمحبة أما جمال الصورة والظاهر وكمال الأخلاق والباطن فقد قررنا منها قبل فيما مر من الكتاب ما لا يحتاج إلى زيادة. وأما إحسانه وإنعامه على أمته فكذلك قد مر منه في أوصاف الله تعالى له من رأفته بهم ورحمته لهم وهدايته إياهم وشفقته عليهم واستنقاذهم به من النار وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ورحمة للعالمين ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه ويتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم. فأي إحسان أجل قدرا وأعظم خطرا من إحسانه إلى جميع المؤمنين وأي إفضال أعم منفعة وأكثر فائدة من إنعامه على كافة المسلمين إذ كان ذريعتهم إلى الهداية ومنقذهم من العماية وداعيهم إلى الفلاح والكرامة ووسيلتهم إلى ربهم وشفيعهم والمتكلم عنهم والشاهد لهم والموجب لهم البقاء الدائم والنعيم السرمد فقد استبان لك أنه عليه السلام مستوجب للمحبة الحقيقية شرعا بما قدمناه من صحيح الآثار وعادة وجبلة بما ذكرناه آنفا لإفاضته الإحسان وعمومه الإجمال فإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفا أو استنقذه من هلكة أو مضرة مدة التأذي بها قليل منقطع فمن منحه ما لا يبيد من النعيم ووقاه ما لا يفنى من عذاب الجحيم أولى بالحب وإذا كان يحب بالطبع ملك لحسن سيرته أو حاكم لما يؤثر من قوام طريقته أو قاص بعيد الدار لما يشاد من علمه أو كرم شيمته فمن جمع هذه الخصال على غاية مراتب الكمال أحق بالحب وأولى بالميل وقد قال علي رضي الله عنه في صفته عليه السلام من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه وذكرنا عن بعض الصحابة أنه كان لا يصرف بصره عنه محبة فيه.

فصل في وجوب مناصحته

عليه السلام . قال الله تعالى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله
ورسوله إذا كانوا مخلصين مسلمين في السر والعلانية حدثنا الفقيه أبو الوليد
بقراءتي عليه حدثنا حسين بن محمد حدثنا يوسف بن عبد الله حدثنا ابن عبد المؤمن
حدثنا أبو بكر التمار حدثنا أبو داود حدثنا أحمد بن يونس حدثنا زهير حدثنا سهيل
ابن أبي صالح عن عطاء بن يزيد عن تميم الداري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
إن الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله وأئمة المسلمين
وعامتهم قال أئمتنا رحمهم الله النصيحة لله ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم واجبة
قال الإمام أبو سليمان البستي النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة إرادة الخير
للمنصوح له وليس يمكن أن يعبر عنها بكلمة واحدة تحصرها . ومعناها في
اللغة الإخلاص من قولهم نصحت العسل إذا خلصته من شمعه وقال أبو بكر بن
أبي إسحاق الخفاف النصح فعل الشيء الذي به الصلاح والملاءمة مأخوذ من النصاح
وهو الخيط الذي يخاط به الثوب وقال أبو إسحاق الزجاج نحوه فنصيحة الله صحة
الاعتقاد له بالوحدانية ووصفه بما هو أهله وتنزيهه عما لا يجوز عليه
والرغبة في محابه والبعد من مساخطه والإخلاص في عبادته والنصيحة لكتابه
الإيمان به والعمل بما فيه وتحسين تلاوته والتخشع عنده والتعظيم له وتفهمه
والتفقه فيه والذب عنه من تأويل الغالين وطعن الملحدين والنصيحة لرسوله
التصديق بنبوته وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه قاله أبو سليمان وقال أبو بكر
وموازرته ونصرته وحمايته حيا وميتا وإحياء سنته بالطلب والذب عنها ونشرها
والتخلق بأخلاقه الكريمة وآدابه الجميلة وقال أبو إبراهيم إسحاق التجيبي نصيحة
رسول الله صلى الله عليه وسلم التصديق بما جاء به والاعتصام بسنته ونشرها
والحض عليها والدعوة إلى الله وإلى كتابه وإلى رسوله وإليها وإلى العمل بها
وقال أحمد بن محمد مفروضات القلوب اعتقاد النصيحة لرسول الله صلى الله عليه
وسلم قال أبو بكر الآجري وغيره النصح له يقتضي نصحين نصحا في حياته ونصحا

بعد مماته ففي حياته نصح أصحابه له بالنصرة والمحاماة عنه ومعاداة من
عاداه والسمع والطاعة له وبذل النفوس والأموال دونه كما قال تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا
الله عليه الآية وقال وينصرون الله ورسوله الآية وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته
فالتزام التوقير والإجلال وشدة المحبة له والمثابرة على تعلم سنته والتفقه في
شريعته ومحبة آل بيته وأصحابه ومجانبة من رغب عن سنته وانحرف عنها
وبغضه والتحذير منه والشفقة على أمته والبحث عن تعرف أخلاقه وسيره وآدابه
والصبر على ذلك فعلى ما ذكره تكون النصيحة إحدى ثمرات المحبة وعلامة
من علاماتها كما قدمناه . وحكى الإمام أبو القاسم القشيري أن عمرو بن الليث
أحد ملوك خراسان ومشاهير الثوار المعروف بالصفار رؤي في النوم فقيل له ما
فعل الله بك فقال غفر لي فقيل بماذا قال صعدت ذروة جبل يوما فأشرفت على
جنودي فأعجبني كثرتهم فتمنيت لو حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعنته
ونصرته فشكر الله لي ذلك وغفر لي . وأما النصح لأئمة المسلمين فطاعتهم
في الحق ومعونتهم فيه وأمرهم به وتذكيرهم إياه على أحسن وجه وتنبيههم على
ما غفلوا عنه وكتم عنهم من أمور المسلمين وترك الخروج عليهم وإفساد قلوبهم
عليهم والنصح لعامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم ومعونتهم في أمر دينهم ودنياهم
بالقول والفعل وتنبيه غافلهم وتبصير جاهلهم ورفد محتاجهم وستر عوراتهم
ودفع المضار عنهم وجلب المنافع إليهم .

الباب الثالث

في تعظيم أمره ووجوب توقيره وبره . قال الله تعالى يا أيها النبي إنا أرسلناك
شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه . وقال يا أيها
الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ويا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم
فوق صوت النبي الثلاث آيات . وقال لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء
بعضكم بعضا فأوجب تعالى تعزيره وتوقيره وألزم إكرامه وتعظيمه قال
ابن عباس تعزروه تجلوه . وقال المبرد تعزروه تبالغوا في تعظيمه .

وقال الأخفش تنصروه وقال الطبري تعظموه وقرئ تعززوه بزايين من العز
ونهى عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام على قول ابن عباس
وغيره وهو اختيار ثعلب قال سهل بن عبد الله لا تقولوا قبل أن يقول وإذا قال فانصتوا
له واستمعوا ونهوا عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه وأن يفتاتوا بشيء
في ذلك من قتال أو غيره من أمر دينهم إلا بأمره ولا يسبقوه به وإلى هذا يرجع قول
الحسن ومجاهد والضحاك والسدي والثوري ثم وعظهم وحذرهم مخالفة ذلك
فقال واتقوا الله إن الله سميع عليم. قال الماوردي اتقوه يعني في التقدم وقال السلمي
اتقوا الله في إهمال حقه وتضييع حرمته إنه سميع لقولكم عليم بفعلكم ثم نهاهم
عن رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته
وقيل كما ينادي بعضهم بعضا باسمه. قال أبو محمد مكي أي لا تسابقوه بالكلام
وتغلظوا له بالخطاب ولا تنادوه باسمه نداء بعضكم لبعض ولكن عظموه ووقروه
ونادوه بأشرف ما يحب أن ينادى به يا رسول الله يا نبي الله وهذا كقوله في الآية الأخرى
لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا على أحد التأويلين وقال
غيره لا تخاطبوه إلا مستفهمين ثم خوفهم الله تعالى بحبط أعمالهم إن هم فعلوا
ذلك وحذرهم منه قيل نزلت الآية في وفد بني تميم وقيل في غيرهم أتوا النبي
صلى الله عليه وسلم فنادوه يا محمد يا محمد اخرج إلينا فذمهم الله تعالى بالجهل ووصفهم
بأن أكثرهم لا يعقلون. وقيل نزلت الآية الأولى في محاورة كانت بين أبي بكر وعمر
بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم واختلاف جرى بينهما حتى ارتفعت أصواتهما
وقيل نزلت في ثابت بن قيس بن شماس خطيب النبي صلى الله عليه وسلم في مفاخرة
بني تميم وكان في أذنيه صمم فكان يرفع صوته فلما نزلت هذه الآية أقام في
منزله وخشي أن يكون حبط عمله ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا نبي الله لقد
خشيت أن أكون هلكت نهانا الله أن نجهر بالقول وأنا امرؤ جهير الصوت فقال
النبي صلى الله عليه وسلم يا ثابت أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل

الجنة فقتل يوم اليمامة. وروي أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال والله يا رسول الله
لا أكلمك بعدها إلا كأخي السرار وأن عمر كان إذا حدثه حدثه كأخي السرار
ما كان يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه فأنزل الله
فيهم إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى
لهم مغفرة وأجر عظيم. وقيل نزلت إن الذين ينادونك من وراء الحجرات في غير بني
تميم نادوه باسمه وروى صفوان بن عسال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر
إذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري أيا محمد أيا محمد فقلنا له اغضض من صوتك
فإنك قد نهيت عن رفع الصوت. وقال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا
قال بعض المفسرين هي لغة كانت في الأنصار نهوا عن قولها تعظيما للنبي وتبجيلا
له لأن معناها ارعنا نرعك فنهوا عن قولها إذ مقتضاها كأنهم لا يرعونه إلا
برعايته لهم بل حقه أن يرعى على كل حال وقيل كانت اليهود تعرض بها للنبي صلى
الله عليه وسلم بالرعونة فنهي المسلمون عن قولها قطعا للذريعة ومنعا للتشبه
بهم في قولها لمشاركة اللفظة وقيل غير هذا.

فصل في عادة الصحابة في تعظيمه
عليه السلام وتوقيره وإجلاله. حدثنا القاضي أبو علي الصدفي وأبو بحر الأسدي
سماعا عليهما في آخرين قالوا حدثنا أحمد بن عمر حدثنا أحمد بن الحسن حدثنا محمد بن
عيسى حدثنا إبراهيم بن سفيان حدثنا مسلم حدثنا محمد بن مثنى وأبو معن الرقاشي
وإسحاق بن منصور أخبرنا الضحاك بن مخلد حدثنا حيوة بن شريح حدثني يزيد
ابن أبي حبيب عن ابن شماسة المهري قال حضرنا عمرو بن العاص فذكر حديثا طويلا
فيه عن عمرو قال وما كان أحد أحب إلي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أجل في
عيني منه وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت
لأني لم أكن أملأ عيني منه. وروى الترمذي عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر فلا
يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما

ويبتسمان إليه ويبتسم إليهما. وروى أسامة بن شريك أتيت النبي صلى الله عليه وسلم
وأصحابه حوله كأنما على رؤوسهم الطير. وفي حديث صفته إذا تكلم أطرق جلساؤه
كأنما على رؤوسهم الطير. وقال عروة بن مسعود حين وجهته قريش عام القضية
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأى من تعظيم أصحابه له ما رأى وأنه لا يتوضأ إلا
ابتدروا وضوءه، وكادوا يقتتلون عليه ولا يبصق بصاقا ولا يتنخم نخامة إلا تلقوها
بأكفهم فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها وإذا
أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه
النظر تعظيما له فلما رجع إلى قريش قال يا معشر قريش إني جئت كسرى في
ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في
أصحابه. وفي رواية إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم محمدا أصحابه
وقد رأيت قوما لا يسلمونه أبدا. وعن أنس لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
والحلاق يحلقه وأطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل. ومن
هذا لما أذنت قريش لعثمان في الطواف بالبيت حين وجهه النبي صلى الله عليه وسلم
إليهم في القضية أبى وقال ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم
وفي حديث طلحة أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا لأعرابي جاهل
سله عمن قضى نحبه وكانوا يهابونه ويوقرونه فسأله فأعرض عنه إذ طلع
طلحة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ممن قضى نحبه. وفي حديث قيلة
فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا القرفصاء أرعدت من الفرق
وذلك هيبة له وتعظيما. وفي حديث المغيرة كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
يقرعون بابه بالأظافير. وقال البراء بن عازب لقد كنت أريد أن أسأل رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن الأمر فأؤخر سنين من هيبته. **فصل** واعلم أن حرمة النبي
صلى الله عليه وسلم بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته وذلك
عند ذكره عليه السلام وذكر حديثه وسنته وسماع اسمه وسيرته ومعاملة

آله وعترته وتعظيم أهل بيته وصحابته. قال أبو إبراهيم التجيبي واجب على كل مؤمن متى
ذكره أو ذكر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته ويأخذ في
هيبته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ويتأدب بما أدبنا الله به
قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه وهذه كانت سيرة السلف الصالح وأئمتنا
الماضين رضي الله عنهم. حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الأشعري
وأبو القاسم أحمد بن بقي الحاكم وغير واحد فيما أجازونيه قالوا أخبرنا أبو العباس
أحمد بن عمر بن دلهاث قال حدثنا أبو الحسن علي بن فهر حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد
ابن الفرج حدثنا أبو الحسن عبد الله بن المنتاب حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل
حدثنا ابن حميد قال ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال له مالك يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن
الله عز وجل أدب قوما فقال لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي الآية ومدح قوما
فقال إن الذين يغضون أصواتهم الآية وذم قوما فقال إن الذين ينادونك من وراء الحجرات
الآية وإن حرمته ميتا كحرمته حيا فاستكان لها أبو جعفر. وقال يا أبا عبد الله
أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله فقال ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك
ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة بل استقبله واستشفع به
فيشفعه الله. قال الله تعالى ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم الآية. وقال مالك وقد سئل عن
أيوب السختياني ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه. قال وحج حجتين
فكنت أرمقه ولا أسمع منه غير أنه كان إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بكى
حتى أرحمه فلما رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنبي صلى الله عليه وسلم كتبت عنه
وقال مصعب بن عبد الله كان مالك إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم يتغير لونه
وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه فقيل له يوما في ذلك فقال لو رأيتم ما رأيت
لما أنكرتم علي ما ترون لقد كنت أرى محمد بن المنكدر وكان سيد القراء لا نكاد
نسأله عن حديث أبدا إلا يبكي حتى نرحمه ولقد كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير

الدعابة والتبسم فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم اصفر وما رأيته يحدث
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على طهارة. ولقد اختلفت إليه زمانا فما كنت
أراه إلا على ثلاث خصال إما مصليا وإما صامتا وإما يقرأ القرآن ولا يتكلم فيما لا يعنيه
وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله عز وجل. ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم
يذكر النبي صلى الله عليه وسلم فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم وقد جف لسانه في
فمه هيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير
فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع.
ولقد رأيت الزهري وكان من أهنإ الناس وأقربهم فإذا ذكر عنده النبي صلى
الله عليه وسلم فكأنه ما عرفك ولا عرفته. ولقد كنت آتي صفوان بن سليم
وكان من المتعبدين المجتهدين فإذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بكى فلا يزال
يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه. وروي عن قتادة أنه كان إذا سمع
الحديث أخذه العويل والزويل ولما كثر على مالك الناس قيل له لو جعلت مستمليا
يسمعهم فقال قال الله يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي
وحرمته حيا وميتا سواء. وكان ابن سيرين ربما يضحك فإذا ذكر عنده حديث
النبي صلى الله عليه وسلم خشع. وكان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث رسول
الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالسكوت وقال لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي
ويتأول أنه يجب له من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له من الإنصات عند سماع
قوله.

فصل في سيرة السلف في تعظيم رواية حديث رسول الله صلى الله عليه
وسلم وسنته. حدثنا الحسين بن محمد الحافظ حدثنا أبو الفضل بن خيرون حدثنا
أبو بكر البرقاني وغيره حدثنا أبو الحسن الدارقطني حدثنا أبو علي بن مبشر
حدثنا أحمد بن سنان القطان حدثنا يزيد بن هارون حدثنا المسعودي عن مسلم
البطين عن عمرو بن ميمون قال اختلفت إلى ابن مسعود سنة فما سمعته يقول قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه حدث يوما فجرى على لسانه قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم ثم علاه كرب حتى رأيت العرق يتحدر عن جبهته ثم قال هكذا إن
شاء الله أو فوق ذا أو ما دون ذا أو ما هو قريب من ذا وفي رواية فتربد وجهه وفي
رواية وقد تغرغرت عيناه وانتفخت أوداجه. وقال إبراهيم بن عبد الله بن قريم
الأنصاري قاضي المدينة مر مالك بن أنس على أبي حازم وهو يحدث فجازه وقال
إني لم أجد موضعا أجلس فيه فكرهت أن آخذ حديث رسول الله صلى الله عليه
وسلم وأنا قائم. وقال مالك جاء رجل إلى ابن المسيب فسأله عن حديث وهو مضطجع
فجلس وحدثه فقال له الرجل وددت أنك لم تتعن فقال إني كرهت أن أحدثك
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجع. وروي عن محمد بن سيرين أنه قد
يكون يضحك فإذا ذكر عنده حديث النبي صلى الله عليه وسلم خشع.
وقال أبو مصعب كان مالك بن أنس لا يحدث بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلا وهو على وضوء إجلالا له. وحكى مالك ذلك عن جعفر بن محمد وقال مصعب
ابن عبد الله كان مالك بن أنس إذا حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ
وتهيأ ولبس ثيابه ثم يحدث قال مصعب فسئل عن ذلك فقال إنه حديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال مطرف كان إذا أتى الناس مالكا خرجت إليهم الجارية فتقول
لهم يقول لكم الشيخ تريدون الحديث أو المسائل فإن قالوا المسائل خرج إليهم وإن
قالوا الحديث دخل مغتسله واغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا ولبس ساجه وتعمم
ووضع على رأسه رداءه وتلقى له منصة فيخرج فيجلس عليها وعليه الخشوع ولا يزال
يبخر بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال غيره ولم يكن
يجلس على تلك المنصة إلا إذا حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن أبي
أويس فقيل لمالك في ذلك فقال أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم
ولا أحدث به إلا على طهارة متمكنا قال وكان يكره أن يحدث في الطريق أو وهو
قائم أو مستعجل وقال أحب أن أفهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال ضرار
ابن مرة كانوا يكرهون أن يحدثوا على غير وضوء ونحوه عن قتادة وكان الأعمش

يحدثوا

إذا أحب أن يحدث وهو على غير وضوء تيمم. وكان قتادة لا يحدث إلا على طهارة
ولا يقرأ حديث النبي صلى الله عليه وسلم إلا على وضوء. قال عبد الله بن المبارك
كنت عند مالك وهو يحدثنا فلدغته عقرب ست عشرة مرة وهو يتغير لونه
ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغ من المجلس وتفرق
الناس قلت له يا أبا عبد الله لقد رأيت منك اليوم عجبا قال نعم إنما صبرت إجلالا
لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ابن مهدي مشيت يوما مع مالك إلى
العقيق فسألته عن حديث فانتهرني وقال لي كنت في عيني أجل من أن تسأل
عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نمشي وسأله جرير بن عبد الحميد
القاضي عن حديث وهو قائم فأمر بحبسه فقيل له إنه قاض فقال القاضي أحق من
أدب. وذكر أن هشام بن الغازي سأل مالكا عن حديث وهو واقف فضربه عشرين
سوطا ثم أشفق عليه فحدثه عشرين حديثا فقال هشام وددت لو زادني سياطا ويزيدني
حديثا. قال عبد الله بن صالح كان مالك والليث لا يكتبان الحديث إلا وهما طاهران
وكان قتادة يستحب أن لا تقرأ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على
وضوء ولا تحدث إلا على طهارة.

فصل

ومن توقيره صلى الله عليه وسلم
وبره بر آله وذريته وأمهات المؤمنين أزواجه كما حض عليه السلام وسلكه السلف
الصالح رضي الله عنهم قال الله تعالى إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت
الآية وقال تعالى وأزواجه أمهاتهم. أخبرنا الشيخ أبو محمد بن أحمد العدل من
كتابه وكتبته من أصله حدثنا أبو الحسن المقرئ الفرغاني حدثتني أم القاسم
بنت الشيخ أبي بكر الخفاف حدثني أبي حدثنا حاتم هو ابن عقيل حدثنا يحيى
هو ابن إسماعيل حدثنا يحيى هو الحماني حدثنا وكيع عن أبيه عن سعيد بن مسروق
عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدكم الله
أهل بيتي ثلاثا قلنا لزيد من أهل بيته قال آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس
وقال عليه السلام إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي

رحمه الله

النبي

عليه

أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما. وقال عليه السلام معرفة آل محمد براءة من
النار وحب آل محمد جواز على الصراط والولاية لآل محمد أمان من العذاب. وقال بعض العلماء
معرفتهم هي معرفة مكانهم من النبي وإذا عرفهم بذلك عرف وجوب حقهم وحرمتهم
بسببه. وعن عمر بن أبي سلمة لما نزلت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت
الآية وذلك في بيت أم سلمة دعا فاطمة وحسنا وحسينا فجللهما بكساء وعلي
خلف ظهره ثم قال اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا
وعن سعد بن أبي وقاص لما نزلت آية المباهلة دعا النبي صلى الله عليه وسلم عليا
وحسنا وحسينا وفاطمة وقال اللهم هؤلاء أهلي. وقال النبي صلى الله عليه وسلم
في علي من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. وقال
فيه لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق. وقال للعباس والذي نفسي بيده
لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله ومن آذى عمي فقد آذاني
وإنما عم الرجل صنو أبيه. وقال للعباس اغد علي يا عم مع ولدك فجمعهم وجللهم
بملاءته وقال هذا عمي وصنو أبي وهؤلاء أهل بيتي فاسترهم من النار كستري
إياهم فأمنت أسكفة الباب وحوائط البيت آمين آمين. وكان يأخذ أسامة
ابن زيد والحسن ويقول اللهم إني أحبهما فأحبهما. وقال أبو بكر ارقبوا محمدا
في أهل بيته. وقال أيضا والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم
أحب إلي أن أصل من قرابتي. وقال صلى الله عليه وسلم أحب الله من أحب حسنا
وحسينا. وقال من أحبني وأحب هذين وأشار إلى حسن وحسين وأباهما وأمهما
كان معي في درجتي يوم القيامة. وقال صلى الله عليه وسلم من أهان قريشا
أهانه الله وقال قدموا قريشا ولا تقدموها. وقال عليه السلام لأم سلمة لا تؤذيني
في عائشة. وعن عقبة بن الحارث رأيت أبا بكر وجعل الحسن على عنقه وهو
يقول بأبي شبيه بالنبي ليس شبيها بعلي وعلي يضحك. وروي عن عبد الله بن حسن
ابن حسن قال أتيت عمر بن عبد العزيز في حاجة فقال لي إذا كانت لك حاجة فأرسل

صلى الله عليه وسلم

فجللهم

أهلي

إلي أو اكتب فإني أستحيي من الله أن يراك على بابه. وعن الشعبي صلى زيد بن ثابت
على جنازة أمه ثم قربت له بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد خل
عنه يا ابن عم رسول الله فقال هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء، فقبل زيد يد ابن عباس
وقال هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ. ورأى ابن عمر محمد بن أسامة بن زيد
فقال ليت هذا عبدي فقيل له هو محمد بن أسامة بن زيد فقال ليت هذا عبدي فقيل له
هو محمد بن أسامة فطأطأ ابن عمر رأسه ونقر بيده الأرض وقال لو رآه رسول الله
لأحبه. وقال الأوزاعي دخلت بنت أسامة بن زيد صاحب رسول الله صلى الله عليه
وسلم على عمر بن عبد العزيز ومعها مولى لها يمسك بيدها فقام لها عمر ومشى إليها
حتى جعل يديها بين يديه ويداه في ثيابه ومشى بها حتى أجلسها على مجلسه وجلس
بين يديها وما ترك لها حاجة إلا قضاها. ولما فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه
لابنه عبد الله في ثلاثة آلاف ولأسامة بن زيد في ثلاثة آلاف وخمسمائة. قال
عبد الله لأبيه لم فضلته فوالله ما سبقني إلى مشهد فقال له لأن زيدا كان أحب
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك وأسامة أحب إليه منك فآثرت حب رسول
الله صلى الله عليه وسلم على حبي. وبلغ معاوية أن كابس بن ربيعة يشبه برسول
الله صلى الله عليه وسلم فلما دخل عليه من باب الدار قام عن سريره وتلقاه وقبل
بين عينيه وأقطعه المرغاب لشبهه صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروي أن
مالكا رحمه الله لما ضرب به جعفر بن سليمان ونال منه ما نال وحمل مغشيا عليه دخل
عليه الناس فأفاق فقال أشهدكم أني جعلت ضاربي في حل فسئل بعد ذلك فقال
خفت أن أموت فألقى النبي ﷺ فأستحيي منه أن يدخل بعض آله النار بسببي. وقيل
إن المنصور أقاده من جعفر فقال أعوذ بالله والله ما ارتفع منها سوط عن جسمي
إلا وقد جعلته في حل لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال أبو بكر بن عياش
لو أتاني أبو بكر وعمر وعلي لبدأت بحاجة علي قبلهما لقرابته من رسول الله صلى الله عليه
وسلم ولأن أخر من السماء إلى الأرض أحب إلي من أن أقدمه عليهما. وقيل لابن عباس يوما ماتت

فلانة لبعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فسجد فقيل له أتسجد في هذه الساعة فقال
أليس قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأيتم آية فاسجدوا وأي آية أعظم من
ذهاب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر وعمر يزوران أم أيمن مولاة
النبي صلى الله عليه وسلم ويقولان كان النبي صلى الله عليه وسلم يزورها ولما
وردت حليمة السعدية على النبي صلى الله عليه وسلم بسط لها رداءه وقضى حاجتها
فلما توفي وفدت على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فصنعا بها مثل ذلك

فصل

ومن توقيره وبره عليه السلام توقير أصحابه وبرهم ومعرفة حقهم والاقتداء بهم
وحسن الثناء عليهم والاستغفار لهم والإمساك عما شجر بينهم ومعاداة من عاداهم
والإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة وضلال الشيعة والمبتدعين القادحة
في أحد منهم وأن يلتمس لهم فيما نقل عنهم من مثل ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن
التأويلات ويخرج لهم أصوب المخارج إذ هم أهل ذلك ولا يذكر أحد منهم بسوء
ولا يغمص عليهم أمر بل تذكر حسناتهم وفضائلهم وحميد سيرهم ويسكت عما وراء
ذلك كما قال عليه السلام إذا ذكر أصحابي فأمسكوا. قال الله تعالى محمد رسول الله
والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم إلى آخر السورة. وقال والسابقون الأولون
من المهاجرين والأنصار. وقال لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة
وقال رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. حدثنا القاضي أبو علي حدثنا أبو الحسين
وأبو الفضل قالا حدثنا أبو يعلى حدثنا أبو علي السنجي حدثنا محمد بن محبوب حدثنا
الترمذي حدثنا الحسن بن الصباح حدثنا سفيان بن عيينة عن زائدة عن عبد
الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر. وقال أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم. وعن
أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل أصحابي مثل الملح في الطعام لا يصلح الطعام
إلا به. وقال الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن
أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله

يوشك أن يأخذه. وقال لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم
ولا نصيفه. وقال من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل
الله منه صرفا ولا عدلا. وقال إذا ذكر أصحابي فأمسكوا. وقال في حديث جابر
إن الله اختار أصحابي على جميع العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لي منهم
أربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعليا فجعلهم خير أصحابي وفي أصحابي كلهم خير.
وقال من أحب عمر فقد أحبني ومن أبغض عمر فقد أبغضني. قال مالك بن أنس وغيره
من أبغض الصحابة وسبهم فليس له في فيء المسلمين حق ونزع بآية الحشر
والذين جاءوا من بعدهم. وقال من غاظه أصحاب محمد فهو كافر قال الله تعالى ليغيظ
بهم الكفار. وقال عبد الله بن المبارك خصلتان من كانتا فيه نجا الصدق
وحب أصحاب محمد عليه السلام. قال أيوب السختياني من أحب أبا بكر فقد أقام
الدين ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل ومن أحب عثمان فقد استضاء بنور الله
ومن أحب عليا فقد أخذ بالعروة الوثقى ومن أحسن الثناء على أصحاب محمد فقد بريء
من النفاق ومن انتقص أحدا منهم فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح
وأخاف أن لا يصعد له عمل إلى السماء حتى يحبهم جميعا ويكون قلبه لهم سليما
وفي حديث خالد بن سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أيها الناس إني راض
عن أبي بكر فاعرفوا ذلك له أيها الناس إني راض عن عمر وعن علي وعن عثمان
وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف فاعرفوا ذلك لهم أيها الناس
إن الله غفر لأهل بدر والحديبية. أيها الناس احفظوني في أصحابي وأصهاري وأختاني
لا يطالبنكم أحد منهم بمظلمة فإنها مظلمة لا توهب في القيامة غدا. وقال رجل
للمعافى بن عمران أين عمر بن عبد العزيز من معاوية فغضب وقال لا يقاس
بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه
على وحي الله. وأتي النبي صلى الله عليه وسلم بجنازة رجل فلم يصل عليه وقال كان
يبغض عثمان فأبغضه الله. وقال عليه السلام في الأنصار اعفوا عن مسيئهم واقبلوا

من محسنهم. وقال احفظوني في أصحابي وأصهاري فإنه من حفظني فيهم حفظه الله في
الدنيا والآخرة ومن لم يحفظني فيهم تخلى الله منه ومن تخلى الله منه يوشك أن يأخذه.
وعنه عليه السلام من حفظني في أصحابي كنت له حافظا يوم القيامة. وقال من
حفظني في أصحابي ورد علي الحوض ومن لم يحفظني في أصحابي لم يرد علي الحوض
ولم يرني إلا من بعيد. قال مالك رحمه الله هذا النبي مؤدب الخلق الذي هدانا الله به
وجعله رحمة للعالمين يخرج في جوف الليل إلى البقيع فيدعو لهم ويستغفر كالمودع
لهم وبذلك أمره الله وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بحبهم وموالاتهم ومعاداة من
عاداهم. وروي عن كعب ليس أحد من أصحاب محمد إلا له شفاعة يوم القيامة وطلب
من المغيرة بن نوفل أن يشفع له يوم القيامة. قال سهل التستري لم يؤمن بالرسول
من لم يوقر أصحابه ولم يعز أوامره.

فصل

ومن إعظامه وإكباره إعظام
جميع أسبابه وإكرام مشاهده وأمكنته من مكة والمدينة ومعاهده وما لمسه
عليه السلام أو عرف به. وروي عن صفية بنت نجدة قالت كان لأبي محذورة قصة
في مقدم رأسه إذا قعد وأرسلها أصابت الأرض فقيل له ألا تحلقها فقال لم أكن بالذي
أحلقها وقد مسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده. وكانت في قلنسوة خالد بن
الوليد شعرات من شعره عليه السلام فسقطت قلنسوته في بعض حروبه فشد عليها
شدة أنكر عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كثرة من قتل فيها فقال لم
أفعلها بسبب القلنسوة بل لما تضمنته من شعره عليه السلام لئلا أسلب بركتها
وتقع في أيدي المشركين. ورئي ابن عمر واضعا يده على مقعد النبي صلى الله عليه
وسلم من المنبر ثم وضعها على وجهه. ولهذا كان مالك رحمه الله لا يركب بالمدينة دابة
وكان يقول أستحيي من الله أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر
دابة. وروي أنه وهب للشافعي كراعا كثيرا كان عنده فقال له الشافعي أمسك
منها دابة فأجابه بمثل هذا الجواب. وقد حكى أبو عبد الرحمن السلمي عن أحمد بن
فضلويه الزاهد وكان من الغزاة الرماة أنه قال ما مسست القوس بيدي إلا على

حمارة. ومن بلغني أن النبي عليه السلام أخبر العوسي بره. وقد أفتى مالك رحمه الله فيمن قال
تربة المدينة ردية بضربه ثلاثين درة وأمر بحبسه وكان له قدر وقال ما أحوجه
إلى ضرب عنقه تربة دفن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم يزعم أنها غير طيبة
وفي الصحيح أنه قال عليه السلام في المدينة من أحدث فيها حدثا أو آوى محدثا
فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل وحكي
أن جهجاها الغفاري أخذ قضيب النبي صلى الله عليه وسلم من يد عثمان رضي الله
عنه وتناوله ليكسره على ركبته فصاح به الناس فأخذته الأكلة في ركبته
فقطعها ومات قبل الحول وقال عليه السلام من حلف على منبري كاذبا فليتبوأ
مقعده من النار. وحدثت أن أبا الفضل الجوهري لما ورد المدينة زائرا وقرب من
بيوتها ترجل ومشى باكيا منشدا

ولما رأينا رسم من لم يدع لنا فؤادا لعرفان الرسوم ولا لبا
نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة لمن بان عنه أن نلم به ركبا

وحكي عن بعض المريدين أنه لما أشرف على مدينة الرسول أنشأ يقول متمثلا

رفع الحجاب لنا فلاح لناظر قمر تقطع دونه الأوهام
وإذا المطي بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرحال حرام
قربننا من خير من وطئ الثرى فلها علينا حرمة وذمام

وحكي عن بعض المشايخ أنه حج ماشيا فقيل له في ذلك فقال العبد الآبق
يأتي إلى بيت مولاه راكبا لو قدرت أن أمشي على رأسي ما مشيت على قدمي
قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه وجدير لمواطن عمرت بالوحي
والتنزيل وتردد بها جبريل وميكائيل وعرجت منها الملائكة والروح وضجت
عرصاتها بالتقديس والتسبيح واشتملت تربتها على سيد البشر وانتشر عنها
من دين الله وسنة رسوله ما انتشر مدارس آيات ومساجد وصلوات ومشاهد
الفضائل والخيرات ومعاهد البراهين والمعجزات ومناسك الدين ومشاعر المسلمين

ومواقف سيد المرسلين ومتبوأ خاتم النبيين حيث انفجرت النبوة وأين فاض
عبابها ومواطن مهبط الرسالة وأول أرض مس جلد المصطفى ترابها أن تعظم
عرصاتها وتتنسم نفحاتها وتقبل ربوعها وجدرانها وأنشد

يا دار خير المرسلين ومن به هدي الأنام وخص بالآيات
عندي لأجلك لوعة وصبابة وتشوق متوقد الجمرات
وعلي عهد إن ملأت محاجري من تلكم الجدرات والعرصات
لأعفرن مصون شيبي بينها من كثرة التقبيل والرشفات
لولا العوادي والأعادي زرتها أبدا ولو سحبا على الوجنات
لكن سأهدي من حفيل تحيتي لقطين تلك الدار والحجرات
أذكى من المسك المفتق نفحة تغشاه بالآصال والبكرات
وتخصه بزواكي الصلوات ونوامي التسليم والبركات

الباب الرابع في حكم الصلاة عليه والتسليم وفرض ذلك

وفضيلته **قال الله** تعالى إن الله وملائكته يصلون على النبي الآية قال ابن عباس
معناه إن الله وملائكته يباركون على النبي وقيل إن الله يترحم على النبي
وملائكته يدعون له قال المبرد وأصل الصلاة الترحم فهي من الله رحمة ومن الملائكة
رقة واستدعاء للرحمة من الله وقد ورد في الحديث صفة صلاة الملائكة على
من جلس ينتظر الصلاة اللهم اغفر له اللهم ارحمه فهذا دعاء وقال بكر القشيري
الصلاة من الله تعالى لمن دون النبي رحمة وللنبي تشريف وزيادة تكرمة وقال أبو
العالية صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء **قال القاضي**
أبو الفضل رضي الله عنه وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم في حديث تعليم الصلاة
عليه بين لفظ الصلاة ولفظ البركة فدل أنهما بمعنيين وأما التسليم الذي أمر الله تعالى
به عباده فقال القاضي أبو بكر بن بكير نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه
وسلم فأمر الله أصحابه أن يسلموا عليه وكذلك من بعدهم أمروا أن يسلموا على

النبي عند حضوره قبره وعند ذكره. وفي معنى السلام عليه ثلاثة وجوه أحدها
السلامة لك ومعك وتكون السلامة مصدرا كاللذاذ واللذاذة. الثاني أي السلام
على حفظك ورعايتك متولّ له وكفيل به ويكون هنا السلام اسم الله. الثالث أن
السلام بمعنى المسالمة له والانقياد كما قال فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر
بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما

فصل

اعلم أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فرض على الجملة غير محدد بوقت
لأمر الله تعالى بالصلاة عليه وحمل الأئمة والعلماء له على الوجوب وأجمعوا عليه وحكى
أبو جعفر الطبري أن محمل الآية عنده على الندب وادعى فيه الإجماع ولعله فيما زاد
على مرة. والواجب منه الذي يسقط به الحرج ومأثم ترك الفرض مرة كالشهادة له
بالنبوة وما عدا ذلك فمندوب مرغب فيه من سنن الإسلام وشعار أهله. قال
القاضي أبو الحسن بن القصار المشهور عن أصحابنا أن ذلك واجب في الجملة على الإنسان
وفرض عليه أن يأتي بها مرة من دهره مع القدرة على ذلك. وقال القاضي أبو بكر
ابن بكير افترض الله على خلقه أن يصلوا على نبيه ويسلموا تسليما ولم يجعل
ذلك لوقت معلوم فالواجب أن يكثر المرء منها ولا يغفل عنها. قال القاضي أبو محمد
ابن نصر الصلاة على النبي واجبة في الجملة قال القاضي أبو عبد الله محمد بن سعيد
ذهب مالك وأصحابه وغيرهم من أهل العلم أن الصلاة على النبي فرض على الجملة
بعقد الإيمان لا يتعين في الصلاة وأن من صلى عليه مرة واحدة من عمره سقط
الفرض عنه وقال أصحاب الشافعي الفرض منها الذي أمر الله به ورسوله عليه السلام
هو في الصلاة قالوا وأما في غيرها فلا خلاف أنها غير واجبة. وأما في الصلاة
فحكى الإمامان أبو جعفر الطبري والطحاوي وغيرهما إجماع جميع المتقدمين
والمتأخرين من علماء الأمة على أن الصلاة على النبي في التشهد غير واجبة وشذ
الشافعي في ذلك فقال من لم يصل على النبي من بعد التشهد الأخير وقبل السلام
فصلاته فاسدة وإن صلى عليه قبل ذلك لم تجزه ولا سلف له في هذا القول ولا سنة

يتبعها. وقد بالغ في إنكار هذه المسألة عليه لمخالفته فيها من تقدمه جماعة
وشنعوا عليه الخلاف فيها منهم الطبري والقشيري وغير واحد. وقال أبو بكر بن
المنذر يستحب أن لا يصلي أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم
فإن ترك ذلك تارك فصلاته مجزية في مذهب مالك وأهل المدينة وسفيان الثوري
وأهل الكوفة من أصحاب الرأي وغيرهم وهو قول جل أهل العلم وحكي عن مالك
وسفيان أنها في التشهد الأخير مستحبة وأن تاركها في التشهد مسيء وشذ
الشافعي فأوجب على تاركها في الصلاة الإعادة وأوجب إسحاق الإعادة مع تعمد
تركها دون النسيان وحكى أبو محمد بن أبي زيد عن محمد بن المواز أن الصلاة
على النبي فريضة قال أبو محمد يريد ليست من فرائض الصلاة وقاله محمد بن عبد الحكم
وغيره. وحكى ابن القصار وعبد الوهاب أن محمد بن المواز يراها فريضة في الصلاة
كقول الشافعي وقد خالف الخطابي من أصحاب الشافعي وغيره الشافعي في هذه
المسألة. قال الخطابي وليست بواجبة في الصلاة وهو قول جماعة الفقهاء إلا
الشافعي ولا أعلم له فيها قدوة. والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عمل السلف
الصالح قبل الشافعي وإجماعهم عليه وقد شنع الناس عليه هذه المسألة جدا
وهذا تشهد ابن مسعود الذي اختاره الشافعي وهو الذي علمه النبي صلى الله عليه
وسلم ليس فيه الصلاة على النبي وكذلك كل من روى التشهد عن النبي كأبي
هريرة وابن عباس وجابر وابن عمر وأبي سعيد الخدري وأبي موسى الأشعري
وعبد الله بن الزبير لم يذكروا فيه صلاة على النبي. وقد قال ابن عباس وجابر كان
النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن ونحوه عن
أبي سعيد. وقال ابن عمر كان أبو بكر يعلمنا التشهد على المنبر كما تعلمون الصبيان
في الكتاب وعلمه أيضا على المنبر عمر بن الخطاب. وفي الحديث لا صلاة لمن
لم يصل علي قال ابن القصار معناه كاملة أو لمن لم يصل علي مرة في عمره. وضعف
أهل الحديث كلهم رواية هذا الحديث. وفي حديث أبي جعفر عن أبي مسعود

عن النبي صلى الله عليه وسلم من صلى صلاة لم يصل فيها علي وعلى أهل بيتي لم تقبل منه
وقد روي موقوفا من قول أبي مسعود. قال الدارقطني الصواب أنه من قول أبي جعفر
محمد بن علي بن الحسين لو صليت صلاة لم أصل فيها على النبي ولا على أهل بيته لرأيت أنها لا
تتم ورواه عن أبي جعفر جابر الجعفي وهو ضعيف

فصل في
المواطن التي يستحب فيها الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم ويرغب
في ذلك في تشهد الصلاة كما قدمناه، وذلك بعد التشهد وقبل الدعاء، حدثنا القاضي
أبو علي رحمه الله بقراءتي عليه قال حدثنا الإمام أبو القاسم البلخي قال حدثنا
الفارسي عن أبي القاسم الخزاعي عن أبي الهيثم عن أبي عيسى الحافظ قال حدثنا
محمود بن غيلان حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ حدثنا حيوة بن شريح حدثني
أبو هانئ الخولاني أن عمرو بن مالك الجنبي أخبره أنه سمع فضالة بن عبيد يقول
سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو في صلاته فلم يصل على النبي صلى الله
عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم عجل هذا ثم دعاه فقال له ولغيره إذا
صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه ثم ليصل على النبي ثم ليدع بعد بما
شاء. ويروى من غير هذا السند بتمجيد الله وهو أصح. وعن عمر بن الخطاب
قال الصلاة والدعاء معلق بين السماء والأرض ولا يصعد إلى الله منه شيء حتى
يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم. وعن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم
بمعناه وقال وعلى آل محمد. وروي أن الدعاء محجوب حتى يصلي الداعي على النبي
صلى الله عليه وسلم. وعن ابن مسعود إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئا فليبدأ
بمدحه والثناء عليه بما هو أهله ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم ليسأل
فإنه أجدر أن ينجح. وعن جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجعلوني
كقدح الراكب فإن الراكب يملأ قدحه ثم يضعه ويرفع متاعه فإن احتاج
إلى شراب شربه أو الوضوء توضأ وإلا أهراقه، ولكن اجعلوني في أول الدعاء
وأوسطه وآخره. وقال ابن عطاء للدعاء أركان وأجنحة وأسباب وأوقات فإن

فإن وافق أركانه قوي وإن وافق أجنحته طار في السماء وإن وافق مواقيته
فاز وإن وافق أسبابه أنجح. فأركانه حضور القلب والرقة والاستكانة والخشوع
وتعلق القلب بالله وقطعه من الأسباب، وأجنحته الصدق، ومواقيته الأسحار،
وأسبابه الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم. وفي الحديث الدعاء بين الصلاتين
لا يرد. وفي حديث آخر كل دعاء محجوب دون السماء فإذا جاءت الصلاة
على صعد الدعاء. وفي دعاء ابن عباس الذي رواه عنه حنش فقال في آخره واستجب
دعائي ثم تبدأ بالصلاة على النبي أن تقول اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك
أفضل ما صليت على أحد من خلقك أجمعين آمين. ومن مواطن الصلاة عليه عند
ذكره وسماع اسمه أو كتابه أو عند الأذان. وقد قال عليه السلام رغم أنف
رجل ذكرت عنده فلم يصل علي. وكره ابن حبيب ذكر النبي عند الذبح
وكره سحنون الصلاة عليه عند التعجب وقال لا يصلى عليه إلا على طريق الاحتساب
وطلب الثواب. قال أصبغ عن ابن القاسم موطنان لا يذكر فيهما إلا الله الذبيحة والعطاس
فلا تقل فيهما بعد ذكر الله محمد رسول الله ولو قال بعد ذكر الله صلى الله على محمد
لم تكن تسمية له مع الله. وقاله أشهب. قال ولا ينبغي أن تجعل الصلاة على النبي
فيه استنانا. وروى النسائي عن أوس بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم الأمر
بالإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة. ومن مواطن الصلاة عليه والسلام دخول
المسجد قال أبو إسحاق بن شعبان وينبغي لمن دخل المسجد أن يصلي على النبي صلى الله
عليه وسلم وعلى آله ويترحم عليه وعلى آله ويبارك عليه وعلى آله ويسلم عليه تسليما
ويقول اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فعل مثل ذلك
وجعل موضع رحمتك فضلك. وقال عمرو بن دينار في قوله فإذا دخلتم بيوتا
فسلموا على أنفسكم قال إن لم يكن في البيت أحد فقل السلام على النبي ورحمة
الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة
الله وبركاته. قال ابن عباس المراد بالبيوت هنا المساجد. وقال النخعي إذا لم يكن

في المسجد أحد فليقل السلام على رسول الله وإذا لم يكن في البيت أحد فليقل السلام علينا
وعلى عباد الله الصالحين. وعن علقمة إذا دخلت المسجد أقول السلام عليك أيها
النبي ورحمة الله وبركاته صلى الله وملائكته على محمد ونحوه عن كعب إذا
دخل وإذا خرج ولم يذكر الصلاة. واحتج ابن شعبان لما ذكره بحديث فاطمة
بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفعله إذا
دخل المسجد. ومثله عن أبي بكر بن عمرو بن حزم وذكر السلام والرحمة
وقد ذكرنا هذا الحديث آخر القسم والاختلاف في ألفاظه. ومن مواطن
الصلاة عليه الصلاة على الجنائز وذكر عن أبي أمامة أنها من السنة. ومن مواطن
الصلاة التي مضى عليها عمل الأمة ولم تنكرها الصلاة على النبي وآله في
الرسائل وما يكتب بعد البسملة ولم يكن هذا في الصدر الأول وأحدث عند
ولاية بني هاشم فمضى به عمل الناس في أقطار الأرض ومنهم من يختم به أيضا
الكتاب. وقال عليه السلام من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له
ما دام اسمي في ذلك الكتاب. ومن مواطن السلام على النبي تشهد الصلاة.
حدثنا أبو القاسم خلف بن إبراهيم المقرئ الخطيب رحمه الله وغيره قال حدثتنا كريمة بنت
محمد قالت حدثنا أبو الهيثم حدثنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا أبو نعيم
حدثنا الأعمش عن شقيق بن سلمة عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه
وسلم قال إذا صلى أحدكم فليقل التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك
أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإنكم
إذا قلتموها أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض هذا أحد مواطن التسليم
عليه وسنته أول التشهد وقد روى مالك عن ابن عمر أنه كان يقول إذا فرغ من
تشهده وأراد أن يسلم واستحب مالك في المبسوط أن يسلم بمثل ذلك قبل السلام
قال محمد بن مسلمة أراد ما جاء عن عائشة وابن عمر أنهما كانا يقولان عند سلامهما
السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين

السلام عليكم. واستحب أهل العلم أن ينوي الإنسان حين سلامه كل عبد صالح
في السماء والأرض من الملائكة وبني آدم والجن قال مالك في المجموعة وأحب
للمأموم إذا سلم إمامه أن يقول السلام على النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا
وعلى عباد الله الصالحين السلام عليكم

فصل في كيفية الصلاة على النبي والتسليم.

حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر الفقيه بقراءتي عليه حدثنا
القاضي أبو الأصبغ حدثنا أبو عبد الله بن عتاب حدثنا أبو بكر بن واقد وغيره
حدثنا أبو عيسى حدثنا عبيد الله حدثنا يحيى حدثنا مالك عن عبد الله بن أبي بكر
ابن حزم عن أبيه عن عمرو بن سليم الزرقي أنه قال أخبرني أبو حميد الساعدي
أنهم قالوا يا رسول الله كيف نصلي عليك فقال قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه
وذريته كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على
آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وفي رواية مالك عن أبي مسعود الأنصاري قال قولوا
اللهم صل على محمد وعلى آله كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد كما باركت على
آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم. وفي رواية كعب
ابن عجرة اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وآل
محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد. وعن عقبة بن عمرو في حديثه اللهم
صل على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد. وفي رواية أبي سعيد الخدري اللهم صل
على محمد عبدك ورسولك وذكر معناه. وحدثنا القاضي أبو عبد الله التميمي
سماعا عليه وأبو علي الحسن بن طريف النحوي بقراءتي عليه قالا حدثنا أبو عبد الله
ابن سعدون الفقيه قال حدثنا أبو بكر المطوعي قال حدثنا أبو عبد الله الحاكم
عن أبي بكر بن أبي دارم الحافظ عن علي بن أحمد العجلي عن حرب بن الحسن عن يحيى
ابن المساور عن عمرو بن خالد عن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه علي عن أبيه
الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب قال عدهن في يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقال عدهن في يدي جبريل وقال هكذا نزلت من عند رب العزة. اللهم صل على محمد

وعلى آل محمد كما صليت على إبرهيم وعلى آل إبرهيم إنك حميد مجيد اللهم وترحم على
محمد وعلى آل محمد كما ترحمت على إبرهيم وعلى آل إبرهيم إنك حميد مجيد اللهم وتحنن
على محمد وعلى آل محمد كما تحننت على إبرهيم وعلى آل إبرهيم إنك حميد مجيد اللهم
وسلم على محمد وعلى آل محمد كما سلمت على إبرهيم وعلى آل إبرهيم إنك حميد مجيد. وعن
أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى
علينا أهل البيت فليقل اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المومنين وذريته
وأهل بيته كما صليت على إبرهيم إنك حميد مجيد. وفي رواية زيد بن خارجة
الأنصاري سألت النبي صلى الله عليه وسلم كيف نصلي عليك فقال صلوا علي
واجتهدوا في الدعاء ثم قولوا اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبرهيم
إنك حميد مجيد. وعن سلامة الكندي كان علي يعلمنا الصلاة على النبي اللهم داحي
المدحوات وباري المسموكات اجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك ورأفة تحننك
على محمد عبدك ورسولك الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق والمعلن الحق بالحق والدامغ
لجيشات الأباطيل كما حمل فاضطلع بأمرك بطاعتك مستوفزا في مرضاتك واعيا
لوحيك حافظا لعهدك ماضيا على نفاذ أمرك حتى أورى قبسا لقابس آلاء الله
تصل بأهله أسبابه به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم موضحات الأعلام
ونائرات الأحكام ومنيرات الإسلام فهو أمينك المامون وخازن علمك المخزون
وشهيدك يوم الدين وبعيثك نعمة ورسولك بالحق رحمة. اللهم افسح له في عدنك
واجزه مضاعفات الخير من فضلك مهنآت له غير مكدرات من فوز ثوابك
المحلول وجزيل عطائك المعلول. اللهم أعل على بناء الناس بناءه وأكرم مثواه
لديك ونزله وأتمم له نوره واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة ومرضي المقالة
ذا منطق عدل وخطة فصل وبرهان عظيم. وعنه أيضا في الصلاة على النبي
صلى الله عليه وسلم إن الله وملائكته يصلون على النبي الآية لبيك اللهم ربي وسعديك
صلوات الله البر الرحيم والملائكة المقربين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين

وما سبح لك من شيء يا رب العلمين على محمد بن عبد الله خاتم النبيين وسيد المرسلين
وإمام المتقين ورسول رب العلمين الشاهد البشير الداعي إليك بإذنك السراج المنير
وعليه السلام. وعن عبد الله بن مسعود اللهم اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك على
سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير ورسول
الرحمة اللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطه فيه الأولون والآخرون اللهم صل على محمد
وعلى آل محمد كما صليت على إبرهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد
كما باركت على إبرهيم وآل إبرهيم إنك حميد مجيد. وكان الحسن البصري يقول من
أراد أن يشرب بالكأس الأوفى من حوض المصطفى فليقل اللهم صل على محمد وعلى
آله وأصحابه وأولاده وأزواجه وذريته وأهل بيته وأصهاره وأنصاره وأشياعه
ومحبيه وأمته وعلينا معهم أجمعين يا أرحم الراحمين. وعن طاوس عن ابن عباس
أنه كان يقول اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى وارفع درجته العليا وآته سؤله في
الآخرة والأولى كما آتيت إبرهيم وموسى. وعن وهيب بن الورد أنه كان يقول
في دعائه اللهم أعط محمدا أفضل ما سألك لنفسه وأعط محمدا أفضل ما سألك له أحد
من خلقك وأعط محمدا أفضل ما أنت مسؤول له إلى يوم القيامة. وعن ابن مسعود
أنه كان يقول إذا صليتم على النبي عليه السلام فأحسنوا الصلاة عليه فإنكم
لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه وقولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك
على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير
وقائد الخير ورسول الرحمة اللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطه فيه الأولون والآخرون
اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبرهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك
على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبرهيم إنك حميد مجيد. وما يروى في تطويل
الصلاة وتكثير الثناء على أهل البيت وغيرهم كثير وقوله عليه السلام والسلام
كما قد علمتم هو ما علمهم في التشهد من قوله السلام عليك أيها النبي ورحمة الله
وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وفي تشهد علي السلام على

صلى الله عليه وسلم

نبي الله، السلام على أنبياء الله ورسله، السلام على رسول الله، السلام على محمد بن عبد الله،
السلام علينا وعلى المؤمنين والمؤمنات من غاب منهم ومن شهد، اللهم اغفر لمحمد وتقبل
شفاعته، واغفر لأهل بيته، واغفر لي ولوالدي وما ولدا، وارحمهما، السلام علينا وعلى
عباد الله الصالحين، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. جاء في هذا الحديث
عن علي الدعاء للنبي بالمغفرة، وفي حديث الصلاة عنه أيضا قبل الدعاء له بالرحمة،
ولم يأت في غيره من الأحاديث المرفوعة المعروفة، وقد ذهب أبو عمر بن عبد البر
وغيره إلى أنه لا يدعى للنبي صلى الله عليه وسلم بالرحمة، وإنما يدعى له بالصلاة
والبركة التي تختص به، ويدعى لغيره بالرحمة والمغفرة. وقد ذكر أبو محمد بن أبي زيد
في الصلاة على النبي: اللهم ارحم محمدا وآل محمد كما ترحمت على إبراهيم وآل إبراهيم،
ولم يأت هذا في حديث صحيح، وحجته قوله في السلام: السلام عليك أيها النبي ورحمة
الله وبركاته.

فصل في فضيلة الصلاة على النبي والتسليم عليه والدعاء له

حدثنا أحمد بن محمد الشيخ الصالح من كتابه، حدثنا القاضي يونس
ابن مغيث، حدثنا أبو بكر بن معاوية، حدثنا النسائي، أخبرنا سويد بن نصر، أخبرنا
عبد الله عن حيوة بن شريح قال: أخبرني كعب بن علقمة أنه سمع عبد الرحمن بن جبير
مولى نافع أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، وصلوا علي، فإنه من صلى علي صلى الله عليه
عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله
وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة. وروى أنس بن
مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشر صلوات
وحط عنه عشر خطيئات ورفع له عشر درجات. وفي رواية: وكتب له عشر
حسنات. وعن أنس عنه عليه السلام: أن جبريل ناداني فقال: من صلى عليك صلاة
صلى الله عليه عشرا ورفعه عشر درجات. ومن رواية عبد الرحمن بن عوف عنه
عليه السلام: لقيت جبريل فقال لي: إني أبشرك أن الله يقول: من سلم عليك سلمت

عليه، ومن صلى عليك صليت عليه. ونحوه من رواية أبي هريرة ومالك بن أوس بن
الحدثان وعبيد الله بن أبي طلحة. وعن زيد بن الحباب: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم
يقول: من قال اللهم صل على محمد وأنزله المنزل المقرب عندك يوم القيامة وجبت له
شفاعتي. وعن ابن مسعود: أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة. وعن
أبي هريرة عنه عليه السلام: من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له
ما بقي اسمي في ذلك الكتاب. وعن عامر بن ربيعة: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم
يقول: من صلى علي صلاة صلت عليه الملائكة ما صلى علي، فليقلل من ذلك عبد
أو ليكثر. وعن أبي بن كعب: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربع
الليل قام فقال: يا أيها الناس اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت
بما فيه. فقال أبي بن كعب: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك
من صلاتي؟ قال: ما شئت. قال: الربع؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير. قال: النصف؟ قال:
ما شئت، وإن زدت فهو خير. قال: الثلثين؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير. قال: يا رسول
الله، فأجعل صلاتي كلها لك؟ قال: إذا تكفى ويغفر ذنبك. وعن أبي طلحة: دخلت
على النبي صلى الله عليه وسلم فرأيت من بشره وطلاقته ما لم أره، فسألته فقال:
وما يمنعني وقد خرج جبريل آنفا فأتاني ببشارة من ربي: أن الله تعالى بعثني إليك
أبشرك أنه ليس أحد من أمتك يصلي عليك إلا صلى الله عليه وملائكته بها عشرا.
وعن جابر بن عبد الله قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: من قال حين يسمع النداء: اللهم
رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما
محمودا الذي وعدته، حلت له الشفاعة يوم القيامة. وعن سعد بن أبي وقاص:
من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده
ورسوله، رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا، غفر له. وروى ابن وهب
أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من سلم علي عشرا فكأنما أعتق رقبة. وفي بعض
الآثار: ليردن علي أقوام ما أعرفهم إلا بكثرة صلاتهم علي. وفي آخر: إن أنجاكم

يوم القيامة من أنجاكم منها ومواطنها أكثركم علي صلاة . وعن أبي بكر الصلاة على
النبي صلى الله عليه وسلم امحق للذنوب من الماء البارد للنار والسلام عليه أفضل من
عتق الرقاب

فصل في ذم من لم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم وإثمه

حدثنا القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله حدثنا أبو الفضل بن خيرون وأبو الحسين
الصيرفي قالا حدثنا أبو يعلى حدثنا السنجي حدثنا محمد بن محبوب حدثنا أبو عيسى
حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا ربعي بن إبراهيم عن عبد الرحمن بن إسحاق
عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم
أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي ورغم أنف رجل دخل رمضان ثم انسلخ
قبل أن يغفر له ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة . قال
عبد الرحمن وأحسبه قال أو أحدهما وفي حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم
صعد المنبر فقال آمين ثم صعد فقال آمين ثم صعد فقال آمين فسأله معاذ عن ذلك
فقال إن جبريل صلى الله عليه وسلم أتاني فقال يا محمد من سميت بين يديه فلم يصل
عليك فمات فدخل النار فأبعده الله فقل آمين فقلت آمين وقال فيمن أدرك رمضان
فلم يقبل منه فمات مثل ذلك ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات مثله
وعن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عنه عليه السلام أنه قال البخيل الذي ذكرت عنده فلم
يصل علي وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من ذكرت عنده فلم يصل علي أخطئ به طريق الجنة . وعن علي بن أبي طالب أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن البخيل كل البخيل من ذكرت عنده فلم يصل
علي . وعن أبي هريرة قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم أيما قوم جلسوا مجلسا (مجلسهم)
ثم تفرقوا قبل أن يذكروا الله ويصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم كانت عليهم
من الله ترة إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم . وعن أبي هريرة من نسي الصلاة
علي نسي طريق الجنة . وعن قتادة عنه عليه السلام من الجفاء أن أذكر عند
الرجل فلا يصلي علي . وعن جابر عنه عليه السلام ما جلس قوم مجلسا ثم تفرقوا

على غير صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم إلا تفرقوا على أنتن من ريح الجيفة
وعن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يجلس قوم مجلسا لا يصلون فيه
على النبي (صلى الله عليه وسلم) إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب . وحكى أبو
عيسى الترمذي عن بعض أهل العلم قال إذا صلى الرجل على النبي مرة في المجلس أجزأ
عنه ما كان في ذلك المجلس

فصل في تخصيصه عليه السلام بتبليغ صلاة من صلى عليه أو سلم من الأنام

حدثنا القاضي أبو عبد الله التميمي حدثنا
الحسين بن محمد حدثنا أبو عمر الحافظ حدثنا ابن عبد المؤمن حدثنا ابن داسه
حدثنا أبو داود حدثنا ابن عوف حدثنا المقرئ حدثنا حيوة عن أبي صخر حميد
ابن زياد عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام وذكر
أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى
علي عند قبري سمعته ومن صلى علي نائيا بلغته . وعن ابن مسعود إن لله ملائكة
سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام . ونحوه عن أبي هريرة وعن ابن عمر
أكثروا من السلام على نبيكم كل جمعة فإنه يؤتى به منكم في كل جمعة . وفي
رواية فإن أحدا لا يصلي علي إلا عرضت صلاته علي حين يفرغ منها . وعن الحسن (رضي الله عنه)
عنه عليه السلام حيثما كنتم فصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني . وعن ابن
عباس ليس أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يسلم عليه ويصلي عليه إلا بلغه (صلى الله عليه وسلم)
وذكر بعضهم أن العبد إذا صلى على النبي عرض عليه اسمه . وعن الحسن بن علي
إذا دخلت المسجد فسلم على النبي فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تتخذوا
بيتي عيدا ولا تتخذوا بيوتكم قبورا وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم (حيثما كنتم)
وفي حديث أوس أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة فإن صلاتكم معروضة علي
وعن سليمان بن سحيم رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله هؤلاء
الذين يأتونك فيسلمون عليك أتفقه سلامهم قال نعم وأرد عليهم . وعن ابن شهاب

بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أكثروا علي من الصلاة في الليلة الزهراء
واليوم الأزهر فإنهما يؤديان عنكم وإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء وما من مسلم
يصلي علي إلا حملها ملك حتى يؤديها إلي ويسميه حتى إنه ليقول إن فلانا يقول كذا
وكذا

فصل في الاختلاف في الصلاة على غير النبي وسائر الأنبياء عليهم السلام

قال الفقيه القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: عامة أهل العلم
متفقون على جواز الصلاة على غير النبي عليه السلام وروي عن ابن عباس أنه
لا تجوز الصلاة على غير النبي صلى الله عليه وسلم وروي عنه لا تنبغي الصلاة
على أحد إلا على النبيين وقال سفيان يكره أن يصلى إلا على نبي ووجدت بخط
بعض شيوخي مذهب مالك أنه لا يجوز أن يصلى على أحد من الأنبياء سوى محمد
عليه السلام وهذا غير معروف من مذهبه وقد قال مالك في المبسوطة ليحيى بن
إسحاق أكره الصلاة على غير الأنبياء وما ينبغي لنا أن نتعدى ما أمرنا به. قال يحيى
ابن يحيى لست آخذ بقوله ولا بأس بالصلاة على الأنبياء كلهم وعلى غيرهم واحتج
بحديث ابن عمر وبما جاء في حديث تعليم النبي الصلاة عليه وفيه وعلى أزواجه وعلى
آله. وقد وجدت معلقا عن أبي عمران الفاسي روي عن ابن عباس كراهة الصلاة
على غير النبي صلى الله عليه وسلم قال وبه نقول ولم يكن يستعمل فيما مضى وقد روى
عبد الرزاق عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صلوا على أنبياء
الله ورسله فإن الله بعثهم كما بعثني. قالوا والأسانيد عن ابن عباس لينة
والصلاة في لسان العرب بمعنى الترحم والدعاء وذلك على الإطلاق حتى يمنع منه
حديث صحيح أو إجماع وقد قال تعالى هو الذي يصلي عليكم وملائكته الآية وقال
خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم الآية وقال أولئك عليهم
صلوات من ربهم ورحمة وقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبي أوفى
وكان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال اللهم صل على آل فلان. وفي حديث الصلاة
اللهم صل على محمد وعلى آل محمد قيل أتباعه وقيل أمته وقيل الأتباع والرهط
والعشيرة وقيل آل بيته وقيل آل الرجل ولده وقيل قومه وقيل أهله الذين حرمت عليهم
الصدقة. وفي رواية أنس سئل النبي صلى الله عليه وسلم من آل محمد قال كل تقي
ويجيء على مذهب الحسن أن المراد بآل محمد نفسه وأنه كان يقول في صلاته على النبي
اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على آل أحمد يريد نفسه لأنه كان لا يخل بالفرض ويأتي
بالنفل لأن الفرض الذي أمر الله به هو الصلاة على محمد نفسه وهذا مثل قوله عليه السلام
لقد أوتي مزمارا من مزامير آل داود يريد من مزامير داود. وفي حديث أبي حميد
الساعدي في الصلاة اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته. وفي حديث ابن عمر
أنه كان يصلي على النبي وعلى أبي بكر وعمر ذكره مالك في الموطأ من رواية
غيره ويدعو لأبي بكر وعمر وروى ابن وهب عن أنس بن مالك كنا ندعو لأصحابنا
بالغيب فنقول اللهم اجعل منك على فلان صلوات قوم أبرار الذين يقومون بالليل
ويصومون بالنهار. **قال القاضي** وفقه الله والذي ذهب إليه المحققون
وأميل إليه ما قاله مالك وسفيان رحمهما الله وروي عن ابن عباس واختاره غير
واحد من الفقهاء والمتكلمين أنه لا يصلى على غير الأنبياء عند ذكرهم بل هو شيء
يختص به الأنبياء توقيرا لهم وتعزيزا كما يختص الله تعالى عند ذكره بالتنزيه
والتقديس والتعظيم ولا يشاركه فيه غيره كذلك يجب تخصيص النبي عليه
السلام وسائر الأنبياء بالصلاة والتسليم ولا يشارك فيه سواهم كما أمر الله
تعالى بقوله صلوا عليه وسلموا تسليما ويذكر من سواهم من الأئمة وغيرهم
بالغفران والرضى كما قال تعالى يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا
بالإيمان وقال والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم وأيضا فهو أمر لم يكن
معروفا في الصدر الأول كما قال أبو عمران وإنما أحدثه الرافضة والمتشيعة
في بعض الأئمة فشاركوهم عند الذكر لهم بالصلاة وساووهم بالنبي عليه السلام
في ذلك. وأيضا فإن التشبه بأهل البدع منهي عنه فتجب مخالفتهم فيما التزموه
من ذلك وذكر الصلاة على الآل والأزواج مع النبي عليه السلام بحكم التبع والإضافة

إليه لا على التخصيص وصلاة النبي على من صلى عليه تجري مجرى الدعاء والمواجهة
وليس فيها معنى التعظيم والتنويه. قال الله عز وجل وقال تعالى لا تجعلوا دعاء الرسول
بينكم كدعاء بعضكم بعضا فكذلك يجب أن يكون الدعاء له مخالفا لدعاء الناس
بعضهم لبعض وهذا اختيار الإمام أبي المظفر الإسفرايني من شيوخنا والحافظ
أبي عمر بن عبد البر **فصل** فيما يلزم من دخل مسجد النبي عليه السلام من الأدب
سوى ما قدمناه وفضل الصلاة فيه وفي مسجد مكة وذكر قبره ومنبره وفضل
سكنى المدينة ومكة **قال** الله تعالى لمسجد أسس على التقوى من أول يوم
أحق أن تقوم فيه. روي أن النبي عليه السلام سئل أي مسجد هو فقال مسجدي
هذا وهو قول ابن المسيب وزيد بن ثابت وابن عمر ومالك بن أنس وغيرهم وعن
ابن عباس أنه مسجد قباء حدثنا هشام بن أحمد الفقيه بقراءتي عليه قال حدثنا
الحسين بن محمد الحافظ حدثنا أبو عمر النمري حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن حدثنا
أبو بكر بن داسة حدثنا أبو داود حدثنا مسدد حدثنا سفيان عن الزهري عن
سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تشدوا
الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى. وقد
تقدمت الآثار في الصلاة والسلام على النبي عند دخول المسجد. وعن عبد
الله بن عمرو بن العاصي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل المسجد قال
أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم. وقال
مالك رحمه الله سمع عمر بن الخطاب صوتا في المسجد فدعا بصاحبه فقال ممن
أنت قال رجل من ثقيف قال لو كنت من هاتين القريتين لأدبتك إن مسجدنا لا يرفع فيه
الصوت. قال محمد بن مسلمة لا ينبغي لأحد أن يعتمد المسجد برفع الصوت
ولا بشيء من الأذى وأن ينزه عما يكره **قال القاضي** أبو الفضل رضي الله
عنه حكى ذلك كله القاضي إسماعيل في مبسوطه في باب فضل مسجد النبي
عليه السلام والعلماء متفقون أن حكم سائر المساجد هذا الحكم قال القاضي

إسماعيل وقال محمد يعني ابن مسلمة ويكره في مسجد الرسول الجهر على المصلين فيما
يخلط عليهم صلاتهم وليس مما يخص به المساجد رفع الصوت بذكره رفع الصوت
بالتلبية في مساجد الجماعات إلا المسجد الحرام ومسجدنا. وقال أبو هريرة عنه
عليه السلام صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام
ومسجدنا. وقال أبو هريرة عنه عليه السلام صلاة في مسجدي هذا خير من ألف
صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام **قال الفقيه القاضي** أبو الفضل رضي الله
عنه اختلف الناس في معنى هذا الاستثناء على اختلافهم في المفاضلة بين مكة
والمدينة فذهب مالك في رواية أشهب عنه وقاله ابن نافع صاحبه وجماعة أصحابه
أن معنى الحديث أن الصلاة في مسجد الرسول أفضل من الصلاة في سائر المساجد
بألف صلاة إلا المسجد الحرام فإن الصلاة في مسجد النبي أفضل من الصلاة فيه
بدون الألف واحتجوا بما روي عن عمر بن الخطاب صلاة في المسجد الحرام خير من
مائة صلاة فيما سواه فتأتي فضيلة مسجد الرسول عليه السلام بتسعمائة وعلى
غيره بألف وهذا مبني على تفضيل المدينة على مكة على ما قدمناه وهو قول عمر
ابن الخطاب ومالك وأكثر المدنيين وذهب أهل مكة والكوفة إلى تفضيل مكة
وهو قول عطاء وابن وهب وابن حبيب من أصحاب مالك وحكاه الساجي عن
الشافعي وحملوا الاستثناء في الحديث المتقدم على ظاهره وأن الصلاة في المسجد
الحرام أفضل واحتجوا بحديث عبد الله بن الزبير عن النبي عليه السلام بمثل حديث
أبي هريرة وفيه وصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بمائة
صلاة. وروى قتادة مثله فيأتي فضل الصلاة في المسجد الحرام على هذا على الصلاة
في سائر المساجد بمائة ألف ولا خلاف أن موضع قبره أفضل بقاع الأرض قال
القاضي أبو الوليد الباجي الذي يقتضيه الحديث مخالفة حكم مكة لسائر
المساجد ولا يعلم منه حكمها مع المدينة. وذهب الطحاوي إلى أن هذا التفضيل
إنما هو في صلاة الفرض وذهب مطرف من أصحابنا إلى أن ذلك في النافلة أيضا قال

وجمعة خير من جمعة ورمضان خير من رمضان . وذكر عبد الرزاق في تفضيل بعض ... بالمدينة وغيرها حديثا نحوه . وقال عليه السلام ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة . ومثله عن أبي هريرة وأبي سعيد وزادا ومنبري على حوضي . وفي حديث آخر منبري على ترعة من ترع الجنة قال الطبري فيه معنيان أحدهما أن المراد بالبيت بيت سكناه على الظاهر مع أنه روي ما بين حجرتي ومنبري والثاني أن البيت هنا القبر وهو قول زيد بن أسلم في هذا الحديث كما روي بين قبري ومنبري قال الطبري وإذا كان قبره في بيته اتفقت معاني الروايات ولم يكن بينهما خلاف لأن قبره في حجرته وهو بيته . وقوله منبري على حوضي قيل يحتمل أنه منبره بعينه الذي كان في الدنيا وهو أظهر . والثاني أن يكون له هناك منبر . والثالث أن قصد منبره والحضور عنده لملازمة الأعمال الصالحة يورد الحوض ويوجب الشرب منه قاله الباجي . وقوله روضة من رياض الجنة يحتمل معنيين أحدهما أنه موجب لذلك وأن الدعاء والصلاة فيه يستحق ذلك من الثواب كما قيل الجنة تحت ظلال السيوف . والثاني أن تكون تلك البقعة قد ينقلها الله فتكون في الجنة بعينها قاله الداودي .

وروى ابن عمر وجماعة من الصحابة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في المدينة لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة . وقال فيمن تحمل عن المدينة والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون . وقال إنما المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها . وقال لا يخرج أحد من المدينة رغبة عنها إلا أبدلها الله خيرا منه . وروي عنه عليه السلام من مات في أحد الحرمين حاجا أو معتمرا بعثه الله يوم القيامة لا حساب عليه ولا عذاب . وفي حديث آخر بعث من الآمنين يوم القيامة . وعن ابن عمر من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإني أشفع لمن يموت بها . وقال تعالى إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة إلى قوله آمنا قال بعض المفسرين آمنا من النار وقيل كان يأمن من الطلب من أحدث حدثا ولجأ إليه في الجاهلية وهذا مثل قوله وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا على قول بعضهم . وحكي أن قوما أتوا سعرون الخولاني

بالمنشبير فأعلموه أن كتامة قتلوا رجلا وأضرموا عليه النار طول الليل فلم تعمل فيه وبقي أبيض البدن فقال لعله حج ثلاث حجج قالوا نعم قال حدثت أنه من حج حجة أدى فرضه ومن حج ثانية داين ربه ومن حج ثلاث حجج حرم الله شعره وبشره على النار . ولما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قال مرحبا بك من بيت ما أعظمك وأعظم حرمتك . وفي الحديث عنه عليه السلام ما من أحد يدعو الله عز وجل عند الركن الأسود إلا استجاب الله له وكذلك عند الميزاب . وعنه عليه السلام من صلى خلف المقام ركعتين غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وحشر يوم القيامة من الآمنين . قرأت على القاضي الحافظ أبي علي رحمه الله حدثنا أبو العباس العذري قال حدثنا أبو أسامة محمد بن أحمد بن محمد الهروي حدثنا الحسن بن رشيق سمعت أبا الحسن محمد بن الحسن بن راشد سمعت أبا بكر محمد بن إدريس سمعت الحميدي قال سمعت سفيان بن عيينة قال سمعت عمرو بن دينار قال سمعت ابن عباس يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما دعا أحد بشيء في هذا الملتزم إلا استجيب له قال ابن عباس وأنا ما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا استجيب لي . وقال عمرو بن دينار وأنا ما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من ابن عباس إلا استجيب لي . وقال سفيان وأنا ما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من عمرو إلا استجيب لي . قال الحميدي وأنا ما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من سفيان إلا استجيب لي . وقال محمد بن إدريس وأنا ما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من الحميدي إلا استجيب لي . وقال أبو الحسن محمد بن الحسن وأنا ما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من محمد بن إدريس إلا استجيب لي . قال أبو أسامة وما أذكر الحسن بن رشيق قال فيه شيئا وأنا ما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعته من الحسن بن رشيق إلا استجيب لي من أمر الدنيا وأنا أرجو أن يستجاب لي من أمر الآخرة . قال العذري وأنا ما دعوت الله بشيء في هذا

الملتزم منذ سمعت هذا من أبي أسامة إلا استجيب لي قال أبو علي وأنا قد دعوت الله فيه بأشياء كثيرة استجيب لي بعضها وأرجو من سعة فضله أن يستجيب لي بقيتها

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه ذكرنا نبذا من هذه النكت في هذا الفصل وإن لم تكن من الباب لتعلقها بالفصل الذي قبله حرصا على تمام الفائدة والله الموفق للصواب برحمته

فصل في حكم زيارة قبره عليه السلام وفضيلة من زاره وسلم عليه وكيف يسلم ويدعو وزيارة قبره عليه السلام سنة من سنن المسلمين مجمع عليها وفضيلة مرغب فيها روي عن ابن عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم من زار قبري وجبت له شفاعتي وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من زارني في المدينة محتسبا كان في جواري وكنت له شفيعا يوم القيامة وفي حديث آخر من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي وكره مالك أن يقول زرنا قبر النبي وقد اختلف في معنى ذلك فقيل كراهية الاسم لما ورد من قوله عليه السلام لعن الله زوارات القبور وهذا يرده قوله نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها وقوله من زار قبري فقد أطلق اسم الزيارة وقيل لأن ذلك لما قيل إن الزائر أفضل من المزور وهذا أيضا ليس بشيء إذ ليس كل زائر بهذه الصفة وليس هذا عموما وقد ورد في حديث أهل الجنة زيارتهم لربهم ولم يمنع هذا اللفظ في حقه وقال أبو عمران رحمه الله إنما كره مالك أن يقال طواف الزيارة وزرنا قبر النبي عليه السلام لاستعمال الناس ذلك بينهم بعضهم لبعض وكره تسوية النبي مع الناس بهذا اللفظ وأحب أن يخص بأن يقال سلمنا على النبي عليه السلام وأيضا فإن الزيارة مباحة بين الناس وواجب شد المطي إلى قبره عليه السلام يريد بالوجوب هنا وجوب ندب وترغيب وتأكيد لا وجوب فرض والأولى عندي أن منعه وكراهة مالك له لإضافته إلى قبر النبي وأنه لو قال زرنا النبي لم يكرهه لقوله عليه السلام اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد بعدي اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد فحمى إضافة هذا اللفظ إلى القبر والتشبه بفعل أولئك قطعا للذريعة وحسما للباب والله أعلم

قال إسحاق بن إبراهيم الفقيه ومما لم يزل من شأن من حج المرور بالمدينة والقصد إلى الصلاة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والتبرك برؤية روضته ومنبره وقبره ومجلسه وملامس يديه ومواطئ قدميه والعمود الذي كان يستند إليه وينزل جبريل بالوحي فيه عليه وبمن عمره ونصره من الصحابة وأئمة المسلمين والاعتبار بذلك كله وقال ابن أبي فديك سمعت بعض من أدركت يقول بلغنا أنه من وقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فتلا هذه الآية إن الله وملائكته يصلون على النبي الآية ثم قال صلى الله عليك يا محمد من يقولها سبعين مرة ناداه ملك صلى الله عليك يا فلان لم تسقط له حاجة وعن يزيد بن أبي سعيد المهري قدمت على عمر بن عبد العزيز فلما ودعته قال لي إليك حاجة إذا أتيت المدينة سترى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فأقرئه مني السلام قال غيره وكان يبرد إليه البريد من الشام قال بعضهم رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي ثم انصرف وقال مالك في رواية ابن وهب إذا سلم على النبي ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدنو ويسلم ولا يمس القبر بيده وقال في المبسوط لا أرى أن يقف عند قبر النبي يدعو ولكن يسلم ويمضي قال ابن أبي مليكة من أحب أن يقوم وجاه النبي صلى الله عليه وسلم فليجعل القنديل الذي في القبلة عند القبر على رأسه وقال نافع كان ابن عمر يسلم على القبر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول السلام على النبي السلام على أبي بكر السلام على أبي ثم ينصرف ورئي واضعا يده على مقعد النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر ثم وضعها على وجهه وعن ابن قسيط والقعنبي كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا خلا المسجد جسوا برمانة المنبر التي تلي القبر بميامنهم ثم استقبلوا القبلة يدعون وفي الموطأ من رواية يحيى بن يحيى الليثي أنه كان يقف على قبر النبي فيصلي على النبي وعلى أبي بكر وعمر وعند ابن القاسم والقعنبي ويدعو لأبي بكر وعمر قال مالك في رواية ابن وهب يقول المسلم السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته قال في المبسوط ويسلم على

أبي بكر وعمر. قال القاضي أبو الوليد الباجي: وعندي أنه يدعو للنبي بلفظ الصلاة ولأبي
بكر وعمر كما في حديث ابن عمر من الخلاف. وقال ابن حبيب: ويقول إذا دخل مسجد
الرسول: بسم الله وسلام على رسول الله عليه السلام، السلام علينا من ربنا، وصلى الله
وملائكته على محمد، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وجنتك واحفظني
من الشيطان الرجيم، ثم اقصد إلى الروضة وهي ما بين القبر والمنبر فاركع فيها
ركعتين قبل وقوفك بالقبر تحمد الله فيهما وتسأله تمام ما خرجت إليه والعون
عليه، وإن كانت ركعتاك في غير الروضة أجزأتاك، وفي الروضة أفضل.
وقد قال عليه السلام: ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة. ثم تقف بالقبر
متواضعا متوقرا فتصلي عليه وتثني بما يحضرك وتسلم على أبي بكر وعمر
وتدعو لهما، وأكثر من الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالليل والنهار،
ولا تدع أن تأتي مسجد قباء وقبور الشهداء. قال مالك في كتاب محمد: ويسلم على
النبي إذا دخل وخرج، يعني في المدينة، وفيما بين ذلك. قال محمد: وإذا خرج جعل
آخر عهده الوقوف بالقبر، وكذلك من خرج مسافرا. وروى ابن وهب عن فاطمة
بنت النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا دخلت المسجد
فصل على النبي صلى الله عليه وسلم وقل اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب
رحمتك، وإذا خرجت فصل على النبي صلى الله عليه وسلم وقل اللهم اغفر لي ذنوبي
وافتح لي أبواب فضلك. وفي رواية أخرى: فليسلم مكان فليصل فيه، ويقول إذا
خرج: اللهم إني أسألك من فضلك. وفي أخرى: اللهم احفظني من الشيطان. وعن محمد بن
سيرين: كان الناس يقولون إذا دخلوا المسجد: صلى الله وملائكته على محمد، السلام
عليك أيها النبي ورحمة الله، بسم الله دخلنا وبسم الله خرجنا وعلى الله توكلنا،
وكانوا يقولون إذا خرجوا مثل ذلك. وعن فاطمة أيضا: كان النبي صلى الله
عليه وسلم إذا دخل المسجد قال صلى الله على محمد وسلم، ثم ذكر مثل حديث فاطمة
قبل هذا. وفي رواية: حمد الله وسمى وصلى على النبي، وذكر مثله. وفي رواية:

بسم الله والسلام على رسول الله. وعن غيره: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
إذا دخل المسجد قال: اللهم افتح لي أبواب رحمتك ويسر لي أبواب رزقك. وعن أبي هريرة:
إذا دخل أحدكم المسجد فليصل على النبي صلى الله عليه وسلم وليقل اللهم افتح لي.
وقال مالك في المبسوط: وليس يلزم من دخل المسجد وخرج من أهل المدينة الوقوف
بالقبر، وإنما ذلك للغرباء. وقال فيه أيضا: لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر أن
يقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيصلي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر.
فقيل له: فإن ناسا من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك في
اليوم مرة أو أكثر، وربما وقفوا في الجمعة أو في الأيام المرة والمرتين أو أكثر عند القبر
فيسلمون ويدعون ساعة، فقال: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا، وتركه
واسع، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة
وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده. قال
ابن القاسم: ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوها أتوا القبر فسلموا. قال:
وذلك رأيي. قال الباجي: ففرق بين أهل المدينة والغرباء لأن الغرباء قصدوا لذلك
وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم. وقال عليه السلام:
اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم
مساجد. وقال: لا تجعلوا قبري عيدا. ومن كتاب أحمد بن سعيد الهندي فيمن وقف بالقبر:
لا يلصق به ولا يمسه ولا يقف عنده طويلا. وفي العتبية: يبدأ بالركوع قبل
السلام في مسجد النبي عليه السلام، وأحب مواضع التنفل فيه مصلى النبي صلى الله
عليه وسلم حيث العمود المخلق، وأما في الفريضة فالتقدم إلى الصفوف، والتنفل فيه
للغرباء أحب إلي من التنفل في البيوت.

القسم الثالث فيما يجب للنبي وما يستحيل أو

يجوز عليه وما يمتنع أو يصح من الأحوال البشرية أن يضاف إليه. **قال الله تعالى**:
وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل الآية. وقال: ما المسيح ابن

مريم في رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام وقال
وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وقال قل
إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي الآية فمحمد صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء من البشر
أرسلوا إلى البشر ولولا ذلك لما أطاق الناس مقاومتهم والقبول عنهم ومخاطبتهم قال
الله تعالى ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا أي لما كان إلا في صورة البشر
الذين يمكنكم مخالطتهم إذ لا تطيقون مقاومة الملك ومخاطبته ورؤيته إذا كان
على صورته وقال قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين الآية أي لا يمكن
في سنة الله إرسال الملك إلا لمن هو من جنسه أو من خصه الله واصطفاه وقواه
على مقاومته كالأنبياء والرسل فالأنبياء والرسل وسائط بين الله وبين خلقه
يبلغونهم أوامره ونواهيه ووعده ووعيده ويعرفونهم بما لم يعلموه من أمره وخلقه
وجلاله وسلطانه وجبروته وملكوته فظواهرهم وأجسادهم وبنيتهم متصفة
بأوصاف البشر طارئ عليها ما يطرأ على البشر من الأعراض والأسقام والموت
والفناء ونعوت الإنسانية وأرواحهم وبواطنهم متصفة بأعلا من أوصاف البشر
متعلقة بالملإ الأعلى متشبهة بصفات الملائكة سليمة من التغير والآفات لا يلحقها
غالبا عجز البشرية ولا ضعف الإنسانية إذ لو كانت بواطنهم خالصة للبشرية
كظواهرهم لما أطاقوا الأخذ عن الملائكة ورؤيتهم ومخاطبتهم ومخالتهم
كما لا يطيقه غيرهم من البشر ولو كانت أجسامهم وظواهرهم متسمة بنعوت
الملائكة وبخلاف صفات البشر لما أطاق البشر ومن أرسلوا إليه مخالطتهم
كما تقدم من قول الله تعالى فجعلوا من جهة الأجسام والظواهر مع البشر ومن
جهة الأرواح والبواطن مع الملائكة كما قال عليه السلام لو كنت متخذا من أمتي
خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن أخوة الإسلام لكن صاحبكم خليل الرحمان
وكما قال تنام عيناي ولا ينام قلبي وقال إني لست كهيئتكم إني أظل يطعمني
ربي ويسقيني فبواطنهم منزهة عن الآفات مطهرة من النقائص والاعتلالات

وهذه جملة لن يكتفي بمضمونها كل ذي همة بل الأكثر يحتاج إلى بسط وتفصيل على
ما نأتي به بعد هذا في البابين بعون الله وهو حسبي ونعم الوكيل

الباب الأول فيما يختص بالأمور الدينية

والكلام في عصمة نبينا وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم **قال القاضي** أبو الفضل
رضي الله عنه اعلم أن الطوارئ من التغييرات والآفات على آحاد البشر لا تخلو أن
تطرأ على جسمه أو على حواسه بغير قصد واختيار كالأمراض والأسقام أو تطرأ
بقصد واختيار وكله في الحقيقة عمل وفعل ولكن جرى رسم المشايخ بتفصيله
إلى ثلاثة أنواع عقد بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح وجميع البشر تطرأ
عليهم الآفات والتغييرات بالاختيار وبغير الاختيار في هذه الوجوه كلها والنبي صلى الله عليه وسلم
وإن كان من البشر ويجوز على جبلته ما يجوز على جبلة البشر فقد قامت البراهين
القاطعة وتمت كلمة الإجماع على خروجه عنهم وتنزيهه عن كثير من الآفات التي
تقع على الاختيار وعلى غير الاختيار كما سنبينه إن شاء الله فيما نأتي به من التفاصيل

فصل في حكم عقد قلب النبي عليه السلام من وقت نبوته اعلم منحنا
الله وإياك توفيقه أن ما تعلق منه بطريق التوحيد والعلم بالله وصفاته والإيمان
به وبما أوحي إليه فعلى غاية المعرفة ووضوح العلم واليقين والانتفاء عن الجهل
بشيء من ذلك أو الشك أو الريب فيه والعصمة من كل ما يضاد المعرفة بذلك واليقين
هذا ما وقع إجماع المسلمين عليه ولا يصح بالبراهين الواضحة أن يكون في عقود الأنبياء
سواه ولا يعترض على هذا بقول إبراهيم عليه السلام قال بلى ولكن ليطمئن قلبي
إذ لم يشك إبراهيم في إخبار الله تعالى له بإحياء الموتى ولكن أراد طمأنينة القلب
وترك المنازعة لمشاهدة الإحياء فحصل له العلم الأول بوقوعه وأراد العلم الثاني
بكيفيته ومشاهدته الوجه الثاني أن إبراهيم إنما أراد اختبار منزلته عند ربه
وعلم إجابة دعوته بسؤال ذلك من ربه ويكون قوله أولم تؤمن أي ألم تصدق
بمنزلتي منك وخلتي واصطفائي الوجه الثالث أنه سأل زيادة يقين وقوة

كما بينه وإن لم يكن في ذلك شك إذ العلوم الضرورية والنظرية قد تتفاضل
في قوتها وطريان الشكوك على الضروريات ممتنع ويجوز في النظريات فأراد
الانتقال من النظر والخبر إلى المشاهدة والترقي من علم اليقين إلى عين اليقين
فليس الخبر كالمعاينة ولهذا قال سهل بن عبد الله سأل كشف غطاء العيان
ليزداد بنور اليقين تمكنا في حاله. الوجه الرابع أنه لما احتج على المشركين
بأن ربه يحيي ويميت طلب ذلك من ربه ليصح احتجاجه عيانا. الوجه الخامس
قول بعضهم هو سؤال على طريق الأدب المراد أقدرني على إحياء الموتى وقوله
ليطمئن قلبي عن هذه الأمنية. الوجه السادس أنه أرى من نفسه الشك وما
شك لكن ليجاوب فيزداد قربة. وقول نبينا عليه السلام نحن أحق بالشك
من إبراهيم نفي لأن يكون إبراهيم شك وإبعاد للخواطر الضعيفة أن تظن هذا
بإبراهيم أي نحن موقنون بالبعث وإحياء الله الموتى فلو شك إبراهيم لكنا أولى
بالشك منه إما على طريق الأدب أو أن يريد أمته الذين يجوز عليهم الشك أو على
طريق التواضع والإشفاق إن حملت قصة إبراهيم على اختبار حاله أو زيادة يقينه
فإن قلت فما معنى قوله تعالى فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون
الكتاب من قبلك الآيتين فاحذر ثبت الله قلبك أن يخطر ببالك ما ذكره فيه
بعض المفسرين عن ابن عباس أو غيره من إثبات شك للنبي فيما أوحي إليه
وأنه من البشر فمثل هذا لا يجوز عليه جملة بل قد قال ابن عباس لم يشك النبي
ولم يسأل ونحوه عن ابن جبير والحسن. وحكى قتادة أن النبي عليه السلام قال
ما أشك ولا أسأل وعامة المفسرين على هذا واختلفوا في معنى الآية فقيل المراد
قل يا محمد للشاك إن كنت في شك الآية قالوا وفي السورة نفسها ما دل على
هذا التأويل قوله تعالى قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني الآية. وقيل
المراد بالخطاب العرب وغير النبي كما قال لئن أشركت ليحبطن عملك الآية الخطاب
له والمراد غيره ومثله فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ونظيره كثير. قال بكر بن

صلى الله عليه وسلم

١١٦

العلاء ألا تراه يقول ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله وهو عليه السلام كان
المكذَّب فيما يدعو إليه فكيف يكون ممن كذب به فهذا كله يدل على أن المراد بالخطاب
غيره. ومثل هذه الآية قوله الرحمن فاسأل به خبيرا المأمور هاهنا غير النبي ليسأل
النبي والنبي عليه السلام هو الخبير المسؤول لا المستخبر السائل وقيل إن هذا الشك
الذي أمر غير النبي بسؤال الذين يقرؤون الكتاب إنما هو فيما قصه الله من أخبار الأمم
لا فيما دعا إليه من التوحيد والشريعة. ومثل هذا قوله تعالى واسأل من أرسلنا
من قبلك من رسلنا الآية المراد به المشركون والخطاب مواجهة للنبي صلى الله عليه
وسلم قاله القتبي. وقيل معناه سلنا عمن أرسلنا من قبلك من رسلنا فحذف الخافض
وتم الكلام ثم ابتدأ أجعلنا من دون الرحمن إلى آخر الآية على طريق الإنكار أي ما
جعلنا حكاه مكي. وقيل أمر النبي أن يسأل الأنبياء ليلة الإسراء عن ذلك
فكان أشد يقينا من أن يحتاج إلى السؤال فروي أنه قال لا أسأل قد اكتفيت قاله
ابن زيد. وقيل سل أمم من أرسلنا هل جاؤوهم بغير التوحيد وهو معنى قول
مجاهد والسدي والضحاك وقتادة. والمراد بهذا والذي قبله إعلامه بما بعثت
به الرسل وأنه لم يأذن تعالى في عبادة غيره لأحد ردا على مشركي العرب وغيرهم
في قولهم إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى. وكذلك قوله تعالى والذين آتيناهم الكتاب
يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين أي في علمهم بأنك رسول
الله وإن لم يقروا بذلك وليس المراد به شكه فيما ذكر في أول الآية وقد يكون أيضا
على مثل ما تقدم أي قل يا محمد لمن امترى في ذلك لا تكونن من الممترين بدليل قوله
أول الآية أفغير الله أبتغي حكما الآية وأن النبي يخاطب بذلك غيره. وقيل هو تقرير
كقوله أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين وقد علم أنه لم يقل. وقيل معناه ما كنت
في شك فسل تزدد طمأنينة وعلما إلى علمك ويقينك. وقيل إن كنت تشك فيما
شرفناك وفضلناك به فسلهم عن صفتك في الكتب ونشر فضائلك. وحكي
عن أبي عبيدة أن المراد إن كنت في شك من غيرك فيما أنزلنا. فإن قيل فما معنى قوله

صلى الله عليه وسلم

صلى الله عليه وسلم

حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا على قراءة التخفيف قلنا المعنى في ذلك ما
قالته عائشة رضي الله عنها معاذ الله أن تظن ذلك الرسل بربها. وإنما معنى ذلك أن
الرسل لما استيأسوا ظنوا أن من وعدهم النصر من أتباعهم كذبوهم وعلى هذا أكثر
المفسرين وقيل إن الضمير في ظنوا عائد على الأتباع والأمم لا على الأنبياء والرسل وهو
قول ابن عباس والنخعي وابن جبير وجماعة من العلماء وبهذا المعنى قرأ مجاهد كذبوا
بالفتح فلا تشغل بالك من شاذ التفسير بسواه مما لا يليق بمنصب العلماء فكيف
بالأنبياء. وكذلك ما ورد في حديث السيرة ومبتدأ الوحي من قوله لخديجة لقد خشيت
على نفسي ليس معناه الشك فيما آتاه الله بعد رؤية الملك ولكن لعله خشي ألا
تحمل قوته مقاومة الملك وأعباء الوحي فينخلع قلبه أو تزهق نفسه هذا على ما
ورد في الصحيح أنه قاله بعد لقائه الملك أو يكون ذلك قبل لقائه الملك وإعلام الله تعالى
له بالنبوة لأول ما عرضت عليه من العجائب وسلم عليه الحجر والمدر وبدأته المنامات
والتباشير كما روي في بعض طرق هذا الحديث أن ذلك كان أولا في المنام ثم أري
في اليقظة مثل ذلك تأنيسا له عليه السلام لئلا يفجأه الأمر مشاهدة ومشافهة
فلا يحتمله لأول حالة بنية البشرية. وفي الصحيح عن عائشة أول ما بدئ به رسول
الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة قالت ثم حبب إليه الخلاء وقالت
إلى أن جاءه الحق وهو في غار حراء الحديث. وعن ابن عباس مكث النبي صلى الله عليه
وسلم بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى
شيئا وثماني سنين يوحى إليه. وقد روى ابن إسحاق عن بعضهم أن النبي صلى الله عليه
وسلم قال وذكر جواره بغار حراء قال فجاءني وأنا نائم فقال اقرأ فقلت وما أقرأ
وذكر نحو حديث عائشة في غطه له وإقرائه اقرأ باسم ربك الذي خلق السورة قال فانصرف
عني وهببت من نومي كأنما صورت في قلبي ولم يكن أبغض إلي من شاعر أو
مجنون ثم قلت لا تحدث عني قريش بهذا أبدا لأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن
نفسي منه فلأقتلنها فبينا أنا عامد لذلك إذ سمعت مناديا ينادي من السماء يا محمد

أنت رسول الله وأنا جبريل فرفعت رأسي فإذا جبريل على صورة رجل وذكر الحديث
فقد بين في هذا أن قوله لما قال وقصده لما قصد إنما كان قبل لقاء جبريل عليه السلام
وقبل إعلام الله له بالنبوة وإظهاره واصطفائه له بالرسالة. ومثله حديث عمرو
ابن شرحبيل أنه عليه السلام قال لخديجة إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء وقد
خشيت والله أن يكون هذا لأمر. ومن رواية حماد بن سلمة أن النبي عليه السلام قال
لخديجة إني لأسمع صوتا وأرى ضوءا وأخشى أن يكون بي جنون وعلى هذا يتأول
لو صح قوله في بعض هذه الأحاديث إن الأبعد شاعرا أو مجنون وألفاظا يفهم منها
معاني الشك في تصحيح ما رآه وأنه كان كله في ابتداء أمره وقبل لقاء الملك له وإعلام
الله أنه رسوله فكيف وبعض هذه الألفاظ لا تصح طرقها. وأما بعد إعلام الله
تعالى له ولقائه الملك فلا يصح فيه ريب ولا يجوز عليه شك فيما ألقي إليه. وقد روى ابن
إسحاق عن شيوخه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرقى بمكة من العين قبل أن
ينزل عليه فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما كان يصيبه فقالت له خديجة أوجه
إليك من يرقيك قال أما الآن فلا. وحديث خديجة واختبارها أمر جبريل بكشف
رأسها الحديث إنما ذلك في حق خديجة لتتحقق صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأن الذي يأتيه ملك ويزول الشك عنها لا أنها فعلت ذلك للنبي عليه السلام
وليختبر هو حاله بذلك بل قد ورد في حديث عبد الله بن محمد بن يحيى بن عروة عن
هشام عن أبيه عن عائشة أن ورقة أمر خديجة أن تختبر الأمر بذلك. وفي
حديث إسماعيل بن أبي حكيم أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا ابن عم
هل تستطيع أن تخبرني بصاحبك إذا جاءك قال نعم فلما جاءه جبريل أخبرها فقالت
له اجلس إلى شقي وذكر الحديث إلى آخره وفيه فقالت ما هذا بشيطان هذا الملك
يا ابن عم فاثبت وأبشر وآمنت به فهذا يدل أنها مستثبتة بما فعلته لنفسها ومستظهرة
لإيمانها لا للنبي صلى الله عليه وسلم. وقول معمر في فترة الوحي فحزن النبي صلى
الله عليه وسلم فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال

لا يُصرّح في هذا الأصل القول بشيء عنه فيما بلغنا ولم يُفسّره، ولا ذُكر رواته ولا مَن
حدّث به، ولا أن النبي قاله، ولا يعرف مثل هذا إلا من جهة النبي مع أنه قد يحمل على أنه
كان أول الأمر كما ذكرناه، أو أنه فعله لما أحرجه من تكذيب من بلّغه كما
قال تعالى فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا
ويصحّح معنى هذا التأويل حديث رواه شريك عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر
ابن عبد الله أن المشركين لما اجتمعوا بدار الندوة للتشاور في شأن النبي صلى
الله عليه وسلم واتفق رأيهم على أن يقولوا إنه ساحر اشتدّ ذلك عليه وتزمّل
في ثيابه وتدثّر فيها فأتاه جبريل فقال يا أيها المزمل يا أيها المدثر، أو خاف أن
الفترة لأمر أو سبب منه فخشي أن تكون عقوبة من ربه ففعل ذلك بنفسه ولم
يرد بعد شرع بالنهي عن ذلك فيعترض به، ونحو هذا فرار يونس خشية تكذيب
قومه له لما وعدهم به من العذاب، وقول الله في يونس فظن أن لن نقدر عليه معناه
أن لن نضيق عليه، قال مكي طمع في رحمة الله وأن لا يضيق عليه مسلكه
في خروجه، وقيل حسّن ظنه بمولاه أنه لا يقضي عليه العقوبة وقيل نقدر عليه
ما أصابه وقد قرئ نقدّر عليه بالتشديد وقيل نؤاخذه بغضبه وذهابه
وقال ابن زيد معناه أفظن أن لن نقدر عليه على الاستفهام ولا يليق أن يظن بنبي
أن يجهل صفة من صفات ربه، وكذلك قوله إذ ذهب مغاضبا الصحيح مغاضبا
لقومه لكفرهم وهو قول ابن عباس والضحاك وغيرهما لا لربه إذ مغاضبة الله
معاداة له ومعاداة الله كفر لا يليق بالمؤمنين فكيف بالأنبياء، وقيل مستحييا
من قومه أن يسموه بالكذب أو يقتلوه كما ورد في الخبر وقيل مغاضبا لبعض
الملوك فيما أمره به من التوجه إلى أمر أمره الله به على لسان نبي آخر فقال له يونس
غيري أقوى عليه مني فعزم عليه فخرج لذلك مغاضبا وقد روي عن ابن عباس
أن إرسال يونس ونبوته إنما كان بعد أن نبذه الحوت واستدل من الآية بقوله فنبذناه
بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه ويستدل أيضا

بقوله ولا تكن كصاحب الحوت وذكر القصة ثم قال فاجتباه ربه فجعله من الصالحين
فتكون هذه القصة إذن قبل نبوته. فإن قيل فما معنى قوله عليه السلام إنه ليغان
على قلبي فأستغفر الله كل يوم مائة مرة، وفي طريق في اليوم أكثر من سبعين مرة
فاحذر أن يقع ببالك أن يكون هذا الغين وسوسة أو ريبا وقع في قلبه عليه السلام
بل أصل الغين في هذا ما يتغشى القلب ويغطيه قاله أبو عبيد وأصله من غين السماء
وهو إطباق الغيم عليها وقال غيره الغين شيء يغشى القلب ولا يغطيه كل
التغطية كالغيم الرقيق الذي يعرض في الهواء فلا يمنع ضوء الشمس كذلك لا يفهم
من الحديث أنه يغان على قلبه مائة مرة أو أكثر من سبعين في اليوم إذ ليس يقتضيه
لفظه الذي ذكرناه وهو أكثر الروايات وإنما هذا عدد للاستغفار لا للغين
فيكون المراد بهذا الغين إشارة إلى غفلات قلبه وفترات نفسه وسهوها عن مداومة
الذكر ومشاهدة الحق بما كان صلى الله عليه وسلم دفع إليه من مقاساة البشر
وسياسة الأمة ومعاناة الأهل ومقاومة الولي والعدو ومصلحة النفس وكلفه
من أعباء أداء الرسالة وحمل الأمانة وهو في كل هذا في طاعة ربه وعبادة
خالقه ولكن لما كان صلى الله عليه وسلم أرفع الخلق عند الله مكانة وأعلاهم
درجة وأتمهم به معرفة وكانت حاله عند خلوص قلبه وخلو همه وتفرده بربه
وإقباله بكليته عليه ومقامه هنالك أرفع حاليه رأى عليه السلام حال فترته عنها
وشغله بسواها غضا من علي حاله وخفضا من رفيع مقامه فاستغفر الله من ذلك
هذا أولى وجوه الحديث وأشهرها وإلى معنى ما أشرنا إليه مال كثير من الناس
وحام حوله فقارب ولم يرد وقد قربنا غامض معناه وكشفنا للمستفيد محياه
وهو مبني على جواز الفترات والغفلات والسهو في غير طريق البلاغ على ما
سيأتي. وذهبت طائفة من أرباب القلوب ومشيخة المتصوفة ممن قال بتنزيه
النبي عن هذا جملة وأجله أن يجوز عليه في حال سهو أو فترة إلى أن معنى الحديث
ما يهم خاطره ويغم فكره من أمر أمته عليه السلام لاهتمامه بهم وكثرة شفقته

عليهم فيستغفر لهم قالوا وقد يكون الغين هنا على قلبه السكينة التي تغشاه
لقوله تعالى فأنزل الله سكينته عليه ويكون استغفاره عندها إظهارًا للعبودية
والافتقار، وقال ابن عطاء استغفاره وفعله هذا تعريف للأمة يحملهم على الاستغفار
وقال غيره ويستشعرون الحذر فلا يركنون إلى الأمن وقد يحتمل أن تكون هذه
الإغانة حالة خشية وإعظام تغشى قلبه فيستغفر حينئذ شكرًا لله وملازمة
لعبوديته كما قال في ملازمة العبادة أفلا أكون عبدًا شكورًا وعلى هذه الوجوه
الأخيرة يحمل ما روي في بعض طرق هذا الحديث عنه عليه السلام إنه ليغان على
قلبي في اليوم أكثر من سبعين مرة فأستغفر الله — فإن قلت فما معنى قوله تعالى
لمحمد عليه السلام ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين وقوله
لنوح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين — فاعلم أنه
لا يلتفت في ذلك إلى قول من قال في آية نبينا لا تكونن ممن يجهل أن الله لو شاء
لجمعهم على الهدى وفي آية نوح لا تكونن ممن يجهل أن وعد الله حق لقوله
وإن وعدك الحق إذ فيه إثبات الجهل بصفة من صفات الله وذلك لا يجوز على الأنبياء
والمقصود وعظهم أن لا يتشبهوا في أمورهم بسمات الجاهلين كما قال إني أعظك
وليس في آية منهما دليل على كونهم على تلك الصفة التي نهاهم عن الكون عليها فكيف
وآية نوح قبلها فلا تسألن ما ليس لك به علم فحمل ما بعدها على ما قبلها أولى لأن
مثل هذا قد يحتاج إلى إذن وقد تجوز إباحة السؤال فيه ابتداء فنهاه الله أن يسأله
عما طوى عنه علمه وأكنه من غيبه من السبب الموجب لهلاك ابنه ثم أكمل الله عليه
نعمته بإعلامه ذلك بقوله إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح حكى معناه مكي
كذلك أمر نبينا في الآية الأخرى بالتزام الصبر على إعراض قومه ولا يحرج
عند ذلك فيقارب حال الجاهل بشدة التحسر حكاه أبو محمد مكي وقال مثله
في القرآن كثير فبهذا الفصل أوجب القول بعصمة الأنبياء منه بعد النبوة قطعًا
فإن قلت فإذا قررت عصمتهم من هذا وأنه لا يجوز عليهم شيء من ذلك فما معنى إذن وعيد

الله لنبينا صلى الله عليه وسلم على ذلك إن فعله وتحذيره منه كقوله لئن أشركت
ليحبطن عملك الآية وقوله ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك الآية وقوله
إذن لأذقناك ضعف الحياة الآية وقوله لأخذنا منه باليمين وقوله وإن تطع
أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله وقوله فإن يشإ الله يختم على قلبك
وقوله فإن لم تفعل فما بلغت رسالته وقوله اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين
فاعلم وفقنا الله وإياك أنه عليه السلام لا يصح ولا يجوز عليه أن لا يبلغ وأن يخالف
أمر ربه ولا أن يشرك ولا يتقول على الله ما لا يجب أو يفتري عليه أو يضل أو يختم على قلبه
أو يطيع الكافرين لكن يسر الله أمره بالمكاشفة والبيان في البلاغ للمخالفين وأن
إبلاغه إن لم يكن بهذه السبيل فكأنه ما بلغ وطيب نفسه وقوى قلبه بقوله والله
يعصمك من الناس كما قال لموسى وهارون لا تخافا لتشتد بصائرهم في الإبلاغ وإظهار
دين الله ويذهب عنهم خوف العدو المضعف للنفس وأما قوله ولو تقول علينا بعض
الأقاويل الآية وقوله إذًا لأذقناك ضعف الحياة فمعناه أن هذا جزاء من فعل هذا
وجزاؤك لو كنت ممن يفعله وهو لا يفعله وكذلك قوله وإن تطع أكثر من في
الأرض فالمراد غيره كما قال إن تطيعوا الذين كفروا الآية وقوله فإن يشإ الله يختم
على قلبك ولئن أشركت ليحبطن عملك وما أشبهه فالمراد غيره وأن هذه حال
من أشرك والنبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز عليه هذا وقوله اتق الله ولا تطع الكافرين
والمنافقين فليس فيه أنه أطاعهم والله ينهاه عما يشاء ويأمره بما يشاء كما قال
ولا تطرد الذين يدعون ربهم الآية وما كان طردهم عليه السلام ولا كان من الظالمين

فصل وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة فللناس فيه خلاف والصواب
أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك
وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا
ونشأتهم على التوحيد والإيمان بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة
كما نبهنا عليه في الباب الثاني من القسم الأول من كتابنا هذا ولم ينقل أحد

من أهل الأخبار أن أجراء نبيء وأصفياء ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك
ومستند هذا الباب النقل وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عن كل من كانت
هذه سبيله وأنا أقول إن قريشا قد رمت نبينا بكل ما افترته وعيّر كفار الأمم
أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته مما نص الله عليه أو نقلته الرواة إلينا ولم
نجد في شيء من ذلك تعييرا لواحد منهم برفضه آلهته وتقريعه بذمه بترك ما كان
قد جامعهم عليه ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين وبتلونه في معبوده محتجين
ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أفظع وأقطع في الحجة من توبيخه
بنهيه عن تركهم آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل ففي إطباقهم على الإعراض
عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلا إليه إذ لو كان لنقل ولما سكتوا عنه كما لم
يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها كما حكاه
الله عنهم وقد استدل القاضي القشيري على تنزيههم عن هذا بقوله تعالى وإذ أخذنا
من النبيين ميثاقهم ومنك الآية وبقوله وإذ أخذ الله ميثاق النبيين إلى قوله
لتؤمنن به ولتنصرنه قال فطهره الله في الميثاق وبعيد أن يأخذ منه الميثاق قبل
خلقه ثم يأخذ ميثاق النبيين بالإيمان به ونصره قبل مولده بدهور ويجوز عليه
الشرك أو غيره من الذنوب هذا ما لا يجوزه إلا ملحد هذا معنى كلامه قال وكيف
يكون ذلك وقد أتاه جبريل وشق قلبه صغيرا واستخرج منه علقة وقال هذا
حظ الشيطان منك ثم غسله وملأه حكمة وإيمانا كما تظاهرت به أخبار المبدأ
ولا يشتبه عليك بقول إبراهيم في الكوكب والقمر والشمس هذا ربي فإنه قد قيل
كان هذا في سن الطفولية وابتداء النظر والاستدلال وقبل لزوم التكليف
وذهب معظم الحذاق من العلماء والمفسرين إلى أنه إنما قال ذلك مبكتا لقومه ومستدلا
عليهم وقيل معناه الاستفهام الوارد مورد الإنكار والمراد أهذا ربي قال الزجاج
وقوله هذا ربي أي على قولكم كما قال أين شركائي أي عندكم ويدل على أنه لم
يعبد شيئا من ذلك ولا أشرك قط بالله طرفة عين قول الله تعالى عنه إذ قال لأبيه

عليه السلام

وقومه ما تعبدون ثم قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم
عدو لي إلا رب العالمين وقال إذ جاء ربه بقلب سليم أي من الشرك وقوله واجنبني
وبني أن نعبد الأصنام **فإن قلت** فما معنى قوله لئن لم يهدني ربي لأكونن
من القوم الضالين قيل إنه إن لم يؤيدني بمعونته أكون مثلكم في ضلالكم وعبادتكم
على معنى الإشفاق والحذر وإلا فهو معصوم في الأزل من الضلال فإن قلت فما
معنى قوله وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا
ثم قال بعد عن الرسل قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله
منها فلا يشكل عليك لفظة العود وأنها تقتضي أنهم يعودون إلى ما كانوا فيه من
ملتهم فقد تأتي هذه اللفظة في كلام العرب لغير ما ليس له ابتداء بمعنى الصيرورة كما
جاء في حديث الجهنميين عادوا حمما ولم يكونوا قبل كذلك ومثله قول
الشاعر: تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا
وما كانا قبل كذلك **فإن قلت** فما معنى
قوله ووجدك ضالا فهدى فليس هو من الضلال الذي هو الكفر قيل ضالا عن
النبوة فهداك إليها قاله الطبري وقيل ووجدك بين أهل الضلال فعصمك من ذلك
وهداك للإيمان وإلى إرشادهم ونحوه عن السدي وغير واحد وقيل ضالا عن شريعتك
أي لا تعرفها فهداك إليها والضلال هنا التحير ولهذا كان عليه السلام يخلو بغار حراء
في طلب ما يتوجه به إلى ربه ويتشرع به حتى هداه الله إلى الإسلام قال معناه
القشيري وقيل لا تعرف الحق فهداك إليه وهذا مثل قوله وعلمك ما لم تكن تعلم
قاله علي بن عيسى قال ابن عباس لم تكن له ضلالة معصية وقيل هدى أي بين أمرك
بالبراهين وقيل ووجدك ضالا بين مكة والمدينة فهداك إلى المدينة وقيل المعنى
ووجدك فهدى بك ضالا وعن جعفر بن محمد ووجدك ضالا عن محبتي لك في الأزل
أي لا تعرفها فمننت عليك بمعرفتي وقرأ الحسن بن علي ووجدك ضال فهدى أي اهتدى
بك وقال ابن عطاء ووجدك ضالا أي محبا لمعرفتي والضال المحب كما قال الله إنك
لفي ضلالك القديم أي محبتك القديمة ولم يريدوا ههنا في الدين إذ لو قالوا ذلك في

نبي الله لكفروا ومثله عند بعضهم قوله أنا الشريعة في ضلال مبين أي محبته بينة وقال
الجنيد ووجدك متحيرا في بيان ما أنزل إليك فهداك لبيانه لقوله وأنزلنا إليك الذكر
الآية وقيل ووجدك لم يعرفك أحد بالنبوة حتى أظهرك فهدى بك السعداء ولا أعلم
أحدا قال من المفسرين فيها ضالا عن الإيمان وكذلك في قصة موسى عليه السلام
قوله فعلتها إذا وأنا من الضالين أي من المخطئين الفاعلين شيئا بغير قصد قاله
ابن عرفة وقال الأزهري معناه من الناسين وقد قيل في قوله ووجدك ضالا
فهدى أي ناسيا كما قال تعالى أن تضل إحداهما **فإن قلت** فما معنى قوله
ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان فالجواب أن السمرقندي قال معناه ما كنت
تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان وقال بكر
القاضي نحوه قال ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام قال وكان قبل مؤمنا
بتوحيده ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل فازداد بالتكليف إيمانا وهو
أحسن وجوهه **فإن قلت** فما معنى قوله وإن كنت من قبله لمن الغافلين
فاعلم أنه ليس بمعنى قوله والذين هم عن آياتنا غافلون بل حكى أبو عبيد الهروي
أن معناه لمن الغافلين عن قصة يوسف إذ لم تعلمها إلا بوحينا وكذلك الحديث
الذي يرويه عثمان بن أبي شيبة بسنده عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد
كان يشهد مع المشركين مشاهدهم فسمع ملكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه
اذهب حتى تقوم خلفه فقال الآخر كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام
فلم يشهدهم بعد فهذا حديث أنكره أحمد بن حنبل جدا وقال هو موضوع
أو شبيه بالموضوع وقال الدارقطني يقال إن عثمان وهم في إسناده والحديث
بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يلتفت إليه والمعروف عن النبي صلى
الله عليه وسلم خلافه عند أهل العلم من قوله بغضت إلي الأصنام وقوله في
الحديث الآخر الذي روته أم أيمن حين كلمه عمه وآله في حضور بعض أعيادهم
وعزموا عليه فيه بعد كراهيته لذلك فخرج معهم ورجع مرعوبا فقال كلما دنوت

منها من صنم تمثل لي شخص أبيض طويل يصيح بي وراءك لا تمسه فما شهد بعد لهم
عيدا وقوله في قصة بحيرا حين استحلف النبي صلى الله عليه وسلم باللات والعزى
إذ لقيه بالشام في سفرته مع عمه أبي طالب وهو صبي ورأى فيه علامات
النبوءة فاختبره بذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تسألني بهما فوالله
ما أبغضت شيئا قط بغضهما فقال له بحيرا فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه
فقال سل عما بدا لك وكذلك المعروف من سيرته عليه السلام وتوفيق الله له أنه
كان قبل نبوته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلفة في الحج فكان يقف هو
بعرفة لأنه كان موقف إبراهيم **فصل قال القاضي** أبو الفضل رضي الله عنه
قد بان بما قدمناه عقود الأنبياء في التوحيد والإيمان والوحي وعصمتهم
في ذلك على ما بيناه فأما ما عدا هذا الباب من عقود قلوبهم فجماعها أنها مملوءة
علما ويقينا على الجملة وأنها قد احتوت من المعرفة والعلم بأمور الدين والدنيا ما
لا شيء فوقه ومن طالع الأخبار واعتنى بالحديث وتأمل ما قلناه وجده وقد
قدمنا في حق نبينا في الباب الرابع أول قسم من هذا الكتاب ما ينبه على ما
وراءه إلا أن أحوالهم في هذه المعارف تختلف فأما ما تعلق منها بأمر الدنيا
فلا يشترط في حق الأنبياء العصمة من عدم معرفة الأنبياء ببعضها أو اعتقادها
على خلاف ما هي عليه ولا وصم عليهم فيه إذ هممهم متعلقة بالآخرة وأنبائها
وأمر الشريعة وقوانينها وأمور الدنيا تضادها بخلاف غيرهم من أهل الدنيا الذين
يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون كما سنبين هذا في
الباب الثاني إن شاء الله ولكنه لا يقال إنهم لا يعلمون شيئا من أمر الدنيا فإن ذلك
يؤدي إلى الغفلة والبله وهم المنزهون عنه بل قد أرسلوا إلى أهل الدنيا وقلدوا سياستهم
وهدايتهم والنظر في مصالح دينهم ودنياهم وهذا لا يكون مع عدم العلم بأمور
الدنيا بالكلية وأحوال الأنبياء وسيرهم في هذا الباب معلومة ومعرفتهم بذلك
كله مشهورة وأما إن كان هذا العقد مما يتعلق بالدين فلا يصح من النبي إلا

العلم به، ولا يجوز عليه جهله جملة؛ لأنه لا يخلو أن يكون حصل عنده ذلك عن وحي
من الله فهو ما لا يصح الشك منه فيه على ما قدمناه، فكيف الجهل؟ بل حصل له العلم اليقين،
أو يكون فعل ذلك باجتهاده فيما لم ينزل عليه فيه شيء على القول بتجويز وقوع
الاجتهاد منه في ذلك على قول المحققين، وعلى مقتضى حديث أم سلمة: إني إنما
أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل علي فيه، خرجه الثقات، وكقضية أسرى بدر
والإذن للمتخلفين على رأي بعضهم، فلا يكون أيضا ما يعتقده مما يثمره اجتهاده
إلا حقا وصحيحا. هذا هو الحق الذي لا يلتفت إلى خلاف من خالف فيه ممن أجاز عليه
الخطأ في الاجتهاد، لا على القول بتصويب المجتهدين الذي هو
الحق والصواب عندنا، ولا على القول الآخر بأن الحق في طرف واحد لعصمة النبي
صلى الله عليه وسلم من الخطأ في الاجتهاد في الشرعيات، ولأن القول في تخطئة
المجتهدين إنما هو بعد استقرار الشرع، ونظر النبي واجتهاده إنما هو فيما لم
ينزل عليه فيه شيء ولم يشرع له قبل. هذا فيما عقد عليه النبي صلى الله عليه
وسلم قلبه، فأما ما لم يعقد عليه قلبه من أمر النوازل الشرعية فقد كان لا يعلم منها
أولا إلا ما علمه الله شيئا شيئا حتى استقر علم جملتها عنده، إما بوحي من الله
أو إذن أن يشرع في ذلك ويحكم بما أراه الله، وقد كان ينتظر الوحي في كثير
منها، ولكنه لم يمت حتى استفرغ علم جميعها عنده عليه السلام، وتقررت معارفها
لديه على التحقيق ورفع الشك والريب وانتفاء الجهل، وبالجملة فلا يصح منه الجهل
بشيء من تفاصيل الشرع الذي أمر بالدعوة إليه، إذ لا تصح دعوته إلى ما لا يعلمه.
وأما ما تعلق بعقده من ملكوت السماوات والأرض وخلق الله وتعيين أسمائه
الحسنى وآياته الكبرى وأمور الآخرة وأشراط الساعة وأحوال السعداء والأشقياء
وعلم ما كان ويكون مما لم يعلمه إلا بوحي، فعلى ما تقدم من أنه معصوم فيه، لا
يأخذه فيما أعلم منه شك ولا ريب، بل هو فيه على غاية اليقين، لكنه لا يشترط
له العلم بجميع تفاصيل ذلك، وإن كان عنده من علم ذلك ما ليس عند جميع البشر

لقوله: إني لا أعلم إلا ما علمني ربي، ولقوله: ولا خطر على قلب بشر، فلا تعلم نفس ما
أخفي لهم من قرة أعين، وقول موسى للخضر: هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا،
وقوله صلى الله عليه وسلم: أسألك بأسمائك الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم، وقوله:
أو استأثرت به في علم الغيب عندك، وقد قال تعالى: وفوق
كل ذي علم عليم. قال زيد بن أسلم وغيره: حتى ينتهي العلم إلى الله، وهذا ما لا خفاء
به، إذ معلوماته تعالى لا يحاط بها ولا منتهى لها. هذا حكم عقد النبي في التوحيد
والشرع والمعارف والأمور الدينية.

فصل

واعلم أن الأمة مجمعة على
عصمة النبي من الشيطان وكفايته منه، لا في جسمه بأنواع الأذى ولا على خاطره
بالوساوس. وقد أخبرنا القاضي الحافظ أبو علي رحمه الله قال: حدثنا أبو الفضل بن
خيرون العدل، حدثنا أبو بكر البرقاني وغيره، حدثنا أبو الحسن الدارقطني، حدثنا
إسماعيل الصفار، حدثنا عباس الترقفي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان عن
منصور عن سالم بن أبي الجعد عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة.
قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، ولكن الله تعالى أعانني عليه فأسلم. زاد غيره
عن منصور: فلا يأمرني إلا بخير. وعن عائشة بمعناه. روي فأسلم بضم الميم، أي
فأسلم أنا منه، وصحح بعضهم هذه الرواية ورجحها. وروي فأسلم يعني القرين
أنه انتقل عن حال كفره إلى الإسلام فصار لا يأمر إلا بخير كالملك، وهو ظاهر
الحديث. ورواه بعضهم: فاستسلم. **قال القاضي** أبو الفضل رضي الله عنه: فإذا
كان هذا حكم شيطانه وقرينه المسلط على كل أحد من بني آدم، فكيف بمن بعد
عنه ولم يلزم صحبته ولا أقدر على الدنو منه؟ وقد جاءت الآثار بتصدي الشياطين له
في غير موطن رغبة في إطفاء نوره وإماتة نفسه وإدخال شغل عليه إذ يئسوا
من إغوائه، فانقلبوا خاسرين، كتعرضه له في صلاته، فأخذه النبي صلى الله عليه
وسلم وأسره. ففي الصحاح قال أبو هريرة عنه عليه السلام: إن الشيطان عرض لي

قال عبد الرزاق في صورة هر فجعل يشد علي ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله منه
فذعته ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا تنظرون إليه فذكرت قول
أخي سليمان رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي الآية فرده
الله خاسئا. وفي حديث أبي الدرداء عنه عليه السلام أن عدو الله إبليس جاء
بشهاب من نار ليجعله في وجهي والنبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة وذكر
تعوذه بالله منه ولعنه له ثم أردت أخذه وذكر نحوه وقال لأصبح موثقا يتلاعب
به ولدان أهل المدينة. وكذلك في حديثه في الإسراء وطلب عفريت له بشعلة نار
فعلمه جبريل ما يتعوذ به منه ذكره في الموطأ ولما لم يقدر على أذاه بمباشرته
تسبب بالتوسط إلى عداه كقضيته مع قريش في الائتمار بقتل النبي صلى الله عليه
وسلم وتصوره في صورة الشيخ النجدي ومرة أخرى في يوم بدر في صورة سراقة
ابن مالك وهو قوله تعالى وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم الآية ومرة ينذر بشأنه عند
بيعة العقبة وكل هذا فقد كفاه الله أمره وعصمه ضره وشره. وقد قال عليه
السلام أن عيسى عليه السلام كفي من لمسه فجاء ليطعن بيده في خاصرته حين ولد
فطعن في الحجاب وقال عليه السلام حين لد في مرضه وقيل له خشينا أن تكون
بك ذات الجنب فقال إنها من الشيطان ولم يكن الله ليسلطها علي. **فإن قيل**
فما معنى قوله تعالى وإما ينزغنك من الشيطان نزغ الآية فقد قال بعض المفسرين
إنها راجعة إلى قوله وأعرض عن الجاهلين ثم قال وإما ينزغنك أي يستخفنك غضب
يحملك على ترك الإعراض عنهم فاستعذ بالله. وقيل النزغ هنا الفساد كما قال
من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي. وقيل ينزغنك يغرينك ويحركنك
والنزغ أدنى الوسوسة فأمره الله تعالى أنه متى تحرك عليه غضب على عدوه أو رام
الشيطان من إغرائه به وخواطر أدنى وساوسه ما لم يجعل له سبيل إليه أن يستعيذ
منه فيكفى أمره ويكون سبب تمام عصمته إذ لم يسلط عليه بأكثر من التعرض
له ولم يجعل له قدرة عليه. وقد قيل في هذه الآية غير هذا وكذلك لا يصح أن يتصور

له الشيطان في صورة الملك ويلبس عليه لا في أول الرسالة ولا بعدها والاعتماد في ذلك
دليل المعجزة بل لا يشك النبي أن ما يأتيه من الله الملك ورسوله حقيقة إما بعلم ضروري
يخلقه الله له أو ببرهان يظهر لديه لتتم كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته.
فإن قيل فما معنى قوله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى
الشيطان في أمنيته الآية فاعلم أن للناس في معنى هذه الآية أقاويل منها السهل والوعر
والسمين والغث وأولى ما يقال فيها ما عليه الجمهور من المفسرين أن التمني ها هنا
التلاوة وإلقاء الشيطان فيها إشغاله بخواطر وأذكار من أمور الدنيا للتالي حتى يدخل
عليه الوهم والنسيان فيما تلاه أو يدخل غير ذلك على أفهام السامعين من التحريف وسوء
التأويل ما يزيله الله وينسخه ويكشف لبسه ويحكم آياته. وسيأتي الكلام على هذه
الآية بعد بأشبع من هذا إن شاء الله. وقد حكى السمرقندي إنكار قول من قال
بتسلط الشيطان على ملك سليمان وغلبته عليه وأن مثل هذا لا يصح وقد ذكرنا
قصة سليمان مبينة بعد هذا. ومن قال إن الجسد هو الولد الذي ولد له وقال أبو محمد
مكي في قصة أيوب وقوله إني مسني الشيطان بنصب وعذاب أنه لا يجوز لأحد
أن يتأول أن الشيطان هو الذي أمرضه وألقى الضر في بدنه ولا يكون ذلك إلا بفعل
الله وأمره ليبتليهم ويثيبهم قال مكي وقد قيل إن الذي أصابه الشيطان ما وسوس
به إلى أهله. **فإن قلت** فما معنى قوله تعالى عن يوشع وما أنسانيه إلا الشيطان
وقوله عن يوسف فأنساه الشيطان ذكر ربه. وقول نبينا عليه السلام حين
نام عن الصلاة يوم الوادي إن هذا واد به شيطان وقول موسى في وكزته هذا من عمل
الشيطان. فاعلم أن هذا الكلام قد يرد في جميع هذا على مورد مستمر كلام العرب
في وصفهم كل قبيح من شخص أو فعل بالشيطان أو فعله كما قال تعالى كأنه رؤوس الشياطين
وقال صلى الله عليه وسلم فليقاتله فإنما هو شيطان وأيضا فإن قول يوشع لا يلزمنا
الجواب عليه إذ لم تثبت له في ذلك الوقت نبوة مع موسى قال الله وإذ قال موسى
لفتاه والمروي أنه إنما نبئ بعد موت موسى وقيل قبيل موته وقول موسى كان قبل

نبوته بدليل القرآن وقصة يوسف قد ذكرنا أنها كانت كلها قبل نبوته، وقد
قال المفسرون في قوله فأنساه الشيطان قولين أحدهما أن الذي أنساه الشيطان ذكر
ربه أحد صاحبي السجن وربه الملك أي أنساه أن يذكر للملك شأن يوسف عليه
السلام. وأيضا فإن مثل هذا من فعل الشيطان ليس فيه تسلط على يوسف ويوشع
بوسوسة ونزغ وإنما هو بشغل خواطرهما بأمور أخر وتذكيرهما من أمورهما
ما ينسيهما ما نسياه. وأما قوله عليه السلام إن هذا واد به شيطان فليس فيه
ذكر تسلطه عليه ولا وسوسته له بل إن كان بمقتضى ظاهره فقد بين أمر ذلك
الشيطان بقوله إن الشيطان أتى بلالا فلم يزل يهديه كما يهدى الصبي حتى نام
فاعلم أن تسلط الشيطان في ذلك الوادي إنما كان على بلال الموكل بكلاءة الفجر
هذا إن جعلنا قوله إن هذا واد به شيطان تنبيها على سبب النوم عن الصلاة
وأما إن جعلناه تنبيها على سبب الرحيل عن الوادي وعلة لترك الصلاة به وهو
دليل مساق حديث زيد بن أسلم فلا اعتراض به في هذا الباب لبيانه وارتفاع إشكاله

فصل وأما قوله عليه السلام فقامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه
وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها
بخلاف ما هو به لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا. أما تعمد الخلف في ذلك فمنتف
بدليل المعجزة القائمة مقام قول الله صدق فيما قال اتفاقا وبإطباق أهل الملة إجماعا
وأما وقوعه على جهة الغلط في ذلك فبهذه السبيل عند الأستاذ أبي إسحاق
الإسفرايني ومن قال بقوله ومن جهة الإجماع فقط وورود الشرع بانتفاء ذلك
وعصمة النبي لا من مقتضى المعجزة نفسها عند القاضي أبي بكر الباقلاني ومن
وافقه لاختلاف بينهم في مقتضى دليل المعجزة لا نطول بذكره فنخرج عن غرض
الكتاب. فلنعتمد على ما وقع عليه إجماع المسلمين أنه لا يجوز عليه خلف في القول
في إبلاغ الشريعة والإعلام بما أخبر عن ربه وما أوحاه إليه من وحيه لا على
وجه العمد ولا على غير عمد ولا في حال الرضى والسخط والصحة والمرض وفي حديث

رضي الله عنه

عبد الله بن عمرو قلت يا رسول الله أأكتب كل ما أسمع منك قال نعم قلت في الرضى
والغضب قال نعم فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقا. ولنزد ما أشرنا إليه من دليل
المعجزة عليه بيانا فنقول إذا قامت المعجزة على صدقه وأنه لا يقول إلا حقا ولا يبلغ
عن الله إلا صدقا وأن المعجزة قائمة مقام قول الله له صدقت فيما تذكره عني وهو
يقول إني رسول الله إليكم لأبلغكم ما أرسلت به إليكم وأبين لكم ما نزل عليكم
وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وقد جاءكم الرسول بالحق من ربكم
وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا فلا يصح أن يوجد منه في هذا
الباب خبر بخلاف مخبره على أي وجه كان فلو جوزنا عليه الغلط والسهو لما تميز لنا
من غيره ولاختلط الحق بالباطل فالمعجزة مشتملة على تصديقه جملة واحدة من
غير خصوص فتنزيه النبي عن ذلك كله واجب برهانا وإجماعا كما قال أبو إسحاق

صلى الله عليه وسلم

فصل وقد توجهت ها هنا لبعض الطاعنين سؤالات منها ما روي أن النبي
صلى الله عليه وسلم لما قرأ سورة والنجم وقال أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة
الأخرى قال تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى ويروى ترتضى وفي رواية
إن شفاعتها لترتجى وإنها لمع الغرانيق العلا وفي أخرى والغرانقة العلا تلك
الشفاعة ترتجى فلما ختم السورة سجد وسجد معه المسلمون والكفار لما سمعوه
أثنى على آلهتهم وما وقع في بعض الروايات أن الشيطان ألقاها على لسانه وأن النبي
صلى الله عليه وسلم كان يتمنى أن لو نزل عليه شيء يقارب بينه وبين قومه وفي
رواية أخرى ألا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه وذكر هذه القصة وأن جبريل جاءه
فعرض عليه هذه السورة فلما بلغ الكلمتين قال له ما جئتك بهاتين فحزن لذلك النبي
صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تسلية له وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا
إذا تمنى الآية وقوله وإن كادوا ليفتنونك الآية. فاعلم أكرمك الله أن لنا في الكلام على
مشكل هذا الحديث مأخذين أحدهما في توهين أصله والثاني على تسليمه. أما
المأخذ الأول فيكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة

بسند سليم متصل وانما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون
من الصحف كل صحيح وسقيم وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال لقد بلي
الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف بعض
نقلته واضطراب رواياته وانقطاع اسناده واختلاف كلماته فقايل يقول انه
في الصلاة وآخر يقول قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة وآخر يقول
قالها وقد أصابته سنة وآخر يقول بل حدث نفسه فسها وآخر يقول ان الشيطان
قالها على لسانه وان النبي صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل عليه السلام
قال ما هكذا اقراتك وآخر يقول بل أعلمهم الشيطان أن النبي قرأها فلما بلغ النبي
صلى الله عليه وسلم ذلك قال والله ما هكذا نزلت إلى غير ذلك من اختلاف الرواة
ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها
إلى صاحب وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية والمرفوع فيه حديث شعبة
عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب الشك في الحديث أن النبي
صلى الله عليه وسلم كان بمكة وذكر القصة قال أبو بكر البزار ان هذا الحديث لا نعلمه
يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا ولم يسنده
عن شعبة إلا أمية بن خالد وغيره يرسله عن سعيد بن جبير وانما يعرف عن الكلبي
عن أبي صالح عن ابن عباس فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز
ذكره سوى هذا وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه
الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه وأما حديث الكلبي فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره
لقوة ضعفه وكذبه كما أشار إليه البزار رحمه الله والذي منه في الصحيح أن النبي
صلى الله عليه وسلم قرأ والنجم وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن
والإنس هذا توهينه من طريق النقل فأما من جهة المعنى فقد قامت الحجة وأجمعت
الأمة على عصمته عليه السلام ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة إما من تمنيه أن ينزل
عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو أن يتسور عليه الشيطان ويشبه

بتصور

عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبي أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه
عليه جبريل وذلك كله ممتنع في حقه عليه السلام أو يقول ذلك النبي من قبل نفسه عمدا
وذلك كفر أو سهوا وهو معصوم من هذا كله وقد قررنا بالبرهان والإجماع عصمته
عليه السلام من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمدا ولا سهوا أو أن يتشبه عليه
ما يلقيه الملك مما يلقي الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل أو أن يتقول على
الله لا عمدا ولا سهوا ما لم ينزل عليه وقد قال الله تعالى ولو تقول علينا بعض الأقاويل
الآية وقال إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات الآية ووجه ثان وهو استحالة
هذه القصة نظرا وعرفا وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الالتيام
متناقض الأقسام ممتزج المدح بالذم متخاذل التأليف والنظم ولما كان النبي صلى
الله عليه وسلم ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه
ذلك وهذا لا يخفى على أدنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه واتسع في باب البيان ومعرفة
فصيح الكلام علمه ووجه ثالث أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندي المشركين
وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة وتخليط العدو على النبي
لأقل فتنة وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة وارتداد من في قلبه
مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة ولم يحك أحد في هذه القصة شيئا سوى هذه
الرواية الضعيفة الأصل ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة
ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة كما فعلوا مكابرة في قصة الإسراء حتى كانت في
ذلك لبعض الضعفاء ردة وكذلك ما روي في قصة القضية ولا فتنة أعظم
من هذه البلية لو وجدت ولا تشغيب للمعادي حينئذ أشد من هذه الحادثة لو
أمكنت فما روي عن معاند فيها كلمة ولا عن مسلم بسببها بنت شفة فدل
على بطلها واجتثاث أصلها ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس أو الجن هذا
الحديث على بعض مغفلي المحدثين ليلبس به على ضعفاء المسلمين ووجه رابع ذكر
الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت وإن كادوا ليفتنونك الآيتين وهاتان

والآيتان تردان الخبر الذي رووه لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري
وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم فمضمون هذا ومفهومه أن الله عصمه من أن يفتري
وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا فكيف كثيرا وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه
زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وأنه قال عليه السلام افتريت على الله وقلت
ما لم يقل وهذا ضد مفهوم الآية وهي تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له وهذا
مثل قوله في الآية الأخرى ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك
وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء. وقد روي عن ابن عباس كل ما في
القرآن كاد فهو ما لا يكون قال الله يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ولم يذهب
وأكاد أخفيها ولم يفعل قال القشيري القاضي ولقد طالبه قريش وثقيف إذ
مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ووعدوه الإيمان به إن فعل فما فعل وما كان ليفعل قال
ابن الأنباري ما قارب الرسول ولا ركن وقد ذكرت في معنى الآية تفاسير أخر ما
ذكرناه من نص الله على عصمة رسوله يرد سفسافها فلم يبق في الآية إلا أن الله
تعالى امتن على رسوله بعصمته وتثبيته بما كاده به الكفار وراموا من فتنته ومرادنا
من ذلك تنزيهه وعصمته صلى الله عليه وسلم وهو مفهوم الآية. وأما المأخذ
الثاني فهو مبني على تسليم الحديث لو صح وقد أعاذنا الله من صحته ولكن على كل حال
فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة منها الغث والسمين فمنها ما روا
قتادة ومقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم أصابته سنة عند قراءته هذه السورة
فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم وهذا لا يصح إذ لا يجوز على النبي مثله
في حالة من أحواله ولا يخلقه الله على لسانه ولا يستولي الشيطان عليه في نوم ولا
يقظة لعصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو وفي قول الكلبي أن النبي
حدث نفسه فقال ذلك الشيطان على لسانه وفي رواية ابن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن
قال وسها فلما أخبر بذلك قال إنما ذلك من الشيطان وكل هذا لا يصح أن يقوله عليه
السلام لا سهوا ولا قصدا ولا يتقوله الشيطان على لسانه. وقيل لعل النبي قاله أثناء

تلاوته على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار كقول إبراهيم هذا ربي على أحد التأويلات
وكقوله بل فعله كبيرهم هذا بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين ثم رجع إلى
تلاوته وهذا ممكن مع بيان الفصل وقرينة تدل على المراد وأنه ليس من المتلو وهو
أحد ما ذكره القاضي أبو بكر ولا يعترض على هذا بما روي أنه كان في الصلاة فقد
كان الكلام فيها قبل غير ممنوع. والذي يظهر ويترجح في تأويله عنده وعند
غيره من المحققين على تسليمه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربه يرتل
القرآن ترتيلا ويفصل الآي في تلاوته كما رواه الثقات عنه فيمكن ترصد الشيطان
لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكيا نغمة النبي
صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار فظنوها من قول النبي
صلى الله عليه وسلم وأشاعوها ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل
ذلك على ما أنزلها الله وتحققهم من حال النبي صلى الله عليه وسلم في ذم الأوثان
وعيبها ما عرف منه. وقد حكى محمد بن عقبة في مغازيه نحو هذا وقال إن المسلمين
لم يسمعوها وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين وقلوبهم ويكون ما روي
من حزن النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة وقد
قال الله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى الآية فمعنى تمنى تلا
قال الله تعالى لا يعلمون الكتاب إلا أماني أي تلاوة وقوله فينسخ الله ما يلقي
الشيطان أي يذهبه ويزيل اللبس به ويحكم آياته. وقيل معنى الآية هو ما يقع
للنبي صلى الله عليه وسلم من السهو إذا قرأ فينتبه لذلك ويرجع عنه وهذا نحو
قول الكلبي في الآية أنه حدث نفسه وقال إذا تمنى أي حدث نفسه. وفي رواية
أبي بكر بن عبد الرحمن مثله وهذا السهو في القراءة إنما يصح فيما ليس طريقه
تغيير المعاني وتبديل الألفاظ وزيادة ما ليس من القرآن بل السهو عن إسقاط
آية منه أو كلمة ولكنه لا يقر على هذا السهو بل ينبه عليه ويذكر به للحين على ما
سنذكره في حكم ما يجوز عليه من السهو وما لا يجوز. ومما يظهر في تأويله

أيضا أن يحاجوا بهذا وروي هذه القصة والغرانقة العلا فإن سلمنا القصة قلنا لا يبعد
أن هذا كان قرآنا والمراد بالغرانقة العلا وأن شفاعتهن لترتجى الملائكة على
هذه الرواية وبهذا فسر الكلبي الغرانقة أنها الملائكة وذلك أن الكفار كانوا
يعتقدون الأوثان والملائكة بنات الله كما حكى الله عنهم ورد عليهم في هذه السورة
بقوله ألكم الذكر وله الأنثى فأنكر الله كل هذا من قولهم ورجاء الشفاعة من الملائكة
صحيح فلما تأوله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم ولبس عليهم الشيطان ذلك
وزينه في قلوبهم وألقاه إليهم نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله تعالى آياته
ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما سبيلا للإلباس كما نسخ كثير من
القرآن ورفعت تلاوته وكان في إنزال الله تعالى لذلك حكمة وفي نسخه حكمة
ليضل به من يشاء ويهدي من يشاء وما يضل به إلا الفاسقين وليجعل ما يلقي الشيطان
فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد وليعلم الذين
أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم الآية. وقيل إن النبي صلى
الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة وبلغ ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى
خاف الكفار أن يأتي بشيء من ذمها فسبقوا إلى مدحها بتلك الكلمتين ليخلطوا في
تلاوة النبي عليه السلام ويشنعوا عليه على عادتهم وقولهم لا تسمعوا لهذا القرآن
والغوا فيه لعلكم تغلبون ونسب هذا الفعل إلى الشيطان لحمله لهم عليه وأشاعوا
ذلك وأذاعوه وأن النبي صلى الله عليه وسلم قاله فحزن لذلك من كذبهم وافترائهم
عليه فسلاه الله بقوله وما أرسلنا من قبلك الآية وبين للناس الحق من ذلك من
الباطل وحفظ القرآن وأحكم آياته ودفع ما لبس به العدو كما ضمنه الله تعالى من
قوله إنا نحن نزلنا الذكر الآية. ومن ذلك ما روي من قصة يونس عليه السلام
أنه وعد قومه بالعذاب عن ربه فلما تابوا كشف عنهم العذاب فقال لا أرجع إليهم
كذابا أبدا فذهب مغاضبا. فاعلم أكرمك الله أن ليس في خبر من الأخبار الواردة
في هذا الباب أن يونس قال لهم إن الله مهلككم وإنما فيه أنه دعا عليهم بالهلاك والدعاء

ليس بخبر يطلب صدقه من كذبه لكنه قال لهم إن العذاب مصبحكم وقت كذا وكذا
فكان ذلك كما قال ثم رفع الله عنهم العذاب وتداركهم قال الله تعالى إلا قوم يونس لما
آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي الآية. وروي في الأخبار أنهم رأوا دلائل العذاب
ومخايله قاله ابن مسعود وقال سعيد بن جبير غشاهم العذاب كما يغشى الثوب القبر
فإن قلت فما معنى ما روي من أن عبد الله بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله
صلى الله عليه وسلم ثم ارتد مشركا وصار إلى قريش فقال لهم إني كنت أصرف محمدا حيث
أريد كان يملي علي عزيز حكيم فأقول أو عليم حكيم فيقول نعم كل صواب. وفي
حديث آخر فيقول له النبي اكتب كذا فيقول أكتب كذا فيقول اكتب كيف شئت
ويقول له اكتب عليما حكيما فيقول أكتب سميعا بصيرا فيقول اكتب كيف شئت وفي
الصحيح عن أنس أن نصرانيا كان يكتب للنبي عليه السلام بعدما أسلم ثم ارتد وكان
يقول ما يدري محمد إلا ما كتبت له. **فاعلم** ثبتنا الله وإياك على الحق ولا جعل للشيطان
وتلبيسه الحق بالباطل إلينا سبيلا أن مثل هذه الحكاية أولا لا توقع في قلب مؤمن
ريبا إذ هي حكاية عمن ارتد وكفر بالله ونحن لا نقبل خبر المسلم المتهم فكيف
بكافر افترى هو ومثله على الله ورسوله ما هو أعظم من هذا. والعجب لسليم العقل
أن يشغل بمثل هذه الحكاية سره وقد صدرت من عدو كافر مبغض للدين مفتر على
الله ورسوله ولم ترد عن أحد من المسلمين ولا ذكر أحد من الصحابة أنه شاهد ما قاله
وافتراه على نبي الله وإنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم
الكاذبون وما وقع من ذكره ما في حديث أنس وظاهر حكايتها فليس فيه
ما يدل أنه شاهدها ولعله حكى ما سمع. وقد علل البزار حديثه ذلك وقال رواه
ثابت عنه ولم يتابع عليه ورواه حميد عن أنس قال وأظن حميدا إنما سمعه من ثابت
قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه ولهذا والله أعلم لم يخرج أهل الصحيح
حديث ثابت ولا حميد والصحيح حديث عبد العزيز بن رفيع عن أنس الذي خرجه
أهل الصحة وذكرناه وليس فيه عن أنس قول شيء من ذلك من قبل نفسه إلا من

حكايته عن المرتد النصراني ولو كانت صحيحة لما كان فيها قدح ولا توهيم للنبي
فيما أوحي إليه ولا جواز للنسيان والغلط عليه والتحريف فيما بلّغه ولا طعن في نظم
القرآن وأنه من عند الله إذ ليس فيه لو صح أكثر من أن الكاتب قال له عليم حكيم
أو كتبه فقال له النبي كذلك هو فسبقه لسانه أو قلمه بكلمة أو كلمتين مما نزل على
الرسول قبل إظهار الرسول لها إذ كان ما تقدم مما أملاه الرسول يدل عليها ويقتضي
وقوعها بقوة الكاتب على الكلام ومعرفته به وجودة حسه وفطنته كما يتفق ذلك
للعارف إذا سمع البيت أن يسبق إلى قافيته أو مبتدأ الكلام الحسن إلى ما يتم به ولا يتفق
ذلك في جملة الكلام كما لا يتفق ذلك في آية ولا سورة. وكذلك قوله عليه السلام
إن صح كل صواب فقد يكون هذا فيما كان فيه من مقاطع الآي وجهان وقراءتان
أنزلتا جميعا على النبي عليه السلام فأملى إحداهما وتوصل الكاتب بفطنته ومعرفته
بمقتضى الكلام إلى الأخرى فذكرها للنبي كما قدمناه فصوبها له النبي عليه
السلام ثم أحكم الله من ذلك ما أحكم ونسخ ما نسخ كما قد وجد ذلك في بعض
مقاطع الآي مثل قوله تعالى إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز
الحكيم وهذه قراءة الجمهور وقد قرأ جماعة فإنك أنت الغفور الرحيم وليست من
المصحف وكذلك كلمات جاءت على وجهين في غير المقاطع قرأ بهما جميعا الجمهور
وثبتتا في المصحف مثل وانظر إلى العظام كيف ننشزها وننشرها ويقص الحق
ويقضي الحق وكل هذا لا يوجب ريبا ولا يسبب للنبي صلى الله عليه وسلم غلطا
ولا وهما وقد قيل إن هذا يحتمل فيما يكتبه عن النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس غير
القرآن فيصف الله تعالى ويسميه في ذلك كيف شاء. **فصل** هذا القول فيما
طريقه البلاغ. وأما ما ليس سبيله سبيل البلاغ من الأخبار التي لا مستند لها إلى
الأحكام ولا أخبار المعاد ولا تضاف إلى وحي بل في أمور الدنيا وأحوال نفسه فالذي
يجب اعتقاده تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يقع خبره في شيء من ذلك
بخلاف مخبره لا عمدا ولا سهوا ولا غلطا وأنه معصوم من ذلك في حال رضاه وفي حال

سخطه وجده ومزحه وصحته ومرضه ودليل ذلك اتفاق السلف وإجماعهم عليه
وذلك أنا نعلم من دين الصحابة وعادتهم مبادرتهم إلى تصديق جميع أحواله والثقة
بجميع أخباره في أي باب كانت وعن أي شيء وقعت وأنه لم يكن لهم توقف ولا تردد
في شيء منها ولا استثبات عن حاله عند ذلك هل وقع فيها سهو أم لا. ولما احتج
ابن أبي الحقيق اليهودي على عمر حين أجلاهم من خيبر بإقرار رسول الله صلى الله
عليه وسلم لهم واحتج عليه عمر بقوله صلى الله عليه وسلم كيف بك إذا أخرجت
من خيبر فقال اليهودي كانت هزيلة من أبي القاسم فقال عمر كذبت يا عدو الله.
وأيضا فإن أخباره وآثاره وسيره وشمائله معتنى بها مستقصى تفاصيلها ولم
يرد في شيء منها استدراكه عليه السلام لغلط في قول قاله أو اعترافه بوهم
في شيء أخبر به ولو كان ذلك لنقل كما نقل من قصته عليه السلام رجوعه عما
أشار به على الأنصار في تلقيح النخل وكان ذلك رأيا لا خبرا وغير ذلك من
الأمور التي ليست من هذا الباب كقوله إني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا
منها إلا فعلت الذي حلفت عليه وكفرت عن يميني وقوله إنكم تختصمون إلي الحديث
وقوله اسق يا زبير حتى يبلغ الماء الجدر كما سنبين كل ما في هذا من مشكل في
هذا الباب والذي بعده إن شاء الله مع أشباهها وأيضا فإن الكذب متى عرف من أحد
في شيء من الأخبار بخلاف ما هو على أي وجه كان استريب بخبره واتهم في حديثه
ولم يقع قوله في النفوس موقعا ولهذا ترك المحدثون والعلماء الحديث عمن عرف
بالوهم والغفلة وسوء الحفظ وكثرة الغلط مع ثقته. وأيضا فإن تعمد الكذب في
أمور الدنيا معصية والإكثار منه كبيرة بإجماع مسقط للمروءة وكل هذا مما ينزه
عنه منصب النبوة والمرة الواحدة منه فيما يستبشع ويستشنع مما يخل بصاحبها
وتزري بقائلها لاحقة بذلك. وأما فيما لا يقع هذا الموقع فإن عددناها من الصغائر
فهل تجري على حكمها في الخلاف فيها مختلف فيه. والصواب تنزيه النبوة عن قليله
وكثيره وسهوه وعمده إذ عمدة النبوة البلاغ والإعلام والتبيين وتصديق

ما جاء به النبي، وتجويز شيء من هذا قادح في ذلك ومشكك فيه مناقض للمعجزة
فلنقطع عن يقين بأنه لا يجوز على الأنبياء خلف في القول في وجه من الوجوه لا بقصد
ولا بغير قصد ولا نتسامح مع من تسامح في تجويز ذلك عليهم حال السهو فيما ليس
طريقه البلاغ نعم وبأنه لا يجوز عليهم الكذب قبل النبوة ولا الاتسام به في أمورهم
وأحوال دنياهم لأن ذلك كان يزري ويريب بهم وينفر القلوب عن تصديقهم بعد
وانظر أحوال أهل عصر النبي صلى الله عليه وسلم في قريش وغيرها من الأمم وسؤالهم
عن حاله في صدق لسانه وما عرفوا به من ذلك واعترفوا به مما عرف واتفق النقل
على عصمة نبينا صلى الله عليه وسلم منه قبل وبعد وقد ذكرنا من الآثار فيه في
الباب الثاني أول الكتاب ما يبين لك صحة ما أشرنا إليه

فصل فإن قلت فما
معنى قوله عليه السلام في حديث السهو الذي حدثنا به الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر
قال حدثنا القاضي أبو الأصبغ بن سهل قال حدثنا حاتم بن محمد حدثنا أبو عبد الله
ابن الفخار حدثنا أبو عيسى حدثنا عبيد الله حدثنا يحيى عن مالك عن داود بن الحصين
عن أبي سفيان مولى ابن أبي أحمد أنه قال سمعت أبا هريرة يقول صلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم صلاة العصر فسلم في ركعتين فقام ذو اليدين فقال يا رسول الله أقصرت
الصلاة أم نسيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك لم يكن وفي الرواية
الأخرى ما قصرت وما نسيت الحديث بقصته فأخبر بنفي الحالتين وأنهما لم تكونا
وقد كان أحد ذلك كما قال ذو اليدين قد كان بعض ذلك يا رسول الله. **فاعلم**
وفقنا الله وإياك أن للعلماء في ذلك أجوبة بعضها بصدد الإنصاف ومنها ما هو
بنية التعسف والاعتساف. فما أقول أما على القول بتجويز الوهم والغلط فيما
ليس طريقه من القول البلاغ وهو الذي زيفناه من القولين فلا اعتراض بهذا الحديث
وشبهه وأما على مذهب من يمنع السهو والنسيان في أفعاله جملة ويرى أنه في مثل
هذا عامد لصورة النسيان ليسن فهو صادق في خبره لأنه لم ينس ولا قصرت
ولكنه على هذا القول تعمد هذا الفعل في هذه الصورة ليسنه لمن اعتراه مثله

وهو قول مرغوب عنه نذكره في موضعه وأما على إحالة السهو عليه في الأقوال
وتجويز السهو عليه فيما ليس طريقه القول كما سنذكره ففيه أجوبة: منها أن النبي صلى
الله عليه وسلم أخبر عن اعتقاده وضميره. أما إنكار القصر فحق وصدق باطنا
وظاهرا وأما النسيان فأخبر صلى الله عليه وسلم عن اعتقاده وأنه لم ينس في ظنه
فكأنه قصد الخبر بهذا عن ظنه وإن لم ينطق به وهذا صدق أيضا. ووجه ثان أن
قوله ولم أنس راجع إلى السلام أي أني سلمت قصدا وسهوت عن العدد أي لم أسه في
نفس السلام وهذا محتمل وفيه بعد. ووجه ثالث وهو أبعدها ما ذهب إليه بعضهم
وإن احتمله اللفظ من قوله كل ذلك لم يكن أي لم يجتمع القصر والنسيان بل كان
أحدهما ومفهوم اللفظ خلافه مع الرواية الأخرى الصحيحة وهو قوله ما قصرت الصلاة
وما نسيت هذا ما رأيت فيه لأئمتنا وكل من هذه الوجوه يحتمل اللفظ على بعد بعضها
وتعسف الآخر منها. **قال القاضي** أبو الفضل رضي الله عنه والذي أقول
ويظهر لي أنه أقرب من هذه الوجوه كلها أن قوله لم أنس إنكار للفظ الذي نفاه عن
نفسه وأنكره على غيره بقوله بئسما لأحدكم أن يقول نسيت آية كذا وكذا ولكنه
نسي ولقوله في بعض روايات الحديث الآخر لست أنسى ولكن أنسى فلما قال
له السائل أقصرت الصلاة أم نسيت أنكر قصرها كما كان ونسيانه هو من قبل
نفسه وأنه إن كان جرى شيء من ذلك فقد نسي حتى سأل غيره فتحقق أنه نسي
وأجري عليه ذلك ليسن فقوله على هذا لم أنس ولم تقصر وكل ذلك لم يكن
صدق وحق لم تقصر ولم ينس حقيقة ولكنه نسي. ووجه آخر استثرته من كلام
بعض المشايخ وذلك أنه قال إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسهو ولا ينسى
ولذلك نفى عن نفسه النسيان قال لأن النسيان غفلة وآفة والسهو إنما هو شغل
قال فكان عليه السلام يسهو في صلاته ولا يغفل عنها وكان يشغله عن حركات
الصلاة ما في الصلاة شغلا بها لا غفلة عنها فهذا إن تحقق على هذا المعنى لم يكن
في قوله ما قصرت وما نسيت خلف في قول وأما نصه كلمات الراوي المذكورة في الحديث

عليه السلام

انما كذباته الثلاث المنصوصة في القرآن منها اثنتان قوله اني سقيم وبل فعله
كبيرهم هذا وقوله للملك عن زوجته انها اختي فاعلم اكرمك الله ان هذه كلها خارجة
عن الكذب لا في القصد ولا في غيره وهي داخلة في باب المعاريض التي فيها مندوحة
عن الكذب فاما قوله اني سقيم فقال الحسن وغيره معناه سأسقم اي ان كل مخلوق
معرض لذلك فاعتذر لقومه من الخروج معهم الى عيدهم بهذا . وقيل بل سقيم بما قدر
علي من الموت وقيل سقيم القلب بما اشاهده من كفركم وعنادكم وقيل بل كانت
الحمى تاخذه عند طلوع نجم معلوم فلما راه اعتذر بعادته وكل هذا ليس فيه
كذب بل هو خبر صحيح صدق وقيل بل عرض بسقم حجته عليهم وضعف ما اراد بيانه
لهم من جهة النجوم التي كانوا يشتغلون بها وانه اثناء نظره في ذلك وقبل استقامة
حجته عليهم في حال سقم ومرض حال مع انه لم يشك هو ولا ضعف ايمانه ولكنه
ضعف في استدلاله عليهم وسقم نظره كما يقال حجة سقيمة ونظر معلول حتى الهمه
الله باستدلاله وصحة حجته عليهم بالكوكب والشمس والقمر ما نصه الله وقد مضى
بيانه . واما قوله بل فعله كبيرهم هذا الاية فانه علق خبره بشرط نطقه كانه قال
ان كان ينطق فهو فعله على طريق التبكيت لقومه وهذا صدق ايضا ولا خلف فيه
واما قوله اختي فقد بين في الحديث وقال فانك اختي في الاسلام وهو صدق والله
تعالى يقول انما المومنون اخوة . فان قلت فهذا النبي قد سماها كذبات وقال لم يكذب
ابراهيم الا ثلاث كذبات وقال في حديث الشفاعة ويذكر كذباته فمعناه انه لم يتكلم
بكلام صورته صورة الكذب وان كان حقا في الباطن الا هذه الكلمات ولما كان
مفهوم ظاهرها خلاف باطنها اشفق ابراهيم عليه السلام بمؤاخذته بها . واما الحديث
كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا اراد غزوة ورى بغيرها فليس فيه خلف في
القول انما هو ستر مقصده لئلا ياخذ عدوه حذره وكتم وجه ذهابه بذكر السؤال
عن موضع آخر والبحث عن اخباره والتعريض بذكره لا انه يقول تجهزوا الى غزوة
كذا او وجهتنا الى موضع كذا خلاف مقصده فهذا لم يكن والاول ليس فيه خبر يدخله

الخلف فان قلت فما معنى قول موسى وقد سئل اي الناس اعلم فقال انا اعلم فعتب الله عليه
ذلك اذ لم يرد العلم اليه الحديث . وفيه قال بل عبد لنا بمجمع البحرين اعلم منك وهذا خبر
قد انبا الله انه ليس كذلك فاعلم انه وقع في هذا الحديث من بعض طرقه الصحيحة عن
ابن عباس هل تعلم احدا اعلم منك فاذا كان جوابه على علمه فهو خبر حق وصدق
لا خلف فيه ولا شبهة وعلى الطريق الاخر محمله على ظنه ومعتقده كما لو صرح به لان
حاله في النبوة والاصطفاء يقتضي ذلك فيكون اخباره بذلك ايضا عن اعتقاده
وحسبانه صدقا لا خلف فيه وقد يريد بقوله انا اعلم بما تقتضيه وظائف النبوة
من علوم التوحيد وامور الشريعة وسياسة الامة ويكون الخضر اعلم منه بامور
اخر مما لا يعلمه احد الا باعلام الله من علوم غيبه كالقصص المذكورة في خبرهما
فكان موسى اعلم على الجملة بما تقدم وهذا اعلم على الخصوص بما اعلم ويدل عليه
قوله تعالى وعلمناه من لدنا علما . وعتب الله ذلك عليه فيما قاله العلماء انكار هذا
القول عليه لانه لم يرد العلم اليه كما قالت الملائكة لا علم لنا الا ما علمتنا او لانه لم
يرض قوله شرعا وذلك والله اعلم لئلا يقتدي به فيه من لم يبلغ كماله في تزكية نفسه
وعلو درجته من امته فيهلك لما تضمنه من مدح الانسان نفسه ويورثه ذلك من
الكبر والعجب والتعاطي والدعوى وان نزه عن هذه الرذائل الانبياء فغيرهم
بمدرجة سبيلها ودرك ليلها الا من عصمه الله . فالتحفظ منها اولى لنفسه وليقتدى
به ولهذا قال عليه السلام تحفظا من مثل هذا مما قد علم به انا سيد ولد آدم ولا فخر
وهذا الحديث احدى حجج القائلين بنبوة الخضر لقوله فيه انه اعلم من موسى ولا يكون
الولي اعلم من النبي . واما الانبياء فيتفاضلون في المعارف وبقوله وما فعلته عن
امري فدل انه بوحي ومن قال انه ليس بنبي قال يحتمل انه فعله بامر نبي آخر وهذا
يضعف لانه ما علمنا انه كان في زمن موسى نبي غيره الا اخاه هارون وما نقل احد من
اهل الاخبار في ذلك شيئا يعول عليه واذا جعلنا اعلم منك ليس على العموم وانما
هو على الخصوص وفي قضايا معينة لم يحتج الى اثبات نبوة الخضر ولهذا قال بعض

الشيوخ كان موسى أعلم من الخضر فيما أخذ عن الله والخضر أعلم فيما دفع إليه من موسى
وقال آخرون إنما ألجئ موسى إلى الخضر للتأديب لا للتعليم. **فصل** وأما ما يتعلق بالجوارح
من الأعمال ولا يخرج من جملتها القول باللسان فيما عدا الخبر الذي وقع فيه الكلام ولا الاعتقاد
في القلب فيما عدا التوحيد وما قدمناه من معارفه المختصة به فأجمع المسلمون على
عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر الموبقات ومستند الجمهور في ذلك الإجماع
الذي ذكرناه وهو مذهب القاضي أبي بكر ومنعها غيره بدليل العقل مع الإجماع
وهو قول الكافة واختاره الأستاذ أبو إسحاق وكذلك لا خلاف أنهم معصومون من
كتمان الرسالة والتقصير في التبليغ لأن ذلك كله يقتضي العصمة منه المعجزة
مع الإجماع على ذلك من الكافة والجمهور قائل بأنهم معصومون من ذلك من قبل الله
تعالى معتصمون باختيارهم وكسبهم إلا حسينا النجار فإنه قال إنهم لا قدرة لهم على
المعاصي. وأما الصغائر فجوزها جماعة من السلف وغيرهم على الأنبياء وهو مذهب
أبي جعفر الطبري وغيره من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين وسنورد بعد هذا ما
احتجوا به وذهبت طائفة أخرى إلى الوقف وقالوا العقل لا يحيل وقوعها منهم ولم يأت
في الشرع قاطع بأحد الوجهين وذهبت طائفة أخرى من المحققين من الفقهاء
والمتكلمين إلى عصمتهم من الصغائر كعصمتهم من الكبائر قالوا لاختلاف الناس
في الصغائر وتعيينها من الكبائر وإشكال ذلك وقول ابن عباس وغيره إن كل ما
عصي الله به فهو كبيرة وأنه إنما سمي منها الصغير بالإضافة إلى ما هو أكبر منه
ومخالفة الباري في أي أمر كان يجب كونه كبيرة. قال القاضي أبو محمد عبد الوهاب
لا يمكن أن يقال إن في معاصي الله صغيرة إلا على معنى أنها تغتفر باجتناب
الكبائر ولا يكون لها حكم مع ذلك بخلاف الكبائر إذا لم يتب منها فلا يحبطها
شيء والمشيئة في العفو عنها إلى الله وهو قول القاضي أبي بكر وجماعة أئمة
الأشعرية وكثير من أئمة الفقهاء. قال بعض أئمتنا ولا يجب على القولين أن يختلف
أنهم معصومون عن تكرار الصغائر وكثرتها إذ يلحقها ذلك بالكبائر ولا في صغيرة

أدت إلى إزالة الحشمة وأسقطت المروءة وأوجبت الإزراء والخساسة فهذا أيضا مما
يعصم عنه الأنبياء إجماعا لأن مثل هذا يحط منصب المتسم به ويزري بصاحبه
وينفر القلوب عنه والأنبياء منزهون عن ذلك بل يلحق بهذا ما كان من قبيل المباح
فأدى إلى مثله لخروجه بما أدى إليه عن اسم المباح إلى الحظر. وقد ذهب بعضهم إلى
عصمتهم من مواقعة المكروه قصدا وقد استدل بعض الأئمة على عصمتهم من الصغائر
بالمصير إلى امتثال أفعالهم واتباع آثارهم وسيرهم مطلقا وجمهور الفقهاء على
ذلك من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة من غير التزام قرينة بل مطلقا عند
بعضهم وإن اختلفوا في حكم ذلك وحكى ابن خويز منداد وأبو الفرج عن مالك
التزام ذلك وجوبا وهو قول الأبهري وابن القصار وأكثر أصحابنا وقول أكثر
أهل العراق وابن سريج والإصطخري وابن خيران من الشافعية وأكثر الشافعية
على أن ذلك ندب. وذهبت طائفة إلى الإباحة وقيد بعضهم الاتباع فيما كان
من الأمور الدينية وعلم به مقصد القربة ومن قال بالإباحة في أفعاله لم يقيد
قال فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم في أفعالهم إذ ليس كل فعل
من أفعاله يتميز مقصده به من القربة أو الإباحة أو الحظر أو المعصية ولا يصح
أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية لا سيما على من يرى تقديم الفعل على القول
إذا تعارضا من الأصوليين ونزيد هذا حجة بأن نقول من جوز الصغائر ومن نفاها
عن نبينا عليه السلام مجمعون أنه لا يقر على منكر من قول أو فعل وأنه متى رأى
شيئا فسكت عنه صلى الله عليه وسلم دل على جوازه فكيف يكون هذا حاله في حق
غيره ثم يجوز وقوعه منه في نفسه وعلى هذا المأخذ تجب عصمتهم من مواقعة
المكروه كما قيل وإذ الحظر أو الندب على الاقتداء بفعله ينافي الزجر والنهي عن
فعل المكروه. وأيضا فقد علم من دين الصحابة قطعا الاقتداء بأفعال النبي صلى الله عليه
وسلم كيف توجهت وفي كل فن كالاقتداء بأقواله فقد نبذوا خواتيمهم حين نبذ
خاتمه وخلعوا نعالهم حين خلع واحتجاجهم برؤية ابن عمر إياه جالسا لقضاء

حاجته مستقبلا بيت المقدس واحتج غيره واخرون منهم في غير شيء مما بابه العبادة
او العادة بقوله رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله. وقال صلى الله عليه وسلم
هلا اخبرتيها اني اقبل وانا صايم وقالت عايشة محتجة كنت افعله انا ورسول
الله صلى الله عليه وسلم وغضب عليه السلام على الذي اخبر بمثل هذا عنه فقال
يحل الله لرسوله ما يشاء وقال اني اخشاكم لله واعلمكم بحدوده، والآثار في
هذا اكثر من ان نحيط عليها لاكنه يعلم من مجموعها على القطع اتباعهم افعاله
واقتداؤهم بها. ولو جوزوا عليه المخالفة في شيء منها لما اتسق هذا ولنقل عنهم وظهر
بحثهم عن ذلك ولما انكر عليه السلام على الآخر قوله واعتذاره بما ذكرناه
واما المباحات فجايز وقوعها منهم اذ ليس فيها قدح بل هي ماذون فيها وايديهم
كايدي غيرهم مسلطة عليها الا انهم بما خصوا به من رفيع المنزلة وشرحت له صدورهم
من انوار المعرفة واصطفوا به من تعلق بالهم بالله والدار الآخرة لا ياخذون من
المباحات الا الضرورات مما يتقوون به على سلوك طريقهم وصلاح دينهم وضرورة
دنياهم وما اخذ على هذه السبيل التحق طاعة وصار قربة كما بينا منه اول الكتاب
طرفا في خصال نبينا عليه السلام فبان لك عظيم فضل الله على نبينا وعلى ساير
انبيايه عليهم السلام بان جعل افعالهم قربات وطاعات بعيدة عن وجه المخالفة
ورسم المعصية. **فصل** وقد اختلف في عصمتهم من المعاصي قبل النبوة فمنعها
قوم وجوزها آخرون والصحيح ان شاء الله تنزيههم من كل عيب وعصمتهم من كل
ما يوجب الريب فكيف والمسالة تصورها كالممتنع فان المعاصي والنواهي انما
تكون بعد تقرر الشرع وقد اختلف الناس في حال نبينا عليه السلام قبل ان
يوحى اليه هل كان متبعا لشرع قبله ام لا فقال جماعة لم يكن متبعا لشيء وهذا
قول الجمهور فالمعاصي على هذا القول غير موجودة ولا معتبرة في حقه حينيذ
اذ الاحكام الشرعية انما تتعلق بالاوامر والنواهي وتقرر الشريعة ثم اختلفت
حجج القايلين بهذه المقالة عليها فذهب سيف السنة ومقتدى فرق الامة القاضي

ابو بكر الى ان طريق العلم بذلك النقل وموارد الخبر من طريق السمع وحجته انه لو كان
ذلك لنقل ولما امكن كتمه وستره في العادة اذ كان من مهم امره واولى ما اشتهر به من
سيرته ولفخر به اهل تلك الشريعة ولاحتجوا به عليه ولم يوثر شيء من ذلك جملة
وذهبت طايفة الى امتناع ذلك عقلا قالوا لانه يبعد ان يكون متبوعا من عرف تابعا
وبنوا هذا على التحسين والتقبيح وهي طريقة غير سديدة واستناد ذلك الى النقل
كما تقدم للقاضي ابي بكر اولى واظهر. وقالت فرقة اخرى بالوقف في امره عليه
السلام وترك قطع الحكم عليه بشيء في ذلك اذ لم يحل الوجهين منهما العقل ولا
استبان عندنا في احدهما طريق النقل وهو مذهب ابي المعالي. وقالت فرقة ثالثة
انه كان عاملا بشرع من قبله ثم اختلفوا هل يتعين ذلك الشرع ام لا فوقف بعضهم
عن تعيينه واحجم وجسر بعضهم على التعيين وصمم ثم اختلفت هذه المعينة فيمن
كان يتبع فقيل نوح وقيل ابراهيم وقيل موسى وقيل عيسى صلوات الله على جميعهم
فهذه جملة المذاهب في هذه المسالة والاظهر ما ذهب اليه القاضي ابو بكر وابعدها
مذاهب المعينين اذ لو كان شيء من ذلك لنقل كما قدمناه ولم يخف جملة ولا حجة لهم
في ان عيسى آخر الانبياء فلزمت شريعته من جاء بعده اذ لم يثبت عموم دعوة
عيسى بل الصحيح انه لم يكن لنبي دعوة عامة الا لنبينا عليه السلام ولا حجة
ايضا للاخر في قوله تعالى ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وللاخر في قوله شرع لكم من الدين
ما وصى به نوحا فحمل هذه الآية على اتباعهم في التوحيد كقوله اولئك الذين هدى الله
فبهداهم اقتده وقد سمى تعالى فيهم من لم يبعث ولم تكن له شريعة تخصه كيوسف
ابن يعقوب على قول من يقول انه ليس برسول وقد سمى الله جماعة منهم في هذه
الآية وشرايعهم مختلفة لا يمكن الجمع بينها فدل ان المراد ما اجتمعوا عليه من التوحيد
وعبادة الله تعالى وبعد هذا فهل يلزم من قال بمنع الاتباع هذا القول في ساير الانبياء
غير نبينا او يخالفون بينهم اما من منع الاتباع عقلا فيطرد اصله في كل رسول
بلا مرية واما من مال الى النقل فاينما تصور له وتقرر اتبعه ومن قال بالوقف فعلى

أصله ومن قال بوجوب الاتباع لمن قبله يلتزمه ببيان حجته في حق نبيه ؛

فصل

هذا حكم ما تكون المخالفة فيه من الأعمال عن قصد وهو ما يسمى معصية ويدخل تحت
التكليف . وأما ما يكون بغير قصد وتعمد كالسهو والنسيان في الوظائف الشرعية
مما تقرر الشرع بعدم تعلق الخطاب به وترك المؤاخذة عليه فأحوال الأنبياء
في ترك المؤاخذة به وكونه ليس بمعصية لهم مع أممهم سواء ثم ذلك على نوعين
ما طريقه البلاغ وتقرير الشرع وتعلق الأحكام وتعليم الأمة بالفعل وأخذهم
باتباعه فيه وما هو خارج عن هذا مما يختص بنفسه . أما الأول فحكمه عند جماعة
من العلماء حكم السهو في القول في هذا الباب وقد ذكرنا الاتفاق على امتناع
ذلك في حق النبي عليه السلام وعصمته من جوازه عليه قصدا أو سهوا فكذلك
قالوا الأفعال في هذا الباب لا يجوز طرو المخالفة فيها لا عمدا ولا سهوا لأنها بمعنى
القول من جهة التبليغ والأداء وطرو هذه العوارض عليها يوجب التشكيك ويسبب
المطاعن واعتذروا عن أحاديث السهو بتوجيهات نذكرها بعد هذا وإلى هذا مال أبو
إسحق . وذهب الأكثر من الفقهاء والمتكلمين إلى أن المخالفة في الأفعال البلاغية والأحكام
الشرعية سهوا وعن غير قصد منه جائز عليه كما تقرر من أحاديث السهو في الصلاة
وفرقوا بين ذلك وبين الأقوال البلاغية لقيام المعجزة على الصدق في القول ومخالفة
ذلك يناقضها وأما السهو في الأفعال فغير مناقض لها ولا قادح في النبوءة بل
غلطات الفعل وغفلات القلب من سمات البشر كما قال عليه السلام إنما أنا بشر أنسى
كما تنسون فإذا نسيت فذكروني . نعم بل حالة النسيان والسهو هنا في حقه
عليه السلام سبب إفادة علم وتقرير شرع كما قال عليه السلام إني لأنسى أو أنسى
لأسن بل قد روي لست أنسى ولكن أنسى لأسن وهذه الحالة زيادة له في التبليغ
وتمام عليه في النعمة بعيدة عن سمات النقص وأغراض الطعن فإن القائلين بتجويز ذلك
يشترطون أن الرسل لا تقر على السهو والغلط بل ينبهون عليه ويعرفون حكمه بالفور
على قول بعضهم وهو الصحيح وقبل انقراضهم على قول الآخرين . وأما ما ليس طريقه البلاغ
ولا بيان الأحكام من أفعاله عليه السلام وما يختص به من أمور دينه وأذكار قلبه
مما لم يفعله ليتبع فيه فالأكثر من طبقات علماء الأمة على جواز السهو والغلط عليه
فيها ولحوق الفترات والغفلات بقلبه وذلك بما كلفه من مقاساة الخلق وسياسات
الأمة ومعاناة الأهل وملاحظة الأعداء ولكن ليس على سبيل التكرار ولا الاتصال بل
على سبيل الندور كما قال عليه السلام إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله وليس في هذا
شيء يحط من رتبته ويناقض معجزته . وذهبت طائفة إلى منع السهو والنسيان
والغفلات والفترات في حقه عليه السلام جملة وهو مذهب جماعة المتصوفة وأصحاب
علم القلوب والمقامات ولهم في هذه الأحاديث مذاهب نذكرها بعد هذا إن شاء الله

فصل في الكلام على الأحاديث المذكور فيها السهو منه عليه السلام

قد قدمنا في الفصول قبل هذا ما يجوز فيه عليه السهو وما يمتنع وأحلناه في الأخبار
جملة وفي الأقوال الدينية قطعا وأجزنا وقوعه في الأفعال الدينية على الوجه الذي
رتبناه وأشرنا إلى ما ورد في ذلك ونحن نبسط القول فيه . الصحيح من الأحاديث
الواردة في سهوه عليه السلام في الصلاة ثلاثة أحاديث الأول حديث ذي اليدين
في السلام من اثنتين الثاني حديث ابن بحينة في القيام من اثنتين الثالث حديث ابن
مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الظهر خمسا . وهذه الأحاديث مبنية على
السهو في الفعل الذي قررناه وحكمة الله فيه ليستن به إذ البلاغ بالفعل أجلى
منه بالقول وأرفع للاحتمال وشرطه أنه لا يقر على هذا السهو بل يشعر به ليرتفع
الالتباس وتظهر فائدة الحكمة فيه كما قدمناه وأن السهو والنسيان في الفعل في
حقه عليه السلام غير مضاد للمعجزة ولا قادح في التصديق وقد قال عليه السلام
إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني وقال رحم الله فلانا لقد أذكرني
كذا وكذا آية كنت أسقطتهن ويروى أنسيتهن وقال عليه السلام إني لأنسى أو
أنسى لأسن قيل هذا اللفظ شك من الراوي وقد روي إني لا أنسى ولكن أنسى لأسن
وذهب ابن نافع وعيسى بن دينار إلى أنه ليس بشك وأن معناه التقسيم أي أنسى أنا

أن ينسيني الله قال القاضي أبو الوليد الباجي يحتمل ما قاله أن يريد في أنسى في اليقظة
وأنسى في النوم أو أنسى على سبيل عادة البشر من الذهول عن الشيء والسهو أو أنسى
مع إقبالي عليه وتفرغي له فأضاف أحد النسيانين إلى نفسه إذ كان له بعض السبب
فيه ونفى الآخر عن نفسه إذ هو فيه كالمضطر. وذهبت طائفة من أصحاب المعاني
والكلام على الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسهو في الصلاة ولا ينسى
لأن النسيان ذهول وغفلة وآفة قال والنبي منزه عنها والسهو شغل فكان عليه
السلام يسهو في صلاته ويشغله عن حركات الصلاة ما في الصلاة شغلا بها لا
غفلة عنها واحتج بقوله في الرواية الأخرى إني لا أنسى وذهبت طائفة إلى
منع هذا كله عنه وقالوا إن سهوه عليه السلام كان عمدا وقصدا ليسن وهذا
قول مرغوب عنه متناقض المقاصد لا يحلى بطائل منه لأنه كيف يكون متعمدا ساهيا
في حال ولا حجة لهم في قولهم إنه أمر بتعمد صورة النسيان ليسن لقوله إني لأنسى
أو أنسى وقد أثبت أحد الوصفين ونفى مناقضة التعمد والقصد وقال إنما أنا
بشر مثلكم أنسى كما تنسون وقد مال إلى هذا عظيم من المحققين من أئمتنا وهو
أبو المظفر الإسفرايني ولم يرتضه غيره منهم ولا أرتضيه ولا حجة لهاتين الطائفتين
في قوله إني لا أنسى ولكن أنسى إذ ليس فيه نفي حكم النسيان بالجملة وإنما
فيه نفي لفظه وكراهة لقبه كقوله بئس ما لأحدكم أن يقول نسيت آية كذا ولكنه
نُسّي أو نفي الغفلة وقلة الاهتمام بأمر الصلاة عن قلبه لكن شغل عنها بها
ونسي بعضها ببعضها كما ترك الصلاة يوم الخندق حتى خرج وقتها وشغل بالتحرز
من العدو عنها بشغل بطاعة عن طاعة. وقيل إن الذي ترك يوم الخندق أربع صلوات
الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبه احتج من ذهب إلى جواز تأخير الصلاة في الخوف
إذا لم يتمكن من أدائها إلى وقت الأمن وهو مذهب الشاميين والصحيح أن حكم صلاة
الخوف كان بعد هذا فهو ناسخ له **فإن قلت** فما تقول في نومه عليه السلام عن
الصلاة يوم الوادي وقد قال إن عيني تنامان ولا ينام قلبي. فاعلم أن للعلماء عنه

[هامش: إنسى — صلى الله عليه وسلم — كذا — صلى الله عليه وسلم]

أجوبة منها أن المراد بأن هذا حكم قلبه عند نومه وعينيه في غالب الأوقات وقد يندر
منه غير ذلك كما يندر من غيره خلاف عادته ويصحح هذا التأويل قوله عليه السلام في
الحديث نفسه إن الله قبض أرواحنا وقول بلال فيه ما ألقيت علي نومة مثلها قط ولكن
مثل هذا إنما يكون منه لأمر يريده الله من إثبات حكم وتأسيس سنة وإظهار شرع
وكما قال في الحديث الآخر لو شاء الله لأيقظنا ولكن أراد أن تكون لمن بعدكم
الثاني أن قلبه لا يستغرقه النوم حتى يكون منه الحدث فيه لما روي أنه كان محروسا
وأنه كان ينام حتى ينفخ وحتى يسمع غطيطه ثم يصلي ولا يتوضأ. وحديث ابن
عباس المذكور فيه وضوءه عند قيامه من النوم فيه نومه مع أهله فلا يمكن
الاحتجاج به على وضوئه بمجرد النوم إذ لعل ذلك لملامسة الأهل أو لحدث آخر [هامش: خ فيه]
فكيف وفي آخر الحديث نفسه ثم نام حتى سمعت غطيطه ثم أقيمت الصلاة فصلى
ولم يتوضأ. وقيل لا ينام قلبه من أجل أنه يوحى إليه في النوم وليس في قصة الوادي
إلا نوم عينيه عن رؤية الشمس وليس هذا من فعل القلب. وقد قال عليه السلام
إن الله قبض أرواحنا ولو شاء لردها إلينا في حين غير هذا. فإن قيل فلولا عادته
من استغراق النوم لما قال لبلال اكلأ لنا الصبح. فقيل في الجواب إنه كان من شأنه عليه
السلام التغليس بالصبح ومراعاة أول الفجر لا تصح ممن نامت عينه إذ هو ظاهر يدرك
بالجوارح الظاهرة فوكل بلالا بمراعاته أوله ليعلمه بذلك كما لو شغل بشغل غير
النوم عن مراعاته. فإن قيل فما معنى نهيه عليه السلام عن القول نسيت وقد قال
عليه السلام إني أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني وقال لقد أذكرني كذا
وكذا آية كنت أنسيتها. فاعلم أكرمك الله أنه لا تعارض في هذه الألفاظ أما
نهيه عن أن يقال نسيت آية كذا فمحمول على ما نسخ حفظه من القرآن أي أن الغفلة
في هذا لم تكن منه ولكن الله اضطره إليها ليمحو ما يشاء ويثبت وما كان من
سهو أو غفلة من قبله تذكرها صلح أن يقال فيه أنسي وقد قيل إن هذا منه
صلى الله عليه وسلم على طريق الاستحباب أن يضيف الفعل إلى خالقه والآخر على

كونه أجوى لاكتساب الغضب فيه وانشغاله عليه السلام لما أنزله من ذلك آيات
جائز عليه بعد بلاغ ما أمر بإبلاغه وتوصيله إلى عباده ثم يستذكره من أمته أو من
قبل نفسه إلا ما قضى الله نسخه ومحوه من القلوب وترك استذكاره، وقد يجوز أن ينسى
النبي صلى الله عليه وسلم ما هذا سبيله كرة، ويجوز أن ينسى منه قبل البلاغ ما لا
يغير نظما ولا يخلط حكما مما لا يدخل خللا في الخبر ثم يذكره إياه، ويستحيل دوام
نسيانه له لحفظ الله كتابه وتكليفه بلاغه **فصل في الرد** على من أجاز
عليهم الصغائر والكلام على ما احتجوا به في ذلك **اعلم** أن المجوزين للصغائر
على الأنبياء من الفقهاء والمحدثين ومن شايعهم على ذلك من المتكلمين احتجوا على
ذلك بظواهر كثيرة من القرآن والحديث إن التزموا ظواهرها أفضت بهم إلى تجويز
الكبائر وخرق الإجماع وما لا يقول به مسلم فكيف وكل ما احتجوا به مما اختلف
المفسرون في معناه وتقابلت الاحتمالات في مقتضاه، وجاءت أقاويل فيها للسلف
بخلاف ما التزموه من ذلك فإذا لم يكن مذهبهم إجماعا وكان الخلاف فيما احتجوا به
قديما وقامت الدلالة على خطإ قولهم وصحة غيره وجب تركه والمصير إلى ما صح وها
نحن نأخذ في النظر فيها إن شاء الله **فمن ذلك** قوله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه
وسلم ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وقوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين
وللمؤمنات وقوله ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك وقوله عفا الله عنك
لم أذنت لهم وقوله لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم وقوله عبس
وتولى وما قص من قصص غيره من الأنبياء كقوله وعصى آدم ربه فغوى وقوله
فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما وقوله عنه ربنا ظلمنا أنفسنا الآية
وقوله عن يونس سبحانك إني كنت من الظالمين وما ذكر من قصته وقصة داود
وقوله وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب إلى قوله مآب وقوله
ولقد همت به وهم بها وما قص من قصته مع إخوته وقوله عن موسى فوكزه موسى
فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان وقول النبي عليه السلام في دعائه اغفر لي

ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ونحوه من أدعيته عليه السلام وذكر الأنبياء في
الموقف ذنوبهم في حديث الشفاعة وقوله إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله وفي حديث
أبي هريرة إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة وقوله تعالى عن
نوح وإلا تغفر لي الآية وقد كان قال الله له ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون
وقال عن إبراهيم والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين وقوله عن موسى تبت
إليك وقوله ولقد فتنا سليمان إلى ما أشبه من هذه الظواهر فأما احتجاجهم بقوله ليغفر
لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر فهذا قد اختلف المفسرون فيه فقيل المراد ما كان
قبل النبوة وبعدها وقيل المراد ما وقع لك من ذنب وما لم يقع أعلمه أنه مغفور
له وقيل ما كان قبل النبوة والمتأخر عصمتك بعدها حكاه أحمد بن نصر وقيل
المراد بذلك أمته عليه السلام وقيل المراد ما كان عن سهو وغفلة وتأويل حكاه
الطبري واختاره القشيري وقيل ما تقدم لأبيك آدم وما تأخر من ذنوب أمتك
حكاه السمرقندي والسلمي عن ابن عطاء وبمثله والذي قبله يتأول قوله واستغفر
لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات قال مكي مخاطبة النبي عليه السلام هاهنا هي مخاطبة
لأمته وقيل إن النبي عليه السلام لما أمر أن يقول وما أدري ما يفعل بي ولا بكم
سر بذلك الكفار فأنزل الله تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر الآية
وبمآل المؤمنين في الآية الأخرى بعدها قاله ابن عباس فمقصود الآية أنك مغفور لك غير
مؤاخذ بذنب أن لو كان قال بعضهم المغفرة هاهنا تبرئة من العيوب وأما قوله
ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك فقيل ما سلف من ذنبك قبل النبوة
وهو قول ابن زيد والحسن ومعنى قول قتادة، وقيل معناه أنه حفظ قبل نبوته منها
وعصم ولولا ذلك لأثقلت ظهرك حكى معناه السمرقندي وقيل المراد بذلك ما
أثقل ظهرك من أعباء الرسالة حتى بلغتها حكاه الماوردي والسلمي وقيل
حططنا عنك ثقل أيام الجاهلية حكاه مكي وقيل ثقل شغل سرك وحيرتك
وطلب شريعتك حتى شرعنا ذلك لك حكى معناه القشيري وقيل معناه خففنا

عليك ما حملت بحفظنا الا ما استحفظت وحططنا عليك ومعنى انقض اي كاد ينقضه
فيكون المعنى على من جعل ذلك لما قبل النبوة اهتمام النبي بامور فعلها قبل نبوته
وحرمت عليه بعد النبوة فعدها اوزارا وثقلت عليه واشفق منها او يكون
الوضع عصمة الله له وكفايته من ذنوب لو كانت لاثقلت ظهره او يكون من
ثقل الرسالة او ما ثقل عليه وشغل قلبه من امور الجاهلية واعلام الله تعالى له
بحفظ ما استحفظه من وحيه واما قوله عفا الله عنك لم اذنت لهم فامر لم يتقدم
للنبي عليه السلام فيه من الله تعالى نهي فيعد معصية ولا عده الله عليه معصية بل
لم يعده اهل العلم معاتبة وغلطوا من ذهب الى ذلك قال نفطويه وقد حاشاه الله
من ذلك بل كان مخيرا في امرين قالوا وقد كان له ان يفعل ما شاء فيما لم ينزل عليه
فيه وحي فكيف وقد قال الله تعالى له فأذن لمن شئت منهم فلما اذن لهم اعلمه الله بما لم
يطلع عليه من سرهم انه لو لم يأذن لهم لقعدوا وانه لا حرج عليه فيما فعل وليس
عفا هنا بمعنى غفر بل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عفا الله لكم عن صدقة الخيل
والرقيق ولم تجب عليهم قط اي لم يلزمكم ذلك ونحوه للقشيري قال وانما يقول
العفو لا يكون الا عن ذنب من لم يعرف كلام العرب قال ومعنى عفا الله عنك اي لم
يلزمك ذنبا قال الداودي وروي انها تكرمة قال مكي هو استفتاح كلام مثل اصلحك
الله واعزك وحكى السمرقندي ان معناه عافاك الله وقوله في اسارى بدر ما كان
لنبي ان يكون له اسرى الآية فليس فيه الزام ذنب للنبي عليه السلام بل فيه
بيان ما خص به وفضل من بين سائر الانبياء فكانه قال ما كان هذا لنبي غيرك
كما قال عليه السلام احلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي فان قيل فما معنى قوله
تريدون عرض الدنيا الآية قيل المعنى بالخطاب لمن اراد ذلك منهم وتجرد غرضه
لعرض الدنيا وحده والاستكثار منها وليس المراد بهذا النبي عليه السلام ولا علية
اصحابه بل روي عن الضحاك انها نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر واشتغل الناس
بالسلب وجمع الغنائم عن القتال حتى خشي عمر ان يعطف عليهم العدو ثم قال تعالى لولا

كتاب من الله سبق فاختلف المفسرون في معنى هذه الآية فقيل معناها لولا انه
سبق مني ان لا اعذب احدا الا بعد النهي لعذبتكم فهذا ينفي ان يكون امر الاسرى معصية
وقيل المعنى لولا ايمانكم بالقرآن وهو الكتاب السابق فاستوجبتم به الصفح لعوقبتم
على الغنائم ويزاد هذا القول تفسيرا وبيانا ان يقال لولا ما كنتم مومنين بالقرآن
وكنتم ممن احلت لهم الغنائم لعوقبتم كما عوقب من تعدى وقيل لولا انه سبق في
اللوح المحفوظ انها حلال لكم لعوقبتم فهذا كله ينفي الذنب والمعصية لان من
فعل ما احل له لم يعص قال الله تعالى فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا وقيل بل كان
قد خير عليه السلام في ذلك وقد روي عن علي قال جاء جبريل الى النبي عليه
السلام يوم بدر فقال خير اصحابك في الاسارى ان شاءوا الفداء وان شاءوا القتل
على ان يقتل منهم عام المقبل مثلهم فقالوا الفداء ويقتل منا وهذا دليل على صحة ما قلناه
وانهم لم يفعلوا الا ما اذن لهم فيه لكن بعضهم مال الى اضعف الوجهين مما كان الاصلح
غيره من الاثخان والقتل فعوتبوا على ذلك وبين لهم ضعف اختيارهم وتصويب
اختيار غيرهم وكلهم غير عصاة ولا مذنبين والى نحو هذا اشار الطبري وقوله
عليه الصلاة والسلام في هذه القضية لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه الا عمر
اشارة الى هذا من تصويب رايه وراي من اخذ باخذه في اعزاز الدين واظهار كلمته
وابادة عدوه وان هذه القضية لو استوجبت عذابا نجا منه عمر ومثله وعين عمر
لانه اول من اشار بقتلهم ولكن الله لم يقدر عليهم في ذلك عذابا لحله لهم فيما سبق
وقال الداودي والخبر بهذا لا يثبت ولو ثبت لما جاز ان يظن ان النبي حكم بما لا نص فيه
ولا دليل من نص ولا جعل اليه الامر فيه وقد نزهه الله عن ذلك وقال القاضي بكر بن
العلاء اخبر الله نبيه في هذه الآية ان تاويله وافق ما كتبه له من احلال الغنائم
والفداء وقد كان قبل هذا فادى في سرية عبد الله بن جحش التي قتل فيها ابن
الحضرمي بالحكم بن كيسان وصاحبه فما عتب الله ذلك عليهم وذلك قبل بدر
بازيد من عام فهذا كله يدل ان فعل النبي في شان الاسرى كان على تاويل وبصيرة

وعلى ما قد تقدم قبل مثله فلم ينكره الله عليهم لكن الله تعالى أراد أن يعظم أمر بدر وكثرة
أسراها والله أعلم إظهارا لنعمته وتأكيدا لمنته بتعريفهم ما كتبه في اللوح المحفوظ
من حل ذلك لهم لا على وجه عتاب وإنكار وتذنيب هذا معنى كلامه. وأما قوله
عبس وتولى الآيات فليس فيه إثبات ذنب له عليه السلام بل إعلام الله أن ذلك
المتصدى له ممن لا يتزكى وأن الصواب والأولى كان لو كشف لك حال الرجلين الإقبال
على الأعمى وفعل النبي صلى الله عليه وسلم لما فعل وتصديه لذلك الكافر كان طاعة
لله وتبليغا عنه واستيلافا له كما شرعه الله له لا معصية ومخالفة له وما قصه الله
عليه من ذلك إعلام بحال الرجلين وتوهين أمر الكافر عنده والإشارة إلى الإعراض
عنه بقوله وما عليك ألا يزكى. وقيل المراد بعبس وتولى الكافر الذي كان مع
النبي صلى الله عليه وسلم قاله أبو تمام. وأما قصة آدم عليه السلام وقوله فأكلا منها
بعد قوله ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين وقوله ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وتصريحه
تعالى عليه بالمعصية بقوله وعصى آدم ربه فغوى أي جهل وقيل أخطأ فإن الله تعالى قد أخبر
بعذره بقوله ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما قال ابن زيد نسي
عداوة إبليس له وما عهد الله إليه من ذلك بقوله إن هذا عدو لك ولزوجك الآية
وقيل نسي ذلك بما أظهر لهما وقال ابن عباس إنما سمي الإنسان إنسانا لأنه عهد
إليه فنسي. وقيل لم يقصد المخالفة استحلالا لها ولكنهما اغترا بحلف إبليس
لهما إني لكما لمن الناصحين وتوهما أن أحدا لا يحلف بالله حانثا وقد روي عذر آدم
بمثل هذا في بعض الآثار. قال ابن جبير حلف بالله لهما حتى غرهما والمؤمن يخدع
وقيل نسي ولم ينو المخالفة فلذلك قال ولم نجد له عزما أي قصدا للمخالفة وأكثر
المفسرين على أن العزم هنا الحزم والصبر. وقيل كان عند أكله سكران وهذا فيه
ضعف لأن الله وصف خمر الجنة أنها لا تسكر فإذا كان ناسيا لم تكن معصية وكذلك
إن كان ملبسا عليه غالطا إذ الاتفاق على خروج الناسي والساهي عن حكم
التكليف. وقال الشيخ أبو بكر بن فورك وغيره إنه يمكن أن يكون ذلك قبل النبوة

ودليل ذلك قوله تعالى وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى فذكر
أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان. وقيل بل أكلها متأولا وهو لا يعلم أنها الشجرة
التي نهي عنها لأنه تأول نهي الله عن شجرة مخصوصة لا على الجنس ولهذا قيل إنما
كانت التوبة من ترك التحفظ لا من المخالفة. وقيل تأول أن الله لم ينهه عنها نهي
تحريم. فإن قيل فعلى كل حال فقد قال الله تعالى وعصى آدم ربه وقال فتاب عليه
وقوله في حديث الشفاعة ويذكر ذنبه وإني نهيت عن أكل الشجرة فعصيت
فسيأتي الجواب عنه وعن أشباهه مجملا آخر الفصل إن شاء الله. وأما قصة يونس فقد
مضى الكلام على بعضها آنفا وليس في قصة يونس نص على ذنب وإنما فيه أبق
وذهب مغاضبا وقد تكلمنا عليه. وقيل إنما نقم الله عليه خروجه عن قومه فارا
من نزول العذاب. وقيل بل لما وعدهم العذاب ثم عفا الله عنهم قال والله لا ألقاهم بوجه
كذاب أبدا. وقيل بل كانوا يقتلون من كذب فخاف ذلك. وقيل ضعف عن حمل أعباء
الرسالة وقد تقدم الكلام أنه لم يكذبهم وهذا كله ليس فيه نص على معصية إلا على
قول مرغوب عنه وقوله أبق إلى الفلك المشحون قال المفسرون تباعد وأما قوله إني
كنت من الظالمين فالظلم وضع الشيء في غير موضعه فهذا اعتراف منه عند
بعضهم بذنبه فإما أن يكون لخروجه عن قومه بغير إذن ربه أو لضعفه عما حمله أو لدعائه
بالعذاب على قومه وقد دعا نوح بهلاك قومه فلم يؤاخذ. وقال الواسطي في معناه
نزه ربه عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافا واستحقاقا ومثل هذا قول آدم
وحواء ظلمنا أنفسنا إذ كانا السبب في وضعهما غير الموضع الذي أنزلا فيه وإخراجهما
من الجنة وإنزالهما إلى الأرض. وأما قصة داود عليه السلام فلا يجب أن يلتفت
ما سطره فيها الأخباريون عن أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ونقله بعض المفسرين
ولم ينص الله على شيء من ذلك ولا ورد في حديث صحيح والذي نص الله عليه قوله
وظن داود أنما فتناه إلى قوله وخر راكعا وأناب وقوله فيه أواب فمعنى فتناه أي اختبرناه
وأواب قال قتادة مطيع وهذا التفسير أولى قال ابن عباس وابن مسعود ما زاد

داود على أن قال للرجل انزل لي عن امرأتك واكفلنيها فعاتبه الله عن ذلك ونبهه
عليه وأنكر عليه شغله بالدنيا وهذا الذي ينبغي أن يعول عليه من أمره. وقيل
خطبها على خطبته وقيل بل أحب بقلبه أن يستشهد. وحكى السمرقندي أن ذنبه الذي
استغفر منه قوله لأحد الخصمين لقد ظلمك قبل أن يسمع كلام خصمه. وأما ما أضيف
في الأخبار إلى داود من ذلك فيه أحمد بن نصر وأبو تمام وغيرهما من المحققين. قال
الداودي ليس في قصة داود وأوريا خبر يثبت ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم. وقيل
إن الخصمين اللذين اختصما إليه رجلان في نعاج غنم على ظاهر الآية. وأما قصة يوسف
وإخوته فليس على يوسف تعقب. وأما إخوته فلم تثبت نبوتهم فيلزم الكلام على
أفعالهم. وذكر الأسباط وعدهم في القرآن عند ذكر الأنبياء قال المفسرون
يريد من نبي من أبناء الأسباط. وقد قيل إنهم كانوا حين فعلوا بيوسف ما فعلوا صغار
الأسنان ولهذا لم يميزوا يوسف حين اجتمعوا به ولهذا قالوا أرسله معنا غدا
نرتع ونلعب. وإن ثبتت لهم نبوة فبعد هذا والله أعلم. وأما قول الله فيه ولقد همت
به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه فعلى طريق كثير من الفقهاء والمحدثين أن هم
النفس لا يؤاخذ به وليست سيئة لقول النبي عليه السلام عن ربه إذا هم عبدي
بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فلا معصية في همه إذن. وأما على مذهب المحققين
من الفقهاء والمتكلمين فإن الهم إذا وطنت عليه النفس سيئة وأما ما لم توطن عليه
النفس من همومها وخواطرها فهو المعفو عنه وهذا هو الحق فيكون إن شاء الله هم
يوسف من هذا. ويكون قوله وما أبرئ نفسي الآية أي ما أبرئها من هذا الهم أو يكون
ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف بمخالفة النفس لما زكي قبل وبرئ فكيف
وقد حكى أبو حاتم عن أبي عبيدة أن يوسف لم يهم وأن الكلام فيه تقديم وتأخير أي
ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها. وقد قال الله تعالى عن المرأة ولقد
راودته عن نفسه فاستعصم. وقال تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء. وقال
وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي الآية قيل في ربي الله وقيل الملك

قيل هم بها أي بزجرها ووعظها. وقيل هم بها أي غمها امتناعه عنها. وقيل هم بها نظر
إليها. وقيل هم بضربها ودفعها. وقيل هذا كله قبل نبوته. وقد ذكر بعضهم ما زال
النساء يملن إلى يوسف ميل شهوة حتى نبأه الله فألقى عليه هيبة النبوة فشغلت
هيبته كل من رآه عن حسنه. وأما خبر موسى مع قتيله الذي وكزه فقد نص
الله تعالى أنه من عدوه قال كان من القبط الذين على دين فرعون ودليل السورة في هذا
كله أنه قبل نبوة موسى. وقال قتادة وكزه بالعصا ولم يتعمد قتله فعلى هذا
لا معصية في ذلك. وقوله هذا من عمل الشيطان وقوله ظلمت نفسي فاغفر لي قال
ابن جريج قال ذلك من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر. وقال النقاش
لم يقتله عن عمد مريدا للقتل وإنما وكزه يريد دفع ظلمه. قال وقد قيل
إن هذا كان قبل النبوة وهو مقتضى التلاوة. وقوله تعالى في قصته وفتناك فتونا
أي ابتليناك ابتلاء بعد ابتلاء قيل في هذه القصة وما جرى له مع فرعون. وقيل
إلقاؤه في اليم والتابوت وغير ذلك. وقيل معناه أخلصناك إخلاصا قاله ابن
جبير ومجاهد من قولهم فتنت الفضة في النار إذا خلصتها. وأصل الفتنة معنى
الاختبار وإظهار ما بطن إلا أنه استعمل في عرف الشرع في اختبار أدى إلى ما
يكره. وكذلك ما روي في الخبر الصحيح أن ملك الموت جاءه فلطم عينه ففقأها
الحديث ليس فيه ما يحكم على موسى بالتعدي وفعل ما لا يجب له إذ هو ظاهر الأمر
بين الوجه جائز الفعل لأن موسى دافع عن نفسه من أتاه لإتلافها وقد تصور له في
صورة آدمي ولا يمكن أنه علم حينئذ أنه ملك الموت فدافعه عن نفسه مدافعة أدت
إلى ذهاب عين تلك الصورة التي تصور له فيها الملك امتحانا من الله فلما جاءه بعد
وأعلمه الله أنه رسوله إليه استسلم. وللمتقدمين والمتأخرين على هذا الحديث أجوبة
هذا أسدها عندي وهو تأويل شيخنا الإمام أبي عبد الله المازري. وقد تأوله قديما
ابن عائشة وغيره على صكه ولطمه بالحجة وفقء عين حجته وهو كلام مستعمل
في هذا الباب في اللغة معروف. وأما قصة سليمان وما حكى فيها أهل التفسير

من ذنبه. وقوله: ولقد فتنا سليمان، أي ابتليناه، وابتلاؤه ما حكي عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال: لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين كلهن
يأتين بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل، فلم تحمل منهن إلا
امرأة واحدة جاءت بشق رجل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي
بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله. قال أصحاب المعاني: والشق هو الجسد
الذي ألقي على كرسيه حين عرض عليه، وهي عقوبته ومحنته. وقيل: بل مات فألقي
على كرسيه ميتا. وقيل: ذنبه حرصه على ذلك وتمنيه. وقيل: لأنه لم يستثن لما
استغرقه من الحرص وغلب عليه من التمني. وقيل: عقوبته أن سلب ملكه، وذنبه أن أحب
بقلبه أن يكون الحق لأختانه على خصمهم. وقيل: أوخذ بذنب قارفه بعض نسائه.
ولا يصح ما نقله الأخباريون من خرافاتهم عما بعده من تشبه الشيطان به وتسلطه
على ملكه وتصرفه في أمته بالجور في حكمه، لأن الشياطين لا يسلطون على مثل
هذا، وقد عصم الأنبياء من مثله. وإن سئل لم لم يقل سليمان في القصة المذكورة
إن شاء الله؟ فعنه أجوبة: أسدها ما روي في الحديث الصحيح أنه نسي أن يقولها،
وذلك لينفذ مراد الله تعالى. والثاني أنه لم يسمع صاحبه وشغل عنه. وقوله: رب
هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي، لم يفعل هذا سليمان غيرة على الدنيا ولا
نفاسة بها، ولكن مقصده في ذلك على ما ذكره المفسرون ألا يسلط عليه
أحد كما سلط عليه الشيطان الذي سلبه إياه مدة امتحانه على من قال ذلك. وقيل
بل أراد أن يكون له من الله فضيلة وخاصة يختص بها كاختصاص غيره من أنبياء
الله ورسله بخواص منه. وقيل: ليكون دليلا وحجة على نبوته كإلانة الحديد
لأبيه وإحياء الموتى لعيسى واختصاص محمد بالشفاعة ونحو هذا. وأما قصة نوح عليه
السلام فظاهرة العذر وأنه أخذ فيها بالتأويل وظاهر اللفظ لقوله تعالى: إنا منجوك
وأهلك، فطلب مقتضى هذا اللفظ وأراد علم ما طوي عنه من ذلك، لا أنه شك في وعد الله.
فبين الله عليه أنه ليس من أهله الذين وعده بنجاتهم لكفره وعمله الذي هو غير صالح. وقد

أعلمه أنه مغرق الذين ظلموا ونهاه عن مخاطبته فيهم، فأوخذ فيه بهذا التأويل وعتب عليه
وأشفق هو من إقدامه على ربه لسؤاله ما لم يؤذن له في السؤال فيه. وكان نوح فيما حكاه
النقاش لا يعلم بكفر ابنه. وقيل في الآية غير هذا، وكل هذا لا يقضي على نوح بمعصية
سوى ما ذكرناه من تأويله وإقدامه بالسؤال فيما لم يؤذن له فيه ولا نهي عنه. وما روي
في الصحيح من أن نبيا من الأنبياء قرصته نملة فحرق قرية النمل فأوحى الله إليه أن قرصتك
نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح، فليس في هذا الحديث ما يقتضي أن هذا الذي أتى معصية
بل فعل ما رآه مصلحة وصوابا بقتل من يؤذي جنسه ويمنع المنفعة بما أباح الله.
ألا ترى أن هذا النبي كان نازلا تحت الشجرة فلما آذته النملة تحول برحله عنها
مخافة تكرار الأذى عليه. وليس فيما أوحى الله إليه ما يوجب عليه معصية بل ندبه
إلى احتمال الصبر وترك التشفي كما قال تعالى: ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. إذ ظاهر
فعله إنما كان لأجل أنها آذته هو في خاصته فكان انتقاما لنفسه وقطع مضرة يتوقعها
من بقية النمل هناك. ولم يأت في كل هذا أمر نهي عنه فيعصي به، ولا نص فيما أوحى
الله إليه بذلك ولا بالتوبة والاستغفار منه. والله أعلم. فإن قيل فما معنى قوله عليه
السلام: ما من أحد إلا ألم بذنب أو كاد، إلا يحيى بن زكرياء، أو كما قال عليه السلام.
فالجواب عنه كما تقدم من ذنوب الأنبياء التي وقعت عن غير قصد وعن سهو وغفلة.

فصل فإن قلت فإذا نفيت عنهم صلوات الله عليهم الذنوب والمعاصي بما
ذكرته من اختلاف المفسرين وتأويل المحققين فما معنى قوله تعالى: وعصى آدم ربه فغوى
وما تكرر في القرآن والحديث الصحيح من اعتراف الأنبياء بذنوبهم وتوبتهم واستغفارهم
وبكائهم على ما سلف منهم وإشفاقهم، وهل يشفق ويتاب ويستغفر من لا شيء؟ فاعلم
وفقنا الله أن درجة الأنبياء في الرفعة والعلو والمعرفة بالله وسنته في عباده
وعظيم سلطانه وقوة بطشه مما يحملهم على الخوف منه جل جلاله والإشفاق من المؤاخذة
بما لا يؤاخذ به غيرهم، وأنهم في تصرفهم بأمور لم ينهوا عنها ولا أمروا بها ثم أوخذوا
عليها وعوتبوا بسببها أو حذروا من المؤاخذة بها وأتوها على وجه التأويل أو

السهو أو تمييز من أمور الدنيا المباحة خايفون وجلون وهي ذنوب بالإضافة إلى
منصبهم ومعاص بالنسبة إلى كمال طاعتهم لا أنها كذنوب غيرهم ومعا[صيهم]
الذنب مأخوذ من الشيء الدنيء الرذل ومنه ذنب كل شيء أي آخره وأذناب [الناس رذالهم]
أي ذنبهم فكأن هذه أدنى أفعالهم وأسوأ ما يجري من أحوالهم لتطهيرهم وتنزيههم
وعمارة بواطنهم وظواهرهم بالعمل الصالح والكلم الطيب والذكر الظاهر والخفي
والخشية لله وإعظامه في السر والعلانية وغيرهم يتلوث من الكبائر والقبائح
والفواحش ما تكون بالإضافة إلى هذه الهنات في حقه كالحسنات كما قيل حسنات
الأبرار سيئات المقربين أي يرونها بالإضافة إلى علي أحوالهم كالسيئات وكذلك
العصيان والترك والمخالفة فعلى مقتضى اللفظة كيفما كانت من سهو أو تأويل
فهي مخالفة وترك وقوله غوى أي جهل أن تلك الشجرة هي التي نهي عنها والغي
الجهل وقيل أخطأ ما طلب من الخلود إذ أكلها وخابت أمنيته وهذا يوسف عليه
السلام قد أوخذ بقوله لأحد صاحبي السجن اذكرني عند ربك فأنساه
الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين قيل أنسي يوسف ذكر الله
وقيل أنسي صاحبه أن يذكر لسيده الملك قال النبي صلى الله عليه وسلم لولا كلمة
يوسف ما لبث في السجن ما لبث قال ابن دينار لما قال ذلك يوسف قيل له اتخذت
من دوني وكيلا لأطيلن حبسك فقال يا رب أنسى قلبي كثرة البلوى وقال
بعضهم أخذ الأنبياء بمثاقيل الذر لمكانتهم عنده ويجاوز عن سائر الخلق لقلة
مبالاته بهم في أضعاف ما أتوا به من سوء الأدب وقد قال المحتج للفرقة الأولى
على سياق ما قلناه إذا كان الأنبياء يؤاخذون بهذا مما لا يؤاخذ به غيرهم من
السهو والنسيان وما ذكرته وحالهم أرفع فحالهم إذا في هذا أسوأ حالا من
غيرهم فاعلم أكرمك الله أنا لا نثبت لك المؤاخذة في هذا على حد مؤاخذة غيرهم
بل نقول إنهم يؤاخذون بذلك في الدنيا ليكون ذلك زيادة في درجاتهم ويبتلون
بذلك ليكون استشعارهم له سببا لمنماة رتبتهم كما قال تعالى ثم اجتباه ربه فتاب عليه

قال الواحدي ثم يعقب بذلك الآية وقال بعض في قول موسى تبت إليك أي طلبت
[الرؤية] ثم قال بعد ذكر فتنة سليمان وإنابته فسخرنا له الريح إلى حسن مآب قال
بعض المتكلمين زلات الأنبياء في الظاهر زلات وفي الحقيقة كرامات وزلف وأشار إلى
نحو مما قدمناه وأيضا فلينبه غيرهم من البشر منهم أو ممن ليس في درجتهم بمؤاخذتهم
بذلك فيستشعروا الحذر ويعتقدوا المحاسبة ليلتزموا الشكر على النعم ويعدوا
الصبر على المحن بملاحظة ما وقع بأهل هذا النصاب الرفيع المعصوم فكيف بمن
سواهم ولهذا قال صالح المري ذكر داود بسطة للتوابين قال ابن عطاء لم يكن
ما نص الله من قصة صاحب الحوت نقصا له ولكن استزادة من نبينا عليه السلام
وأيضا فيقال لهم فإنكم ومن وافقكم تقولون بغفران الصغائر باجتناب الكبائر
ولا خلاف في عصمة الأنبياء من الكبائر فما جوزتم من وقوع الصغائر عليهم هي مغفورة
على هذا فما معنى المؤاخذة بها إذن عندكم وخوف الأنبياء وتوبتهم منها وهي مغفورة
فما كانت فما أجابوا به فهو جوابنا عن المؤاخذة بأفعال السهو والتأويل وقد قيل
إن كثرة استغفار النبي وتوبته وغيره من الأنبياء على وجه ملازمة الخضوع
والعبودية والاعتراف بالتقصير شكرا لله على نعمه كما قال عليه السلام وقد أمن
من المؤاخذة بما تقدم وتأخر أفلا أكون عبدا شكورا وقال إني أخشاكم لله وأعلمكم بما
أتقي قال الحارث بن أسد خوف الملائكة والأنبياء خوف إعظام وتعبد لله لأنهم آمنون
وقيل فعلوا ذلك ليقتدي بهم وتستن بهم أممهم كما قال لو تعلمون ما أعلم لضحكتم
قليلا ولبكيتم كثيرا وأيضا فإن في التوبة والاستغفار معنى آخر لطيفا أشار إليه
بعض العلماء وهو استدعاء محبة الله قال الله تعالى إن الله يحب التوابين ويحب
المتطهرين فإحداث الرسل والأنبياء الاستغفار والتوبة والإنابة والأوبة في كل
حين استدعاء لمحبة الله والاستغفار فيه معنى التوبة وقد قال الله لنبيه بعد أن
غفر له ما تقدم وما تأخر من ذنبه لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الآية
وقال فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا **فصل** وقد استبان لك أيها الناظر

صلى الله عليه وسلم

صلى الله عليه وسلم

بما قررناه ما هو الحق من عصمته عليه السلام عن الجهل بالله وصفاته أو كونه على
حالة تنافي العلم بشيء من ذلك كله جملة بعد النبوة عقلا وإجماعا وقبلها ...
ونقلا ولا بشيء مما قرره من أمور الشرع وأداه عن ربه من الوحي قطعا عقلا وشرعا
وعصمته عن الكذب وخلف القول منذ نبأه الله وأرسله قصدا أو غير قصد واستحالة
ذلك عليه شرعا وإجماعا ونظرا وبرهانا وتنزيهه عنه قبل النبوة قطعا وتنزيهه
عن الكبائر إجماعا وعن الصغائر تحقيقا وعن استدامة السهو والغفلة واستمرار
الغلط والنسيان عليه فيما شرعه للأمة وعصمته في كل حالاته من رضى وغضب
وجد ومزح فما يجب لك أن تتلقاه باليمين وتشد عليه يد الضنين وتقدر هذه
الفصول حق قدرها وتعلم عظيم فائدتها وخطرها فإن من يجهل ما يجب للنبي أو
يجوز أو يستحيل عليه ولا يعرف صور أحكامه لا يأمن أن يعتقد في بعضها خلاف ما
هي عليه ولا ينزهه عما لا يجب أن يضاف إليه فيهلك من حيث لا يدري ويسقط في
هوة الدرك الأسفل من النار إذ ظن الباطل به واعتقاد ما لا يجوز عليه يحل صاحبه
دار البوار. ولهذا ما احتاط عليه السلام على الرجلين اللذين رأياه ليلا وهو معتكف
في المسجد مع صفية فقال لهما إنها صفية ثم قال لهما إن الشيطان يجري من ابن آدم
مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا فتهلكا. **هذه** أكرمك
الله إحدى فوائد ما تكلمنا عليه في هذه الفصول ولعل جاهلا لا يعلم بجهله إذا
سمع شيئا منها يرى أن الكلام فيها جملة من فضول العلم وأن السكوت أولى وقد استبان
لك أنه متعين للفائدة التي ذكرناها. وفائدة ثانية يضطر إليها في أصول الفقه
وتنبني عليها مسائل لا تتعدد من الفقه ويتخلص بها من تشعيب مختلفي الفقهاء في
عدة منها وهي الحكم في أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وهو باب عظيم
وأصل كبير من أصول الفقه ولا بد من بنائه على صدق النبي في أخباره وبلاغه
وأنه لا يجوز عليه السهو فيه وعصمته من المخالفة في أفعاله عمدا وبحسب اختلافهم
في وقوع الصغائر وقع خلاف في امتثال الفعل بسطه بحذافيره في كتب ذلك العلم فلا

نطول

نطول .. وفائدة ثالثة يحتاج إليها الحاكم والمفتي فيمن أضاف إلى النبي شيئا من هذه
ووصفه بها فمن لم يعرف ما يجوز وما يمتنع عليه وما وقع الإجماع فيه والخلاف
كيف يصمم في الفتيا في ذلك ومن أين يدري هل ما قاله فيه نقص أو مدح فإما أن
يجترئ على سفك دم مسلم حرام أو يسقط حقا ويضيع حرمة للنبي عليه السلام
وبسبيل هذا ما قد اختلف أرباب الأصول وأئمة العلماء والمحققين في عصمة الملائكة

فصل في القول في عصمة الملائكة أجمع المسلمون أن الملائكة مؤمنون
فضلاء واتفق أئمة المسلمين أن حكم المرسلين منهم حكم النبيين سواء في العصمة مما
ذكرنا عصمتهم منه وأنهم في حقوق الأنبياء والتبليغ إليهم كالأنبياء مع الأمم
واختلفوا في غير المرسلين منهم فذهبت طائفة إلى عصمة جميعهم عن المعاصي واحتجوا
بقوله تعالى لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وبقوله وما منا إلا له مقام
معلوم وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون وبقوله ومن عنده لا يستكبرون عن
عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون وبقوله إن الذين عند ربك
لا يستكبرون عن عبادته الآية وقوله كرام بررة ولا يمسه إلا المطهرون ونحوه من السمعيات
وذهبت طائفة إلى أن هذا خصوص للمرسلين منهم والمقربين واحتجوا بأشياء ذكرها
أهل الأخبار والتفاسير نحن نذكرها إن شاء الله تعالى ونبين الوجه فيها والصواب
عصمة جميعهم وتنزيه نصابهم الرفيع عن جميع ما يحط من رتبتهم ومنزلتهم عن جليل
مقدارهم ورأيت بعض شيوخنا أشار إلى أن لا حاجة بالفقيه إلى الكلام في عصمتهم
وأنا أقول إن للكلام في ذلك ما للكلام في عصمة الأنبياء من الفوائد التي ذكرناها سوى
فائدة الكلام في الأقوال والأفعال فهي ساقطة هاهنا. فمما احتج به من لم يوجب
عصمة جميعهم قصة هاروت وماروت وما ذكر فيها أهل الأخبار ونقلة المفسرين
وما روي عن علي وابن عباس في خبرهما وابتلائهما فاعلم أكرمك الله أن هذه
الأخبار لم يرو منها شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس
هو شيئا يؤخذ بقياس والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه وأنكر ما

قال بعضهم فيه كثير من السلف كما سنذكره، وهذه الأخبار من كتب اليهود وافترائهم كما نصه الله أول الآيات من افترائهم بذلك على سليمان وتكفيرهم إياه، وقد انطوت القصة على شنع عظيمة، وها نحن نخبر في ذلك بما يكشف غطاء هذه الإشكالات إن شاء الله. فاختلف أولًا في هاروت وماروت هل هما ملكان أو إنسيان، وهل هما المراد بالملكين أم لا، وهل القراءة ملكين أو ملكين، وهل ما في قوله وما أنزل وما يعلمان من أحد نافية أو موجبة. فأكثر المفسرين أن الله امتحن الناس بالملكين لتعليم السحر وتبيينه وأن عمله كفر فمن تعلمه كفر ومن تركه آمن، قال الله تعالى إنما نحن فتنة فلا تكفر، وتعليمهما الناس له تعليم إنذار أي يقولان لمن جاء يطلب تعليمه لا تفعلوا كذا فإنه يفرق بين المرء وزوجه ولا تتحيلوا بكذا فإنه سحر فلا تكفروا، فعلى هذا فعل الملكين طاعة وتصرفهما فيما أمرا به ليس بمعصية وهي لغيرهما فتنة. وروى ابن وهب عن خالد بن أبي عمران أنه ذكر عنده هاروت وماروت وأنهما يعلمان السحر فقال نحن ننزههما عن هذا، فقرأ بعضهم وما أنزل على الملكين فقال خالد لم ينزل عليهما. فهذا خالد على جلالته وعلمه نزههما عن تعليم السحر الذي قد ذكر غيره أنهما مأذون لهما في تعليمه بشريطة أن يبينا أنه كفر وأنه امتحان من الله وابتلاء، فكيف لا ينزههما عن كبائر المعاصي والكفر المذكورة في تلك الأخبار. وقول خالد لم ينزل يريد أن ما نافية، وهو قول ابن عباس، قال مكي وتقدير الكلام وما كفر سليمان يريد بالسحر الذي افتعلته عليه الشياطين واتبعتهم في ذلك اليهود وما أنزل على الملكين، قال مكي هما جبريل وميكائيل ادعى اليهود عليهما المجيء به كما ادعوا على سليمان فأكذبهم الله في ذلك ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، قيل هما رجلان تعلماه، قال الحسن هاروت وماروت علجان من أهل بابل، وقرأ وما أنزل على الملكين بكسر اللام وتكون ما إيجابًا على هذا، وكذلك قراءة عبد الرحمن بن أبزى بكسر اللام ولكنه قال الملكان هنا داود وسليمان وتكون ما نفيًا على ما تقدم. وقيل كانا ملكين من بني إسرائيل فمسخهما الله حكاه السمرقندي والقراءة بكسر اللام

شاذة، فيحمل الآية على تقدير أبي محمد مكي حسن ينزه الملائكة ويذهب الرجس عنهم ويطهرهم تطهيرًا، وقد وصفهم الله بأنهم مطهرون وكرام بررة ولا يعصون الله ما أمرهم. ومما يذكرونه قصة إبليس وأنه كان من الملائكة ورئيسًا فيهم ومن خزان الجنة إلى آخر ما حكوه، وأنه استثناه من الملائكة بقوله فسجدوا إلا إبليس، وهذا أيضًا لم يتفق عليه بل الأكثر ينفون ذلك وأنه أبو الجن كما آدم أبو الإنس، وهو قول الحسن وقتادة وابن زيد. وقال شهر بن حوشب كان من الجن الذين طردهم الملائكة في الأرض حين أفسدوا، والاستثناء من غير الجنس شائع في كلام العرب سائغ، وقد قال الله تعالى ما لهم به من علم إلا اتباع الظن. ومما رووه في الأخبار أن خلقًا من الملائكة عصوا الله فحرقوا وأمروا أن يسجدوا لآدم فأبوا فحرقوا ثم آخرين كذلك حتى سجد له من ذكر الله إلا إبليس في أخبار لا أصل لها تردها صحاح الأخبار فلا تشتغل بها.

الباب الثاني

فيما يخصهم في الأمور الدنيوية ويطرأ عليهم من العوارض البشرية. قد قدمنا أنه عليه السلام وسائر الأنبياء والرسل من البشر وأن جسمه وظاهره خالص للبشر يجوز عليه من الآفات والتغييرات والآلام والأسقام وتجرع كأس الحمام ما يجوز على البشر، وهذا كله ليس بنقيصة فيه لأن الشيء إنما يسمى ناقصًا بالإضافة إلى ما هو أتم منه وأكمل من نوعه، وقد كتب الله على أهل هذه الدار فيها يحيون وفيها يموتون ومنها يخرجون، وخلق جميع البشر بمدرجة الغير، فقد مرض عليه السلام واشتكى وأصابه الحر والقر وأدركه الجوع والعطش ولحقه الغضب والضجر وناله الإعياء والتعب ومسه الضعف والكبر وسقط فجحش شقه وشجه الكفار وكسروا رباعيته وسقي السم وسحر وتداوى واحتجم وتنشر وتعوذ ثم قضى نحبه فتوفي صلى الله عليه وسلم ولحق بالرفيق الأعلى وتخلص من دار الامتحان والبلوى، وهذه سمات البشر التي لا محيص عنها، وأصاب غيره من الأنبياء ما هو أعظم منه فقتلوا قتلًا ورموا في النار ونشروا بالمناشير ومنهم من وقاه الله ذلك في بعض الأوقات ومنهم من عصمه كما عصم بعد نبينا من الناس فلئن

صلى الله عليه وسلم

لم يكف نبينا أذية ابن قمئة يوم أحد ولا حجبه عن عيون عداه عند دعوته أهل الطائف فلقد أخذ على عيون قريش عند خروجه إلى ثور وأمسك عنه سيف غورث وحجر أبي جهل وفرس سراقة ولئن لم يقه من سحر ابن الأعصم فقد وقاه ما هو أعظم من سم اليهودية. وهكذا سائر أنبيائه مبتلى ومعافى وذلك من تمام حكمته ليظهر شرفهم في هذه المقامات ويبين أمرهم ويتم كلمته فيهم وليحقق بامتحانهم بشريتهم ويرتفع الالتباس عن أهل الضعف فيهم لئلا يضلوا بما يظهر من العجائب على أيديهم ضلال النصارى بعيسى وليكون في محنهم تسلية لأممهم ووفور لأجورهم عند ربهم تماما على الذي أحسن إليهم. قال بعض المحققين وهذه الطوارئ والتغييرات المذكورة إنما تختص بأجسامهم البشرية المقصود بها مقاومة البشر ومعاناة بني آدم لمشاكلة الجنس. وأما بواطنهم فمنزهة غالبا عن ذلك معصومة منه متعلقة بالملإ الأعلى والملائكة لأخذها عنهم وتلقيها الوحي منهم. قال وقد قال عليه السلام إن عيني تنامان ولا ينام قلبي وقال إني لست كهيئتكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني وقال لست أنسى ولكن أنسى ليستن بي فأخبر أن سره وباطنه وروحه بخلاف جسمه وظاهره وأن الآفات التي تحل ظاهره من ضعف وجوع وسهر ونوم لا يحل منها شيء باطنه بخلاف غيره من البشر في حكم الباطن لأن غيره إذا نام استغرق النوم جسمه وقلبه وهو عليه السلام في نومه حاضر القلب كما هو في يقظته حتى قد جاء في بعض الآثار أنه كان محروسا من الحدث في نومه لكون قلبه يقظان كما ذكرناه وكذلك غيره إذا جاع ضعف لذلك جسمه وخارت قوته فبطلت بالكلية جملته وهو عليه السلام قد أخبر أنه لا يعتريه ذلك وأنه بخلافهم لقوله لست كهيئتكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني وكذلك أقول إنه في هذه الأحوال كلها من وصب ومرض وسحر وغضب لم يجر على باطنه ما يخل به ولا فاض منه على لسانه وجوارحه ما لا يليق به كما يعتري غيره من البشر مما نأخذ بعد في بيانه

فصل فإن قلت فقد جاءت الأخبار الصحيحة أنه عليه السلام سحر كما

حدثنا الشيخ أبو محمد العتابي بقراءتي عليه قال حدثنا حاتم بن محمد حدثنا أبو الحسن علي بن خلف حدثنا محمد بن أحمد حدثنا محمد بن يوسف حدثنا البخاري حدثنا عبيد بن إسماعيل قال حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إنه ليخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله وفي رواية أخرى حتى كان يخيل إليه أنه كان يأتي النساء ولا يأتيهن الحديث. وإذا كان هذا من التباس الأمر على المسحور فكيف حال النبي في ذلك وكيف جاز عليه وهو معصوم. فاعلم وفقنا الله وإياك أن هذا الحديث صحيح متفق عليه وقد طعنت فيه الملحدة وتذرعت به لسخف عقولها وتلبيسها على أمثالها إلى التشكيك في الشرع وقد نزه الله الشرع والنبي عما يدخل في أمره لبسا وإنما السحر مرض من الأمراض وعارض من العلل يجوز عليه كأنواع الأمراض مما لا ينكر ولا يقدح في نبوته. وأما ما ورد أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولا يفعله فليس في هذا ما يدخل عليه داخلة في شيء من تبليغه أو شريعته أو يقدح في صدقه لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا وإنما هذا فيما يجوز طروه عليه في أمر دنياه التي لم يبعث بسببها ولا فضل من أجلها وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر فغير بعيد أن يخيل إليه من أمورها ما لا حقيقة له ثم ينجلي عنه كما كان وأيضا فقد فسر هذا الفصل الحديث الآخر من قوله حتى يخيل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتيهن وقد قال سفيان وهذا أشد ما يكون من السحر ولم يأت في خبر منها أنه نقل عنه في ذلك قول بخلاف ما كان أخبر أنه فعله ولم يفعله وإنما كانت خواطر وتخيلات. وقد قيل إن المراد بالحديث أنه كان يتخيل الشيء أنه فعله وما فعله لكنه تخييل لا يعتقد صحته فتكون اعتقاداته كلها على السداد وأقواله على الصحة. هذا ما وقفت عليه من الأجوبة لأئمتنا عن هذا الحديث مع ما أوضحناه من معنى كلامهم وزدناه بيانا من تلويحاتهم وكل وجه منها مقنع لكنه قد ظهر لي في الحديث تأويل أجلى وأبعد من مطاعن ذوي الأباطيل يستفاد من نفس الحديث

ومع أن عبد الرزاق قد روى هذا الحديث عن ابن المسيب وعروة بن الزبير وقال فيه
عنهما سحر يهود بني زريق رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلوه في بئر
رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينكر بصره ثم دله الله على ما صنعوا
من البئر وروي نحوه عن الواقدي وذكر عن عبد الرحمن بن كعب وعمر بن الحكم عن
عطاء وذكر عن عطاء الخراساني عن يحيى بن يعمر حبس رسول الله صلى الله عليه
وسلم عن عائشة سنة فبينا هو نائم أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر
عند رجليه الحديث وقال عبد الرزاق حبس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
عائشة خاصة سنة حتى أنكر بصره فقد استبان لك من مضمون هذه الروايات
أن السحر إنما تسلط على ظاهره وجوارحه لا على قلبه واعتقاده وعقله وأنه إنما
أثر في بصره وحبسه عن وطء نسائه وطعامه وأضعف جسمه وأمرضه ويكون
معنى قوله يخيل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتيهن أي يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته
القدرة على النساء فإذا دنا منهن أصابته أخذة السحر فلم يقدر على إتيانهن كما يعتري
من أخذ واعترض ولعل لمثل هذا أشار سفيان بقوله وهذا أشد ما يكون من
السحر ويكون قول عائشة في الرواية الأخرى أنه ليخيل إليه أنه فعل الشيء وما
فعله من باب ما اختل من بصره كما ذكر في الحديث فيظن أنه رأى شخصا من بعض
أزواجه أو شاهد فعلا من غيره ولم يكن على ما يخيل إليه لما أصابه في بصره وضعف
نظره لا لشيء طرأ عليه في ميزه وإذا كان هذا لم يكن فيما ذكر من إصابة السحر
له وتأثيره فيه ما يدخل لبسا ولا يجد به الملحد المعترض أنسا

فصل

هذه حاله في جسمه فأما أحواله في أمور الدنيا فنحن نسبرها على أسلوبها المتقدم
بالعقد والقول والفعل **أما العقد منها** فقد يعتقد في أمور الدنيا
الشيء على وجه ويظهر خلافه أو يكون منه على شك أو ظن بخلاف أمور الشرع
كما حدثنا أبو بحر سفيان بن العاصي وغير واحد سماعا وقراءة قالوا حدثنا أبو العباس
أحمد بن عمر قال حدثنا أبو العباس الرازي حدثنا أبو أحمد بن عمرويه حدثنا ابن
سفيان حدثنا مسلم حدثنا عبد الله بن الرومي وعباس العنبري وأحمد المعقري قالوا حدثنا النضر
ابن محمد قال حدثني عكرمة حدثنا أبو النجاشي قال حدثنا رافع بن خديج قال قدم
رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يأبرون النخل فقال ما تصنعون قالوا كنا
نصنعه فقال لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا فتركوه فنقصت فذكروا ذلك له فقال
إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي
فإنما أنا بشر وفي رواية أنس أنتم أعلم بأمر دنياكم وفي حديث آخر إنما
ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن وفي حديث ابن عباس في قصة الخرص
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أنا بشر فما حدثتكم عن الله فهو حق وما
قلت فيه من قبل نفسي فإنما أنا بشر أخطئ وأصيب وهذا على ما قررناه فيما
قاله من قبل نفسه في أمور الدنيا وظنه من أحوالها لا ما قاله من قبل نفسه واجتهاده
في شرع شرعه وسنة سنها وكما حكى ابن إسحاق أنه عليه السلام لما نزل بأدنى
مياه بدر قال له الحباب بن المنذر أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أم هو
الرأي والحرب والمكيدة قال لا بل هو الرأي والحرب والمكيدة قال فإنه ليس بمنزل
انهض حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نعور ما وراءه من القلب فنشرب ولا
يشربون فقال أشرت بالرأي وفعل ما قاله وقد قال له الله وشاورهم في الأمر وأراد
مصالحة بعض عدوه على ثلث تمر المدينة فاستشار الأنصار فلما أخبروه برأيهم
رجع عنه فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها لعلم ديانة ولا اعتقادها
ولا تعليمها يجوز عليه فيها ما ذكرناه إذ ليس في هذا كله نقيصة ولا محطة وإنما
هي أمور اعتيادية يعرفها من جربها وجعلها همه وشغل نفسه بها والنبي صلى الله عليه وسلم مشحون
القلب بمعرفة الربوبية ملآن الجوارح بعلوم الشريعة مقيد البال بمصالح الأمة الدينية
والدنيوية ولكن هذا إنما يكون في بعض الأمور ويجوز في النادر وفيما سبيله
التدقيق في حراسة الدنيا واستثمارها لا في الكثير المؤذن بالبله والغفلة وقد تواتر
بالنقل عنه عليه السلام من المعرفة بأمور الدنيا ودقائق مصالحها وسياسة فرق

أثبتنا ما يجوز في البشر مما قدمنا عليه في باب معجزاته من هذا الكتاب. **فصل**
وأما ما يعتقده في أمور أحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم ومعرفة المحق من
المبطل وعلم المصلح من المفسد فبهذه السبيل لقوله عليه السلام إنما أنا بشر وإنكم
تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو مما أسمع
منه فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئا فإنما أقطع له قطعة من النار
حدثنا الفقيه أبو الوليد رحمه الله حدثنا الحسين بن محمد الحافظ حدثنا أبو عمر
حدثنا أبو محمد حدثنا أبو بكر حدثنا أبو داود حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان
عن هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة قالت قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم الحديث. وفي رواية الزهري عن عروة فلعل بعضكم أن
يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له. وتجري أحكامه عليه السلام
على الظاهر وموجب غلبات الظن بشهادة الشاهد ويمين الحالف ومراعاة الأشبه
ومعرفة العفاص والوكاء مع مقتضى حكمة الله في ذلك فإنه تعالى لو شاء لأطلعه
على سرائر عباده ومخبآت ضمائر أمته فتولى الحكم بينهم بمجرد يقينه وعلمه دون
حاجة إلى اعتراف أو بينة أو يمين أو شبهة ولكن لما أمر الله أمته باتباعه والاقتداء
به في أفعاله وأحواله وقضاياه وسيره، وكان هذا لو كان مما يختص بعلمه ويؤثره الله
به لم يكن للأمة سبيل إلى الاقتداء به في شيء من ذلك ولا قامت حجة بقضية من قضايا
شريعته لأنا لا نعلم ما اطلع عليه هو في تلك القضية لحكمه هو إذن في
ذلك بالمكنون من إعلام الله له بما أطلعه عليه من سرائرهم وهذا ما لا تعلمه الأمة
فأجرى الله أحكامه على ظواهرهم التي يستوي فيها هو وغيره من البشر ليتم
اقتداء أمته به في تعيين قضاياه وتنزيل أحكامه ويأتون ما أتوا من ذلك على علم
ويقين من سنته إذ البيان بالفعل أوقع منه بالقول وأرفع لاحتمال اللفظ وتأويل المتأول
وكان حكمه على الظاهر أجلى في البيان وأوضح في وجوه الأحكام وأكثر فائدة
لموجبات التشاجر والخصام وليقتدي بذلك كله حكام أمته ويستوثق بما يؤثر

عنه وينضبط قانون شريعته وطي ذلك عنه من علم الغيب الذي استأثر به علم الغيب
فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فيعلمه منه بما شاء ويستأثر بما شاء ولا يقدح
هذا في نبوته ولا يفصم عروة من عصمته. **فصل** وأما أقواله الدنيوية من إخباره
عن أحواله وأحوال غيره وما يفعله أو فعله فقد قدمنا أن الخلف فيها ممتنع عليه في
كل حال وعلى أي وجه من عمد أو سهو أو صحة أو مرض أو رضى أو غضب وأنه معصوم
منه صلى الله عليه وسلم هذا فيما طريقه الخبر المحض مما يدخله الصدق والكذب. فأما
المعاريض الموهم ظاهرها خلاف باطنها فجائز ورودها منه في الأمور الدنيوية
لا سيما لقصد المصلحة كتوريته عن وجه مغازيه لئلا يأخذ العدو حذره، وكما روي
من ممازحته ودعابته لبسط أمته وتطييب قلوب المؤمنين من صحابته وتأكيدا
في تحببهم ومسرة نفوسهم كقوله لأحملنك على ابن الناقة وقوله للمرأة التي
سألته عن زوجها أهو الذي بعينه بياض وهذا كله صدق لأن كل جمل ابن ناقة
وكل إنسان بعينه بياض وقد قال عليه السلام إني لأمزح ولا أقول إلا حقا
هذا كله فيما بابه الخبر فأما ما بابه غير الخبر مما صورته صورة الأمر والنهي في
الأمور الدنيوية فلا يصح منه أيضا ولا يجوز عليه أن يأمر أحدا بشيء أو ينهى
أحدا عن شيء وهو يبطن خلافه. وقد قال عليه السلام ما كان لنبي أن تكون له
خائنة الأعين فكيف أن تكون له خائنة قلب. **فإن قلت** فما معنى إذن قوله
تعالى في قصة زيد وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك
الآية. فاعلم أكرمك الله ولا تسترب في تنزيه النبي عليه السلام عن هذا الظاهر
وأن يأمر زيدا بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها كما ذكر عن جماعة من المفسرين
وأصح ما في هذا ما حكاه أهل التفسير عن علي بن حسين أن الله تعالى كان أعلم نبيه
أن زينب ستكون من أزواجه فلما شكاها إليه زيد قال له أمسك عليك زوجك
واتق الله وأخفى منه في نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها مما الله مبديه
ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها وروى نحوه عمرو بن فائد عن الزهري قال

نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم يعلمه ان الله يزوجه زينب بنت جحش منه فذلك
الذي أخفى في نفسه ويصحح هذا قول المفسرين في قوله بعد هذا وكان أمر الله مفعولا
أي لا بد لك أن تتزوجها ويوضح هذا أن الله لم يبد من أمره معها غير زواجه لها فدل
أنه الذي أخفاه عليه السلام مما كان أعلمه به تعالى. وقوله تعالى في القصة ما كان
على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله فدل أنه لم يكن عليه حرج في الامر قال الطبري
ما كان الله ليؤثم نبيه فيما أحل مثال فعله لمن قبله من الرسل قال الله سنة الله في
الذين خلوا من قبل أي من النبيين فيما أحل لهم. ولو كان على ما روي في حديث قتادة
من وقوعها من قلب النبي عندما أعجبته ومحبته طلاق زيد لها لكان فيه أعظم الحرج
وما لا يليق به من مد عينيه لما نهي عنه من زهرة الحياة الدنيا ولكان هذا نفس الحسد المذموم
الذي لا يرضاه ولا يتسم به الأتقياء فكيف سيد الأنبياء. قال القشيري وهذا اقدام
عظيم من قائله وقلة معرفة بحق النبي صلى الله عليه وسلم وبفضله وكيف يقال رآها
فأعجبته وهي بنت عمته ولم يزل يراها منذ ولدت ولا كان النساء يحتجبن منه عليه
السلام وهو زوجها لزيد وإنما جعل الله طلاق زيد لها وتزويج النبي إياها لإزالة
حرمة التبني وإبطال سنته كما قال ما كان محمد أبا أحد من رجالكم وقال لكيلا يكون على
المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم وقال أبو الليث السمرقندي فإن قيل فما الفائدة
في أمر النبي لزيد بإمساكها فهو أن الله أعلم نبيه أنها زوجته فنهاه النبي عن طلاقها
إذ لم تكن بينهما ألفة وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به فلما طلقها زيد خشي قول الناس
يتزوج امرأة ابنه فأمره الله بزواجها ليباح مثل ذلك لأمته كما قال تعالى لكي لا يكون
على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم. وقد قيل كان أمره لزيد بإمساكها قمعا
للشهوة ورد النفس عن هواها. وهذا إذا جوزنا عليه أنه رآها فجأة واستحسنها
ومثل هذا لا نكرة فيه لما طبع عليه ابن آدم من استحسانه للحسن ونظرة الفجأة
معفو عنها ثم قمع نفسه عنها وأمر زيدا بإمساكها وإنما تنكر تلك الزيادات التي
في القصة والتعويل والأولى ما ذكرناه عن علي بن حسين وحكاه السمرقندي وهو

قول ابن عطاء وصححه واستحسنه القاضي القشيري وعليه عول أبو بكر بن فورك
وقال إنه معنى ذلك عند المحققين من أهل التفسير قال والنبي عليه السلام منزه عن
استعمال النفاق في ذلك وإظهار خلاف ما في نفسه وقد نزهه الله عز وجل عن ذلك
بقوله تعالى ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له قال ومن ظن ذلك بالنبي فقد
أخطأ قال وليس معنى الخشية هنا الخوف وإنما معناه الاستحياء أي يستحيي منهم أن يقولوا
تزوج زوجة ابنه. وأن خشيته عليه السلام من الناس كانت من إرجاف المنافقين
واليهود وتشغيبهم على المسلمين بقولهم تزوج زوجة ابنه بعد نهيه عن نكاح حلائل
الأبناء كما كان فعاتبه الله على هذا ونزهه عن الالتفات إليهم فيما أحله له كما عتبه
على مراعاة رضا أزواجه في سورة التحريم بقوله لم تحرم ما أحل الله لك الآية كذلك
قوله له ههنا وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه. وقد روي عن الحسن وعائشة لو كتم
رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا لكتم هذه الآية لما فيها من عتبه وإبداء ما أخفاه.

فصل فإن قلت قد تقررت عصمته عليه السلام في أقواله في جميع أحواله
وأنه لا يصح منه فيها خلف ولا اضطراب في عمد ولا سهو ولا صحة ولا مرض ولا جد ولا مزح
ولا رضى ولا غضب ولكن ما معنى الحديث في وصيته عليه السلام الذي حدثنا به
القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله قال حدثنا القاضي أبو الوليد قال حدثنا أبو ذر حدثنا
أبو محمد وأبو الهيثم وأبو إسحق قالوا حدثنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسمعيل قال حدثنا
علي بن عبد الله حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن
ابن عباس قال لما احتضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجال فقال النبي صلى
الله عليه وسلم هلموا أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده فقال بعضهم إن رسول الله قد غلبه
الوجع الحديث. وفي رواية ائتوني أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا فتنازعوا
فقالوا ما له أهجر استفهموه فقال دعوني فإن الذي أنا فيه خير. وفي بعض طرقه
فقال إن النبي يهجر وفي رواية هجر ويروى أهجر ويروى أهجرا وفيه فقال عمر
إن النبي قد اشتد به الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا وكثر اللغط فقال قوموا عني

وفي رواية واختلف أهل البيت واختصموا فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم رسول الله صلى
الله عليه وسلم كتابا ومنهم من يقول ما قال عمر. قال أيمتنا في هذا الحديث النبي غير معصوم
من الأمراض وما يكون من عوارضها من شدة وجع وغشي ونحوه مما يطرأ على جسمه معصوم
أن يكون منه من القول أثناء ذلك ما يطعن في معجزته ويؤدي إلى فساد في شريعته من
هذيان أو اختلال في كلام. وعلى هذا لا يصح ظاهر رواية من روى في الحديث هجر إذ
معناه هذى، يقال هجر هجرا إذا هذى وأهجر هجرا إذا أفحش وأهجر تعدية هجر. وإنما
الأصح والأولى أهجر على طريق الإنكار على من قال لا يكتب، وهكذا روايتنا فيه في
صحيح البخاري من رواية جميع الرواة في حديث الزهري المتقدم وفي حديث محمد بن
سلام عن ابن عيينة، وكذا ضبطه الأصيلي بخطه في كتابه وغيره من هذه الطرق،
وكذا رويناه عن مسلم في حديث سفيان وعن غيره، وقد تحمل عليه رواية من رواه
هجر على حذف ألف الاستفهام والتقدير أهجر، أو أن يحمل قول القائل هجر أو أهجر
دهشة من قائل ذلك وحيرة لعظيم ما شاهد من حال الرسول وشدة وجعه وهول
المقام الذي اختلف فيه عليه والأمر الذي هم بالكتاب فيه حتى لم يضبط هذا القائل
لفظه وأجرى الهجر مجرى شدة الوجع لا أنه اعتقد أنه يجوز عليه الهجر كما حملهم
الإشفاق على حراسته والله يقول والله يعصمك من الناس ونحو هذا. وأما على رواية
أهجرا وهي رواية أبي إسحاق المستملي في الصحيح في حديث ابن جبير عن ابن عباس
من رواية قتيبة فقد يكون هذا راجعا إلى المختلفين عنده صلى الله عليه وسلم ومخاطبة
لهم من بعضهم أي جئتم باختلافكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديه
هجرا ومنكرا من القول والهجر بضم الهاء الفحش في المنطق. وقد اختلف العلماء في
معنى هذا الحديث وكيف اختلفوا بعد أمره لهم عليه السلام أن يأتوه بالكتاب فقال
بعضهم أوامر النبي يفهم إيجابها من ندبها من إباحتها بقراين فلعل قد ظهر من
قراين قوله عليه السلام لبعضهم ما فهموا أنه لم تكن منه عزمة بل أمر رده إلى
اختيارهم. وبعضهم لم يفهم ذلك فقال استفهموه فلما اختلفوا كف عنه إذ لم

رضي الله عنه

صلى الله عليه وسلم

لهم

صلى الله عليه وسلم

تكن عزمة ولما رأوه من صواب رأي عمر ثم هولاء قالوا ويكون امتناع عمر إما إشفاقا
على النبي من تكليفه في تلك الحال إملاء الكتاب وأن تدخل عليه مشقة من ذلك كما
قال إن النبي اشتد به الوجع. وقيل خشي عمر أن يكتب أمورا يعجزون عنها فيحصلون
في الحرج بالمخالفة ورأى أن الأرفق بالأمة في تلك الأمور سعة الاجتهاد وحكم النظر
وطلب الصواب فيكون المصيب والمخطي مأجورا، وقد علم عمر تقرر الشريعة وتأسيس
الملة وأن الله قال اليوم أكملت لكم دينكم وقوله عليه السلام أوصيكم بكتاب الله
وعترتي. وقول عمر حسبنا كتاب الله رد على من نازعه لا على أمر النبي. وقد قيل
إن عمر خشي تطرق المنافقين ومن في قلبه مرض لما كتب في ذلك الكتاب في الخلوة
وأن يتقولوا في ذلك الأقاويل كادعاء الرافضة الوصية وغير ذلك. وقيل إنه
كان من النبي لهم على طريق المشورة والاختبار هل يتفقون على ذلك أو يختلفون
فلما اختلفوا تركه. وقالت طايفة أخرى إن معنى الحديث أن النبي صلى الله عليه
وسلم كان مجيبا في هذا الكتاب لما طلب منه لا أنه ابتدأ الأمر به بل اقتضاه منه بعض
أصحابه فأجاب رغبتهم وكره ذلك غيرهم للعلل التي ذكرناها. واستدل في
مثل هذه القصة بقول العباس لعلي انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كان
الأمر فينا علمناه، وكراهية علي هذا وقوله والله لا أفعل الحديث. واستدل بقوله
دعوني فالذي أنا فيه خير أي الذي أنا فيه خير من إرسال الأمر وترككم وكتاب
الله وأن تدعوني مما طلبتم وذكر أن الذي طلب كتابة أمر الخلافة بعده وتعيين ذلك.

فصل فإن قيل فما وجه حديثه أيضا الذي حدثناه الفقيه أبو محمد الخشني
بقراءتي عليه حدثنا أبو علي الطبري حدثنا عبد الغافر الفارسي حدثنا أبو أحمد
الجلودي قال حدثنا إبراهيم بن سفيان حدثنا مسلم بن الحجاج حدثنا قتيبة حدثنا
ليث عن سعيد بن أبي سعيد عن سالم مولى النصريين قال سمعت أبا هريرة يقول
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب
البشر وإني قد اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه فأيما مومن آذيته أو سببته أو

رضي الله عنه

صلى الله عليه وسلم

رضي الله عنهما

خير

جلدته فاجعلها له كفارة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة. وفي رواية فأيما أحد دعوت
عليه دعوة، وفي رواية ليس لها بأهل، وفي رواية فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته
فاجعلها له زكاة وصلاة ورحمة. وكيف يصح أن يلعن النبي عليه السلام من لا يستحق
اللعن ويسب من لا يستحق السب ويجلد من لا يستحق الجلد أو يفعل مثل ذلك عند الغضب
وهو معصوم من هذا كله. فاعلم شرح الله صدرك أن قوله أولا ليس لها بأهل أي
عندك يا رب في باطن أمره، فإن حكمه عليه السلام على الظاهر كما قال، وللحكمة التي
ذكرناها فحكم عليه السلام بجلده أو أدبه بسبه أو لعنه بما اقتضاه عنده حال
ظاهره، ثم دعا عليه السلام لشفقته على أمته ورحمته للمؤمنين التي وصفه الله بها
وحذره أن يتقبل فيمن دعا عليه دعوته أن يجعل دعاءه وفعله له رحمة، وهو معنى قوله
ليس لها بأهل، لا أنه عليه السلام يحمله الغضب ويستفزه الضجر لأن يفعل مثل هذا
بمن لا يستحقه من مسلم، وهذا معنى صحيح، ولا يفهم من قوله أغضب كما يغضب البشر
أن الغضب حمله على ما لا يجب، بل يجوز أن يكون المراد بهذا أن الغضب لله حمله على
معاقبته بلعنه أو سبه وأنه مما يحتمل ويجوز عفوه عنه أو كان مما خير
بين المعاقبة فيه والعفو عنه. وقد يحمل أنه خرج مخرج الإشفاق وتعليم أمته
الخوف والحذر من تعدي حدود الله. وقد يحمل ما ورد من دعائه هنا ومن دعواته
على غير واحد في غير موطن على غير العقد والقصد بل بما جرت به عادة العرب
وليس المراد بها الإجابة كقوله تربت يمينك، ولا أشبع الله بطنك، وعقرى حلقى
وغيرها من دعواته. وقد ورد في صفته عليه السلام في غير حديث أنه عليه
السلام لم يكن فحاشا، وقال أنس لم يكن سبابا ولا فحاشا ولا لعانا، وكان يقول
لأحدنا عند المعتبة ما له ترب جبينه، فيكون حمل الحديث على هذا المعنى، ثم أشفق
عليه السلام من موافقة أمثالها إجابة فعاهد ربه كما قال في الحديث أن يجعل ذلك
للمقول له زكاة ورحمة وقربة، وقد يكون ذلك إشفاقا على المدعو عليه وتأنيسا له
لئلا يلحقه من استشعار الخوف والحذر من لعن النبي صلى الله عليه وسلم وتقبل دعائه

صلى الله عليه وسلم

فأجلد على النفس والتسويط، وقد يكون ذلك بسؤال لسائله لمن جلده أو سبه على
حق وبوجه صحيح أن يجعل ذلك له كفارة لما اجترم وأن تكون عقوبته
له في الدنيا سبب العفو والغفران، كما جاء في الحديث الآخر: ومن أصاب من ذلك
شيئا فعوقب به فهو كفارة له. فإن قلت فما معنى حديث الزبير وقول النبي له حين
تخاصم مع الأنصاري في شراج الحرة: اسق يا زبير حتى يبلغ الكعبين، فقال له
الأنصاري أن كان ابن عمتك يا رسول الله، فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم
ثم قال اسق يا زبير ثم احبس حتى يبلغ الجدر الحديث. فالجواب أن النبي صلى الله عليه
وسلم منزه عن أن يقع بنفس مسلم منه في هذه القضية أمر يريب، ولكنه صلى الله
عليه وسلم ندب الزبير أولا إلى الاقتصار على بعض حقه على طريق التوسط والصلح
فلما لم يرض بذلك الآخر ولج وقال ما لا يجب استوفى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير
حقه. ولهذا ترجم البخاري على هذا الحديث باب إذا أشار الإمام بالصلح فأبى حكم
عليه بالحكم، وذكر في آخر الحديث فاستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ
حقه للزبير. وقد جعل المسلمون هذا الحديث أصلا في قضيته، وفيه الاقتداء به
صلى الله عليه وسلم في كل ما فعله في حال غضبه ورضاه، وأنه وإن نهى أن يقضي
القاضي وهو غضبان فإنه في حكمه في حال الغضب والرضا سواء لكونه فيهما معصوما
وغضب النبي صلى الله عليه وسلم في هذا إنما كان لله تعالى لا لنفسه كما جاء في
الحديث الصحيح. وكذلك الحديث في إقادته عكاشة من نفسه لم يكن لتعد
حمله الغضب عليه، بل وقع في الحديث نفسه أن عكاشة قال له وضربتني بالقضيب
فلا أدري أعمدا أم أردت ضرب الناقة، فقال النبي أعيذك بالله يا عكاشة أن يتعمدك
رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذلك في حديثه الآخر مع الأعرابي حين طلب
عليه السلام الاقتصاص منه فقال الأعرابي قد عفوت عنك، وكان النبي صلى الله
عليه وسلم قد ضربه بالسوط لتعلقه بزمام ناقته مرة بعد أخرى والنبي ينهاه
ويقول له تدرك حاجتك، وهو يأبى، فضربه بعد ثلاث مرات، وهذا منه عليه السلام

باستوفى

صلى الله عليه وسلم

لمن لم يعف عن نفسه صواب وموضع أدب لأمته عليه السلام أشبع إذ كان حق
نفسه من الأمر حتى عفا عنه. ومثله حديث سواد بن عمرو أتيت النبي صلى الله عليه
وسلم وأنا متخلق فقال ورس ورس حط حط وغشيني بقضيب في يده في بطني فأوجعني
قلت القصاص يا رسول الله فكشف لي عن بطنه الحديث. وإنما ضربه عليه السلام لمنكر رآه به
ولعله لم يرد بضربه بالقضيب إلا تنبيهه فلما كان منه إيجاع لم يقصده طلب
التحلل منه على ما قدمناه. **فصل** وأما أفعاله عليه السلام الدنيوية فحكمه فيها
من توقي المعاصي والمكروهات ما قدمناه ومن جواز السهو والغلط في بعضها ما
ذكرناه وكله غير قادح في النبوة بل إن هذا فيها على الندور إذ عامة أفعاله
على السداد والصواب بل أكثرها أو كلها جارية مجرى العبادات والقرب على ما
بيناه إذ كان عليه السلام لا يأخذ منها لنفسه إلا ضرورته وما يقيم رمق جسمه
وفيه مصلحة ذاته التي بها يعبد ربه ويقيم شريعته ويسوس أمته وما كان فيما بينه
وبين الناس من ذلك فبين معروف يصنعه أو بر يوسعه أو كلام حسن يقوله أو
يسمعه أو تألف شارد أو قهر معاند أو مداراة حاسد وكل هذا لاحق بصالح أعماله
منتظم في زاكي وظائف عباداته وقد كان يخالف في أفعاله الدنيوية بحسب اختلاف
الأحوال ويعد للأمور أشباهها فيركب في تصرفه لما قرب الحمار وفي أسفاره الراحلة
ويركب البغلة في معارك الحرب دليلا على الثبات ويركب الخيل ويعدها ليوم
الفزع وإجابة الصارخ وكذلك في لباسه وسائر أحواله بحسب اعتبار مصالحه
ومصالح أمته وكذلك يفعل الفعل من أمور الدنيا مساعدة لأمته وسياسة وكراهية
لخلافها وإن كان قد يرى غيره خيرا منه كما يترك الفعل لهذا وقد يرى فعله خيرا
منه وقد يفعل هذا في الأمور الدينية مما له الخيرة في أحد وجهيه كخروجه من المدينة
لأحد وكان مذهبه التحصن بها وتركه قتل المنافقين وهو على يقين من أمرهم
مؤالفة لغيرهم ورعاية للمؤمنين من قرابتهم وكراهة لأن يقول الناس إن محمدا يقتل
أصحابه كما جاء في الحديث وتركه بناء الكعبة على قواعد إبراهيم مراعاة لقلوب

قريش وتغيرهم لتغييرها وحذرا من نفار قلوبهم لذلك وتحريك متقدم عداوتهم للدين
وأهله فقال لعائشة في الحديث الصحيح لولا حدثان قومك بالكفر لأتممت البيت على
قواعد إبراهيم ويفعل الفعل ثم يتركه لكون غيره خيرا منه كانتقاله من أدنى مياه بدر
إلى أقربها للعدو من قريش وكقوله لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت
الهدي ويبسط وجهه للكافر والعدو رجاء استئلافه ويصبر للجاهل ويقول إن من
شرار الناس من اتقاه الناس لشره ويبذل له الرغائب ليحبب إليه شريعته ودين ربه
ويتولى في منزله ما يتولاه الخادم من مهنته ويتسمت في ملائه حتى لا يبدو منه شيء
من أطرافه ويحادث جلساءه بحديث أولهم ويتعجب
مما يتعجبون منه ويضحك مما يضحكون منه قد وسع الناس بشره وعدله لا يستفزه
الغضب ولا يقصر عن الحق ولا يبطن على جلسائه يقول ما كان لنبي أن تكون له
خائنة الأعين. **فإن قلت** فما معنى قوله لعائشة في الداخل عليه بئس ابن العشيرة
فلما دخل ألان له القول وضحك معه فلما سألته عن ذلك قال إن من شر الناس من اتقاه
الناس لشره وكيف جاز أن يظهر له خلاف ما يبطن ويقول في ظهره ما قال
فالجواب أن فعله عليه السلام كان استئلافا لمثله وتطييبا لنفسه ليتمكن إيمانه
ويدخل في الإسلام بسببه أتباعه ويراه مثله فينجذب بذلك إلى الإسلام ومثل
هذا على هذا الوجه قد خرج من حد مداراة الدنيا إلى السياسة الدينية وقد كان يستألفهم
بأموال الله العريضة فكيف بالكلمة اللينة قال صفوان لقد أعطاني وهو أبغض الخلق
إلي فما زال يعطيني حتى صار أحب الخلق إلي. وقوله فيه بعيد زمنه ولا يوثق بجانبه
كل الثقة لا سيما وكان مطاعا متبوعا ومثل هذا إذا كان لضرورة ودفع مضرة
لم يكن بغيبة بل كان جائزا أو واجبا في بعض الأحيان كعادة المحدثين في تجريح
الرواة والمزكين في الشهود. فإن قيل فما معنى المعضل الوارد في حديث بريرة من
قوله عليه السلام لعائشة وقد أخبرته أن موالي بريرة أبوا بيعها إلا أن يكون لهم
الولاء فقال لها عليه السلام اشتريها واشترطي لهم الولاء ففعلت ثم قام خطيبا فقال ما

بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله كل شرط ليس في كتاب الله فهو
باطل فالنبي عليه السلام قد أعلمهم بأن الشرط لمن وعليه باعوا ولولا ذلك والله أعلم لما
باعوا من عائشة كما لم يبيعوها من قبل حتى شرطوا الولاء لهم ثم أبطله عليه
السلام وهو قد حرم الغش والخديعة فاعلم أكرمك الله أن النبي صلى الله عليه وسلم
منزه عما يقع في بال الجاهل من هذا ولتنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ما قد
أنكر قوم هذه الزيادة قوله اشترطي لهم الولاء إذ ليست في أكثر طرق الحديث
ومع ثباتها فلا اعتراض بها إذ تقع لهم بمعنى عليهم قال الله أولئك لهم اللعنة وقال وإن
أسأتم فلها فعلى هذا اشترطي لهم الولاء لك ويكون قيام النبي ووعظه لما سلف لهم
من شرط الولاء لأنفسهم قبل ذلك . ووجه ثان أن قوله عليه السلام اشترطي لهم
الولاء ليس على معنى الأمر لكن على معنى التسوية والإعلام بأن شرطه لهم لا ينفعهم
بعد بيان النبي لهم قبل أن الولاء لمن أعتق فكأنه قال اشترطي أو لا تشترطي
فإنه شرط غير نافع وإلى هذا ذهب الداودي وغيره وتوبيخ النبي لهم وتقريعهم على
ذلك يدل على علمهم به قبل هذا . الوجه الثالث أن معنى قوله اشترطي لهم الولاء
أي أظهري لهم حكمه وبيني سنته أن الولاء إنما هو لمن أعتق ثم بعد
هذا قام هو صلى الله عليه وسلم مبينا ذلك وموبخا على ما تقدم منهم فيه . فإن قيل
فما معنى فعل يوسف عليه السلام بأخيه إذ جعل السقاية في رحله وأخذه باسم سرقتها
وما جرى على إخوته في ذلك وقوله إنكم لسارقون ولم يسرقوا فاعلم أكرمك الله
أن الآية تدل أن فعل يوسف كان عن أمر الله تعالى لقوله تعالى كذلك كدنا ليوسف
ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله الآية وإذا كان كذلك فلا اعتراض
به كان فيه ما فيه . وأيضا فإن يوسف كان أعلم أخاه بأني أنا أخوك فلا تبتئس
فكان ما جرى عليه بعد هذا من [illegible] وفقه ورغبته وعلى يقين من عقبى الخير له به
وإزاحة السوء والمضرة [illegible] بذلك . وأما قوله أيتها العير إنكم لسارقون فليس من
قول يوسف فيلزم عليه جواب [illegible] لحل شبهه . ولعل قائله إن حسن له التأويل كائنا من

كان يحث على [illegible] ذلك وقد قيل قال ذلك ليعلمهم قبل يوسف وينعم له وقيل
غير هذا ولا يلزم [illegible] نقول للأنبياء ما لم يأت أنهم قالوه حتى يطلب الخلاص منه ولا يلزم
الاعتذار عن زلات غيرهم .

فصل فإن قيل ما الحكمة في إجراء الأمراض
وشدتها عليه وعلى غيره من الأنبياء على جميعهم السلام وما الوجه فيما ابتلاهم الله
به من البلاء وامتحانهم بما امتحنوا به كأيوب ويعقوب ودانيال ويحيى وزكرياء وعيسى
وإبراهيم ويوسف وغيرهم صلوات الله عليهم وهم خيرته من خلقه وأحباؤه وأصفياؤه
فاعلم وفقنا الله وإياك أن أفعال الله تعالى كلها عدل وكلماته جميعها صدق لا مبدل
لكلماته يبتلي عباده كما قال لهم لننظر كيف تعملون وليبلوكم أيكم أحسن عملا
وليعلم الله الذين آمنوا منكم ويعلم الصابرين ولنعلم المجاهدين منكم والصابرين
ونبلو أخباركم فامتحانه إياهم بضروب المحن زيادة في مكانتهم ورفعة في درجاتهم
وأسباب لاستخراج حالات الصبر والرضى والشكر والتسليم والتوكل والتفويض
والدعاء والتضرع منهم وتأكيد البصائر في رحمة الممتحنين والشفقة على المبتلين
وتذكرة لغيرهم وموعظة لسواهم ليتأسوا في البلاء بهم ويتسلوا في المحن بما جرى
عليهم ويقتدوا بهم في الصبر ومحو لهنات فرطت منهم أو غفلات سلفت لهم
ليلقوا الله طيبين مهذبين وليكون أجرهم أكمل وثوابهم أوفر وأجزل . حدثنا القاضي
أبو علي الحافظ حدثنا أبو الحسين الصيرفي وأبو الفضل بن خيرون قالا حدثنا أبو
يعلى البغدادي قال حدثنا أبو علي السنجي حدثنا محمد بن محبوب حدثنا أبو عيسى
الترمذي حدثنا قتيبة حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد
عن أبيه قال قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء قال الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى
الرجل على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه
خطيئة وكما قال تعالى وكأين من نبي قتل معه ربيون [illegible] الآيات الثلاث وعن أبي
هريرة ما يزال البلاء بالمومن في نفسه وولده وماله حتى [illegible] الله وما عليه خطيئة
وعن أنس عنه عليه السلام إذا أراد الله بعبده الخير عجل له [illegible] العقوبة في الدنيا وإذا

ولنبلونكم حتى نعلم

أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة وفي حديث آخر
إذا أحب الله عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه وحكى السمرقندي أن من كان أكرم
على الله تعالى كان بلاؤه أشد لكي يتبين فضله ويستوجب الثواب كما روي عن لقمان
أنه قال يا بني الذهب والفضة يختبران بالنار والمؤمن يختبر بالبلاء. وقد حكي أن
ابتلاء يعقوب بيوسف كان سببه التفاته في صلاته إليه ويوسف نائم محبة له
وقيل بل اجتمع يوماً هو وابنه يوسف على أكل حمل مشوي وهما يضحكان وكان لهم
جار يتيم فشم ريحه واشتهاه وبكى وبكت جدة عجوز له لبكائه وبينهما جدار ولا
علم عند يعقوب وابنه فعوقب يعقوب بالبكاء أسفاً على يوسف إلى أن سالت
حدقتاه وابيضت عيناه من الحزن فلما علم بذلك كان بقية حياته يأمر منادياً
ينادي على سطحه ألا من كان مفطراً فليتغد عند آل يعقوب وعوقب يوسف بالمحنة
التي نص الله عليها. وروي عن الليث أن سبب بلاء أيوب أنه دخل مع أهل قريته
على ملكهم فكلموه في ظلمه وأغلظوا له إلا أيوب فإنه رفق به مخافة على زرعه
فعاقبه الله ببلائه. ومحنة سليمان بما ذكرناه من نيته في كون الحق في جنبة
أصهاره أو للعمل بالمعصية في داره ولا علم عنده وهذا يضاف إليه شدة المرض
والوجع بالنبي عليه السلام قالت عائشة ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على
رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعن عبد الله رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو
يوعك وعكاً شديداً فقلت إنك لتوعك وعكاً شديداً قال أجل إني أوعك كما
يوعك رجلان منكم قلت ذلك أن لك الأجر مرتين قال أجل ذلك كذلك وفي
حديث أبي سعيد أن رجلاً وضع يده على النبي صلى الله عليه وسلم فقال والله ما أطيق
أضع يدي عليك من شدة حماك فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنا معشر الأنبياء
يضاعف لنا البلاء إن كان النبي ليبتلى بالقمل حتى يقتله وإن كان النبي ليبتلى
بالفقر وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء. وعن أنس عنه صلى الله
عليه وسلم إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضى

ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره وقال المفسرون في قوله تعالى من يعمل سوءاً يجز به أن المسلم
يجزى بمصائب الدنيا فتكون له كفارة. وروي هذا عن عائشة وأبي ومجاهد وقال أبو
هريرة عنه عليه السلام من يرد الله به خيراً يصب منه وقال في رواية عائشة
ما من مصيبة تصيب المسلم إلا يكفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها. وقال في
رواية أبي سعيد ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم
حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه. وفي حديث ابن مسعود ما
من مسلم يصيبه أذى إلا حات الله عنه خطاياه كما تحت ورق الشجر وحكمة أخرى
أودعها الله في الأمراض لأجسامهم وتعاقب الأوجاع عليها وشدتها عند مماتهم
لتضعف قوى نفوسهم فيسهل خروجها عند قبضهم وتخف عليهم مؤنة النزع وشدة
السكرات بتقدم المرض وضعف الجسم والنفس لذلك خلاف موت الفجأة وأخذه كما
يشاهد من اختلاف أحوال الموتى في الشدة واللين والصعوبة والسهولة. وقد
قال عليه السلام مثل المؤمن مثل خامة الزرع تفيئها الرياح هكذا وهكذا وفي
رواية أبي هريرة من حيث أتتها الريح تكفؤها فإذا سكنت اعتدلت وكذلك
المؤمن يكفأ بالبلاء ومثل الكافر كمثل الأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله
معناه أن المؤمن مرزأ مصاب بالبلاء والأمراض راض بتصريفه بين أقدار الله منطاع
لذلك لين الجانب برضاه وقلة سخطه كطاعة خامة الزرع وانقيادها للرياح
وتمايلها لهبوبها وترنحها من حيث ما أتتها فإذا أزاح الله عن المؤمن رياح البلايا
واعتدل صحيحاً كما اعتدلت خامة الزرع عند سكون رياح الجو رجع إلى شكر
ربه ومعرفة نعمته عليه برفع بلائه منتظراً رحمته وثوابه عليه فإذا كان بهذه
السبيل لم يصعب عليه مرض الموت ولا نزوله ولا اشتدت عليه سكراته ونزعه
لعادته بما تقدمه من الآلام ومعرفة ما له فيها من الأجر [illegible] نفسه على المصائب
ورقتها وضعفها بتوالي المرض أو شدته والكافر بخلاف [illegible] أنه في غالب حاله
ممتع بصحة جسمه كالأرزة الصماء حتى إذا أراد الله [illegible] قصمه لحينه على غرة

وأخذه بغتة من غير لهف ولا دين يكان موته أشد عليه [illegible] تنبيه
مع قوة نفسه وصحة جسمه أشد ألما وعذابا ولعذاب الآخرة أ[illegible] كانجعاب الآزرة
وكما قال تعالى فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون وكذلك عادة الله في أعدائه كما
قال تعالى فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة
الآية ففجأ جميعهم بالموت على حال عتو وغفلة وصبحهم به على غير استعداد بغتة
ولهذا ما كره السلف موت الفجاءة. ومنه في حديث إبراهيم كانوا يكرهون أخذة كأخذة
الأسف أي الغضب يريد موت الفجاءة. وحكمة ثالثة أن الأمراض نذير الممات وبقدر
شدتها شدة الخوف من نزول الموت فيستعد من أصابته وعلم تعاهدها للقاء ربه
ويعرض عن دار الدنيا الكثيرة الأنكاد ويكون قلبه معلقا بالمعاد فيتنصل من
كل ما يخشى تباعته من قبل الله وقبل العباد ويؤدي الحقوق إلى أهلها وينظر فيما
يحتاج إليه من وصية فيمن يخلفه أو أمر يعهده. ونبينا صلى الله عليه وسلم المغفور
له ما تقدم وما تأخر قد طلب التنصل في مرضه ممن كان له عليه مال أو حق في
بدن وأقاد من نفسه وماله وأمكن من القصاص منه على ما ورد في حديث الفضل وحديث
الوفاة وأوصى بالثقلين بعده كتاب الله وعترته وبالأنصار عيبته ودعا إلى
كتب كتاب لئلا تضل أمته من بعده إما في النص على الخلافة أو الله أعلم بمراده
ثم رأى الإمساك عنه أفضل وخيرا. وهكذا سيرة عباد الله المؤمنين وأوليائه المتقين
وهذا كله يحرمه غالبا الكفار لإملاء الله لهم ليزدادوا إثما وليستدرجهم من حيث
لا يعلمون قال تعالى ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون
توصية ولا إلى أهلهم يرجعون. ولذلك قال عليه السلام في رجل مات فجأة سبحان الله
كأنه على غضب المحروم من حرم وصيته. وقال موت الفجاءة راحة للمؤمن وأخذة
أسف للكافر والفاجر وذلك لأن الموت يأتي المؤمن وهو غالبا مستعد له منتظر
لحلوله فهان أمره عليه كيفما جاء وأفضى إلى راحته من نصب الدنيا وأذاها كما قال
عليه السلام مستريح ومستراح منه وتأتي الكافر والفاجر منيته على غرة

استعداد ولا إنذار ولا مقدمات منذرة مزعجة بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون
ردها ولا هم ينظرون فكان الموت أشد شيء عليه وفراق الدنيا أفظع أمر صدمه وأكره
شيء إليه وإلى هذا المعنى أشار عليه السلام بقوله من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه
ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه.

القسم الرابع في

تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقصه أو سبه عليه السلام **قال القاضي** أبو الفضل
رضي الله عنه قد تقدم من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنبي صلى
الله عليه وسلم وما يتعين له من بر وتوقير وتعظيم وإكرام وبحسب هذا حرم
الله أذاه في كتابه وأجمعت الأمة على قتل متنقصه عليه السلام من المسلمين وسابه
قال الله تعالى إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم
عذابا مهينا. وقال تعالى والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم. وقال تعالى وما
كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند
الله عظيما وقال تعالى في تحريم التعريض له يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا
انظرنا واسمعوا الآية. وذلك أن اليهود كانوا يقولون راعنا يا محمد أي أرعنا سمعك
واسمع منا ويعرضون بالكلمة يريدون الرعونة فنهى الله المؤمنين عن التشبه بهم
وقطع الذريعة بنهي المؤمنين عنها لئلا يتوصل بها الكافر والمنافق إلى سبه والاستهزاء
به. وقيل بل لما فيها من مشاركة اللفظ لأنها عند اليهود بمعنى اسمع لا سمعت. وقيل
بل لما فيها من قلة الأدب وعدم توقير النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه لأنها في لغة
الأنصار بمعنى ارعنا نرعك فنهوا عن ذلك إذ مضمنه أنهم لا يرعونه إلا برعايته
لهم وهو عليه السلام واجب الرعاية بكل حال [illegible] وهذا عليه السلام قد نهى عن
التكني بكنيته فقال تسموا باسمي ولا تكنوا [illegible] صيانة لنفسه وحماية عن
أذاه إذ كان صلى الله عليه وسلم استجاب لرجل نادى [illegible] فقال لم أعنك إنما
دعوت هذا فنهى حينئذ عن التكني بكنيته لئلا يتأذى [illegible] دعوة غيره لمن لم
يدعه. ويجد بذلك المنافقون والمستهزئون ذريعة إلى [illegible] والإزراء به فينادونه

فإذا التفت قالوا إنما أردنا هذا السوا، تعنيتا له واستخفافا بحقه على عادة المجان
والمستهزئين فنهى عليه السلام حمايا لأذاه بكل وجه فحمل محققو العلماء نهيه هذا
على مدة حياته وأجازوه بعد وفاته لارتفاع العلة وللناس في هذا الحديث مذاهب ليس
هذا موضعها وما ذكرناه هو مذهب الجمهور والصواب إن شاء الله وأن ذلك على
طريق توقيره وتعظيمه وعلى سبيل الندب والاستحباب لا على سبيل التحريم. ولذلك
لم ينه عن اسمه لأنه قد كان الله منع من ندائه به بقوله لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم
كدعاء بعضكم بعضا وإنما كان المسلمون يدعونه يا رسول الله ويا نبي الله وقد يدعوه
بكنيته أبا القاسم بعضهم في بعض الأحوال. وقد روي عن أنس عنه عليه السلام
ما يدل على كراهة التسمي باسمه وتنزيهه عن ذلك إذا لم يوقر فقال تسمون أولادكم
محمدا ثم تلعنونهم. وروي أن عمر كتب إلى أهل الكوفة لا يسمى أحد باسم النبي
حكاه أبو جعفر الطبري. وحكى محمد بن سعد أنه نظر إلى رجل اسمه محمد ورجل
يسبه ويقول فعل الله بك يا محمد وصنع فقال عمر لابن أخيه محمد بن زيد بن الخطاب
لا أرى محمدا عليه السلام يسب بك والله لا تدعى محمدا ما دمت حيا وسماه عبد الرحمن
وأراد أن يمنع لهذا أن يسمى أحد بأسماء الأنبياء إكراما لهم بذلك وغير أسماء جماعة
تسموا بأسماء الأنبياء ثم أمسك. والصواب جواز هذا كله بعده عليه السلام
بدليل إطباق الصحابة على ذلك وقد سمى جماعة منهم ابنه محمدا وكناه بأبي القاسم
وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن في ذلك لعلي. وقد أخبر عليه السلام
أن ذلك اسم المهدي وكنيته وقد سمى به النبي عليه السلام محمد بن طلحة ومحمد بن عمرو
ابن حزم ومحمد بن ثابت بن قيس وغير واحد وقال ما ضر أحدكم أن يكون في
بيته محمد ومحمدان وثلاثة. وقد فصلنا الكلام في هذا القسم على ما ينبغي كما قدمنا

الباب [illegible]ول

في بيان ما هو في حقه عليه السلام سب أو نقص من تعريض أو نص. قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه اعلم وفقنا الله وإياك
أن جميع من سب النبي صلى الله عليه وسلم أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو دينه

أو نسبه أو خصلة من خصاله أو عرض به أو شبهه بشيء على طريق السب له أو
الإزراء عليه أو التصغير لشأنه أو الغض منه والعيب له فهو ساب له والحكم فيه
حكم الساب يقتل كما نبينه ولا نستثني فصلا من فصول هذا الباب على هذا المقصد
ولا نمتري فيه تصريحا كان أو تلويحا وكذلك من لعنه أو دعا عليه أو تمنى مضرة له أو
نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام
وهجر ومنكر من القول وزور أو عيره بشيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه أو غمصه
ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه. وهذا كله إجماع من العلماء
وأئمة الفتوى من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى هلم جرا. قال أبو بكر بن المنذر
أجمع عوام أهل العلم على أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم يقتل وممن قال ذلك
مالك بن أنس وأحمد وإسحاق وهو مذهب الشافعي. **قال القاضي** أبو الفضل رضي
الله عنه وهو مقتضى قول أبي بكر الصديق ولا تقبل توبته عند هؤلاء وبمثله
قال أبو حنيفة وأصحابه والثوري وأهل الكوفة والأوزاعي في المسلم لكنهم قالوا
هي ردة. وروى مثله الوليد بن مسلم عن مالك. وحكى الطبري مثله عن أبي حنيفة
وأصحابه فيمن تنقصه صلى الله عليه وسلم أو برئ منه أو كذبه. وقال سحنون
فيمن سبه ذلك ردة كالزندقة. وعلى هذا وقع الخلاف في استتابته وتكفيره
وهل قتله حد أو كفر كما سنبينه في الباب الثاني إن شاء الله ولا نعلم خلافا في
استباحة دمه بين علماء الأمصار وسلف الأمة وقد ذكر غير واحد الإجماع
على قتله وتكفيره وأشار بعض الظاهرية وهو أبو محمد علي بن أحمد الفارسي
إلى الخلاف في تكفير المستخف به والمعروف [illegible] قال محمد بن سحنون أجمع
العلماء أن شاتم النبي المتنقص له كافر والو[illegible] عليه بعذاب الله له وحكمه
عند الأمة القتل ومن شك في كفره و[illegible] إبراهيم بن حسين بن
خالد الفقيه في مثل هذا بقتل خالد بن الوليد مالك بن نو[illegible] عن النبي عليه السلام
صاحبكم. وقال أبو سليمان الخطابي لا أعلم أحدا من ال[illegible] اختلف في وجوب

قتله إذا كان مسلما. وقال ابن القاسم عن مالك في كتاب ابن سحنون والمبسوط والعتبية
وحكاه مطرف عن مالك في كتاب ابن حبيب من سب النبي صلى الله عليه وسلم من
المسلمين قتل ولم يستتب قال ابن القاسم في العتبية أو شتمه أو عابه أو تنقصه
فإنه يقتل وحكمه عند الأمة القتل كالزنديق وقد فرض الله توقيره وبره
وفي المبسوط عن عثمان بن كنانة من شتم النبي صلى الله عليه وسلم من المسلمين
قتل أو صلب حيا ولم يستتب والإمام مخير في صلبه حيا أو قتله. ومن رواية
أبي المصعب وابن أبي أويس سمعنا مالكا يقول من سب رسول الله صلى الله عليه وسلم
أو شتمه أو عابه أو تنقصه قتل مسلما كان أو كافرا ولا يستتاب. وفي كتاب
محمد أخبرنا أصحاب مالك أنه قال من سب النبي أو غيره من النبيين من مسلم أو
كافر قتل ولم يستتب. وقال أصبغ يقتل على كل حال أسر ذلك أو أظهره
ولا يستتاب لأن توبته لا تعرف. وقال عبد الله بن عبد الحكم من سب النبي من
مسلم أو كافر قتل ولم يستتب. وحكى الطبري مثله عن أشهب عن مالك وروى
ابن وهب عن مالك من قال إن رداء النبي ويروى زر النبي صلى الله عليه وسلم وسخ
أراد به عيبه قتل. وقال بعض علمائنا أجمع العلماء على أن من دعا على نبي من الأنبياء
بالويل أو بشيء من المكروه أنه يقتل بلا استتابة. وأفتى أبو الحسن القابسي فيمن قال
في النبي الحمال يتيم أبي طالب بالقتل. وأفتى أبو محمد بن أبي زيد بقتل رجل
سمع قوما يتذاكرون صفة النبي صلى الله عليه وسلم إذ مر بهم رجل قبيح الوجه
واللحية فقال لهم تريدون تعرفون صفته هي في صفة هذا المار في خلقه ولحيته
قال ولا تقبل توبته وقد كذب لعنه الله وليس يخرج من قلب سليم الإيمان. وقال أحمد
ابن أبي سليمان صاحب سحنون من قال إن النبي كان أسود يقتل. وقال في رجل قيل
له لا وحق رسول الله فقال فعل الله برسول الله كذا وذكر كلاما قبيحا فقيل له ما تقول
يا عدو الله فقال أشد من كلامه الأول ثم قال إنما أردت برسول الله العقرب فقال ابن
أبي سليمان للذي سأله اشهد عليه وأنا شريكك يريد في قتله وثواب ذلك

صلى الله عليه وسلم

صلى الله عليه وسلم

قال حبيب بن الربيع لأن ادعاء التأويل في لفظ صراح لا يقبل لأنه امتهان وهو غير
معزر لرسول الله ولا موقر له فوجب إباحة دمه. وأفتى أبو عبد الله بن عتاب في عشار
قال لرجل أد واشك إلى النبي وقال إن سألت أو جهلت فقد جهل وسأل النبي بالقتل
وأفتى فقهاء الأندلس بقتل ابن حاتم المتفقه الطليطلي وصلبه بما شهد عليه من استخفافه
بحق النبي صلى الله عليه وسلم وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم وختن حيدرة
وزعمه أن زهده لم يكن قصدا ولو قدر على الطيبات أكلها إلى أشباه لهذا. وأفتى
فقهاء القيروان وأصحاب سحنون بقتل إبراهيم الفزاري وكان شاعرا متفننا في كثير
من العلوم وكان ممن يحضر مجلس القاضي أبي العباس بن طالب للمناظرة فرفعت
عليه أمور منكرة من هذا الباب في الاستهزاء بالله وأنبيائه ونبينا عليه السلام
فأحضر له القاضي يحيى بن عمر وغيره من الفقهاء وأمر بقتله وصلبه فطعن بالسكين
وصلب منكسا ثم أنزل وأحرق بالنار. وحكى بعض المؤرخين أنه لما رفعت
خشبته وزالت عنها الأيدي استدارت وحولته عن القبلة فكان آية للجميع
وكبر الناس وجاء كلب فولغ في دمه فقال يحيى بن عمر صدق رسول الله صلى
الله عليه وسلم وذكر حديثا عنه عليه السلام أنه قال لا يلغ الكلب في دم مسلم
وقال القاضي أبو عبد الله بن المرابط من قال إن النبي عليه السلام هزم يستتاب
فإن تاب وإلا قتل لأنه تنقص إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصته إذ هو على بصيرة
من أمره ويقين من عصمته. وقال حبيب بن ربيع القروي مذهب مالك وأصحابه
أن من قال فيه عليه السلام ما فيه نقص قتل [illegible] دون استتابة. وقال ابن عتاب الكتاب
والسنة موجبان أن من قصد النبي بأذى أو [illegible] ظا أو تصريحا وإن قل فقتله
واجب فهذا الباب كله مما عده العلماء سبا و[illegible] فقتل قائله لم يختلف في
ذلك متقدمهم ولا متأخرهم وإن اختلفوا في [illegible] على ما أشرنا إليه ونبينه
بعد. وكذلك أقول حكم من غمصه أو عيره برعي [illegible] أو السهو أو النسيان
أو السحر أو ما أصابه من جرح أو هزيمة لبعض جيوشه [illegible] من عدوه أو شدة

من زمنه أو بالقبل إلى نسائه فحكم هذا كله لمن قصد به نقصه القتل وقد مضى من
مذاهب العلماء في ذلك ورواية ما يدل عليه **فصل** في الحجة في إيجاب قتل من سبه
أو عابه عليه السلام فمن القرآن لعنة الله لمؤذيه في الدنيا والآخرة وقرانه تعالى
أذاه بأذاه ولا خلاف في قتل من سب الله وأن اللعن إنما يستوجبه من هو كافر
وحكم الكافر القتل وقال إن الذين يؤذون الله ورسوله الآية وقال في قاتل المؤمن
مثل ذلك فمن لعنته في الدنيا القتل قال الله تعالى ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا
تقتيلا وقال في المحاربين وذكر عقوبتهم ذلك لهم خزي في الدنيا وقد يقع القتل
بمعنى اللعن قال الله تعالى قتل الخراصون قاتلهم الله أي لعنهم الله ولأنه فرق بين
أذاهما وأذى المؤمنين وفي أذى المؤمنين ما دون القتل من الضرب والنكال فكان حكم
مؤذي الله ونبيه أشد من ذلك وهو القتل وقال الله تعالى فلا وربك لا يؤمنون
حتى يحكموك فيما شجر بينهم الآية فسلبه اسم الإيمان عمن وجد في صدره حرجا
من قضائه ولم يسلم له ومن تنقصه فقد ناقض هذا وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا
ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي الآية إلى قوله أن تحبط أعمالكم ولا يحبط
العمل إلا الكفر والكافر يقتل وقال تعالى ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون
هو أذن ثم قال والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم وقال تعالى ولئن سألتهم
ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب إلى قوله كفرتم بعد إيمانكم قال أهل التفسير
كفرتم بقولكم في رسول الله وأما الإجماع فقد ذكرناه وأما الآثار فحدثنا
الشيخ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن غلبون عن الشيخ أبي ذر الهروي إجازة قال حدثنا
أبو الحسن الدارقطني وأبو عمر بن حيوية حدثنا محمد بن نوح حدثنا عبد العزيز
ابن محمد بن الحسن بن زبالة حدثنا عبد الله بن موسى بن جعفر عن علي بن موسى
عن أبيه عن جده عن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن الحسين بن علي عن أبيه أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من سب نبيا فاقتلوه ومن سب أصحابي فاضربوه
وفي الحديث الصحيح أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل كعب بن الأشرف وقوله من

نقصه

علي بن

لكعب بن الأشرف فإنه يؤذي الله ورسوله ووجه إليه من قتله غيلة دون دعوة بخلاف
غيره من المشركين وعلل بأذاه له فدل أن قتله إياه لغير الإشراك بل للأذى وكذلك
قتل أبا رافع قال البراء وكان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعين عليه وكذلك
أمره يوم الفتح بقتل ابن خطل وجاريتيه اللتين كانتا تغنيان بسبه عليه السلام
وفي حديث آخر أن رجلا كان يسبه عليه السلام فقال من يكفيني عدوي فقال
خالد أنا فبعثه النبي صلى الله عليه وسلم فقتله وكذلك أمر بقتل جماعة ممن كان
يؤذيه من الكفار ويسبه كالنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وعهد بقتل
جماعة منهم قبل الفتح وبعده فقتلوا إلا من بادر بإسلامه قبل القدرة عليه وعن
ابن عباس أن أعمى كانت له أم ولد تسب النبي صلى الله عليه وسلم فيزجرها فلا
تنزجر فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي صلى الله عليه وسلم وتشتمه
فقتلها وأعلم النبي بذلك فأهدر دمها وقد روى البزار عن ابن عباس أن عقبة بن
أبي معيط نادى يا معاشر قريش ما لي أقتل من بينكم صبرا فقال له النبي صلى
الله عليه وسلم بكفرك وافترائك على رسول الله وذكر عبد الرزاق أن النبي
صلى الله عليه وسلم سبه رجل فقال من يكفيني عدوي فقال الزبير أنا فبارزه
فقتله الزبير وروي أيضا أن امرأة كانت تسبه عليه السلام فقال من يكفيني
عدوتي فخرج إليها خالد بن الوليد فقتلها وروي أن رجلا كذب على النبي صلى
الله عليه وسلم فبعث عليا والزبير إليه ليقتلاه وروى ابن قانع أن رجلا جاء إلى
النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله سمعت أبي يقول فيك قولا قبيحا
فقتلته فلم يشق ذلك على النبي صلى الله [illegible] وبلغ المهاجر بن أبي أمية
أمير اليمن لأبي بكر رضي الله عنه أن امرأة [illegible] في الردة غنت بسب النبي
صلى الله عليه وسلم فقطع يدها ونزع ثنيتها [illegible] أبا بكر ذلك فقال له لولا
ما فعلت لأمرتك بقتلها لأن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود وعن ابن عباس
هجت امرأة من خطمة النبي صلى الله عليه وسلم فقال [illegible] لي بها فقال رجل من قومها

أنا يا رسول الله فبعثه فقتله فأخبر النبي بذلك فقال لا ينتطح فيها عنزان وفي
حديث أبي برزة الأسلمي كنت يوما جالسا عند أبي بكر الصديق فغضب على رجل
من المسلمين وحكى القاضي إسماعيل وغير واحد من الأئمة في هذا الحديث أنه سب
أبا بكر ورواه النسائي أتيت أبا بكر وقد أغلظ لرجل فرد عليه فقلت يا خليفة
رسول الله دعني أضرب عنقه فقال اجلس فليس ذلك لأحد إلا لرسول الله صلى
الله عليه وسلم قال القاضي أبو محمد بن نصر ولم يخالف عليه أحد فاستدل الأئمة
بهذا الحديث على قتل من أغضب النبي صلى الله عليه وسلم بكل ما أغضبه أو آذاه أو
سبه ومن ذلك كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالكوفة وقد استشاره في قتل
رجل سب عمر فكتب إليه عمر إنه لا يحل قتل امرئ مسلم بسب أحد من الناس
إلا رجل سب رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن سبه فقد حل دمه وسأل الرشيد
مالكا في رجل شتم النبي صلى الله عليه وسلم وذكر له أن فقهاء العراق أفتوه
بجلده فغضب مالك وقال يا أمير المؤمنين ما بقاء الأمة بعد شتم نبيها من شتم الأنبياء
قتل ومن سب أصحاب النبي جلد **قال القاضي** أبو الفضل رضي الله عنه كذا وقع
في هذه الحكاية رواها غير واحد من أصحاب مناقب مالك ومؤلفي أخباره وغيرهم
ولا أدري من هؤلاء الفقهاء بالعراق الذين أفتوا الرشيد بما ذكر وقد ذكرنا مذهب العراقيين
بقتله ولعلهم ممن لم يشهر بعلم أو من لا يوثق بفتواه أو يميل به هواه أو يكون ما
قاله يحمل على غير السب فيكون الخلاف هل هو سب أو غير سب أو يكون رجع وتاب
عن سبه فلم يقله لمالك على أصله وإلا فالإجماع على قتل من سبه كما قدمناه ويدل
على قتله من جهة النظر والاعتبار أن من سبه أو تنقصه عليه السلام فقد ظهرت
علامة مرض قلبه وبرهان سوء طويته وكفره ولهذا ما حكم له كثير من العلماء
بالردة وهي رواية الشاميين عن مالك والأوزاعي وقول الثوري وأبي حنيفة والكوفيين
والقول الآخر أنه دليل على الكفر فيقتل حدا وإن لم يحكم له بالكفر إلا أن يكون
متماديا على قوله غير منكر له ولا مقلع عنه فهذا كافر وقوله إما صريح كفر كالتكذيب

ونحوه أو من كلمات الاستهزاء والذم فإقراره بها وترك توبته عنها دليل استحلاله
لذلك وهو كفر أيضا فهذا كافر بلا خلاف قال الله تعالى في مثله يحلفون بالله ما قالوا
ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم قال أهل التفسير هي قولهم إن كان ما يقول
محمد حقا لنحن شر من الحمير وقيل بل قول بعضهم ما مثلنا ومثل محمد إلا قول القائل
سمن كلبك يأكلك ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ويدل عليه
أيضا أن قائل مثل هذا إن كان مستترا به أن حكمه حكم الزنديق يقتل ولأن لحكم
النبي في الحرمة مزية على أمته وساب الحر من أمته يحد فكانت العقوبة لمن سبه
عليه السلام القتل لعظيم قدره وشفوف منزلته على غيره **فصل** فإن قلت فلم
لم يقتل النبي صلى الله عليه وسلم اليهودي الذي قال له السام عليكم وهذا دعاء عليه
ولا قتل الآخر الذي قال له إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله وقد تأذى النبي صلى
الله عليه وسلم من ذلك وقال قد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر ولا قتل المنافقين
الذين كانوا يؤذونه في أكثر الأحيان فاعلم وفقنا الله وإياك أن النبي صلى
الله عليه وسلم كان أول الإسلام يستألف عليه الناس ويميل قلوبهم إليه ويحبب
إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم ويداريهم ويقول لأصحابه إنما بعثتم ميسرين
ولم تبعثوا منفرين ويقول يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا ويقول لا
يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه وكان صلى الله عليه وسلم يداري الكفار
والمنافقين ويجمل صحبتهم ويغضي عنهم ويحتمل من أذاهم ويصبر على جفائهم
ما لا يجوز لنا اليوم الصبر لهم عليه وكان يرفقهم بالعطاء والإحسان وبذلك
أمره الله فقال ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن
الله يحب المحسنين وقال ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه
ولي حميم وذلك لحاجة الناس للتأليف أول الإسلام وجمع الكلمة عليه فلما استقر
وأظهره الله على الدين كله قتل من قدر عليه واشتهر أمره كفعله بابن خطل
ومن عهد بقتله يوم الفتح ومن أمكنه قتله غيلة من يهود وغيرهم أو غلبة

ممن لم يتمكن تقبل سلطان صحبته والانخراط في جملة متظاهري الإيمان به ممن كان يؤذيه
كابن الأشرف وأبي رافع والنضر وعقبة وكذلك ندر دم جماعة سواهم ككعب
ابن زهير وابن الزبعرى وغيرهما ممن آذاه، حتى ألقوا بأيديهم ولقوه مسلمين وبواطن
المنافقين مستترة وحكمه عليه السلام على الظاهر وأكثر تلك الكلمات إنما كان
يقولها القائل منهم خفية ومع أمثاله ويحلفون عليها إذا نميت وينكرونها ويحلفون
بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكان مع هذا يطمع في فيئتهم ورجوعهم إلى
الإسلام وتوبتهم فيصبر عليه السلام على هناتهم وجفوتهم كما صبر أولو العزم
من الرسل حتى فاء كثير منهم باطنا كما فاء ظاهرا وأخلص سرا كما أظهر جهرا
ونفع الله بعد بكثير منهم وقام منهم للدين وزراء وأعوان وحماة وأنصار كما جاءت
به الأخبار وبهذا أجاب بعض أئمتنا رحمهم الله عن هذا السؤال وقيل لعله لم يثبت
عنه عليه السلام من أقوالهم ما رفع وإنما نقله الواحد ومن لم يصل رتبة الشهادة
في هذا الباب من صبي أو عبد أو امرأة والدماء لا تستباح إلا بعدلين وعلى هذا
يحمل أمر اليهودي في السلام وأنهم لووا به ألسنتهم ولم يبينوه، ألا ترى كيف نبهت
عليه عائشة ولو كان صرح بذلك لم تنفرد بعلمه ولهذا نبه النبي صلى الله
عليه وسلم أصحابه على فعلهم وقلة صدقهم في سلامهم وخيانتهم في ذلك
ليا بألسنتهم وطعنا في الدين فقال إن اليهود إذا سلم أحدهم فإنما يقول السام
عليكم فقولوا عليك وكذلك قال بعض أصحابنا البغداديين إن النبي صلى الله
عليه وسلم لم يقتل المنافقين بعلمه فيهم ولم يأت أنه قامت بينة على نفاقهم فلهذا
تركهم وأيضا فإن الأمر كان سرا وباطنا وظاهرهم الإسلام والإيمان وإن
كان من أهل الذمة بالعهد والجوار والناس قريب عهدهم بالإسلام لم يتميز بعد
الخبيث من الطيب وقد شاع عن المذكورين في العرب كون من يتهم بالنفاق من جملة
المؤمنين وصحابة سيد المرسلين وأنصار الدين بحكم ظاهرهم فلو قتلهم النبي
صلى الله عليه وسلم لنفاقهم وما يبدر منهم وعلمه بما أسروا في أنفسهم لوجد النفر

ما يقول ولارتاب الشارد ولارجف المعاند وارتاع من صحبة النبي صلى الله عليه وسلم والدخول في
الإسلام غير واحد ولزعم الزاعم وظن العدو الظالم أن القتل إنما كان للعداوة
وطلب أخذ الترة. وقد رأيت معنى ما حررته منسوبا إلى مالك بن أنس رحمه الله ولهذا
قال عليه السلام لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه وقال أولئك الذين نهاني الله عن
قتلهم وهذا بخلاف إجراء الأحكام الظاهرة عليهم من حدود الزنا والقتل وشبهه
لظهورها واستواء الناس في علمها وقد قال محمد بن المواز لو أظهر المنافقون نفاقهم
لقتلهم النبي صلى الله عليه وسلم وقاله القاضي أبو الحسن بن القصار. وقال قتادة في
تفسير قوله تعالى لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة
لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا
سنة الله الآية قال معناه إذا أظهروا النفاق. وحكى محمد بن مسلمة في المبسوط
عن زيد بن أسلم أن قوله تعالى يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين نسختها ما كان
قبلها وقال بعض مشايخنا لعل القائل هذه قسمة ما أريد بها وجه الله وقوله اعدل
لم يفهم النبي عليه السلام منه الطعن عليه والتهمة له وإنما رآها من وجه الغلط
في الرأي وأمور الدنيا والاجتهاد في مصالح أهلها فلم ير ذلك سبا ورأى أنه من
الأذى الذي له العفو عنه والصبر عليه فلذلك لم يعاقبه وكذلك يقال في اليهود
إذ قالوا السام عليكم ليس فيه صريح سب ولا دعاء إلا بما لا بد منه من الموت الذي
لا بد من لحاقه جميع البشر وقيل بل المراد تسأمون دينكم والسأم والسآمة الملال
وهذا دعاء على سآمة الدين ليس بصريح سب ولهذا ترجم البخاري على هذا الحديث
باب إذا عرض الذمي أو غيره بسب النبي صلى الله عليه وسلم قال بعض علمائنا وليس هذا بتعريض بالسب
وإنما هو تعريض بالأذى. قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه قد قدمنا أن الأذى
والسب في حقه عليه السلام سواء. وقال القاضي أبو محمد بن نصر محتجا عن هذا الحديث
ببعض ما تقدم ثم قال ولم يذكر في الحديث هل كان هذا اليهودي من أهل العهد والذمة
أو الحرب ولا يترك موجب الأدلة للأمر المحتمل والأولى في ذلك كله والأظهر من هذه

الوجوه مقصد الاستيلاف والمداراة على الدين لعلهم يؤمنون ولذلك ترجم البخاري على
حديث القسمة والخوارج باب من ترك قتال الخوارج للتألف ولئلا ينفر الناس عنه ولما
ذكرنا معناه عن مالك وقررناه قبل وقد صبر عليه السلام لهم على سحره وسمه
وهو أعظم من سبه إلى أن نصره الله عليهم وأذن له في قتل من حينه منهم وإنزالهم من
صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب وكتب على من شاء منهم الجلاء وأخرجهم من ديارهم
وخرب بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين وكاشفهم بالسب فقال يا إخوة القردة والخنازير
وحكم فيهم سيوف المسلمين وأجلاهم عن جوارهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم
لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى **فإن قلت** فقد جاء في الحديث الصحيح
عن عائشة أنه عليه السلام ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط إلا أن تنتهك
حرمة لله فينتقم لله فاعلم أن هذا لا يقتضي أنه لم ينتقم ممن سبه أو آذاه أو كذبه
فإن هذه من حرمات الله التي انتقم منها وإنما يكون ما لا ينتقم منه فيما تعلق بسوء
أدب أو معاملة من القول والفعل في النفس والمال مما لم يقصد فاعله به أذاه لكن مما
جبلت عليه الأعراب من الجفاء والجهل أو جبل عليه البشر من الغفلة كجبذ الأعرابي
إزاره حتى أثر في عنقه وكرفع صوت الآخر عنده وكجحد الأعرابي شراءه منه
فرسه التي شهد فيها خزيمة وكما كان من تظاهر زوجيه عليه وأشباه هذا مما يحسن
الصفح عنه أو يكون هذا مما آذاه به كافر وجاء بعد ذلك إسلامه كعفوه عن اليهودي
الذي سحره وعن الأعرابي الذي أراد قتله وعن اليهودية التي سمته وقد قيل قتلها ومثل
هذا مما بلغه من أذى أهل الكتاب والمنافقين فصفح عنهم رجاء استيلافهم واستيلاف
غيرهم كما قررناه قبل **فصل** قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه تقدم الكلام في قتل
القاصد لسبه والإزراء به وغمصه بأي وجه كان من ممكن أو محال فهذا وجه بين
لا إشكال فيه الوجه الثاني لاحق به في البيان والجلاء وهو أن يكون القائل لما قال في
جهته عليه السلام غير قاصد للسب والإزراء ولا معتقد له ولكنه تكلم في جهته
عليه السلام بكلمة الكفر من لعنه أو سبه أو تكذيبه أو إضافة ما لا يجوز عليه أو نفي

ما يجب له مما هو في حقه عليه السلام نقيصة مثل أن ينسب إليه إتيان كبيرة أو مداهنة
في تبليغ الرسالة أو في حكم بين الناس أو يغض من مرتبته أو شرف نسبه أو وفور
علمه أو زهده أو يكذب بما اشتهر من أمور أخبر بها عليه السلام وتواتر الخبر بها عنه
عن قصد لرد خبره أو يأتي بسفه من القول وقبيح من الكلام ونوع من السب في جهته
وإن ظهر بدليل حاله أنه لم يعتمد ذمه ولم يقصد سبه إما لجهالة حملته على ما قاله
أو لضجر أو سكر اضطره إليه أو قلة مراقبة وضبط للسانه وعجرفة وتهور في كلامه
فحكم هذا الوجه حكم الوجه الأول القتل دون تلعثم إذ لا يعذر أحد في الكفر
بالجهالة ولا بدعوى زلل اللسان ولا بشيء مما ذكرناه إذا كان عقله في فطرته
سليما إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان وبهذا أفتى الأندلسيون على ابن حاتم في نفيه
الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قدمناه وقال محمد بن سحنون في المأسور
يسب النبي صلى الله عليه وسلم في أيدي العدو يقتل إلا أن يعلم تنصره أو إكراهه وعن
أبي محمد بن أبي زيد لا يعذر بدعوى زلل اللسان في مثل هذا وأفتى أبو الحسن القابسي
فيمن شتم النبي صلى الله عليه وسلم في سكره يقتل لأنه يظن به أنه يعتقد هذا
ويفعله في صحوه وأيضا فإنه حد لا يسقطه السكر كالقذف والقتل وسائر
الحدود لأنه أدخله على نفسه لأن من شرب الخمر على علم من زوال عقله به وإتيان
ما ينكر منه فهو كالعامد لما يكون بسببه وعلى هذا ألزمناه الطلاق والعتاق
والقصاص والحدود ولا يعترض على هذا بحديث حمزة وقوله للنبي عليه السلام
وهل أنتم إلا عبيد لأبي قال فعرف النبي صلى الله عليه وسلم أنه ثمل فانصرف لأن الخمر
كانت حينئذ غير محرمة فلم يكن في جنايتها إثم وكان حكم ما يحدث عنها
معفوا عنه كما يحدث من النوم وشرب الدواء المأمون **فصل** الوجه الثالث أن يقصد
إلى تكذيبه فيما قاله وأتى به أو ينفي نبوته أو رسالته أو وجوده أو يكفر به انتقل
بقوله ذلك إلى دين آخر غير ملته أم لا فهذا كافر بإجماع يجب قتله ثم ينظر فإن كان
مصرحا بذلك كان حكمه أشبه بحكم المرتد وقوي الخلاف في استتابته وعلى القول

الآخر لا يسقط القتل عنه توبته لحق النبي صلى الله عليه وسلم إن كان ذكره بنقيصة فيما قاله
من كذب أو غيره وإن كان مستترا بذلك فحكمه حكم الزنديق لا يسقط قتله
التوبة عندنا كما سنبينه. قال أبو حنيفة وأصحابه من برئ من محمد أو كذب به فهو
مرتد حلال الدم إلا أن يرجع. وقال ابن القاسم في المسلم إذا قال إن محمدا ليس بنبي
أو لم يرسل أو لم ينزل عليه قرآن وإنما هو شيء تقوله يقتل. قال ومن كفر برسول الله
صلى الله عليه وسلم وأنكره من المسلمين فهو بمنزلة المرتد وكذلك من أعلن بتكذيبه
أنه كالمرتد يستتاب. وكذلك قال فيمن تنبأ وزعم أنه يوحى إليه. وقاله سحنون. وقال
ابن القاسم دعا إلى ذلك سرا أو جهرا. قال أصبغ وهو كالمرتد لأنه قد كفر بكتاب
الله مع الفرية على الله. وقال أشهب في يهودي تنبأ أو زعم أنه أرسل إلى الناس
أو قال بعد نبيكم نبي إنه يستتاب إن كان معلنا بذلك فإن تاب وإلا قتل وذلك
لأنه مكذب للنبي صلى الله عليه وسلم في قوله لا نبي بعدي مفتر على الله تعالى
في دعواه عليه الرسالة والنبوة. وقال محمد بن سحنون من شك في حرف مما جاء
به محمد صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى فهو كافر جاحد. وقال من كذب النبي
صلى الله عليه وسلم كان حكمه عند الأمة القتل. وقال أحمد بن أبي سليمان صاحب
سحنون من قال إن النبي صلى الله عليه وسلم أسود قتل. لم يكن عليه السلام بأسود
وقال نحوه أبو عثمان الحداد. وقال لو قال إنه مات قبل أن يلتحي أو إنه كان بتاهرت
ولم يكن بتهامة قتل لأن هذا نفي. قال حبيب بن ربيع تبديل صفته ومواضعه كفر
والمظهر له كافر وفيه الاستتابة والمسر له زنديق يقتل دون استتابة.

فصل الوجه الرابع أن يأتي من الكلام بمجمل ويلفظ من القول بمشكل يمكن حمله
على النبي أو غيره أو يتردد في المراد به من سلامته من المكروه أو شره فههنا متردد
النظر وحيرة العبر ومظنة اختلاف المجتهدين ووقفة استبراء المقلدين ليهلك من
هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة فمنهم من غلب حرمة النبي صلى الله عليه
وسلم وحمى حمى عرضه فجسر على القتل ومنهم من عظم حرمة الدم ودرأ الحد بالشبهة

لاحتمال القول. وقد اختلف أيضا في رجل أغضبه غريمه فقال له صل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم
فقال له الطالب لا صلى الله على من صلى عليه. فقيل لسحنون هل هو كمن شتم النبي صلى
الله عليه وسلم أو شتم الملائكة الذين يصلون عليه قال لا إذا كان على ما وصفت من
الغضب لأنه لم يكن مضمرا الشتم. وقال أبو إسحاق البرقي وأصبغ بن الفرج لا يقتل
لأنه إنما شتم الناس وهذا نحو قول سحنون لأنه لم يعذره بالغضب في شتم النبي صلى
الله عليه وسلم ولكنه لما احتمل الكلام عنده ولم تكن معه قرينة تدل على سب
النبي صلى الله عليه وسلم أو شتم الملائكة صلوات الله عليهم ولا مقدمة يحمل عليها
كلامه بل القرينة تدل على أن مراده الناس غير هؤلاء لأجل قول الآخر له صل على
النبي فحمل قوله وسبه لمن يصلي عليه الآن لأجل أمر الآخر له بهذا عند غضبه. هذا
معنى قول سحنون وهو مطابق لعلة صاحبيه. وذهب الحارث بن مسكين القاضي
وغيره في مثل هذا إلى القتل. وتوقف أبو الحسن القابسي في قتل رجل قال كل صاحب
فندق قرنان ولو كان نبيا مرسلا فأمر بشده بالقيود والتضييق عليه حتى
تستفهم البينة عن جملة ألفاظه وما يدل على مقصده هل أراد أصحاب الفنادق
الآن فمعلوم أنه ليس فيهم نبي مرسل فيكون أمره أخف. قال ولكن ظاهر
لفظه العموم لكل صاحب فندق من المتقدمين والمتأخرين وقد كان فيمن تقدم من
الأنبياء والرسل من اكتسب المال. قال ودم المسلم لا يقدم عليه إلا بأمر بين
وما ترد إليه التأويلات لا بد من إعمال النظر فيه. هذا معنى كلامه. وحكي عن
أبي محمد بن أبي زيد رحمه الله فيمن قال لعن الله العرب ولعن الله بني إسرائيل ولعن الله
بني آدم وذكر أنه لم يرد الأنبياء وإنما أردت الظالمين منهم أن عليه الأدب بقدر
اجتهاد السلطان. وكذلك أفتى فيمن قال لعن الله من حرم المسكر وقال لم أعلم
من حرمه وفيمن لعن حديث لا يبع حاضر لباد ولعن ما جاء به أنه إن كان يعذر
بالجهل وعدم معرفة السنن فعليه الأدب الوجيع وذلك أن هذا لم يقصد بظاهر
حاله سب الله تعالى ولا سب رسوله عليه السلام وإنما لعن من حرمه من الناس

على نحو ما يعزرون وأدبا به في المسألة المتقدمة. ومثل هذا ما يعتري في كلام
سفهاء الناس من قول بعضهم لبعض يا ابن ألف خنزير ويا ابن مائة كلب وشبهه من
هجر القول ولا شك أنه يدخل في مثل هذا العدد من آبائه وأجداده جماعة من الأنبياء
ولعل بعض هذا العدد منقطع إلى آدم عليه السلام فينبغي الزجر عنه وتبيين ما
جهل قائله منه وشدة الأدب فيه ولو علم أنه قصد سب من في آبائه من الأنبياء على
علم لقتل. وقد يضيق القول في نحو هذا لو قال لرجل هاشمي لعن الله بني هاشم
وقال أردت الظالمين منهم أو قال لرجل من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم قولا قبيحا
في آبائه أو من نسله أو ولده على علم منه أنه من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم
ولم تكن قرينة في المسألتين تقتضي تخصيص بعض آبائه وإخراج النبي ممن سبه منهم

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: وقد كان اختلف شيوخنا رحمهم الله
فيمن قال لشاهد شهد عليه بشيء ثم قال له تتهمني فقال له الآخر الأنبياء يتهمون
فكيف أنت. فكان شيخنا أبو إسحاق بن جعفر يرى قتله لبشاعة ظاهر اللفظ
وكان القاضي أبو محمد بن منصور يتوقف عن القتل لاحتمال اللفظ عنده أن يكون
خبرا عمن اتهمهم من الكفار وأفتى فيها قاضي قرطبة أبو عبد الله بن الحاج بنحو من
هذا وشدد القاضي أبو محمد تصفيده وأطال سجنه ثم استحلفه بعد على تكذيب
ما شهد به عليه إذ دخل في شهادة بعض من شهد عليه وهن ثم أطلقه. وشاهدت
شيخنا القاضي أبا عبد الله محمد بن عيسى أيام قضائه أتي برجل هاتر رجلا
اسمه محمد ثم قصد إلى كلب فضربه برجله وقال له قم يا محمد فأنكر الرجل أن يكون
قال ذلك وشهد عليه لفيف من الناس فأمر به إلى السجن وتقصى عن حاله وهل يصحب
من يستراب بدينه فلما لم يجد ما يقوي الريبة باعتقاده ضربه بالسوط
وأطلقه.

فصل الوجه الخامس أن لا يقصد نقصا ولا يذكر عيبا ولا سبا لكنه
ينزع بذكر بعض أوصافه أو يستشهد ببعض أحواله الجائزة عليه في الدنيا على
طريق ضرب المثل والحجة لنفسه أو لغيره أو على التشبه به أو عند هضيمة نالته

أو غضاضة لحقته ليس على سبيل التأسي وطريق التحقيق بل على مقصد الترفيع
لنفسه أو لغيره أو على سبيل التمثيل وعدم التوقير لنبيه أو قصد الهزل والتندير بقوله
كقول القائل إن قيل في السوء فقد قيل في النبي وإن كذبت فقد كذب الأنبياء وإن
أذنبت فقد أذنبوا وأنا أسلم من ألسنة الناس ولم يسلم منهم أنبياء الله ورسله أو قد
صبرت كما صبر أولو العزم من الرسل أو كصبر أيوب أو قد صبر نبي الله عن عداه
وحلم على أكثر مما صبرت. وكقول المتنبي:

أنا في أمة تداركها الله ... غريب كصالح في ثمود

ونحوه من أشعار المتعجرفين في القول والمتساهلين في الكلام كقول المعري:

كنت موسى وافته بنت شعيب ... غير أن ليس فيكما من فقير

على أن آخر البيت شديد وداخل في باب الإزراء والتحقير بالنبي وتفضيل حال غيره عليه. وكذلك قوله:

لولا انقطاع الوحي بعد محمد ... قلنا محمد من أبيه بديل
هو مثله في الفضل إلا أنه ... لم يأته برسالة جبريل

فصدر البيت الثاني من هذا الفصل شديد لتشبيهه غير النبي في فضله بالنبي والعجز محتمل لوجهين أحدهما أن
هذه الفضيلة نقصت الممدوح والآخر استغناؤه عنها وهذه أشد. ونحو منه قول الآخر:

وإذا ما رفعت راياته ... صفقت بين جناحي جبرين

وقول الآخر من أهل العصر:

فر من الخلد واستجار بنا ... فصبر الله قلب رضوان

وكقول حسان المصيصي من شعراء الأندلس في محمد بن عباد المعروف بالمعتمد ووزيره أبي بكر بن زيدون:

كأن أبا بكر أبو بكر الرضى ... وحسان حسان وأنت محمد

إلى أمثال هذا. وإنما
كثرنا بشاهدها مع استثقالنا حكايتها لتعريف أمثلتها ولتساهل كثير من الناس
في ولوج هذا الباب الضنك واستخفافهم فادح هذا العبء وقلة علمهم بعظيم ما
فيه من الوزر وكلامهم فيه بما ليس لهم به علم ويحسبونه هينا وهو عند الله عظيم
لا سيما الشعراء وأشدهم فيه تصريحا وللسانه تسريحا ابن هانئ الأندلسي وابن سليمان
المعري بل قد خرج كثير من كلامهما عن هذا إلى حد الاستخفاف والنقص وصريح الكفر

وقد أجبنا عنه وعرضنا الآن الكلام في هذا الفصل الذي سقنا أمثلته بأن هذه
كلها وإن لم تتضمن سبًّا ولا أضافت إلى الأنبياء ولا الملائكة نقصًا ولست أعني عجزي
بيتي المعري ولا قصد قائلها إزراء وغضًّا فما وقّر النبوة ولا عظّم الرسالة ولا عزّر حرمة
الاصطفاء ولا عزّز حظوة الكرامة حين شبّه من شبّه في كرامة نالها أو معرّة
قصد الانتفاء منها أو ضرب مثل لتطييب مجلسه أو إغلاء في وصف لتحسين كلامه
بمن عظّم الله خطره وشرّف قدره وألزم توقيره وبرّه ونهى عن جهر القول له ورفع
الصوت عنده فحقّ هذا إن دُرئ عنه القتل الأدب والسجن وقوة تعزيره بحسب
شنعة مقاله ومقتضى قبح ما نطق به ومألوف عادته لمثله أو ندوره وقرينة
كلامه أو ندمه على ما سبق منه ولم يزل المتقدمون ينكرون مثل هذا ممن جاء به وقد
أنكر الرشيد على أبي نواس قوله ۝

فإن يك باقي سحر فرعون فيكم ... فإن عصا موسى بكف خصيب

وقال له يا ابن اللخناء أنت المستهزئ بعصا موسى وأمر بإخراجه عن عسكره من ليلته وذكر القتبي
أن مما أُخذ عليه أيضا وكُفّر به أو قارب قوله في محمد الأمين وتشبيهه إياه
بالنبي صلى الله عليه وسلم ۝

تنازع الأحمران الشبه فاشتبها ... خَلقا وخُلقا كما قُدّ الشراكان

وقد أنكروا أيضا عليه قوله ۝

كيف لا يدنيك من أمل ... من رسول الله من نفره

لأن حق الرسول وموجب تعظيمه وإنافة منزلته أن يضاف إليه ولا يضاف فالحكم
في مثل هذا ما بسطناه في طريق الفتيا على هذا المنهج جاءت فتيا إمام مذهبنا مالك
ابن أنس وأصحابه ففي النوادر من رواية ابن أبي مريم عنه في رجل عيّر رجلا بالفقر
فقال تعيّرني بالفقر وقد رعى النبي صلى الله عليه وسلم الغنم فقال مالك قد عرّض بذكر
النبي صلى الله عليه وسلم في غير موضعه أرى أن يؤدّب قال ولا ينبغي لأهل الذنوب
إذا عوتبوا أن يقولوا قد أخطأت الأنبياء قبلنا وقال عمر بن عبد العزيز لرجل
انظر لنا كاتبا يكون أبوه عربيا فقال كاتب له قد كان أبو النبي كافرا فقال جعلت

صلى الله عليه وسلم

رحمه الله

هذا مثلا فعزله وقال لا تكتب لي أبدا وقد كره سحنون أن يصلّى على النبي صلى الله
عليه وسلم عند التعجب إلا على طريق الثواب والاحتساب توقيرا له وتعظيما كما
أمرنا الله ۝ وسئل القابسي عن رجل قال لرجل قبيح كأنه وجه نكير ولرجل عبوس
كأنه وجه مالك الغضبان فقال أي شيء أراد بهذا ونكير أحد فتّاني القبر وهما
ملكان فما الذي أراد أروعٌ دخل عليه حين رآه من وجهه أم عاف النظر إليه لدمامة
خلقه فإن كان هذا فهو شديد لأنه جرى مجرى التحقير والتهوين فهو أشد عقوبة
وليس فيه تصريح بالسب للملك وإنما السب واقع على المخاطب وفي الأدب بالسوط
والسجن نكال للسفهاء وأما ذاكر مالك خازن النار فقد جفا الذي ذكره عندما
أنكر من عبوس الآخر إلا أن يكون المعبّس له يد فيرهب بعبسته فيشبهه القائل
على طريق الذم لهذا في فعله ولزومه في ظلمه صفة مالك الملك المطيع لربه في
فعله فيقول كأنه لله يغضب غضب مالك فيكون أخف وما كان ينبغي له
التعرض لمثل هذا ولو كان أثنى على العبوس بعبسته واحتج بصفة مالك كان
أشد ويعاقب المعاقبة الشديدة وليس في هذا ذمّ للملك ولو قصد ذمه لقُتل وقال
أبو الحسن أيضا في شاب معروف بالخير قال لرجل شيئا فقال له الرجل اسكت فإنك
أمّي فقال الشاب أليس كان النبي أميا فشُنّع عليه مقاله وكفّره الناس وأشفق
الشاب مما قال وأظهر الندم عليه فقال أبو الحسن أما إطلاق الكفر عليه فخطأ
لكنه مخطئ في استشهاده بصفة النبي وكون النبي أميا آية له وكون هذا
أميا نقيصة فيه وجهالة ومن جهالته احتجاجه بصفة النبي صلى الله عليه وسلم
لكنه إذا استغفر وتاب واعترف ولجأ إلى الله فيُترك لأن قوله لا ينتهي إلى حد
القتل وما طريقه الأدب فطوع فاعله بالندم عليه يوجب الكف عنه ونزلت أيضا
مسألة استفتى فيها بعض قضاة الأندلس شيخنا القاضي أبا محمد بن منصور رحمه الله
في رجل تنقّصه آخر بشيء فقال له إنما تريد نقصي بقولك وأنا بشر وجميع البشر
يلحقهم النقص حتى النبي فأفتاه بإطالة سجنه وإيجاع أدبه إذ لم يقصد السب وكان

صلى الله عليه وسلم

بعض علماء الاندلس ابن عتاب بقتله **فصل** الوجه السادس أن يقول القائل ذلك
حاكيا عن غيره وآثرا له عن سواه فهذا ينظر في صورة حكايته وقرينة مقالته
ويختلف الحكم باختلاف ذلك على أربعة وجوه الوجوب والندب والكراهة والتحريم
فإن كان أخبر به على وجه الشهادة والتعريف بقائله والإنكار والإعلام بقوله
والتنفير منه والتجريح له فهذا مما ينبغي امتثاله ويحمد فاعله وكذلك إن حكاه
في كتاب أو في مجلس على طريق الرد له والنقض على قائله والفتيا بما يلزمه وهذا
منه ما يجب ومنه ما يستحب بحسب حالات الحاكي لذلك والمحكي عنه فإن كان
القائل لذلك ممن تصدى لأن يوخذ عنه العلم أو رواية الحديث أو يقطع بحكمه
أو شهادته أو فتياه في الحقوق وجب على سامعه الإشادة بما سمع منه والتنفير
للناس عنه والشهادة عليه بما قاله ووجب على من بلغه ذلك من أئمة المسلمين
إنكاره وبيان كفره وفساد قوله لقطع ضرره عن المسلمين وقياما بحق سيد
المرسلين وكذلك إن كان ممن يعظ العامة أو يودب الصبيان فإن من هذه سريرته
لا يومن على إلقاء ذلك في قلوبهم فيتأكد في هولاء الإيجاب لحق النبي صلى
الله عليه وسلم ولحق شريعته وإن لم يكن القائل بهذه السبيل فالقيام بحق النبي
صلى الله عليه وسلم واجب وحماية عرضه متعين ونصرته عن الأذى حيا وميتا
مستحق على كل مومن لكنه إذا قام بهذا من ظهر به الحق وفصلت به القضية
وبان به الأمر سقط عن الباقين الفرض وبقي الاستحباب في تكثير الشهادة
عليه وعضد التحذير منه وقد أجمع السلف على بيان حال المتهم في الحديث فكيف
بمثل هذا وقد سيل أبو محمد بن أبي زيد عن الشاهد يسمع مثل هذا في حق الله تعالى
أيسعه أن لا يودي شهادته قال إن رجا نفاذ الحكم بشهادته فليشهد وكذلك
إن علم أن الحاكم لا يرى القتل بما شهد به ويرى الاستتابة والأدب فليشهد ويلزمه
ذلك وأما الإباحة لحكاية قوله لغير هذين المقصدين فلا أرى لها مدخلا في الباب
فليس التفكه بعرض النبي صلى الله عليه وسلم والتمضمض بسوء ذكره لأحد لا

ذاكرا ولا آثرا لغير غرض شرعي بمباح وأما للأغراض المتقدمة فمتردد بين
الإيجاب والاستحباب وقد حكى الله تعالى مقالات المفترين عليه وعلى رسله
في كتابه على وجه الإنكار لقولهم والتحذير من كفرهم والوعيد عليه والرد
عليه بما تلاه الله علينا في محكم كتابه وكذلك وقع من أمثاله في أحاديث
النبي الصحيحة على الوجوه المتقدمة وأجمع السلف والخلف من أئمة الهدى على حكايات
مقالات الكفرة والملحدين في كتبهم ومجالسهم ليبينوها للناس وينقضوا شبهها
عليهم وإن كان ورد لأحمد بن حنبل إنكار لبعض هذا على الحرث بن أسد فقد صنع
أحمد مثله في رده على الجهمية والقائلين بالمخلوق وهذه الوجوه السائغة الحكاية عنها
فأما ذكرها على غير هذا من حكاية سبه والإزراء بمنصبه على وجه الحكايات
والأسمار والطرف وأحاديث الناس ومقالاتهم في الغث والسمين ومضاحك المجان
ونوادر السخفاء والخوض في قيل وقال وما لا يعني فكل هذا ممنوع وبعضه أشد
في المنع والعقوبة من بعض فما كان من قائله الحاكي له على غير قصد أو معرفة
بمقدار ما حكاه أو لم تكن عادته أو لم يكن الكلام من البشاعة حيث هو ولم يظهر
على حاكيه استحسانه واستصوابه زجر عن ذلك ونهي عن العودة إليه وإن
قوم ببعض الأدب فهو مستوجب له وإن كان لفظه من البشاعة حيث هو كان
الأدب أشد وقد حكي أن رجلا سأل مالكا عمن يقول القرآن مخلوق فقال
مالك كافر فاقتلوه فقال إنما حكيته عن غيري فقال مالك إنما سمعناه منك
وهذا من مالك رحمه الله على طريق الزجر والتغليظ بدليل أنه لم ينفذ قتله وإن اتهم
هذا الحاكي فيما حكاه أنه اختلقه ونسبه إلى غيره أو كانت تلك عادة له أو ظهر
استحسانه لذلك أو كان مولعا بمثله والاستخفاف له أو التحفظ لمثله وطلبه أو رواية
أشعار هجوه عليه السلام وسبه فحكم هذا حكم الساب نفسه يواخذ بقوله ولا
تنفعه نسبته إلى غيره فيبادر بقتله ويعجل إلى الهاوية أمه وقد قال أبو عبيد
القاسم بن سلام فيمن حفظ شطر بيت مما هجي به النبي صلى الله عليه وسلم فهو كفر

وقد ذكر بعض من ألف في الإجماع إجماع المسلمين على تحريم رواية ما هجي به
النبي صلى الله عليه وسلم وقراءته وكتابته وتركه متى وجد دون محو ورحم الله
أسلافنا المتقين المتحرزين لدينهم فقد أسقطوا من أحاديث المغازي والسير ما كان
هذا سبيله وتركوا روايته إلا أشياء ذكروها يسيرة وغير مستبشعة على نحو
الوجوه الأول ليروا نقمة الله من قائلها وأخذه المفتري عليه بذنبه. وهذا أبو عبيد
القاسم بن سلام رحمه الله قد تحرى فيما اضطر إلى الاستشهاد به من أهاجي أشعار
العرب في كتبه فكنى عن اسم المهجو بوزن اسمه استبراء لدينه وتحفظا من المشاركة
في ذم أحد بروايته أو نشره فكيف بما يتطرق إلى عرض سيد البشر صلى الله
عليه وسلم

فصل الوجه السابع أن يذكر ما يجوز على النبي أو يختلف في جوازه
عليه وما يطرأ من الأمور البشرية به ويمكن إضافتها إليه أو يذكر ما امتحن به
وصبر في ذات الله على شدته من مقاساة أعدائه وأذاهم له ومعرفة ابتداء حاله
وسيرته وما لقيه من بؤس زمنه ومر عليه من معاناة عيشته كل ذلك على طريق
الرواية ومذاكرة العلم ومعرفة ما صحت منه العصمة للأنبياء وما يجوز عليهم فهذا
فن خارج عن هذه الفنون الستة إذ ليس فيه غمص ولا نقص ولا إزراء ولا استخفاف
لا في ظاهر اللفظ ولا في مقصد اللافظ لكن يجب أن يكون الكلام فيه مع أهل العلم
وفهماء طلبة الدين ممن يفهم مقاصده ويحققون فوائده ويجنب ذلك من عساه لا
يفقه أو يخشى به فتنته فقد كره بعض السلف تعليم النساء سورة يوسف لما انطوت
عليه من تلك القصص لضعف معرفتهن ونقص عقولهن وإدراكهن فقد قال عليه
السلام مخبرا عن نفسه باستئجاره لرعاية الغنم في ابتداء حاله وقال ما من نبي
إلا وقد رعى الغنم وأخبرنا الله بذلك عن موسى عليه السلام وهذا لا غضاضة
فيه جملة واحدة لمن ذكره على وجهه بخلاف من قصد به الغضاضة والتحقير
بل كانت عادة جميع العرب نعم في ذلك للأنبياء حكمة بالغة وتدريج الله تعالى
لهم إلى كرامته وتدريب برعايتها لسياسة أممهم من خليقته بما سبق لهم من الكرامة

في الأزل ومتقدم العلم. وكذلك قد ذكر الله تعالى يتمه وعيلته على طريق المنة
عليه والتعريف بكرامته له فذكر الذاكر لها على وجه تعريف حاله والخبر عن مبتدئه
والتعجب من منح الله قبله وعظيم منته عنده ليس فيه غضاضة بل فيه دلالة على
نبوته وصحة دعوته إذ أظهره الله تعالى بعد هذا على صناديد العرب ومن ناوأه من
أشرافهم شيئا فشيئا ونما أمره حتى قهرهم وتمكن من ملك مقاليدهم واستباحة
ممالك كثير من الأمم غيرهم بإظهار الله تعالى له وتأييده بنصره وبالمؤمنين وألف بين
قلوبهم وإمداده بالملائكة المسومين ولو كان ابن ملك أو ذا أشياع متقدمين
لحسب كثير من الجهال أن ذلك موجب ظهوره ومقتضى علوه ولهذا قال هرقل حين
سأل أبا سفيان عنه هل في آبائه من ملك ثم قال ولو كان في آبائه ملك لقلنا رجل
يطلب ملك أبيه وإذ اليتم من صفته وأحد علاماته في الكتب المتقدمة وأخبار
الأمم السالفة وكذا وقع ذكره في كتاب أرمياء وبهذا وصفه ابن ذي يزن لعبد
المطلب وبحيرا لأبي طالب وكذلك إذا وصف بأنه أمي كما وصفه الله به فهي
مدحة له وفضيلة ثابتة فيه وقاعدة معجزته إذ معجزته العظمى من القرآن العظيم
إنما هي متعلقة بطريق المعارف والعلوم مع ما منح صلى الله عليه وسلم وفضل به
من ذلك كما قدمناه في القسم الأول ووجود مثل ذلك من رجل لم يقرأ ولم يكتب
ولم يدارس ولا لقن مقتضى العجب ومنتهى العبر ومعجزة البشر وليس في ذلك نقيصة
إذ المطلوب من الكتابة والقراءة المعرفة وإنما هي آلة لها وواسطة موصلة إليها
غير مرادة في نفسها فإذا حصلت الثمرة والمطلوب استغني عن الواسطة والسبب
والأمية في غيره نقيصة لأنها سبب الجهالة وعنوان الغباوة فسبحان من باين
أمره من أمر غيره وجعل شرفه فيما فيه محطة سواه وحياته فيما فيه هلاك من عداه
هذا شق قلبه وإخراج حشوته كان تمام حياته وغاية قوة نفسه وثبات
روعه وهو فيمن سواه منتهى هلاكه وحتم موته وفنائه وهلم جرا إلى سائر ما روي
من أخباره وسيره وتقلله من الدنيا ومن الملبس والمطعم والمركب وتواضعه ومهنته

بغيته في أموره وحزمه بنيته زهدا ورغبة عن الدنيا وتسويته بين خطيرها وحقيرها
لسرعة فنائها وتقلب أحوالها كل هذا من فضائله ومآثره وشرفه كما
ذكرناه فمن أورد شيئا منها مورده وقصد بها مقصده كان حسنا ومن
أورد ذلك على غير وجهه وعلم منه بذلك سوء قصده لحق بالفصول التي قدمنا
وكذلك ما ورد من أخباره وأخبار سائر الأنبياء عليهم السلام في الأحاديث
مما في ظاهره إشكال يقتضي أمورا لا تليق بهم بحال وتحتاج إلى تأويل
وتردد احتمال فلا يجب أن يتحدث منها إلا بالصحيح ولا يروى منها إلا المعلوم
الثابت ورحم الله مالكا فلقد كره التحدث بمثل ذلك من الأحاديث الموهمة
للتشبيه والمشكلة المعنى وقال ما يدعو الناس إلى التحدث بمثل هذا فقيل له إن
ابن عجلان يحدث بها فقال لم يكن من الفقهاء وليت الناس وافقوه على
ترك الحديث بها وساعدوه على طيها فأكثرها ليس تحته عمل وقد حكي عن
جماعة من السلف بل عنهم على الجملة أنهم كانوا يكرهون الكلام فيما ليس تحته عمل
والنبي صلى الله عليه وسلم أوردها على قوم عرب يفهمون كلام العرب على
وجهه وتصرفاتهم في حقيقته ومجازه واستعارته وبليغه وإيجازه فلم تكن
في حقهم مشكلة ثم جاء من غلبت عليه العجمة وداخلته الأمية فلا يكاد يفهم
من مقاصد العرب إلا نصها وصريحها ولا يتحقق إشاراتها إلى غرض الإيجاز ووحيها
وتبليغها وتلويحها فتفرقوا في تأويلها أو حملها على ظاهرها شذر مذر فمنهم
من آمن به ومنهم من كفر فأما ما لا يصح من هذه الأحاديث فواجب أن لا يذكر
منها شيء في حق الله ولا في حق أنبيائه ولا يتحدث بها ولا يتكلف الكلام على معانيها
والصواب طرحها وترك الشغل بها إلا أن تذكر على وجه التعريف بأنها ضعيفة
المعنى واهية الإسناد وقد أنكر الأشياخ على أبي بكر بن فورك تكلفه الكلام
في مشكله على أحاديث ضعيفة موضوعة لا أصل لها أو منقولة عن أهل الكتاب
الذين يلبسون الحق بالباطل كان يكفيه طرحها ويغنيه عن الكلام عليها التنبيه

على ضعفها إذ المقصود بالكلام على مشكل ما فيها إزالة اللبس بها واجتثاثها من أصلها
وطرحها أكشف للبس وأشفى للنفس **فصل** ومما يجب على المتكلم فيما يجوز
على النبي وما لا يجوز والذاكرين حالاته مما قدمناه في الفصل قبل هذا على طريق
المذاكرة والتعليم أن يلتزم في كلامه عند ذكره عليه السلام وذكر تلك الأحوال
الواجب من توقيره وتعظيمه ويراقب حال لسانه ولا يهمله وتظهر عليه علامات
الأدب عند ذكره فإذا ذكر ما قاساه من الشدائد ظهر عليه الإشفاق والارتماض
والغيظ على عدوه ومودة الفداء للنبي لو قدر عليه والنصرة له لو أمكنته فإذا أخذ
في أبواب العصمة وتكلم على مجاري أعماله وأقواله عليه السلام تحرى أحسن اللفظ
وأدب العبارة ما أمكنه واجتنب بشيع ذلك وهجر من العبارة ما يقبح كلفظة الجهل
والكذب والمعصية فإذا تكلم في الأقوال قال هل يجوز عليه الخلف في القول والإخبار
بخلاف ما وقع عمدا أو غلطا ونحوه من العبارات ويتجنب لفظة الكذب جملة واحدة
وإذا تكلم على العلم قال هل يجوز أن لا يعلم إلا ما علم وهل يمكن أن لا يكون عنده علم
من بعض الأشياء حتى يوحى إليه ولا يقول بجهل لقبح اللفظ وبشاعته وإذا تكلم
في الأفعال قال هل يجوز منه المخالفة في بعض الأوامر والنواهي ومواقعة بعض
الصغائر فهو أولى وآدب من قوله هل يجوز أن يعصي أو يذنب أو يفعل كذا وكذا من
أنواع المعاصي فهذا من حق توقيره عليه السلام وما يجب له من تعزير وإعظام وقد
رأيت بعض العلماء لم يتحفظ من هذا فقبح منه ولم أستصوب عبارته فيه ووجدت
بعض الجائرين قوله لأجل ترك تحفظه في العبارة ما لم يقله وشنع عليه بما يأباه
ويكفر قائله وإذا كان مثل هذا بين الناس مستعملا في آدابهم وحسن معاشرتهم
وخطابهم فاستعماله في حقه عليه السلام أوجب والتزامه آكد فجودة العبارة تقبح
الشيء أو تحسنه وتحريرها وتهذيبها يعظم الأمر أو يهونه ولهذا قال عليه السلام
إن من البيان لسحرا فأما ما أورده على جهة النفي عنه والتنزيه فلا حرج في تسريح
العبارة وتصريحها فيه كقوله لا يجوز عليه الكذب جملة ولا إتيان الكبائر بوجه ولا

التجوز في الحكم على حال، ولكن مع هذا يجب ظهور توقيره وتعظيمه وتعزيره عند
ذكره مجرداً، فكيف عند ذكر مثل هذا، وقد كان السلف تظهر عليهم حالات شديدة
عند مجرد ذكره، كما قدمناه في القسم الثاني، وكان بعضهم يلتزم مثل ذلك عند
تلاوة آي من القرآن حكى الله فيها مقال عداه، ومن كفر بآياته وافترى عليه الكذب، فكان
يخفض بها صوته إعظاماً لربه وإجلالاً له وإشفاقاً من التشبه بمن كفر به ٥

الباب الثاني في حكم سابه وشانئه ومتنقصه ومؤذيه

وعقوبته وذكر استتابته ووراثته **قال القاضي** أبو الفضل رضي الله عنه قد قدمنا
ما هو سب وأذى في حقه عليه السلام وذكرنا إجماع العلماء على قتل فاعل ذلك
وقائله وتخيير الإمام في قتله أو صلبه على ما ذكرناه، وقررنا الحجج عليه ٥
وبعد فاعلم أن مشهور مذهب مالك وأصحابه وقول السلف وجمهور العلماء
قتله حداً لا كفراً إن أظهر التوبة منه، ولهذا لا تقبل عندهم توبته ولا تنفعه
استقالته ولا فيئته كما قدمناه قبل، وحكمه حكم الزنديق ومسر الكفر في هذا
القول، وسواء كانت توبته على هذا بعد القدرة عليه والشهادة على قوله أو جاء
تائباً من قبل نفسه لأنه حد وجب لا تسقطه التوبة كسائر الحدود ٥ قال الشيخ
أبو الحسن القابسي رحمه الله إذا أقر بالسب وتاب منه وأظهر التوبة قتل بالسب
إذ هو حده. وقال أبو محمد بن أبي زيد مثله، وأما ما بينه وبين الله تعالى فتوبته
تنفعه ٥ وقال ابن سحنون من شتم النبي صلى الله عليه وسلم من الموحدين ثم تاب عن
ذلك لم تزل توبته عنه القتل، وكذلك قد اختلف في الزنديق إذا جاء تائباً فحكى
القاضي أبو الحسن بن القصار في ذلك قولين، قال من شيوخنا من قال أقتله بإقراره
لأنه كان يقدر على ستر نفسه فلما اعترف خفنا أنه خشي الظهور عليه فبادر لذلك
ومنهم من قال أقبل توبته لأني أستدل على صحتها بمجيئه فكأنا وقفنا على باطنه
بخلاف من أسرته البينة **قال القاضي** أبو الفضل رضي الله عنه وهذا قول أصبغ
ومسألة ساب النبي أقوى لا يتصور فيها الخلاف على الأصل المتقدم لأنه حق متعلق

للنبي ولأمته بسببه لا تسقطه التوبة كسائر حقوق الآدميين، والزنديق إذا تاب بعد
القدرة عليه فعند مالك والليث وإسحاق وأحمد لا تقبل توبته، وعند الشافعي تقبل
واختلف فيه عن أبي حنيفة وأبي يوسف، وحكى ابن المنذر عن علي بن أبي طالب
يستتاب، قال محمد بن سحنون ولم يزل القتل عن المسلم بالتوبة من سبه عليه السلام
لأنه لم ينتقل من دين إلى غيره، وإنما فعل شيئاً حده عندنا القتل لا عفو فيه لأحد
كالزنديق لأنه لم ينتقل من ظاهر إلى ظاهر، وقال القاضي أبو محمد بن نصر محتجاً
لسقوط اعتبار توبته والفرق بينه وبين من سب الله تعالى على مشهور القول
باستتابته أن النبي بشر والبشر جنس تلحقهم المعرة إلا من أكرمه الله بنبوته
والباري تعالى منزه عن جميع المعايب قطعاً، وليس من جنس تلحق المعرة بجنسه
وليس سبه عليه السلام كالارتداد المقبول فيه التوبة لأن الارتداد معنى ينفرد
به المرتد لا حق فيه لغيره من الآدميين فقبلت توبته، ومن سب النبي تعلق فيه حق
لآدمي فكان كالمرتد يقتل حين ارتداده أو يقذف فإن توبته لا تسقط عنه حد القتل
والقذف، وأيضاً فإن توبة المرتد إذا قبلت لا تسقط ذنوبه من زنى وسرقة وغيرها
ولم يقتل ساب النبي صلى الله عليه وسلم لكفره لكن لمعنى يرجع إلى تعظيم حرمته وزوال
المعرة به وذلك لا تسقطه التوبة **قال القاضي** أبو الفضل رضي الله عنه
يريد والله أعلم لأن سبه لم يكن بكلمة تقتضي الكفر ولكن بمعنى الإزراء والاستخفاف
أو لأن بتوبته وإظهار إنابته ارتفع عنه اسم الكفر ظاهراً والله أعلم بسريرته
وبقي حكم السب عليه. وقال أبو عمران القابسي من سب النبي ثم ارتد عن الإسلام
قتل ولم يستتب لأن السب من حقوق الآدميين التي لا تسقط عن المرتد، وكلام شيوخ
هؤلاء مبني على القول بقتله حداً لا كفراً وهو يحتاج إلى تفصيل، وأما على
رواية الوليد بن مسلم عن مالك ومن وافقه على ذلك ممن ذكرناه وقال به من أهل
العلم فقد صرحوا أنه ردة، قالوا ويستتاب منها فإن تاب نكل وإن أبى قتل
فحكم له بحكم المرتد مطلقاً في هذا الوجه. والوجه الأول أشهر وأظهر لما قدمناه

ونحن نبسط الكلام فيه فنقول من لم يره ردة فهو يوجب القتل فيه حدا وإنما يقول
ذلك مع فصلين إما إنكاره ما شهد به عليه أو إظهاره الإقلاع والتوبة عنه
فنقتله حدا لثبات كلمة الكفر عليه في حق النبي وتحقيره ما عظم الله من حقه
وأجرينا حكمه في ميراثه وغير ذلك حكم الزنديق إذا ظهر عليه وأنكر أو تاب
فإن قيل فكيف تثبتون عليه الكفر ويشهد عليه بكلمة الكفر ولا تحكمون عليه بحكمه
من الاستتابة وتوابعها قلنا نحن وإن أثبتنا له حكم الكافر في القتل فلا نقطع
عليه بذلك لإقراره بالتوحيد والنبوة وإنكاره ما شهد به عليه أو زعمه أن ذلك
كان منه وهلا ومعصية وأنه مقلع عن ذلك نادم عليه ولا يمتنع إثبات بعض
أحكام الكفر على بعض الأشخاص وإن لم تثبت له خصائصه كقتل تارك الصلاة
وأما من علم أنه سبه معتقدا لاستحلاله فلا شك في كفره بذلك وكذلك إن كان
سبه في نفسه كفرا كتكذيبه أو تكفيره ونحوه فهذا مما لا إشكال فيه ويقتل
وإن تاب منه لأنا لا نقبل توبته ونقتله بعد التوبة حدا لقوله ومتقدم كفره وأمره
بعد إلى الله المطلع على صحة إقلاعه العالم بسره وكذلك من لم يظهر التوبة
واعترف بما شهد به عليه وصمم عليه فهذا كافر بقوله وباستحلاله هتك حرمة
الله وحرمة نبيه يقتل كافرا بلا خلاف فعلى هذه التفصيلات خذ كلام العلماء
ونزل مختلف عباراتهم في الاحتجاج عليها وأجر اختلافهم في الموارثة وغيرها
على ترتيبها تتضح لك مقاصدهم إن شاء الله **فصل** إذا قلنا بالاستتابة حيث
تصح فالاختلاف فيها على الاختلاف في توبة المرتد إذ لا فرق وقد اختلف
السلف في وجوبها وصورتها ومدتها فذهب جمهور أهل العلم إلى أن المرتد يستتاب
وحكى ابن القصار أنه إجماع من الصحابة على تصويب قول عمر في الاستتابة ولم
ينكره واحد منهم وهو قول عثمان وعلي وابن مسعود وبه قال عطاء بن أبي رباح
والنخعي والثوري ومالك وأصحابه والأوزاعي وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي
وذهب طاوس وعبيد بن عمير والحسن في إحدى الروايتين عنه أنه لا يستتاب

والحسن

وحكي عن ... ومحمد بن حسن

وقاله عبد العزيز بن أبي سلمة وذكره عن معاذ وأنكره سحنون عن معاذ وحكاه
الطحاوي عن أبي يوسف وهو قول أهل الظاهر قالوا وتنفعه توبته عند الله ولكن
لا ندرأ القتل عنه لقوله صلى الله عليه وسلم من بدل دينه فاقتلوه وحكي أيضا عن
عطاء إن كان من ولد في الإسلام لم يستتب ويستتاب الإسلامي وجمهور
العلماء على أن المرتد والمرتدة في ذلك سواء وروي عن علي لا تقتل المرتدة وتسترق
وقاله عطاء وقتادة وروي عن ابن عباس لا يقتل النساء في الردة وبه قال أبو
حنيفة وقال مالك والحر والعبد والذكر والأنثى في ذلك سواء وأما مدتها
فمذهب الجمهور وروي عن عمر أنه يستتاب ثلاثة أيام يحبس فيها وقد اختلف
فيه عن عمر وهو أحد قولي الشافعي وقول أحمد وإسحاق واستحسنه مالك وقال
لا يأتي الاستظهار إلا بخير وليس عليه جماعة الناس قال الشيخ أبو محمد بن
أبي زيد يريد في الاستيناء ثلاثا وقال مالك أيضا الذي آخذ به في المرتد قول
عمر يحبس ثلاثة أيام ويعرض عليه كل يوم فإن تاب وإلا قتل وقال أبو الحسن
ابن القصار وفي تأخيره ثلاثا روايتان عن مالك هل ذلك واجب أو مستحب واستحسن
الاستتابة والاستيناء ثلاثا أصحاب الرأي وروي عن أبي بكر الصديق أنه
استتاب امرأة فلم تتب فقتلها وقال الشافعي مرة فقال إن لم يتب قتل مكانه
واستحسنه المزني وقال الزهري يدعى إلى الإسلام ثلاث مرات فإن أبى قتل
وروي عن علي يستتاب شهرين وقال النخعي يستتاب أبدا وبه أخذ الثوري ما
رجيت توبته وحكى ابن القصار عن أبي حنيفة أنه يستتاب ثلاث مرات في
ثلاثة أيام أو ثلاث جمع كل يوم أو جمعة مرة وفي كتاب محمد عن ابن القاسم
يدعى المرتد إلى الإسلام ثلاث مرات فإن أبى ضربت عنقه واختلف على هذا هل
يهدد أو يشدد عليه أيام الاستتابة ليتوب أم لا فقال مالك ما علمت في الاستتابة
تجويعا ولا تعطيشا ويؤتى من الطعام بما لا يضره وقال أصبغ يخوف أيام الاستتابة
بالقتل ويعرض عليه الإسلام وفي كتاب أبي الحسن الطابثي يوعظ في تلك الأيام

ويذكر بالجنة ويخوف بالنار فقال أصبغ وأرى المواضع حبسه فيها من السجون مع الناس
أو وحده إذا استوثق منه سواء ويوقف ماله خيفة أن يتلفه على المسلمين ويطعم منه
وينفق وكذلك يستتاب أبدا كلما رجع وارتد وقد استتاب النبي عليه السلام
نبهان الذي ارتد أربع مرات أو خمسا، قال ابن وهب عن مالك يستتاب أبدا كلما
رجع وهو قول الشافعي وأحمد وقاله ابن القاسم وقال إسحاق يقتل في الرابعة وقال
أصحاب الرأي إن لم يتب في الرابعة قتل دون استتابة وإن تاب ضرب ضربا وجيعا
ولم يخرج من السجن حتى يظهر عليه خشوع التوبة قال ابن المنذر ولا نعلم أحدا
أوجب على المرتد في المرة الأولى أدبا إذا رجع وهو على مذهب مالك والشافعي
والكوفي **فصل** من هذا حكم من ثبت عليه ذلك بما يجب ثبوته من إقرار أو عدول
لم يدفع فيهم فأما من لم تتم الشهادة عليه إنما شهد عليه الواحد أو اللفيف من الناس
أو ثبت قوله لكن احتمل ولم يكن صريحا وكذلك إن تاب على القول بقبول توبته فهذا
يدرأ عنه القتل ويتسلط عليه اجتهاد الإمام بقدر شهرة حاله وقوة الشهادة عليه
وضعفها وكثرة السماع عنه وصورة حاله من التهمة في الدين والنبز بالسفه والمجون
فمن قوي أمره أذاقه من شديد النكال من التضييق في السجن والشد في القيود
إلى الغاية التي هي منتهى طاقته مما لا يمنعه القيام لضرورته ولا يقعده عن
صلاته وهو حكم كل من وجب عليه القتل لكن وقف عن قتله لمعنى أوجبه
وتربص به لإشكال وعائق اقتضاه أمره، وحالات الشدة في نكاله تختلف
بحسب اختلاف حاله، وقد روى الوليد عن مالك والأوزاعي أنها ردة فإذا تاب
نكل ولمالك في العتبية وكتاب محمد من رواية أشهب إذا تاب المرتد فلا عقوبة
عليه وقاله سحنون وأفتى أبو عبد الله بن عتاب فيمن سب النبي صلى الله عليه وسلم
فشهد عليه شاهدان عدل أحدهما بالأدب الموجع والتنكيل والسجن الطويل حتى
تظهر توبته وقال القابسي في مثل هذا ومن كان أقصى أمره القتل فعاق عائق
أشكل في القتل لم ينبغ أن يطلق من السجن ولا يستطال سجنه ولو كان فيه من المدة

فاعسى أن يقيم ويحمل عليه من الغير ما يحيط به وقال في مثله ممن أشكل أمره
بشرب في العيون شرا ويضيق عليه في السجن حتى ينظر فيما يجب عليه. وقال في
مسألة أخرى مثلها ولا تهراق الدماء إلا بالأمر الواضح وفي الأدب بالسوط
والسجن نكال للسفهاء ويعاقب عقوبة شديدة فأما إن لم يشهد عليه سوى
شاهدين فأثبت من عدالتهما أو جرحتهما ما أسقطهما عنه ولم يسمع ذلك من غيرهما
فأمره أخف لسقوط الحكم عنه وكأنه لم يشهد عليه إلا أن يكون ممن يليق
به ذلك ويكون الشاهدان من أهل التبريز فأسقطهما بعداوة فهو وإن لم ينفذ الحكم
عليه بشهادتهما فلا يدفع الظن صدقهما وللحاكم هنا في تنكيله موضع اجتهاد
والله ولي الإرشاد. **فصل** في حكم المسلم فأما الذمي إذا صرح بسبه أو
عرض أو استخف بقدره أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به فلا خلاف عندنا في
قتله إن لم يسلم لأنا لم نعطه الذمة أو العهد على هذا وهو قول عامة العلماء إلا أبا
حنيفة والثوري وأتباعهم من أهل الكوفة فإنهم قالوا لا يقتل لأن ما هو عليه من الشرك
أعظم ولكن يؤدب ويعزر واستدل بعض شيوخنا على قتله بقوله تعالى وإن نكثوا
أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم الآية. ويستدل أيضا عليه بقتل النبي صلى الله عليه وسلم
لابن الأشرف وأشباهه ولأنا لم نعاهدهم ولم نعطهم الذمة على هذا ولا يجوز لنا أن نفعل
ذلك معهم فإذا أتوا ما لم يعطوا عليه العهد ولا الذمة فقد نقضوا ذمتهم وصاروا
أهل حرب يقتلون لكفرهم وأيضا فإن ذمتهم لا تسقط حدود الإسلام عنهم من
القطع في سرقة أموالهم والقتل لمن قتلوه منهم وإن كان ذلك حلالا عندهم فكذا
سبهم للنبي يقتلون به. ووردت لأصحابنا ظواهر تقتضي الخلاف إذا ذكره الذمي
بالوجه الذي كفر به ستقف عليها من كلام ابن القاسم وابن سحنون بعد. وحكى
أبو المصعب الخلاف فيها عن أصحابه المدنيين واختلفوا إذا سبه ثم أسلم فقيل يسقط
إسلامه قتله لأن الإسلام يجب ما قبله بخلاف المسلم إذا سبه ثم تاب لأنا نعلم
باطنه الكافر في بغضه له وتنقصه بقلبه لكنا منعناه من إظهاره فلم يزدنا

ثان

قال القاضي رضي الله عنه

لك

ما أظهر من المخالفة للأمر ونقض للعهد فإذا رجع عن دينه الأول إلى الإسلام سقط
ما قبله قال الله تعالى قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف والمسلم بخلافه
فإذا كان ظننا بباطنه حكم ظاهره وخلاف ما بدا منه الآن فلم يقبل بعد رجوعه
ولا استنمنا إلى باطنه إذ قد بدت سرائره وما ثبت من الأحكام باقية عليه لم يسقطها
شيء. وقيل لا يسقط إسلام الذمي الساب قتله لأنه حق للنبي وجب عليه لانتهاكه
حرمته وقصده إلحاق النقيصة والمعرة به فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالذي
يسقطه كما وجب عليه من حقوق المسلمين من قبل إسلامه من قتل وقذف. وإذا
كنا لا نقبل توبة المسلم فأن لا نقبل توبة الكافر أولى. قال مالك في كتاب ابن
حبيب والمبسوط وابن القاسم وابن الماجشون وابن عبد الحكم وأصبغ فيمن شتم نبيا
من أنبياء الله أو أحدا من الأنبياء قتل إلا أن يسلم وقاله ابن القاسم في العتبية وعند
محمد وابن سحنون وقال سحنون وأصبغ لا يقال له أسلم ولا لا تسلم ولكن إن أسلم فذلك
له توبة. وفي كتاب محمد أخبرنا أصحاب مالك أنه قال من سب رسول الله صلى الله
عليه وسلم أو غيره من النبيين من مسلم أو كافر قتل ولم يستتب. وروي لنا
عن مالك إلا أن يسلم الكافر. وقد روى ابن وهب عن ابن عمر أن راهبا تناول النبي
عليه السلام فقال ابن عمر فهلا قتلتموه. وروى عيسى عن ابن القاسم في ذمي قال
إن محمدا لم يرسل إلينا إنما أرسل إليكم وإنما نبينا موسى أو عيسى ونحو هذا لا شيء
عليهم لأن الله أقرهم على مثله. وأما إن سبه فقال ليس بنبي أو لم يرسل أو لم ينزل
عليه قرآن وإنما هو شيء تقوله ونحو هذا فيقتل. قال ابن القاسم وإذا قال النصراني
ديننا خير من دينكم إنما دينكم دين الحمير ونحو هذا من القبيح أو سمع المؤذن يقول
أشهد أن محمدا رسول الله فقال كذلك يعطيكم الله ففي هذا الأدب الموجع والسجن
الطويل. قال وأما إن شتم النبي شتما يعرف فإنه يقتل إلا أن يسلم قاله مالك
غير مرة ولم يقل يستتاب. قال ابن القاسم ومحمل قوله عندي إن أسلم طائعا. وقال
ابن سحنون في سؤالات سليمان بن سالم في اليهودي يقول للمؤذن إذا تشهد كذبت

المقاصد الشنيعة

يعاقب العقوبة الموجعة مع السجن الطويل. وفي النوادر من رواية سحنون عنه: من
شتم الأنبياء من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي به كفروا ضربت عنقه إلا أن
يسلم. وقال محمد بن سحنون: فإن قيل لم قتلته في سب النبي ومن دينه سبه وتكذيبه
قيل لأنا لم نعطهم العهد على ذلك ولا على قتلنا وأخذ أموالنا فإذا قتل واحدا منا
قتلناه، وإن كان من دينه استحلاله فكذلك إظهاره لسب نبينا. قال سحنون
كما لو بذل لنا أهل الحرب الجزية على إقرارهم على سبه لم يجز لنا ذلك في قول قائل
كذلك ينتقض عهد من سب منهم ويحل لنا دمه وكما لا يحصن الإسلام من سبه
من القتل كذلك لا تحصنه الذمة. **قال القاضي** أبو الفضل رضي الله عنه: ما
ذكره ابن سحنون عن نفسه وأبيه مخالف لقول ابن القاسم فيما خفف عقوبتهم فيه
مما به كفروا فتأمله. ويدل على أنه خلاف ما روي عن المدنيين في ذلك ما حكى
أبو المصعب الزهري قال: أتيت بنصراني قال: والذي اصطفى عيسى على محمد فاختلف
علي فيه فضربته حتى قتلته أو عاش يوما وليلة وأمرت من جر برجله وطرح
على مزبلة فأكلته الكلاب. وسئل أبو المصعب عن نصراني قال: عيسى خلق
محمدا، فقال: يقتل. وقال ابن القاسم: سألنا مالكا عن نصراني بمصر شهد عليه أنه
قال: مسكين محمد يخبركم أنه في الجنة، ما له لم ينفع نفسه إذ كانت
الكلاب تأكل ساقيه، لو قتلوه استراح منه الناس. قال مالك: أرى أن تضرب عنقه
قال: ولقد كدت ألا أتكلم فيها بشيء ثم رأيت أنه لا يسعني الصمت. قال ابن كنانة في
المبسوطة: من شتم النبي من اليهود والنصارى فأرى للإمام أن يحرقه بالنار، وإن
شاء قتله ثم حرق جثته، وإن شاء أحرقه بالنار حيا إذا تهافتوا في سبه. ولقد كتب
إلى مالك من مصر، وذكر مسألة ابن القاسم المتقدمة، قال: فأمرني مالك فكتبت
بأن يقتل وأن تضرب عنقه فكتبت، ثم قلت: يا أبا عبد الله وأكتب ثم يحرق بالنار؟
فقال: إنه لحقيق بذلك وما أولاه به، فكتبته بيدي بين يديه فما أنكره ولا عابه
ونفذت الصحيفة بذلك فقتل وحرق. وأفتى عبيد الله بن يحيى وابن لبابة في

[illegible] رجع عن دينه الأول إلى الإسلام سقط
ما قبله قال الله تعالى: قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف، والمسلم بخلافه
إذ كان يظن بباطنه حكم ظاهره وخلاف ما بدا منه الآن فلم يقبل بعد رجوعه
ولا استنمنا إلى باطنه إذ قد بدت سرائره وما ثبت عليه من الأحكام باقية عليه لم يسقطها
شيء. وقيل لا يسقط إسلام الذمي الساب قتله لأنه حق للنبي وجب لانتهاكه
حرمته وقصده إلحاق النقيصة والمعرة به فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالذي يسقطه
كما وجب عليه من حقوق المسلمين من قبل إسلامه من قتل وقذف وإذا
كنا لا نقبل توبة المسلم فأن لا نقبل توبة الكافر أولى. قال مالك في كتاب ابن
حبيب والمبسوط وابن القاسم وابن الماجشون وابن عبد الحكم وأصبغ فيمن شتم نبينا
من أهل الذمة أو أحدا من الأنبياء قتل إلا أن يسلم. وقاله ابن القاسم في العتبية وعند
محمد وابن سحنون. وقال سحنون وأصبغ: لا يقال له أسلم ولا تسلم ولكن إن أسلم فذلك
له توبة. وفي كتاب محمد: أخبرنا أصحاب مالك أنه قال: من سب رسول الله صلى الله
عليه وسلم أو غيره من النبيين من مسلم أو كافر قتل ولم يستتب. وروي لنا
عن مالك إلا أن يسلم الكافر. وقد روى ابن وهب عن ابن عمر أن راهبا تناول النبي
عليه السلام فقال ابن عمر: فهلا قتلتموه. وروى عيسى عن ابن القاسم في ذمي قال:
إن محمدا لم يرسل إلينا إنما أرسل إليكم وإنما نبينا موسى أو عيسى ونحو هذا لا شيء
عليهم لأن الله أقرهم على مثله. وأما إن سبه فقال: ليس بنبي أو لم يرسل أو لم ينزل
عليه قرآن وإنما هو شيء تقوله ونحو هذا فيقتل. قال ابن القاسم: وإذا قال النصراني
ديننا خير من دينكم إنما دينكم دين الحمير ونحو هذا من القبيح أو سمع المؤذن يقول
أشهد أن محمدا رسول الله فقال: كذلك يعطيكم الله، ففي هذا [illegible]
الطويل. قال: وأما إن شتم النبي شتما يعرف فإنه [illegible]
غير مرة ولم يقل يستتاب. قال ابن القاسم [illegible] وقال
ابن سحنون في سؤالات [illegible]

جماعة سلف أصحابنا الأندلسيين بقتل نصرانية استهلت بنفي الربوبية وبنوة عيسى
لله وتكذيب محمد في النبوة وبقبول إسلامها ودرء القتل عنها به. قال غير واحد
من المتأخرين منهم ابن القابسي وابن الكاتب وقال أبو القاسم بن الجلاب في كتابه من
سب الله ورسوله من مسلم أو كافر قتل ولا يستتاب. وحكى القاضي أبو محمد في الذمي
يسب ثم يسلم روايتين في درء القتل عنه بإسلامه. وقال ابن سحنون وحد القذف وشبهه
من حقوق العباد لا يسقطه عن الذمي إسلامه وإنما يسقط عنه بإسلامه حدود الله
فأما حد القذف فحق للعباد كان ذلك لنبي أو غيره فأوجب على الذمي إذا قذف
النبي ثم أسلم حد القذف ولكن انظر ماذا يجب عليه هل حد القذف في حق النبي
وهو القتل لزيادة حرمة النبي على غيره أم هل يسقط القتل بإسلامه ويحد ثمانين
فتأمله.

فصل في ميراث من قتل بسب النبي وغسله والصلاة عليه

اختلف العلماء في ميراث من قتل بسب النبي عليه السلام فذهب سحنون إلى أنه
لجماعة المسلمين من قبل أن شتم النبي كفر يشبه كفر الزنديق. وقال أصبغ
ميراثه لورثته من المسلمين إن كان مستسرا بذلك وإن كان مظهرا له مستهلا
به فميراثه للمسلمين ويقتل على كل حال ولا يستتاب. قال أبو الحسن بن القابسي
إن قتل وهو منكر للشهادة فالحكم في ميراثه على ما أظهر من إقراره يعني لورثته
والقتل حد ثبت عليه ليس من الميراث في شيء وكذلك لو أقر بالسب وأظهر التوبة
لقتل إذ هو حده وحكمه في ميراثه وسائر أحكامه حكم الإسلام ولو أقر بالسب وتمادى
عليه وأبى التوبة منه فقتل على ذلك كان كافرا وميراثه للمسلمين ولا يغسل ولا
يصلى عليه ولا يكفن وتستر عورته ويوارى كما يفعل بالكفار وقول الشيخ في
المجاهر المتمادي بين لا يمكن الخلاف فيه لأنه كافر مرتد غير تائب ولا مقلع
وهو مثل قول أصبغ وكذلك في كتاب ابن سحنون في الزنديق يتمادى على قوله ومثله
لابن القاسم في العتبية ولجماعة من أصحاب مالك في كتاب ابن حبيب فيمن أعلن كفره
مثله قال ابن القاسم وحكمه حكم المرتد لا ترثه ورثته من المسلمين ولا من أهل الدين

الذي ارتد إليه ولا تجوز وصاياه ولا عتقه وقاله أصبغ قتل على ذلك أو مات عليه. وقال
أبو محمد بن أبي زيد وإنما يختلف في ميراث الزنديق الذي يستهل بالتوبة فلا تقبل منه
فأما المتمادي فلا خلاف أنه لا يورث. وقال أبو محمد فيمن سب الله تعالى ثم مات ولم تعدل عليه
بينة أو لم تقبل إنه يصلى عليه. وروى أصبغ عن ابن القاسم في كتاب ابن حبيب فيمن
كذب برسول الله أو أعلن دينا مما يفارق به الإسلام أن ميراثه للمسلمين وقال بقول مالك
إن ميراث المرتد للمسلمين ولا يرثه ورثته ربيعة والشافعي وأبو ثور وابن أبي ليلى
واختلف فيه عن أحمد. وقال علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن المسيب والحسن
والشعبي وعمر بن عبد العزيز والحكم والأوزاعي والليث وإسحاق وأبو حنيفة
يرثه ورثته من المسلمين وقيل ذلك فيما كسبه قبل ارتداده وما كسبه في الارتداد
فللمسلمين وتفصيل أبي الحسن في باقي جوابه حسن بين وهو على رأي أصبغ
وخلاف قول سحنون واختلافهما على قولي مالك في ميراث الزنديق فورثه ورثته
من المسلمين قامت عليه بذلك بينة فأنكرها أو اعترف بذلك وأظهر التوبة وقاله
أصبغ ومحمد بن مسلمة وغير واحد من أصحابه لأنه مظهر للإسلام بإنكاره أو
توبته وحكمه حكم المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
وروى ابن نافع عنه في العتبية وكتاب محمد أن ميراثه لجماعة المسلمين لأن ماله
تبع لدمه وقال به أيضا جماعة من أصحابه وقاله أشهب والمغيرة وعبد الملك ومحمد وسحنون
وذهب ابن القاسم في العتبية إلى أنه إن اعترف بما شهد عليه به وتاب فقتل فلا
يورث وإن لم يقر حتى قتل أو مات ورث قال وكذلك كل من أسر كفرا فإنهم يتوارثون
بوراثة الإسلام. وسئل أبو القاسم بن الكاتب عن النصراني يسب النبي عليه السلام
فيقتل هل يرثه أهل دينه أم المسلمون فأجاب بأنه للمسلمين ليس على جهة الميراث
لأنه لا توارث بين أهل ملتين ولكن لأنه من فيئهم لنقضه العهد هذا معنى قوله
واختصاره.

الباب الثالث في حكم من سب الله تعالى وملائكته
وأنبياءه وكتبه وآل النبي عليه السلام وأزواجه وصحبه. لا خلاف أن ساب الله

من المسلمين كابن جلال الزم. واختلف في استتابته فقال ابن القاسم في المبسوطة
وكتاب ابن سحنون ومحمد ورواه ابن القاسم عن مالك في كتاب إسحاق بن يحيى من سب
الله تعالى من المسلمين قتل ولم يستتب إلا أن يكون افتراء على الله بارتداده إلى دين
دان به وأظهره فيستتاب وإن لم يظهره لم يستتب. وقال في المبسوطة مطرف
وعبد الملك مثله وقال المخزومي ومحمد بن مسلمة وابن أبي حازم لا يقتل المسلم بالسب
حتى يستتاب وكذلك اليهودي والنصراني فإن تابوا قبل منهم وإن لم يتوبوا
قتلوا ولا بد من الاستتابة وذلك كله كالردة وهو الذي حكاه القاضي ابن نصر
عن المذهب وأفتى أبو محمد بن أبي زيد فيما حكي عنه في رجل لعن رجلا ولعن الله
فقال إنما أردت أن ألعن الشيطان فزل لساني فقال يقتل بظاهر كفره ولا يقبل عذره
وأما فيما بينه وبين الله فمعذور. واختلف فقهاء قرطبة في مسألة هارون بن حبيب
أخي عبد الملك الفقيه وكان ضيق الصدر كثير التبرم وكان قد شهد عليه
بشهادات منها أنه قال عند استقلاله من مرض لقيت في مرضي هذا ما لو قتلت أبا بكر
وعمر لم أستوجب هذا كله. فأفتى إبراهيم بن حسين بن خالد بقتله وأن مضمن قوله
تجوير لله تعالى وتظلم منه والتعريض فيه كالتصريح. وأفتى أخوه عبد الملك بن
حبيب وإبراهيم بن حسين بن عاصم وسعيد بن سليمان القاضي بطرح القتل عنه إلا
أن القاضي رأى عليه التثقيل في الحبس والشدة في الأدب لاحتمال كلامه وصرفه
إلى التشكي. فوجه من قال في ساب الله تعالى بالاستتابة أنه كفر وردة محضة لم يتعلق
بها حق لغير الله فأشبه قصد الكفر بغير سب الله وإظهار الانتقال عن دين إلى
دين آخر من الأديان المخالفة للإسلام. ووجه ترك استتابته أنه لما ظهر منه ذلك
بعد إظهار الإسلام قبل اتهمناه وظننا أن لسانه لم ينطق به إلا وهو معتقد له إذ
لا يتساهل في هذا أحد فحكم له بحكم الزنديق ولم تقبل توبته وإذا انتقل من
دين إلى دين آخر وأظهر السب بمعنى الارتداد فهذا قد أعلم أنه قد خلع ربقة الإسلام
من عنقه بخلاف الأول المستمسك به وحكم هذا حكم المرتد يستتاب على مشهور

مذاهب أكثر أهل العلم وهو مذهب مالك وأصحابه على ما بيناه بتلوه ذكرنا الخلاف
في فصوله. فصل: وأما من أضاف إلى الله تعالى ما لا يليق به ليس على طريق السب
والردة وقصد الكفر ولكن على طريق التأويل والاجتهاد والخطأ المفضي إلى الهوى
والبدعة من تشبيه أو نعت بجارحة أو نفي صفة كمال فهذا مما اختلف السلف والخلف
في تكفير قائله ومعتقده، واختلف قول مالك وأصحابه في ذلك ولم يختلفوا في
قتالهم إذا تحيزوا فئة وأنهم يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا وإنما اختلفوا في المنفرد
منهم فأكثر قول مالك وأصحابه ترك القول بتكفيرهم وترك قتلهم والمبالغة في
عقوبتهم وإطالة سجنهم حتى يظهر إقلاعهم وتستبين توبتهم كما فعل عمر بصبيغ
وهذا قول محمد بن المواز في الخوارج وعبد الملك بن الماجشون وقول سحنون في جميع
أهل الأهواء، وبه فسر قول مالك في الموطأ وما رواه عن عمر بن عبد العزيز
وجده وعمه من قولهم في القدرية يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا. وقال عيسى
عن ابن القاسم في أهل الأهواء من الإباضية والقدرية وشبههم ممن خالف الجماعة
من أهل البدع والتحريف لتأويل كتاب الله يستتابون أظهروا ذلك أو أسروه فإن
تابوا وإلا قتلوا وميراثهم لورثتهم. وقال مثله أيضاً ابن القاسم في كتاب محمد في
أهل القدر وغيرهم، قال واستتابتهم أن يقال لهم اتركوا ما أنتم عليه، ومثله في
المبسوط في الإباضية والقدرية وسائر أهل البدع، قال وهم مسلمون وإنما قتلوا
لرأيهم السوء، قال وبهذا عمل عمر بن عبد العزيز. قال ابن القاسم من قال إن الله لم يكلم
موسى تكليماً استتيب فإن تاب وإلا قتل. وابن حبيب وغيره من أصحابنا يرى
تكفيرهم وتكفير أمثالهم من الخوارج والقدرية والمرجئة. وقد روي أيضاً عن
سحنون مثله فيمن قال ليس لله كلام أنه كافر. واختلفت الروايات عن مالك فأطلق في
رواية الشاميين أبي مسهر ومروان بن محمد الطاطري الكفر عليهم. وقد شوور في
زواج القدري فقال لا تزوجه قال الله: ولعبد مؤمن خير من مشرك. وروي عنه أيضاً
أهل الأهواء كلهم كفار. وقال من وصف شيئاً من ذات الله وأشار إلى شيء من جسده

رضي الله عنه

بيدٍ أو سمعٍ أو بصرٍ فجعله الله جسمًا لأنه شبّه الله بنفسه، وقال بعضهم فيمن قال القرآن مخلوق
كافر فاقتلوه. وقال أيضًا في رواية ابن نافع يُجلد ويوجع ضربًا ويُحبس حتى
يتوب. وفي رواية بشر بن بكر التنيسي عنه يُقتل ولا تُقبل توبته. قال القاضي أبو
عبد الله البرنكاني والقاضي أبو عبد الله التستري من أئمة العراقيين من أصحابنا
جوابه مختلف يقتل المستبصر الداعية، وعلى هذا الخلاف اختلف قوله في إعادة
الصلاة خلفهم. وحكى ابن المنذر عن الشافعي لا يستتاب القدري، وأكثر أقوال
السلف تكفيرهم، وممن قال به الليث وابن عيينة وابن لهيعة روي عنهم ذلك فيمن
قال بخلق القرآن، وقاله ابن المبارك والأودي ووكيع وحفص بن غياث وأبو إسحاق
الفزاري وهشيم وعلي بن عاصم في آخرين، وهو قول أكثر المحدثين والفقهاء والمتكلمين
فيهم وفي الخوارج والقدرية وأهل الأهواء المضلة وأصحاب البدع المتأولين، وهو
قول أحمد بن حنبل، وكذلك قالوا في الواقفة والشاكة في هذه الأصول، وممن روي عنه
معنى القول الآخر بترك تكفيرهم علي بن أبي طالب وابن عمر والحسن البصري، وهو
رأي جماعة من الفقهاء النظار والمتكلمين، واحتجوا بتوريث الصحابة والتابعين
ورثة أهل حروراء ومن عُرف بالقدر ممن مات منهم ودفنهم في مقابر المسلمين وجري
أحكام الإسلام عليهم. قال إسماعيل القاضي وإنما قال مالك في القدرية وسائر أهل
البدع يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا لأنه من الفساد في الأرض كما قال في المحارب
إن رأى الإمام قتله وإن لم يقتل قتله، وفساد المحارب إنما هو في الأموال ومصالح الدنيا
وإن كان قد يدخل أيضًا في أمر الدين من سبيل الحج والجهاد، وفساد أهل البدع معظمه
على الدين وقد يدخل في أمر الدنيا بما يلقون بين المسلمين من العداوة.

فصل

في تحقيق القول في إكفار المتأولين. قد ذكرنا مذاهب السلف في إكفار أصحاب
البدع والأهواء المتأولين ممن قال قولًا يؤديه مساقه إلى كفر هو إذا وقف عليه
لا يقول بما يؤديه قوله إليه، وعلى اختلافهم اختلف الفقهاء والمتكلمون في ذلك، فمنهم
من صوّب التكفير الذي قال به الجمهور من السلف، ومنهم من أباه ولم ير إخراجهم من

سواد المؤمنين، وهو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين، وقال هم فساق عصاة ضلال
ونورثهم من المسلمين ونحكم لهم بأحكامهم، ولهذا قال سحنون لا إعادة على من صلى خلفهم
قال وهو قول جميع أصحاب مالك المغيرة وابن كنانة وأشهب، قال لأنه مسلم وذنبه
لم يخرجه من الإسلام، واضطرب آخرون في ذلك ووقفوا عن القول بالتكفير أو ضده،
واختلاف قولي مالك في ذلك وتوقفه عن إعادة الصلاة خلفهم منه، وإلى نحو من هذا
ذهب القاضي أبو بكر إمام أهل التحقيق والحق، وقال إنها من المعوصات إذ القوم لم
يصرحوا باسم الكفر وإنما قالوا قولًا يؤدي إليه، واضطرب قوله في المسألة على نحو
اضطراب قول إمامه مالك بن أنس حتى قال في بعض كلامه إنهم على رأي من كفرهم بالتأويل
لا تحل مناكحتهم ولا أكل ذبائحهم ولا الصلاة على ميتهم، ويختلف في موارثتهم على الخلاف
في ميراث المرتد، وقال أيضًا نورث ميتهم ورثتهم من المسلمين ولا نورثهم من المسلمين
وأكثر ميله إلى ترك التكفير بالمآل، وكذلك اضطرب فيه قول شيخه أبي الحسن الأشعري
وأكثر قوله ترك التكفير وأن الكفر خصلة واحدة وهو الجهل بوجود الباري،
وقال مرة من اعتقد أن الله جسم أو المسيح أو بعض من يلقاه في الطرق فليس
بعارف به وهو كافر، ولمثل هذا ذهب أبو المعالي رحمه الله في أجوبته لأبي محمد عبد الحق
وكان سأله عن المسألة فاعتذر له بأن الغلط فيها يصعب لأن إدخال كافر في
الملة أو إخراج مسلم عنها عظيم في الدين، وقال غيرهما من المحققين الذي يجب
الاحتراز من التكفير في أهل التأويل فإن استباحة دماء المصلين الموحدين
خطر، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم واحد،
وقد قال عليه السلام فإذا قالوها يعني الشهادة عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها
وحسابهم على الله، فالعصمة مقطوع بها مع الشهادة ولا ترتفع ويستباح خلافها إلا
بقاطع ولا قاطع من شرع ولا قياس عليه، وألفاظ الأحاديث الواردة في الباب
معرضة للتأويل، فما جاء منها في التصريح بكفر القدرية وقوله لا سهم لهم في الإسلام
وتسمية الرافضة بالشرك وإطلاق اللعنة عليهم، وكذلك في الخوارج وغيرهم

من أهل الأهواء فقد يحتج بما أمكن يقول بالتكفير ومن يجيب الآخر عنها بأنه قد
ورد مثل هذه الألفاظ في الحديث في غير الكفرة على طريق التغليظ وكفر دون كفر
وإشراك دون إشراك وقد ورد مثله في الرياء وفي عقوق الوالدين والزوج وغير ذلك
وإذا احتمل اللفظين فلا يقطع على أحدهما إلا بدليل قاطع وقوله في الخوارج هم من شر
البرية وهذه صفة الكفار وقوله شر قتيل تحت أديم السماء طوبى لمن قتلهم أو قتلوه
وقوله فإذا وجدتموهم فاقتلوهم قتل عاد وظاهر هذا الكفر لا سيما مع تشبيههم
بعاد فيحتج به من يرى تكفيرهم فيقول له الآخر إنما ذلك من قتلهم لخروجهم
على المسلمين وبغيهم عليهم بدليله من الحديث نفسه يقتلون أهل الإسلام فقتلهم
هنا حد لا كفر وذكر عاد تشبيه للقتل وحله لا للمقتول وليس كل من حكم
بقتله يحكم بكفره ويعارضه بقول خالد في الحديث دعني أضرب عنقه يا رسول
الله فقال لعله يصلي فإن احتجوا بقوله عليه السلام يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم
فأخبر أن الإيمان لم يدخل قلوبهم وكذلك قوله يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية
ثم لا يعودون إليه حتى يعود السهم على فوقه وبقوله سبق الفرث والدم يدل على أنه
لم يتعلق من الإسلام بشيء أجابه الآخرون أن معنى لا يجاوز حناجرهم لا يفقهون
معانيه بقلوبهم ولا تنشرح له صدورهم ولا تعمل به جوارحهم وعارضهم بقوله
ويتمارى في الفوق وهذا يقتضي التشكك في حاله وإن احتجوا بقول أبي سعيد الخدري
في هذا الحديث سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج في هذه الأمة ولم
يقل من هذه وتحرير أبي سعيد الرواية وإتقانه اللفظ أجابهم الآخرون بأن العبارة
بفي لا تقتضي تصريحا بكونهم من غير الأمة بخلاف لفظة من التي هي للتبعيض وكونهم
من الأمة مع أنه قد روي عن أبي ذر وعلي وأبي أمامة وغيرهم في هذا الحديث يخرج
من أمتي وسيكون من أمتي وحروف المعاني مشتركة فلا تعويل على إخراجهم من الأمة
بفي ولا على إدخالهم فيها بمن لكن أبا سعيد رحمه الله أجاد ما شاء في التنبيه الذي
نبه عليه وهذا مما يدل على سعة فقه الصحابة وتحقيقهم للمعاني واستنباطها من الألفاظ

وتحيّرهم لمالٍ وتوقّفهم في الرواية. هذه المذاهب المعروفة لأهل السنة ولغيرهم من
الفرق فيها مقالات كثيرة مضطربة سخيفة أقربها قول جهم ومحمد بن شبيب أن الكفر
بالله الجهل به لا يكفر أحد بغيره ذلك وقال أبو الهذيل إن كل متأول كان تأويله
تشبيهًا لله بخلقه وتجويرًا له في فعله وتكذيبًا لخبره فهو كافر وكل من أثبت شيئًا
قديمًا لا يقال له الله فهو كافر وكل من أثبت شيئًا قديمًا لا يقال له الله فهو كافر وقول بعض
المتكلمين إن كان ممن عرف الأصل وبنى عليه وكان فيما هو من أوصاف الله فهو كافر
وإن لم يكن من هذا الباب ففاسق إلا أن يكون ممن لم يعرف الأصل فهو مخطئ غير كافر
وذهب عبيد الله بن الحسن العنبري إلى تصويب أقوال المجتهدين في أصول الدين فيما كان عرضة
للتأويل وفارق في ذلك فرق الأمة إذ أجمعوا سواه على أن الحق في أصول الدين في واحد
والمخطئ فيه آثم عاص فاسق وإنما الخلاف في تكفيره وقد حكى القاضي أبو بكر الباقلاني
مثل قول عبيد الله عن داود الأصبهاني قال وحكى قوم عنهما أنهما قالا ذلك في كل من
علم الله من حاله استفراغ الوسع في طلب الحق من أهل ملتنا أو من غيرهم وقال نحو هذا
القول الجاحظ وثمامة في أن كثيرًا من العامة والنساء والبله ومقلدة النصارى واليهود
وغيرهم لا حجة لله عليهم إذ لم تكن لهم طباع يمكن معها الاستدلال وقد نحا الغزالي
قريبًا من هذا المنحى في كتاب التفرقة وقائل هذا كله كافر بالإجماع على كفر
من لم يكفر أحدًا من النصارى أو اليهود وكل من فارق دين المسلمين بالإجماع
على كفر من لم يكفر أحدًا من النصارى أو اليهود وكل من فارق دين المسلمين أو وقف
في تكفيرهم أو شك قال القاضي أبو بكر لأن التوقيف والإجماع على كفرهم فمن
وقف في ذلك فقد كذب النص والتوقيف أو شك فيه والتكذيب والشك فيه لا يقع
إلا من كافر **فصل** في بيان ما هو من المقالات كفر وما يتوقف أو يختلف فيه
وما ليس بكفر اعلم أن تحقيق هذا الفصل وكشف اللبس فيه مورده الشرع ولا مجال
للعقل فيه والفصل البين في هذا أن كل مقالة صرحت بنفي الربوبية أو الوحدانية أو
عبادة أحد غير الله أو مع الله فهي كفر كمقالة الدهرية وسائر فرق أصحاب الاثنين

من الديصانية والمانية وأشباههم من الصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا
بعبادة الأوثان أو الملائكة أو الشياطين أو الشمس أو النجوم أو النار أو أحد غير الله
من مشركي العرب وأهل الهند والصين والسودان وغيرهم ممن لا يرجع إلى كتاب
وكذلك القرامطة وأصحاب الحلول والتناسخ من الباطنية والطيارة من الروافض
وكذلك من اعترف بإلاهية الله ووحدانيته ولكنه اعتقد أنه غير حي أو غير قديم
وأنه محدث أو مصور أو ادعى له ولدا أو صاحبة أو والدا وأنه متولد من شيء أو كائن
عنه أو أن معه في الأزل شيئا قديما غيره أو أن ثم صانعا للعالم سواه أو مدبرا غيره
فذلك كله كفر بإجماع المسلمين كقول الإلاهيين من الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين
وكذلك من ادعى مجالسة الله والعروج إليه ومكالمته أو حلوله في أحد الأشخاص
كقول بعض المتصوفة والباطنية والنصارى والقرامطة وكذلك نقطع على كفر من
قال بقدم العالم أو بقائه أو شك في ذلك على مذهب بعض الفلاسفة والدهرية أو قال
بتناسخ الأرواح وانتقالها أبد الآباد في الأشخاص وتعذيبها أو تنعمها فيها بحسب
زكائها وخبثها وكذلك من اعترف بالإلاهية والوحدانية ولكنه جحد النبوة من
أصلها عموما أو نبوة نبينا خصوصا أو أحد من الأنبياء الذين نص الله عليهم بعد
علمه بذلك فهو كافر بلا ريب كالبراهمة ومعظم اليهود والأروسية من النصارى والغرابية
من الروافض الزاعمين أن عليا كان المبعوث إليه جبريل وكالمعطلة والقرامطة والإسماعيلية
والعنبرية من الرافضة وإن كان بعض هؤلاء قد أشركوا في كفر آخر مع من قبلهم
وكذلك من دان بالوحدانية وصحة النبوة ونبوة نبينا عليه السلام ولكن جوز
على الأنبياء الكذب فيما أتوا به ادعى في ذلك المصلحة بزعمه أو لم يدعها فهو كافر
بإجماع كالمتفلسفين وبعض الباطنية والروافض وغلاة المتصوفة وأصحاب الإباحة
فإن هؤلاء زعموا أن ظواهر الشرع وأكثر ما جاءت به الرسل من الأخبار عما كان
ويكون من أمور الآخرة والحشر والقيامة والجنة والنار ليس منها شيء على مقتضى
لفظها ومفهوم خطابها وإنما خاطبوا بها الخلق على جهة المصلحة لهم إذ لم يمكنهم التصريح

صلى الله عليه وسلم

١٧٢

لقصور افهامهم بمحض هذا لانهم ابطال الشرايع وتعطيل الامر والنواهي وتكذيب
الرسل والارتياب فيما اتوا به وكذلك من اضاف الى نبينا تعمد الكذب فيما بلغه واخبر به
او شك في صدقه او سبه او قال انه لم يبلغ او استخف به او باحد من الانبيا او ازرى عليهم
او اذاهم او قتل نبيا او حاربه فهو كافر باجماع وكذلك نكفر من ذهب مذهب بعض
القدما في ان في كل جنس من الحيوان نذيرا او نبيا من القردة والخنازير والدواب والدود
ويحتج بقوله تعلى وان من امة الا خلا فيها نذير اذ ذلك يودي الى ان توصف انبيا هذه
الاجناس بصفاتهم المذمومة وفيه من الازرا على هذا المنصب المنيف ما فيه مع اجماع
المسلمين على خلافه وتكذيب قايله وكذلك نكفر من اعترف من الاصول الصحيحة
بما تقدم ونبوة نبينا عليه السلام ولكن قال كان اسود او مات قبل ان يلتحي او ليس
الذي كان بمكة والحجاز او ليس بقرشي لان وصفه بغير صفاته المعلومة نفي له وتكذيب
به وكذلك من ادعى نبوة احد مع نبينا عليه السلام او بعده او ادعى نبوة احد معه
كالعيسوية من اليهود القايلين بتخصيص رسالته الى العرب وكالخرمية القايلين بتواتر
الرسل وكاكثر الرافضة القايلين بمشاركة علي في الرسالة للنبي وبعده وكذلك
كل امام عند هولا يقوم مقامه في النبوة والحجة وكالبزيعية والبيانية منهم
القايلين بنبوة بزيع وبيان واشباه هولا او من ادعى النبوة لنفسه او جوز
اكتسابها والبلوغ بصفا القلب الى مرتبتها كالفلاسفة او غلاة المتصوفة وكذلك
من ادعى منهم انه يوحى اليه وان لم يدع النبوة وانه يصعد الى السما ويدخل الجنة
وياكل من ثمارها ويعانق الحور العين فهولا كلهم كفار مكذبون للنبي لانه اخبر
عليه السلام انه خاتم النبيين ولا نبي بعده واخبر عن الله انه خاتم النبيين وانه
ارسل كافة للناس واجمعت الامة على حمل هذا الكلام على ظاهره وان مفهومه المراد
به دون تاويل ولا تخصيص فلا شك في كفر هولا الطوايف كلها قطعا اجماعا وسمعا
وكذلك وقع الاجماع على تكفير كل من دافع نص الكتاب او نص حديث مجمع على نقله
مقطوع به مجمع على حمله على ظاهره كتكفير الخوارج بابطال الرجم ولهذا نكفر

من لم يكفر من دان بغير ملة المسلمين من الملل أو وقف فيهم أو شك أو صحح مذهبهم
وإن أظهر مع ذلك الإسلام واعتقده واعتقد إبطال كل مذهب سواه فهو كافر بإظهاره
ما أظهر من خلاف ذلك. وكذلك نقطع بتكفير كل قائل قال قولا يتوصل به إلى تضليل
الأمة أو تكفير جميع الصحابة كقول الكميلية من الرافضة بتكفير جميع الأمة بعد موت
النبي عليه السلام إذ لم تقدم عليا وكفرت عليا إذ لم يتقدم ويطلب حقه في
التقديم فهؤلاء قد كفروا من وجوه لأنهم أبطلوا الشريعة بأسرها إذ قد انقطع نقلها ونقل
القرآن إذ ناقلوه كفرة على زعمهم وإلى هذا والله أعلم أشار مالك في أحد قوليه
بقتل من كفر الصحابة ثم كفروا من وجه آخر بسبهم النبي على مقتضى قولهم وزعمهم
أنه عهد إلى علي وهو يعلم أنه يكفر بعده على قولهم لعنة الله عليهم. وصلى على رسوله
وآله. وكذلك نكفر بكل فعل أجمع المسلمون أنه لا يصدر إلا من كافر وإن كان
صاحبه مصرحا بالإسلام مع فعله ذلك الفعل كالسجود للصنم أو للشمس والقمر
والصليب والنار والسعي إلى الكنائس والبيع مع أهلها بزيهم من شد الزنانير وفحص
الرؤوس فقد أجمع المسلمون أن هذا لا يوجد إلا من كافر وأن هذه الأفعال علامة على
الكفر وإن صرح فاعلها بالإسلام. وكذلك أجمع المسلمون على تكفير كل من
استحل القتل أو شرب الخمر أو الزنا وسائر ما حرم الله بعد علمه بتحريمه كأصحاب
الإباحة من القرامطة وبعض غلاة المتصوفة وكذلك نقطع بتكفير كل من كذب
وأنكر قاعدة من قواعد الشرع وما عرف يقينا بالنقل المتواتر من فعل الرسول
ووقع الإجماع المتصل عليه كمن أنكر وجوب الخمس الصلوات أو عدد ركعاتها وسجداتها
ويقول إنما أوجب الله علينا في كتابه الصلاة على الجملة وكونها خمسا على هذه
الصفات والشروط لا أعلمه إذ لم يرد فيه في القرآن نص جلي والخبر به عن الرسول
خبر واحد. وكذلك أجمع على تكفير من قال من الخوارج أن الصلاة طرفي النهار
وعلى تكفير الباطنية في قولهم أن الفرائض أسماء رجال أمروا بولايتهم والخبائث والمحارم
أسماء رجال أمروا بالبراءة منهم وقول بعض المتصوفة أن العبادة وطول المجاهدة إذا صفت

نفوسهم أفضت بهم إلى إسقاطها وإباحة كل شيء لهم ورفع عهد الشرائع عنهم. وكذلك
إن أنكر منكر مكة أو البيت أو المسجد الحرام أو صفة الحج وقال الحج واجب في القرآن
واستقبال القبلة كذلك ولكن كونه على هذه الهيئة المتعارفة وأن تلك البقعة
هي مكة والبيت والمسجد الحرام لا أدري هل هي تلك أو غيرها ولعل الناقلين أن النبي
عليه السلام فسرها بهذه التفاسير غلطوا ووهموا فهذا ومثله لا مرية في تكفيره
إن كان ممن يظن به علم ذلك وممن خالط المسلمين وامتدت صحبته لهم إلا أن يكون
حديث عهد بالإسلام فيقال له سبيلك أن تسأل عن هذا الذي لم تعلمه بعد كافة المسلمين
فلا تجد بينهم خلافا كافة عن كافة إلى معاصر الرسول أن هذه الأمور كما قيل لك وأن
تلك البقعة هي مكة والبيت الذي فيها هو الكعبة والقبلة التي صلى إليها الرسول
والمسلمون وحجوا إليه وطافوا به وأن تلك الأفعال هي صفات عبادة الحج والمراد
به وهي التي فعلها النبي والمسلمون وأن صفات الصلوات المذكورة هي التي فعل
النبي عليه السلام وشرح مراد الله بذلك وأبان حدوده فيقع لك العلم كما وقع
لهم ولا ترتاب بذلك بعد والمرتاب في ذلك والمنكر بعد البحث وصحبة المسلمين كافر
باتفاق ولا يعذر بقوله لا أدري ولا يصدق فيه بل ظاهره التستر عن التكذيب إذ لا يمكن
أنه لا يدري وأيضا فإنه إذا جوز على جميع الأمة الوهم والغلط فيما نقلوه من ذلك وأجمعوا
أنه قول الرسول وفعله وتفسير مراد الله به أدخل الاسترابة في جميع الشريعة إذ هم
الناقلون لها وللقرآن وانحلت عرى الدين كرة ومن قال هذا كافر. وكذلك من أنكر
القرآن أو حرفا منه أو غير شيئا منه أو زاد فيه كفعل الباطنية والإسماعيلية أو زعم
أنه ليس بحجة للنبي عليه السلام أو ليس فيه حجة ولا معجزة كقول هشام الفوطي
ومعمر الصيمري أنه لا يدل على الله ولا حجة فيه لرسوله ولا يدل على ثواب ولا عقاب ولا حكم
ولا محالة في كفرهما بذلك القول. وكذلك نكفرهما بإنكارهما أن يكون في سائر معجزات
النبي عليه السلام حجة له أو في خلق السماوات والأرض دليل على الله تعالى لمخالفتهما
الإجماع والنقل المتواتر عن النبي عليه السلام باحتجاجه بهذا كله وتصريح القرآن

به. وكذلك من أنكر شيئاً مما نص الله تعالى فيه بعد علمه أنه من القرآن الذي في أيدي الناس
ومصاحف المسلمين ولم يكن جاهلاً به ولا قريب عهد بالإسلام واحتج لإنكاره
إما بأنه لم يصح النقل عنده ولا بلغه العلم به أو لتجويز الوهم على ناقله فنكفره بالطريقين
المتقدمين لأنه مكذب للقرآن مكذب للنبي عليه السلام لكنه تستر بدعواه. وكذلك
من أنكر الجنة أو النار أو البعث أو الحساب أو القيامة فهو كافر بإجماع للنص عليه وإجماع
الأمة على صحة نقله متواتراً. وكذلك من اعترف بذلك ولكنه قال إن المراد
بالجنة والنار والحشر والنشر والثواب والعقاب معنى غير ظاهره وأنها لذات
روحانية ومعان باطنة كقول النصارى والفلاسفة والباطنية وبعض المتصوفة
وزعمهم أن معنى القيامة الموت أو فناء محض وانتقاض هيئة الأفلاك وتحليل العالم
كقول بعض الفلاسفة. وكذلك نقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم إن الأئمة
أفضل من الأنبياء كما قدمناه. وأما من أنكر ما عرف بالتواتر من الأخبار والسير
والبلاد التي لا ترجع إلى إبطال شريعة ولا تفضي إلى إنكار قاعدة من الدين كإنكار
غزوة تبوك أو وجود أبي بكر وعمر أو قتل عثمان أو خلافة علي مما علم بالنقل ضرورة
وليس في إنكاره جحد شريعة فلا سبيل إلى تكفيره بجحد ذلك وإنكار وقوع العلم
له إذ ليس في ذلك أكثر من المباهتة كإنكار هشام وعباد وقعة الجمل ومحاربة علي
من خالفه. فأما إن ضعف ذلك من أجل تهمة الناقلين ووهم المسلمين أجمع فنكفره
بذلك لسريانه إلى إبطال الشريعة. فأما من أنكر الإجماع المجرد الذي ليس طريقه النقل
المتواتر عن الشرائع فأكثر المتكلمين من الفقهاء والنظار في هذا الباب قالوا بتكفير
كل من خالف الإجماع الصحيح الجامع لشروط الإجماع المتفق عليه عموماً. وحجتهم
قوله تعالى ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى الآية. وقوله عليه السلام
من خالف الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه. وحكوا الإجماع على تكفير
من خالف الإجماع. وذهب آخرون إلى الوقوف عن القطع بتكفير من خالف الإجماع الذي
يختص بنقله العلماء. وذهب آخرون إلى التوقف في تكفير من خالف الإجماع الكائن

عن نظر كتكفير إبراهيم النظام بإنكاره الإجماع لأنه بقوله هذا مخالف إجماع السلف
باحتجاجهم به خارق للإجماع. قال القاضي أبو بكر القول عندي أن الكفر بالله هو الجهل
بوجوده والإيمان بالله هو العلم بوجوده ولا يكفر أحد بقول ولا رأي إلا أن يكون هو الجهل
بالله فإن عصى بقول أو فعل نص الله ورسوله أو أجمع المسلمون أنه لا يوجد إلا من كافر أو
يقوم دليل على ذلك فقد كفر ليس لأجل قوله أو فعله لكن لما يقارنه من الكفر فالكفر
بالله لا يكون إلا بأحد ثلاثة أمور أحدها الجهل بالله تعالى والثاني أن يأتي فعلا أو يقول
قولا يخبر الله ورسوله أو يجمع المسلمون أن ذلك لا يكون إلا من كافر كالسجود للصنم
والمشي إلى الكنائس بالتزام الزنار مع أصحابها في أعيادهم أو يكون ذلك القول أو
الفعل لا يمكن معه العلم بالله قال فهذان الضربان وإن لم يكونا جهلا بالله فهما علم أن
فاعلهما كافر منسلخ من الإيمان فأما من نفى صفة من صفات الله تعالى الذاتية أو جحدها
مستبصرا في ذلك كقوله ليس بعالم ولا قادر ولا مريد ولا متكلم وشبه ذلك من صفات
الكمال الواجبة له تعالى فقد نص أئمتنا على كفر من نفى عنه تعالى الوصف بها وأعراه
عنها وعلى هذا حمل قول سحنون من قال ليس لله كلام فهو كافر وهو لا يكفر المتأولين
كما قدمناه فأما من جهل صفة من هذه الصفات فاختلف العلماء هاهنا فكفره بعضهم
وحكي ذلك عن أبي جعفر الطبري وغيره وقال به أبو الحسن الأشعري مرة وذهبت
طائفة إلى أن هذا لا يخرجه عن اسم الإيمان وإليه رجع الأشعري قال لأنه لم يعتقد
ذلك اعتقادا يقطع بصوابه ويراه دينا وشرعا وإنما يكفر من اعتقد أن مقاله
حق واحتج هؤلاء بحديث السوداء وأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما طلب منها التوحيد
لا غير وبحديث القائل لئن قدر الله علي وفي رواية فيه لعلي أضل الله ثم قال فغفر الله
له قالوا ولو بوحث أكثر الناس عن الصفات وكوشفوا عنها لما وجد من يعلمها إلا
الأقل ومن أجاب عن هذا الحديث بوجوه منها أن قدر بمعنى قدّر ولا يكون شكه
في القدرة على إحيائه بل في نفس البعث الذي لا يعلم إلا بشرع ولعله لم يكن ورد عندهم
به شرع يقطع عليه فيكون الشك فيه حينئذ كفرا فأما ما لم يرد به شرع فهو من مجوزات

١٧٥

المعقول أن يكون فيه بمعنى ضيق ويكون فاعله بنفسه إذ رآه قد غلبها وغضب الغضبان بها
وقيل قال ما قاله وهو غير ضابط للكلام ولا ضابط للفعل مما اشتمل عليه من الجزع والخشية
التي أذهلته فلم يؤاخذ به. وقيل كان هذا في زمن الفترة وحيث ينفع مجرد التوحيد
وقيل بل هذا من مجاز كلام العرب الذي صورته الشك ومعناه التحقيق وهو يسمى تجاهل
العارف وله أمثلة في كلامهم كقوله تعالى لعله يتذكر أو يخشى وقوله وإنا أو إياكم لعلى
هدى أو في ضلال مبين فأما من أثبت الوصف ونفى الصفة فقال أقول عالم ولكن لا علم
له ومتكلم ولكن لا كلام له وهكذا في سائر الصفات على مذهب المعتزلة فمن قال بالمآل
لما يؤديه إليه قوله ويسوقه إليه مذهبه كفّره لأنه إذا نفى العلم انتفى وصف عالم
إذ لا يوصف بعالم إلا من له علم فكأنهم صرحوا عنده بما أدى إليه قولهم وهكذا عند
هذا سائر فرق أهل التأويل من المشبهة والقدرية وغيرهم ومن لم يؤاخذهم بمآل
قولهم ولا ألزمهم موجب مذهبهم لم ير إكفارهم قال لأنهم إذا وقفوا على هذا قالوا لا نقول
ليس بعالم ونحن ننتفي من القول بالمآل الذي ألزمتموه لنا ونعتقد نحن وأنتم أنه كفر
بل نقول إن قولنا لا يؤول إليه على ما أصلناه فعلى هذين المأخذين اختلف الناس في
إكفار أهل التأويل وإذا فهمته اتضح لك الموجب لاختلاف الناس في ذلك والصواب
ترك إكفارهم والإعراض عن الحتم عليهم بالخسران وإجراء حكم الإسلام عليهم في
قصاصهم ووراثاتهم ومناكحاتهم ودياتهم والصلاة عليهم ودفنهم في مقابر المسلمين
وسائر معاملاتهم لكنهم يغلظ عليهم بوجيع الأدب وشديد الزجر والهجر حتى يرجعوا
عن بدعتهم وهذه كانت سيرة الصدر الأول فيهم فقد كان نشأ على زمن الصحابة وبعدهم
في التابعين من قال بهذه الأقوال من القدر ورأي الخوارج والاعتزال فما أزاحوا لهم قبرا
ولا قطعوا لأحد منهم ميراثا لكنهم هجروهم وأدبوهم بالضرب والنفي والقتل على
قدر أحوالهم لأنهم فساق ضلال عصاة أصحاب كبائر عند المحققين وأهل السنة ممن لم
يقل بكفرهم منهم خلافا لمن رأى غير ذلك والله الموفق للصواب. قال القاضي أبو بكر
وأما مسائل الوعد والوعيد والرؤية والمخلوق وخلق الأفعال وبقاء الأعراض والتولد

وشبههما من الزنادقة بين قائليه في إكفار المتأولين وليس بهذا أوضح إذ لا نص في الجملة بشيء منهما جهل
بالله تعالى ولا أجمع المسلمون على إكفار من جهل شيئا منهما ، وقد قدمنا في الفصل قبله من
الكلام وصورة الخلاف في هذا ما أغنى عن إعادته بحول الله تعالى **فصل** في حكم الذمي
الساب لله تعالى ، وأما الذمي فروي عن عبد الله بن عمر في ذمي تناول من حرمة الله تعالى
غير ما هو عليه من دينه وحاج فيه فخرج ابن عمر عليه بالسيف فطلبه فهرب ، وقال
مالك في كتاب ابن حبيب والمبسوطة وابن القاسم في المبسوط وفي كتاب محمد وابن
سحنون من شتم الله من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي به كفروا قتل ولم يستتب
قال ابن القاسم إلا أن يسلم قال في المبسوطة طوعا قال أصبغ لأن الوجه الذي به كفروا
هو دينهم وعليه عوهدوا من دعوى الصاحبة والشريك والولد وأما غير هذا من الفرية
والشتم فلم يعاهدوا عليه فهو نقض للعهد قال ابن القاسم في كتاب محمد ومن شتم من
غير أهل الأديان الله بغير الوجه الذي ذكر في كتابه قتل إلا أن يسلم وقال المخزومي
في المبسوطة ومحمد بن مسلمة وابن أبي حازم لا يقتل حتى يستتاب مسلما كان أو
كافرا فإن تاب وإلا قتل وقال مطرف وعبد الملك مثل قول مالك ، وقال أبو محمد بن أبي زيد
من سب الله تعالى بغير الوجه الذي به كفر قتل إلا أن يسلم وقد ذكرنا قول الجلاب قبل
وذكرنا قول عبيد الله وابن لبابة وشيوخ الأندلسيين في النصرانية وفتياهم بقتلها
لسبها بالوجه الذي كفرت به لله والنبي وإجماعهم على ذلك وهو نحو القول الآخر
فيمن سب النبي منهم بالوجه الذي كفر به ولا فرق في ذلك بين سب الله به وسب
نبيه لأنا عاهدناهم على أن لا يظهروا لنا شيئا من كفرهم ولا يسمعونا شيئا من ذلك
فمتى فعلوا شيئا منه فهو نقض لعهدهم ، واختلف العلماء في الذمي إذا تزندق فقال مالك
ومطرف وابن عبد الحكم وأصبغ لا يقتل لأنه خرج من كفر إلى كفر ، وقال عبد الملك بن
الماجشون يقتل لأنه دين لا يقر عليه أحد ولا تؤخذ عليه جزية ، قال ابن حبيب وما أعلم
من قاله غيره ، **فصل** هذا حكم من صرح بسبه وإضافة ما لا يليق بجلاله وإلهيته
فأما مفتري الكذب عليه تبارك وتعالى بادعاء الإلهية أو الرسالة أو النافي أن يكون

الله خالقه أو ربه أو قال ليس لي رب أو المتكلم بما لا يعقل من ذلك في سكره أو غمرة جنونه
بلا خلاف في كفر قائل ذلك ومدعيه مع سلامة عقله كما قدمناه لكنه تقبل توبته على
المشهور وتنفعه إنابته وتنجيه من القتل فيئته لكنه لا يسلم من عظيم النكال ولا يرفه
عن شديد العقاب ليكون ذلك زجرا لمثله عن قوله وله عن العودة لكفره أو جهله إلا
من تكرر ذلك منه وعرف استهانته بما أتى به فهو دليل على سوء طويته وكذب توبته
وصار كالزنديق لا نأمن باطنه ولا نقبل رجوعه وحكم السكران في ذلك حكم
الصاحي. وأما المجنون والمعتوه فما علم أنه قاله من ذلك في حال غمرته وذهاب ميزه
بالكلية فلا نظر فيه وما فعله منه في حال ميزه وإن لم يكن معه عقله وسقط
تكليفه أدب على ذلك لينزجر عنه كما يؤدب على قبائح الأفعال ويوالى أدبه على
ذلك حتى ينكف عنه كما تؤدب البهيمة على سوء الخلق حتى تراض وقد حرق علي
ابن أبي طالب من ادعى له الإلاهية. وقد قتل عبد الملك بن مروان الحارث المتنبي
وصلبه وفعل ذلك غير واحد من الخلفاء والملوك بأشباههم وأجمع علماء وقتهم على
صواب فعلهم والمخالف في ذلك من كفرهم كافر. وأجمع فقهاء بغداد أيام المقتدر من
المالكية وقاضي قضاتها أبو عمر المالكي على قتل الحلاج وصلبه لدعواه الإلاهية
والقول بالحلول وقوله أنا الحق مع تمسكه في الظاهر بالشريعة ولم يقبلوا توبته وكذلك
حكموا في ابن أبي العزاقر وكان على نحو مذهب الحلاج بعد هذا أيام الراضي وقاضي
قضاة بغداد يومئذ أبو الحسين بن أبي عمر المالكي. وقال ابن عبد الحكم في
المبسوط من تنبأ قتل. وقال أبو حنيفة وأصحابه من جحد أن الله خالقه أو ربه أو
قال ليس لي رب فهو مرتد. وقال ابن القاسم في كتاب ابن حبيب ومحمد والعتبية فيمن
تنبأ يستتاب أسره ذلك أو أعلنه وهو كالمرتد وقاله سحنون وغيره وقاله أشهب في
يهودي تنبأ وادعى أنه رسول إلينا إن كان معلنا بذلك استتيب فإن تاب وإلا قتل
وقال أبو محمد بن أبي زيد فيمن لعن بارئه وادعى أن لسانه زل وإنما أراد لعن الشيطان يقتل
بكفره ولا يقبل عذره وهذا على القول الآخر من أنه لا تقبل توبته. وقال أبو الحسن القابسي

في

في سكران قال أنا الله أنا الله إن تاب أدب وإن عاد إلى مثل قوله طولب مطالبة الزنديق
لأن هذا كفر المتلاعب **فصل** وأما من تكلم من سقط القول وسخف اللفظ ممن
لم يضبط كلامه وأهمل لسانه بما يقتضي الاستخفاف بعظمة ربه وجلالة مولاه أو تمثل في
بعض الأشياء ببعض ما عظم الله من ملكوته أو نزع من الكلام لمخلوق بما لا يليق إلا في
حق خالقه غير قاصد للكفر والاستخفاف ولا عامد للإلحاد فإن تكرر هذا منه وعرف
به دل على تلاعبه بدينه واستخفافه بحرمة ربه وجهله بعظيم عزته وكبريائه وهذا
كفر لا مرية فيه وكذلك إن كان ما أورده يوجب الاستخفاف والتنقص لربه
وقد أفتى ابن حبيب وأصبغ بن خليل من فقهاء قرطبة بقتل المعروف بابن أخي عجب وكان
خرج يوما فأخذه المطر فقال بدأ الخراز يرش جلوده وكان بعض الفقهاء بها أبو زيد
صاحب الثمانية وعبد الأعلى بن وهب وأبان بن عيسى قد توقفوا عن سفك دمه وأشاروا
إلى أنه عبث من القول يكفي فيه الأدب وأفتى بمثله القاضي حينئذ موسى بن زياد فقال
ابن حبيب دمه في عنقي أيشتم ربا عبدناه ثم لا ننتصر له إنا إذا لعبيد سوء
ما نحن له بعابدين وبكى ورفع المجلس إلى الأمير بها عبد الرحمن بن الحكم الأموي
وكانت عجب عمة هذا المطلوب من حظاياه وأعلم باختلاف الفقهاء فخرج الإذن من
عنده بالأخذ بقول ابن حبيب وصاحبه وأمر بقتله فقتل وصلب بحضرة الفقيهين
وعزل القاضي لتهمته بالمداهنة في هذه القصة ووبخ بقية الفقهاء وسبهم وأما من
صدرت عنه من ذلك الهنة الواحدة والفلتة الشاردة ما لم يكن تنقصا وإزراء فيعاقب
عليها ويؤدب بقدر مقتضاها وشنعة معناها وصورة حال قائلها وشرح سببها
ومقارنها وقد سئل ابن القاسم رحمه الله عن رجل نادى رجلا باسمه فأجابه لبيك
اللهم لبيك قال إن كان جاهلا أو قاله على وجه سفه فلا شيء عليه **قال القاضي**
أبو الفضل رضي الله عنه وشرح قوله أنه لا قتل عليه والجاهل يزجر ويعلم والسفيه
يؤدب ولو قالها على اعتقاد إنزاله منزلة ربه لكفر هذا مقتضى قوله وقد أسرف
كثير من سخفاء الشعراء ومتهميهم في هذا الباب واستخفوا عظيم هذه الحرمة فأتوا

يبين الله بما تيسر من كتابنا ولساننا وأقلامنا عن ذكره، ولولا أنا قصدنا نص مسائل حكيناها ما ألممنا بكثير مما ذكرنا شيئا مما يثقل ذكره علينا مما حكيناه في هذه الفصول، وأما ما ورد في هذا من أهل الجهالة وأغاليط اللسان كقول بعض الأعراب:

رب العباد ما لنا وما لكا　　قد كنت تسقينا فما بدا لكا　　انزل علينا الغيث لا أبا لكا

في أشباه لهذا من كلام الجهال ومن لم يقومه ثقاف تأديب الشريعة والعلم في هذا الباب فقلما يصدر إلا من جاهل يجب تعليمه وزجره والإغلاظ له عن العودة إلى مثله. قال أبو سليمان الخطابي: وهذا تهور من القول والله منزه عن هذه الأمور. وقد روينا عن عون بن عبد الله أنه قال: ليعظم أحدكم ربه أن يذكر اسمه في كل شيء حتى يقول أخزى الله الكلب وفعل به كذا وكذا. قال: وكان بعض من أدركنا من مشايخنا قل ما يذكر اسم الله تعالى إلا فيما يتصل بطاعته، وكان يقول للإنسان: جزيت خيرا، وقل ما يقول: جزاك الله خيرا، إعظاما لاسمه تعالى أن يمتهن في غير قربة. وحدثنا الثقة أن الإمام أبا بكر الشاشي كان يعيب على أهل الكلام كثرة خوضهم فيه تعالى وفي ذكر صفاته إجلالا لاسمه تعالى ويقول: هؤلاء يتمندلون بالله جل وعز. وينزل الكلام في هذا الباب تنزيله في باب ساب النبي عليه السلام على الوجوه التي فصلناها والله الموفق.

فصل وحكم من سب سائر أنبياء الله وملائكته أو استخف بهم أو كذبهم فيما أتوا به أو أنكرهم وجحدهم حكم نبينا عليه السلام على مساق ما قدمناه، قال الله تعالى: إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله الآية. وقال: قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم الآية إلى قوله لا نفرق بين أحد منهم. وقال: كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله. قال مالك في كتاب ابن حبيب ومحمد، وقاله ابن القاسم وابن الماجشون وابن عبد الحكم وأصبغ وسحنون فيمن شتم الأنبياء أو أحدا منهم أو تنقصه: قتل ولم يستتب، ومن سبهم من أهل الذمة قتل إلا أن يسلم. وروى سحنون عن ابن القاسم: من سب الأنبياء من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي به كفروا ضربت عنقه إلا أن يسلم، وقد تقدم الخلاف في هذا الأصل. وقال القاضي

بعقوبة سعيد بن سليمان في بعض أجوبته من سب الله تعالى أو ملائكته قتل وقال سحنون
من شتم ملكا من الملائكة فعليه القتل وفي النوادر عن مالك فيمن قال إن جبريل أخطأ
بالوحي وإنما كان النبي علي بن أبي طالب استتيب فإن تاب وإلا قتل ونحوه عن سحنون
وهذا قول الغرابية من الروافض سموا بذلك لقولهم كان النبي أشبه بعلي من الغراب بالغراب
وقال أبو حنيفة وأصحابه على أصلهم من كذب بأحد من الأنبياء أو تنقص أحدا منهم
أو برئ منه فهو مرتد وقال أبو الحسن القابسي في الذي قال لآخر كأنه وجه مالك
الغضبان لو عرف أنه قصد ذم الملك قتل **قال القاضي** أبو الفضل رضي الله عنه وهذا
كله فيمن تكلم فيهم بما قلناه على جملة الملائكة والنبيين أو على معين ممن حققنا
كونه من الملائكة والنبيين ممن نص الله عليه في كتابه أو حققنا علمه بالخبر المتواتر
والمشتهر المتفق عليه والإجماع القاطع كجبريل وميكائيل ومالك وخزنة الجنة
وجهنم والزبانية وحملة العرش المذكورين في القرآن من الملائكة ومن سمي فيه من الأنبياء
وكعزرائيل وإسرافيل ورضوان والحفظة ومنكر ونكير من الملائكة المتفق على
قبول الخبر بهم فأما من لم تثبت الأخبار بتعيينه ولا وقع الإجماع على كونه من
الملائكة والأنبياء كهاروت وماروت في الملائكة والخضر ولقمان وذي القرنين
ومريم وآسية وخالد بن سنان المذكور أنه نبي أهل الرس وزرادشت الذي يدعي
المجوس والمؤرخون نبوته فليس الحكم في سابهم والكافر بهم كالحكم فيمن قدمناه إذ
لم تثبت لهم تلك الحرمة ولكن يزجر من تنقصهم وآذاهم ويؤدب بقدر حال المقول
فيهم لا سيما من عرفت صديقيته وفضله منهم وإن لم تثبت نبوته وأما إنكار
نبوتهم أو كون الآخر من الملائكة فإن كان المتكلم في ذلك من أهل العلم فلا حرج
لاختلاف العلماء في ذلك وإن كان من عوام الناس زجر عن الخوض في مثل هذا فإن
عاد أدب إذ ليس لهم الكلام في مثل هذا وقد كره السلف الكلام في مثل هذا مما ليس
تحته عمل لأهل العلم فكيف للعامة **فصل** واعلم أن من استخف بالقرآن أو المصحف
أو بشيء منه أو سبهما أو جحده أو حرفا منه أو آية أو كذب به أو بشيء منه أو كذب بشيء

١٧٨

مما صرح به فيه من حكم أو خبر أو أثبت ما نفاه أو نفى ما أثبته على علم منه بذلك أو
شك في شيء من ذلك فهو كافر عند أهل العلم بإجماع قال الله تعالى وإنه لكتاب عزيز
إلى قوله حميد. حدثنا الفقيه أبو الوليد هشام بن أحمد رحمه الله حدثنا أبو علي حدثنا
ابن عبد البر حدثنا ابن عبد المؤمن حدثنا ابن داسة حدثنا أبو داود حدثنا أحمد
ابن حنبل حدثنا يزيد بن هرون حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال المراء في القرآن كفر تؤول بمعنى الشك وبمعنى الجدال. وعن
ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم من جحد آية من كتاب الله من المسلمين فقد
حل ضرب عنقه. وكذلك إن جحد التوراة والإنجيل وكتب الله المنزلة أو كفر
بها أو لعنها أو سبها أو استخف بها فهو كافر. وقد أجمع المسلمون أن القرآن
المتلو في جميع أقطار الأرض المكتوب في المصحف بأيدي المسلمين مما جمعه الدفتان
من أول الحمد لله رب العالمين إلى آخر قل أعوذ برب الناس أنه كلام الله ووحيه المنزل
على نبيه محمد عليه السلام وأن جميع ما فيه حق وأن من نقص منه حرفا قاصدا
لذلك أو بدله بحرف آخر مكانه أو زاد فيه حرفا مما لم يشتمل عليه المصحف الذي وقع
الإجماع عليه وأجمع على أنه ليس من القرآن عامدا لكل هذا أنه كافر. ولهذا رأى
مالك قتل من سب عائشة بالفرية لأنه خالف القرآن ومن خالف القرآن قتل لأنه كذب
بما فيه. وقال ابن القاسم من قال إن الله لم يكلم موسى تكليما يقتل وقاله عبد الرحمن
ابن مهدي. وقال محمد بن سحنون فيمن قال المعوذتان ليستا من كتاب الله يضرب عنقه
إلا أن يتوب وكذلك كل من كذب بحرف منه قال وكذلك إن شهد شاهد على
من قال إن الله لم يكلم موسى تكليما وشهد آخر عليه أنه قال إن الله لم يتخذ إبراهيم
خليلا لأنهما اجتمعا على أنه كذب النبي صلى الله عليه وسلم. وقال أبو عثمان الحداد
جميع من ينتحل التوحيد متفقون أن الجحد لحرف من التنزيل كفر. وكان أبو العالية
إذا قرأ رجل عنده لم يقل له ليس كما قرأ ويقول أما أنا فأقرأ كذا فبلغ ذلك إبراهيم
فقال أراه سمع أنه من كفر بحرف منه فقد كفر به كله. وقال عبد الله بن مسعود

من كفر بآية من القرآن فقد كفر به كله. وقال أصبغ بن الفرج من كذب ببعض القرآن
فقد كذب به كله ومن كذب به فقد كفر به ومن كفر به فقد كفر بالله. وقد سئل القابسي
عمن خاصم يهوديا فحلف له بالتوراة فقال الآخر لعن الله التوراة فشهد عليه بذلك شاهد
ثم شهد آخر أنه سأله عن القضية فقال إنما لعنت توراة اليهود فقال أبو الحسن الشاهد
الواحد لا يوجب القتل والثاني علق الأمر بصفة تحتمل التأويل إذ لعله لا يرى اليهود
متمسكين بشيء من عند الله لتبديلهم وتحريفهم ولو اتفق الشاهدان على لعن التوراة
مجردا لضاق التأويل. وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة ابن شنبوذ المقرئ أحد أئمة
المقرئين المتصدرين بها مع ابن مجاهد لقراءته وإقرائه بشواذ من الحروف مما ليس في
المصحف وعقدوا عليه بالرجوع عنه والتوبة منه سجلا أشهد فيه بذلك على نفسه
في مجلس الوزير أبي علي بن مقلة سنة ثلاث وعشرين وثلاث مائة. وكان فيمن أفتى
عليه بذلك أبو بكر الأبهري وغيره. وأفتى أبو محمد بن أبي زيد بالأدب فيمن قال لصبي
لعن الله معلمك وما علمك وقال أردت سوء الأدب ولم أرد القرآن. قال أبو محمد وأما
من لعن المصحف فإنه يقتل. **فصل** وسب آل بيته وأزواجه وأصحابه عليه السلام
وتنقصهم حرام ملعون فاعله. حدثنا القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله حدثنا أبو الحسين
الصيرفي وأبو الفضل العدل حدثنا أبو يعلى حدثنا أبو علي السنجي حدثنا ابن محبوب
حدثنا الترمذي حدثنا محمد بن يحيى حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا عبيدة بن أبي
رائطة عن عبد الرحمن بن زياد عن عبد الله بن مغفل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
الله الله في أصحابي الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم
ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله يوشك
أن يأخذه. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا أصحابي فمن سبهم فعليه
لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا. وقال عليه السلام
لا تسبوا أصحابي فإنه يجيء قوم في آخر الزمان يسبون أصحابي فلا تصلوا عليهم ولا
تصلوا معهم ولا تناكحوهم ولا تجالسوهم وإن مرضوا فلا تعودوهم. وعنه عليه السلام

١٧٩

من سب أصحابي فاضربوه، وقد أعلم النبي عليه السلام أن سبهم وأذاهم يؤذيه وأذى النبي
حرام فقال لا تؤذوني في أصحابي ومن آذاهم فقد آذاني وقال لا تؤذوني في عائشة وقال
في فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها ۞ وقد اختلف العلماء في هذا فمشهور مذهب
مالك في ذلك الاجتهاد والأدب الموجع قال مالك رحمه الله من شتم النبي قتل ومن شتم
أصحابه أدب ۞ وقال أيضا من شتم أحدا من أصحاب النبي عليه السلام أبا بكر أو عمر
أو عثمان أو معاوية أو عمرو بن العاص فإن قال كانوا على ضلال وكفر قتل وإن شتمهم
بغير هذا من مشاتمة الناس نكل نكالا شديدا ۞ وقال ابن حبيب من غلا من الشيعة إلى بغض
عثمان والبراءة منه أدب أدبا شديدا ومن زاد إلى بغض أبي بكر وعمر فالعقوبة عليه
أشد ويكرر ضربه ويطال سجنه حتى يموت ولا يبلغ به القتل إلا في سب النبي عليه
السلام ۞ وقال سحنون من كفر أحدا من أصحاب النبي عليا أو عثمان أو غيرهما يوجع ضربا
وحكى أبو محمد بن أبي زيد عن سحنون قال من قال في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي إنهم
كانوا على ضلالة وكفر قتل ومن شتم غيرهم من الصحابة بمثل هذا نكل النكال الشديد
وروي عن مالك من سب أبا بكر جلد ومن سب عائشة قتل قيل له لم فقال من رماها
فقد خالف القرآن ۞ وقال ابن شعبان عنه لأن الله يقول يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن
كنتم مؤمنين فمن عاد لمثله فقد كفر ۞ وحكى أبو الحسن الصقلي أن القاضي أبا بكر
ابن الطيب قال إن الله تعالى إذا ذكر في القرآن ما نسبه إليه المشركون سبح نفسه لنفسه
كقوله وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه في آي كثيرة ۞ وذكر تعالى ما نسبه المنافقون
إلى عائشة فقال ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك سبح نفسه في
تبرئتها من السوء كما سبح نفسه في تبرئته من السوء وهذا يشهد لقول مالك في قتل من
سب عائشة ومعنى هذا والله أعلم أن الله لما عظم سبها كما عظم سبه وكان سبها سبا
لنبيه وقرن سب نبيه وأذاه بأذاه تعالى وكان حكم مؤذيه تعالى القتل كان مؤذي نبيه
كذلك كما قدمناه ۞ وشتم رجل عائشة بالكوفة فقدم إلى موسى بن عيسى العباسي فقال
من حضر هذا فقال ابن أبي ليلى أنا فجلده ثمانين وحلق رأسه وأسلمه إلى الحجامين ۞ وروي

عن عمر بن الخطاب أنه نذر قطع لسان عبيد الله بن عمر إذ شتم المقداد بن الأسود فكلم في ذلك فقال دعوني أقطع لسانه حتى لا يشتم أحد بعد أصحاب محمد عليه السلام وروى أبو ذر الهروي أن عمر بن الخطاب أتي بأعرابي يهجو الأنصار فقال لولا أن له صحبة لكفيتكموه قال مالك ومن انتقص أحدا من أصحاب النبي عليه السلام فليس له في هذا الفيء حق قد قسم الله الفيء في ثلاثة أصناف فقال للفقراء المهاجرين الآية ثم قال والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم الآية وهؤلاء الأنصار ثم قال والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان الآية فمن تنقصهم فلا حق له في فيء المسلمين وفي كتاب ابن شعبان من قال في واحد منهم إنه ابن زانية وأمه مسلمة حد عند بعض أصحابنا حدين حدا له وحدا لأمه ولا أجعله كقاذف الجماعة في كلمة لفضل هذا على غيره ولقوله عليه السلام من سب أصحابي فاجلدوه قال ومن قذف أم أحدهم وهي كافرة حد حد الفرية لأنه سب له فإن كان أحد من ولد هذا الصحابي حيا قام بما يجب له وإلا فمن قام به من المسلمين كان على الإمام قبول قيامه قال وليس هذا كحقوق غير الصحابة لحرمة هؤلاء بنبيهم ولو سمعه الإمام وأشهد عليه كان ولي القيام به قال ومن سب غير عائشة من أزواج النبي ففيها قولان أحدهما يقتل لأنه سب النبي بسب حليلته والآخر أنها كسائر الصحابة يجلد حد المفتري قال وبالأول أقول وروى أبو مصعب عن مالك من سب من انتسب إلى بيت النبي يضرب ضربا وجيعا ويشهر ويحبس طويلا حتى تظهر توبته لأنه استخفاف بحق الرسول وأفتى أبو المطرف الشعبي فقيه مالقة في رجل أنكر تحليف امرأته بالليل وقال لو كانت بنت أبي بكر الصديق ما حلفت إلا بالنهار وصوب قوله بعض المتسمين بالفقه فقال أبو المطرف ذكر هذا لابنة أبي بكر الصديق في مثل هذا يوجب عليه الضرب الشديد والسجن الطويل والفقيه الذي صوب قوله هو أخص باسم الفسق من اسم الفقه فيتقدم إليه في ذلك ويزجر ولا تقبل فتواه ولا شهادته وهي جرحة ثابتة فيه ويبغض في الله وقال أبو عمران في رجل قال لو شهد علي أبو بكر الصديق إنه إن كان في مثل ما لا يجوز فيه الشاهد الواحد فلا شيء عليه وإن كان أراد غيره

من أبيض، ضربنا يبلغ بجر الثوب وذكرونا روايه **قال القاضي** أبو الفضل رضي الله عنه هنا انتهى القول بنا فيما حررناه، وانتجز الغرض الذي انتحيناه، واستوفي الشرط الذي شرطناه، مما أرجو أن في كل قسم منه للمريد مقنع، وفي كل باب منهج إلى بغيته ومنزع، وقد سفرت فيه عن نكت تستغرب وتستبدع، وكرعت في مشارب من التحقيق لم يورد لها في أكثر التصانيف مشرع، وأودعته غير ما فصل وددت لو وجدت من بسط قبلي الكلام فيه أو مقتدى يفيدنيه عن كتابه أو فيه لأكتفي بما أرويه عما أرويه، وإلى الله تعالى جزيل الضراعة في المنة بقبول ما منه لوجهه، والعفو عما تخلله من تزين وتصنع لغيره، وأن يهب لنا ذلك بجميل كرمه وعفوه، لما أودعناه من شرف مصطفاه، وأمين وحيه، وأسهرنا به جفوننا لتتبع فضائله، وأعملنا فيه خواطرنا من إبراز خصائصه ووسائله، ويحمي أعراضنا عن ناره الموقدة لحمايتنا كريم عرضه، ويجعلنا ممن لا يذاد إذا ذيد المبدل عن حوضه، ويجعله لنا ولمن تهمم باكتتابه واكتسابه سببا يصلنا بأسبابه، وذخيرة نجدها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا نحوز بها رضاه وجزيل ثوابه، ويخصنا بخصيصى زمرة نبينا وجماعته، ويحشرنا في الرعيل الأول وأهل الباب الأيمن من أهل شفاعته، ونحمده تعالى على ما هدى إليه من جمعه وألهم، وفتح البصيرة لدرك حقائق ما أودعناه وفهم، ونستعيذه جل اسمه من دعاء لا يسمع، وعلم لا ينفع، وعمل لا يرفع، فهو الجواد الذي لا يخيب من أمله، ولا ينتصر من خذله، ولا يرد دعوة القاصدين، ولا يصلح عمل المفسدين، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلوا الله على محمد خاتم النبيين وآله وصحبه وسلم

كمل السفر الثاني من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى وبتمامه تم الكتاب بأسره والحمد لله والصلاة على محمد نبيه وعبده، نسخه عبيد الله محمد بن أحمد الشريشي ثم البلخيكي واجيابن اللاس لله عز وجل الخير في الدنيا والآخرة له ولوالديه ولجميع المسلمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم كثيرا وكان الفراغ من نسخه عشي يوم السبت التاسع والعشرين لشهر صفر عام سنة ...

تكون — تستغرب — قبلي — بتسهيل — باكتسابه — ينتصر — جنتي

181

[illegible] بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي
[illegible] وعمرون سكن مدينة فاس [illegible] ووقع لابن الابار [illegible] بن [illegible] مولاي اسلفه
[illegible] ومضيته [illegible] بنزاه [illegible] السبع [illegible]
[illegible] الحديث [illegible] وجعلت اسما الرجال ونقبه
معرفته
من علم [illegible] واثنى عليه [illegible] العلما واعز [illegible] اكثر اوصفه المسلمين
وعبروان [illegible] من الشيوخ [illegible] عنه روى عنه
[illegible] عنها وعبد [illegible] ولده [illegible]
بنا [illegible] وكانت [illegible] الجمعة [illegible]
[illegible] وخمسمائة [illegible] رحمه الله عليه بباب [illegible] المدينة وكان مولده
في النصف من شهر شعبان [illegible] ست وسبعين واربعمائة
ومن [illegible] [illegible] الشعار [illegible] عليه القاضي ابو بكر ابن العربي [illegible]
[illegible] ابو الفضل [illegible] ابو عمرو [illegible]

ظلموا عياضا وهو يحلم عنهم والظلم بين العالمين قديم
جعلوا مكان الراء عينا في اسمه كي يكتموه وانه معلوم
لولاه ما فاحت اباطح سبتة والروض حول فنائها معدوم

[illegible] ابو عبد الله بن رشيد
[illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] وضبطه ومنها
ومن تواليفه ايضا رحمة الله عليه كتاب مشارق الانوار [illegible] وبراعته وضبطه ومنها
الاكمال [illegible] المازري في شرح [illegible] مسلم وهو [illegible] جليل من احسن [illegible] مسلم ومن اجل
ما [illegible] [illegible] [illegible] التنبيهات [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] المسائل [illegible]
[illegible] [illegible] رحمه الله [illegible] من كتاب الشفا
[illegible]

تكون
تستغرب
قبل
بانتسابه
جنبي

[illegible]

الجليل القاضي [illegible] الكامل [illegible] أبي جعفر [illegible] نقلته من [illegible]

ونقلت أيضا من خط شيخنا الفقيه الخطيب القاضي [illegible] أبي [illegible]

القاضي [illegible] أبي [illegible] الفقيه [illegible] الأستاذ أبي علي [illegible] الله [illegible] نقلته من خط

أبي [illegible] من [illegible] من الكتاب الموسوم بالشفاء [illegible] الشيخ أبو عبد الله [illegible]

[illegible] النبي صلى الله عليه وسلم [illegible] القرآن [illegible] الشيخ [illegible] رضي الله عنه

[illegible] من الكتاب الموسوم بالشفاء [illegible] أبو عبد الله [illegible]

رضي الله عنه [illegible] على [illegible]

[illegible] الشفاء [illegible] الكتاب [illegible] عليه [illegible] القرآن [illegible]

[illegible] أبا عبد الله [illegible]

رضي الله عنه [illegible] النبي صلى الله عليه وسلم [illegible]

[illegible] عليه [illegible] سلم على [illegible] نفعنا الله به [illegible]

تم كتاب الشـ[illegible] بالجامع [illegible] الاول [illegible] مرزوق التيجاني

[illegible] ابو الحسن محمد البكري [illegible] [illegible] المجود

وكان ذلك [illegible] العزيز [illegible] [illegible]

٦٢